

مهرجان القراءة للجميع مكتبة الأسرة



موسوعة

ورصفه فصل

المصريون المحدثون

تأليف: علماء الحملة الفرنسية

ترجمة: زهير الشايب



الجزء الأول



وصف مصر

المصريون الحديثون

اسم العمل الفنى: جامع الفورى وسوق الفورية

التقنية: رسم بالحبر الأسود

المقاس: ٧٠ x ٥٠ سم

حظيت الأمة المصرية بعناية خاصة فى تسجيل الملامح والأحوال والمعدات والتقاليد، فقد سجل علماء الحملة الفرنسية أدق تفاصيل الحياة بفنون (وصف مصر)، خلبهم سحر الشرق مكاناً وتاريخاً، فوقفوا على منابع السحر، ورصدوا إبداعات الطبيعة وجاذبيتها.

سجل الفرنسيون شتى العناصر فى المعمار والزراعة ونظام الرى والطبقات والعلاقات والأزياء والمعاملات والنقود والموازين والاحتفالات الدينية والشعبية،.. إلخ.. تسجيل لإيقاع الحياة فى كل جوانبه ومناحيه ومستوياته المختلفة.

ظلت قوة الوصف والدقة الفريدة ورصد أنماط سلوك المصريين على مدار الزمن، مما جعل من تلك الموسوعة أتم صورة لحياة الشعب المصرى من خلال ذلك الولوج الرومانسى بالشرق. فنحن أمام أضخم وأشمل موسوعة وثائقية صدرت عن بلد ما.

محمود الهندى

وصف مصر

المصريون المحدثون

الجزء الأول

تأليف: علماء الحملة الفرنسية

ترجمة: زهير الشايب



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٢ مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك
موسوعة وصف مصر

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

وصف مصر

المصريون المحدثون

تأليف : علماء الحملة الفرنسية

ترجمة : زهير الشايب

الغلاف

والإشراف الفني :

الفنان : محمود الهندي

الإخراج الفني والتنفيذ :

صبرى عبدالواحد

المشرف العام :

د. سمير سرحان

على سبيل التقديم :

نعم استطاعت مكتبة الأسرة بإصداراتها عبر الأعوام الماضية أن تسد فراغا كان رهيباً فى المكتبة العربية وأن تزيد رقعة القراءة والقراء، بل حظيت بالتفاف وتلف جماهيرى على إصداراتها غير مسبوق على مستوى النشر فى العالم العربى أجمع، بل أعادت إلى الشارع الثقافى أسماء رواد فى مجالات الإبداع والمعرفة كادت أن تنسى وأطلعت شباب مصر على إبداعات عصر التنوير وما تلاه من روائع الإبداع والفكر والمعرفة الإنسانية المصرية والعربية على وجه الخصوص. ها هى تواصل إصداراتها للعام التاسع على التوالى فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية بالنشر الموسوعى بعد أن حققت فى العامين الماضيين إقبالاً جماهيرياً رائعاً على الموسوعات التى أصدرتها. وتواصل إصدارها هذا العام إلى جانب الإصدارات الإبداعية والفكرية والدينية وغيرها من السلاسل المعروفة وحتى إبداعات شباب الأقاليم وجدت لها مكاناً هذا العام فى «مكتبة الأسرة».. سوف يذكر شباب هذا الجيل هذا الفضل لصاحبته وراعيته السيدة العظيمة/ سوزان مبارك..

د. سمير صرحان

الكتاب الاول

دراسة في عادات وتقاليده
سكان مضطر المحرثين

تأليف
ج. دي شابرول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

على الرغم من أن وراء هذه المبادرة لترجمة « كتاب وصف مصر » — ككل مبادرة فردية — دوافعها وأسبابها وظروفها الخاصة ، إلا أنها ينبغي أن توضع ضمن إطار أوسع وأشمل من تلك الدوافع والأسباب الخاصة لتربط بذلك الاهتمام الكبير الذي بدأ المفكرون المصريون بولونه لتاريخهم الحديث والمعاصر بعد صدمة يونية ١٩٦٧ .

منذ تلك الصدمة الهائلة ، بدأت الكتب — مؤلفة ومترجمة — تصدر تباعا تتحدث عن تاريخ مصر ودور مصر .. وهكذا لم يمد التاريخ — وتاريخ مصر بالذات — مجرد دراسات أكاديمية لا يتولاها إلا المختصون ، وإنما أصبح ثقافة أصيلة لكل مثقف وطني تشغله أمور بلاده .

ومنذ ذلك الوقت بدأ بتشكيل ذلك الإطار التقامى الواسع الذى أشير إليه . ويسعدنى أن أضع اليوم فى داخل هذا الإطار كتابنا هذا الذى يشكل دراسة كاملة من ذلك السفر الضخم ، الذى لا يفوق شهرته الا طول اهمالنا له : كتاب « وصف مصر » او مجموعة الملاحظات والابحاث التى أجريت فى مصر أثناء حملة الجيش الفرنسى ، وهذا هو عنوان ذلك السفر الضخم كاملا .

وقد طبع هذا السفر الذى اسمى بحق انسكلوبيديا مصرية مرتين :

الاولى : وقد استغرق العمل فيها من ١٨٠٩ الى ١٨٢٢ .

وقد ظهر المجلد الاول منها عام ١٨٠٩ . وكتب على غلافه وكذلك على غلاف المجلد الثانى انه قد طبع بأمر صاحب الجلالة الامبراطور نابليون الاكبر . لكن بقية المجلدات التسعة قد ظهرت بعد سقوط نابليون ، لذا كتب على غلافها بأنها قد طبعت بأمر من الحكومة .

أما هذه المجلدات التسعة فموزعة على النحو الآتي :

مجلدان : لدراسة التاريخ الطبيعي لمصر ويشتملان على دراسات عن طيور ونبات وحيوانات وأسماك وحشرات مصر .

أربعة مجلدات : لدراسة العصور القديمة ، اثنان منها للدراسات ، واثنان آخران لوصف آثار العصور القديمة .

ثلاثة مجلدات : لدراسة الدولة الحديثة أو الحالة الحديثة لمصر التي تبدأ تقريبا منذ الفتح الإسلامى حتى مجيء الحملة الفرنسية لكنها عمليا تعالج أحوال مصر فى العصر العثمانى وحتى مجيء هذه الحملة .

وتشتمل هذه المجلدات على دراسات عن مختلف نواحي الحياة فى مصر كما شاهدها علماء الحملة ومهندسوها . وبعض هذه الدراسات طويلة ، بحيث يمكن نشرها مستقلة فى كتاب ، شأن الدراسة التى ننشرها اليوم ، وبعضها متوسط الطول ، وبعضها مجرد ملاحظات لا تستغرق أربع أو خمس صفحات .

ولقد ركزت عملى على مجلدات الدولة الحديثة الثلاثة ، وانبعث بشأن الدراسات والذكرات القصيرة منهج تجميعها بشكل متكامل الى بعضها البعض : فقد جمعت على سبيل المثال تلك الدراسات المتناثرة فى المجلدات الثلاثة عن أحوال العربان والجماعات والرحل فى مصر الى بعضها البعض لتشكّل فى مجموعها كتابا كاملا أرجو أن أتمكن من نشره تريبا ... وهكذا الحال فى دراسات أخرى تتناول موضوعات مختلفة .

أما الطبعة الثانية فقد صدرت فى ٢٦ مجلدا بالإضافة الى ١١ مجلدا للوحات وأطلس جغرافى . وهى نفس المجلدات التى صدرت مع الطبعة الأولى وبيانها كما يلى : ٥ مجلدات للوحات العصور القديمة ، ومجلدان فى ثلاثة أجزاء للتاريخ الطبيعى ، ومجلدان للحالة الحديثة لمصر بالإضافة الى مجلد واحد يشتمل على مقدمة لفورييه مع شرح للوحات ، ثم الأطلس الجغرافى ويشتمل على خرائط مفصلة لمدن وأقاليم مصر .

وجدير بالذكر أن محتويات المجادات الـ ٢٦ هى نفسها محتويات

المجلدات الـ ٩ فى الطبعة الاولى فالطبعة الثانية كما هو واضح قد وزعت على مجلدات اصغر حجما من الاولى . والاختلافات بين الطبعتين طفيفة يمكن اجمالها فيما يلى :

١ - كانت الطبعة الاولى مهداة الى « الامبراطور نابليون » اما الثانية فهي مقدمة الى « صاحب الجلالة الملك » .

٢ - بدأت الطبعة الاولى بمجلدات الدولة الحديثة الثلاثة اما الطبعة الثانية فبدأت بوصف آثار العصور القديمة .

٣ - تشتمل الطبعة الثانية على مقدمة تقع فى حوالى ١٨٠ صفحة من حجم هذه الطبعة من وضع فوربيه ، وتجد هذه المقدمة نفسها فى المجلد الاول من اللوحات .

٤ - تشتمل الطبعة الثانية على دراسة لم ترد فى الطبعة الاولى وتتناول هذه الدراسة جامع احمد بن طولون وحياة منشئه .

وقد بدأ العمل فى هذه الطبعة من عام ١٨٢١ وانتهى فى عام ١٨٢٩ .

* * *

والكتاب الذى بين يدينا اليوم هو دراسة كاملة من دراسات المجلد الثانى من مجلدات الدول الحديثة الثلاثة .

ومؤلف هذه الدراسة هو : جليبر جوزيف جاسبار كونت دى شابربول
Gilbert Geoseph Gaspard Comte de Cohabrol

Chabrol de Voivic

ويشار اليه باسم شابربول دى فولفيك

وقد ولد فى ريوم Riom سنة ١٧٧٣ ومات ١٨٤٣ (وهذا يعنى انه عندما قدم الى مصر كان يبلغ الخامسة والعشرين من العمر) وكان مهندسا للطرق والكبارى ، وعين بعد عودته من مصر مأمورا لمدينة مونتنيوت Montenotte سنة ١٨٠٦ وانشأ بها طريق الكورنيش وفى عام ١٨١٢ تآبله نابليون بشكل عابر وكان شابربول يقضى اجازته فى باريس ، ودار بينهما حديث فاعجب به نابليون وعينه مأمورا للسفن فاذا ر باريس كما ينبغى ان تدار مدينة كبرى وعاصمة لامبراطورية كبرى . وقد نجح فى ذلك

نجاحا كبيرا حتى ان لويس الثامن عشر قد اضطر لاستبقائه فى وظيفته
الحساسة ، على الرغم من انه قد عين من قبل نابليون .

وتدين له باريس بكثير من الاعمال الرائعة ذات النفع العام .

ولعل هذا التعريف الموجز بمؤلف هذه الدراسة سيكون سببا تويا
لامرئ :

الأول : ما سوف نبديه من اعجاب حق بقدرة هذا المؤلف الشاب
على الرصد والتأمل والفهم والاحاطة فى مجال أبسط ما يقال فيه انه
ليس مجال تخصصه .

الثانى : التماس العذر له فى بعض الأمور التى التبس عليه فهمها ،
بل وفى بعض الأخطاء التى وقع فيها ، وبخاصة فى مجال المعتقدات
والشرائع ، ولقد آثرت هنا أن أقدم ترجمة كاملة أمينة نصاً وروحاً لكل
ما ذكره المؤلف خاصة بنا وبمعتقداتنا ، وسوف يلاحظ القارئ اننى قد آثرت
عدم التدخل الا فى أضيق نطاق ممكن لاعتبارات عديدة لا بأس من طرح
بعضها :

- ١ — اتنا هنا بصدد اثر علمى هام ينبغى ان يحظى بالاحترام .
- ٢ — انه ليس كل ما يقال عنا صحيحا على اطلاقه ، وان كان ينبغى
علينا فى كل الاحوال الا نخشى اية فكرة صحيحة .
- ٣ — انه قد آن الأوان لنواجه بشجاعة ما يقال عنا ، فتجاهل ذلك
او الصمت عنه ليس هو الوسيلة المثلى ، فذلك الموقف لن يعنى الا تسليمنا
ولو بشكل سالب بصحته ، ومعرفة ما يقال عنا هى أفضل وسيلة لمواجهة
بل ودحضه .
- ٤ — ان الاتوباء لا يخافون معرفة ما يقال بشأنهم ، ولا اظن أحدا
يجادل فى قوة عقيدتنا .

واننى فيما فعلت انما كنت أصدر عن تقديس كبير للاسلام ولنبيه
الكريم ، كما اننى واثق اننى فيما التزمت به من أمانة فى النقل كنت اقرب

ما يكون الى روح الاسلام الذى ينهض اول ما ينهض على الانتساع العقلى
والذى كانت اول آية فى كتابه الكريم تدعو الى القراءة والفهم والسدى
لا يستوى - بنص آياته - الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

بل ان المؤلف لم يكن دقيقا كذلك فى حديثه عن بعض الطقوس
المسيحية ، وقد آثرت ان اترك كل شيء على حاله : ذلك انه لا القارىء
المسلم ولا القارىء المسيحى سوف يلجآن لكتاب وصف مصر لدراسة
الشرائع والعبادات . فلهذه وتلك ، عند هذا وذاك ، المصدر الذى يعرفانه
جيّدا ..

وبرغم كل شيء فان واجب الامانة يقتضى ان اعترف بما يأتى :

١ - اننى قد حذف من الجزء الخاص بالاقباط نصف جملة وجدت
ان اللياقة تقتضى حذفها .

٢ - اننى حذف هامشا كاملا اثار عند نشره بمجلة الثقافة ردود
فصل لم اكن اتوقعها ، ولا يتجاوز هذا الهامش اربعة سطور .

٣ - اننى حذف آخر عبارة فى الكتاب (حوالى سطر ونصف) اذ
وجدت من الافضل الا تترك هذه الجملة طعنا مريرا فى خلق القارىء بعد
صحبة ممتعة مع مؤلف حاول جهده ان ينصفنا طيلة مؤلفه .

واننى اذ استميتح القراء عذرا فيما فعلت اود ان يشاركنى الجميع
مفهما يقفون اثناء القراءة على بعض اخطاء المؤلف ، وخطئه فى احيان
كثيرة بين بعض الطقوس الضخيلة بل وبعض الممارسات الشاذة ، والعقائد
والعبادات بشكلها الأتقى . اود أن يشاركوني فى التماس العذر للرجل ، وأن
نحاول بروح الاتصاف المعهودة فينا ان نحسب له محاولة فهمنا وانصافنا ،
اكثر مما نحسب عليه ما وقع فيه من اخطاء او سوء فهم او تسرع فى
الحكم ، ذلك ان عديدا من احكامه بدت فى شكل افكار مسبقة لا تنهض
على اساس حقيقى ، كما لا ينبغي لنا ان نتناسى كونه عضوا فى حملة
غازية ، وانه يخالف لنا فى عقائده ، بل وان كثيرا من فكره انما هو تريد
لأفكار كانت شائعة فى القرن التاسع عشر تربى هو ، كأوروبى -
وبرنسى بالذات - فى كتبها .

ويدفعنى الواجب فى النهاية أن اقدم خالص تقديرى وشكرى لشيخ المؤرخين الدكتور أحمد عزت عبد الكريم الذى كان لتشجيعه أكبر الأثر فى دفعى للتصدى لهذا العمل الكبير ، كما أوجه خالص تحياتى ومرفأتى للاستاذ رفيفه خورى مدرس اللغة الفرنسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية والمشراف على مكتبة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية . وهو عالم فاضل وباحث مدقق ولا يفوق علمه التقدير الا ابيه الجم فقد كان له فضل كبير على انجاز هذا العمل ، وفى نفس الوقت فانى اشكر أخى الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن استاذ التاريخ الحديث بكلية البنات الاسلامية ، لما قدمه لى من عون ، كما لا بد أن اشير الى أن مؤلفه الهام « الريف المصرى فى القرن الثامن عشر » كان معينا لى على تحقيق كثير من المسلمات وابضاح كثير من المعلومات .

ولن يفوتنى أن أوجه شكرى للاخ الدكتور عبد العزيز دسوقى رئيس تحرير مجلة الثقافة وكذلك الأديب الفنان الاستاذ ثروت أباطة رئيس تحرير مجلة الاذاعة والتلفزيون لما قاما به نحوى من تشجيع حين افردا صفحات مجلتيهما لنشر أجزاء كبيرة من وصف مصر مما احيا الاهتمام بالكتاب فى وقت كاد الكتاب أن يصبح فيه نسيا منسيا .

كما انى حين اقدم شكرى للسيدة زوجتى فائنى لا انعمل ذلك من قبيل اللياقة وانما هو عرفان حقيقى بما قدمته لى من عون كبير برغم ظروفها الصعبة كاخوائية اجتماعية وربة بيت وام . كما لا بد أن أوجه شكرى لعشرات من الاصدقاء اولونى قدرا كبيرا من التشجيع مما كان له فى نفسى اثر جميل .

وفى النهاية استمبح القارىء عذرا أن وجد بالعمل بعض الثغرات وانه لو اجدها - وليكن حسبى من هذا العمل أن اتجو فقط من اللوم وأن اكون قد قدمت على قدر طاقتى خدمة لوطنى، مصر ، ولواطنى المصريين .

زهى الشليب

فبراير ١٩٧٦

الفصل الأول

لمحة عامة عن الطقس وعبر السكّان

وعن تقاليد وعادات المصيرين

١

عن الطقس

كانت الآثار المادية لمصر القديمة موضوعا لدراسات عدة وجدت لنفسها مكانا فى اجزاء اخرى من هذا الكتاب(*) ، وقد آلينا على انفسنا هنا ان نقدم لوحة مختصرة لتقاليد سكان مصر الحديثة . وسوف تحملنا ما تد نجده من ملامح التشابه مع المعاديات القديمة على القيم ببعض المقلرنات، وذلك امر يستحق منا بالفعل اهتماما كبيرا خاصة ونحن بصدد الحديث عن بلد تمتلئ مخييلته بالذكريات ، ويخطو فيها الفيلسوف فى اثر المؤرخ ، لذلك نلغه من المناسب ان ندرس الاسباب المختلفة التى تؤثر على الطقس ونعمل هذا الطقس على الكائنات الحية : وهكذا سوف يكون البشر موضوعا لدراستنا فى نفس الوقت الذى تشكل فيه آثار الماضى القديم موضوعا لأبحاث عميقة لطباء الآثار .

تقع مصر فى واحد من أكثر المواقع اهمية فى الكرة الأرضية . وحيث أنها تقع على أحد طرفى إفريقيا فهى تربط هذه القارة بآسيا ، كما ان مواسمها الواقعة على البحر المتوسط تجعلها — ويشكل ما — تلامس أوروبا . وهى تقع بين خط العرض ١ : ٥٢٤ وبين خط العرض ٣٧ : ٥٣١ شمال خط الاستواء ، أما عن خطوط الطول فهى تقع بين خطى ٢٧ و ٥٣٢ — وذلك الى الشرق من باريس .

ويكفى هذا الموقع فى حد ذاته لى نضع مصر ضمن المناطق شديدة الحرارة ، لولا ان ثمة بعض عوامل تساعد على التقليل من ارتفاع درجة الحرارة . فترمومتر ريو مور يقف بدرجة الحرارة فى منزل مصر السفلى الرطبة ، وفى شهرى يولية واغسطس عند درجة ٥٢٤ او ٥٢٥ ، بينما تصل فى شمال الصعيد فى الظل ، الى ٥٣٤ ، لكنها ترتفع فى المناطق

الرملية لتصل الى ٥٥٤ (١) . ولا يحدث ذلك بسبب القرب من المنطقة الاستوائية فقط كما لاحظ فولنى Volney — وهى منطقة لا بد ان نتوقع ان جوها شديد الحرارة — بل وايضا بسبب التربة نفسها . وهى فى العادة ترتفع قليلا فوق مستوى سطح البحر ، ومغطاة فى جزء منها برمال متحركة . وهذه الرمال تمتص وتركز أشعة الشمس — وهى تكون شبه عمودية فى فصل الصيف — ثم تعكسها ، لتسقط من فوق جبال قليلة الارتفاع ، عازية من اية خضرة على سهول قاحلة ليس فيها ما يمكنه ان يحد من لهيبها ، فى منطقة قريبة من المنطقة الحارة . من هنا ، هذا الجفاف الشديد ، وتلك الندرة فى الأمطار التى يمكنها ان تطفئ الجو .

وبرغم ذلك ، فهذا الجفاف لا يشمل بدرجة متساوية كل انحاء مصر ، فالمطر يسقط كثيرا فى الاقاليم المجاورة للبحر المتوسط وكذا فى الصحراوات الواقعة بين وادى النيل والبحر الأحمر ، وتشهد بعض الأخوار المحصورة فى اماكن عدة من الهضبة الافريقية بأن هذه الأمطار تكون فى بعض الأحيان بالغة القوة لحد تصبح معه سيولا . لكن ثمة امرا يعد واحدا من الملامح المميزة للطقس فى مصر . وهو كذك عام فى كل المنطقة ، الا وهو تكون الندى بوفرة شديدة ، ولعل له بعض التأثير على خصوبة التربة وبخاصة فى الفترة التى يكون فيها مستوى النيل أدنى من مستوى الأرض . ومن أولى خصائص هذا الندى ترطيب وتنقية الهواء والمساهمة فى خفض درجة الحرارة مما يؤدي فى أيام القيظ الى وجود فروق هائلة بين درجة الحرارة بالنهار ودرجتها بالليل ، يمكن ان تبلغ ٥٣ درجة ، ويستمر ذلك لمدة سبع أو ثمانى ساعات ، وهذا بعض ما يسبب كثرة انتشار امراض العيون على ضفاف النيل كما سنوضح ذلك فى نهاية هذا الفصل . وتكاد الأمطار لا تسقط مطلقا فى المنطقة الوسطى من مصر . وتشكل مياه الفيضان ، وكذلك الندى الذى يتكون فى الليل والذى تتباين وفرته تبعا لاتجاه هبوب الرياح العوامل المخصبة الوحيدة للأرض . ويعود جفاف الجو الشديد الى حرارة التربة الملتبهة والى اتجاه الرياح الذى يتحكم فيه شكل الوادى ، وتتكون السحب بفعل ابخرة البحار التى تحد مصر من الشمال ومن الشرق . وتدفعها تيارات الهواء ، وهى تيارات قوية لكنها ما أن

تقترب من الجبال التى تحصر وادى النيل من الشرق ومن الغرب حتى يصبح اثرها اقل قوة ، لذا يسقط هناك المطر فى بعض الاحيان .

نزل الجيش الفرنسى ارض مصر فى وقت الغيظ الشديد ، وهى فترة تسود فيها على الدوام تقريبا رياح الشمال والشمال الغربى ويبدأ فيها النيل فى استقبال موجات الفيضان الاولى . لقد جاء الجيش فى شهر ولية حيث كانت الرياح التى تندفع بشدة تظلم الجو بدوامات من الرمل الناعم الدقيق ، ويستطيع سكان المدن بالكاد ان يحتضوا من هذه الدوامات داخل بيوتهم . وفى هذا الجو تصبح الأسفل شاقة وشبه مستحيلة ، لكن هذه الدوامات تقلل من وطأة الحر الذى يقل الاحساس به لدرجة كبيرة فى الاسكندرية عنه فى داخل البلاد — كما ان هذه الدوامات تعمل على طرد السحب المتراكمة نحو النوبة والحبشة ، تلك السحب التى تصب امطارها نجاة فى المناطق الجبلية والمغطاة بالغابات . وهكذا فان هذه الرياح العاصفة غير المستحبة تساهم على نحو ما لى ازدهار مصر حيث تجعل الفيضانات اكثر وفرة .

ويبدأ النيل فى الامتلاء فى نحو نهاية شهر يونية وبداية يولية ، ولا يخضع حجم مياه الفيضان لقواعد محددة . وفى السنوات العادية يصل ارتفاع النيل فى القاهرة الى ٨ امتار (١٤ — ١٥ ذراعاً حسب مقياس جزيرة الروضة) ويصل احيانا لاكثر من ذلك ، ولكى يكون الفيضان وفيرا ينبغى ان يصل ارتفاع النيل الى ١٦ — ١٧ ذراعاً ، عندئذ يبدو وادى مصر — اى اراضيها المزروعة — فى شكل بحيرة واسعة ، وتبدو القرى القائمة على تلال صناعية كما لو كانت جزراً صغيرة مقفلة فوق سطح محيط ، وليس ثمة ما هو أروع من هذا المشهد . وعليك حتى تحظى بالاستمتاع به على نحو طيب أن تصعد الى قمة الهرم الاكبر فى الجيزة كما يمكنك ان تحيط بجزء من هذه اللوحة الرائعة من اعلى القلعة فى القاهرة . ولا تستطيع الاراضى المزروعة والتى تقع على مسافة بعيدة من شواطئ النهر ان تتمتع بنوائد الفيضان ، لكنها تحصل على ما يروبوها عن طريق الترعى او بواسطة ماكينات بسيطة الصنع (السواقي) .

وثمة خاصية أخرى نجدها فى تربة مصر ، هى اختلاطها بمواد مالحة تطغى كل صباح على سطحها ، وبلا جدال فان هذا الملح الذى يوجد بوفرة فى كل مكان يساهم فى تنشيط العامل المخصب لطمى النيل .

ونصل الأمطار فى مصر هو الشتاء ، وهى تهطل بكثرة فى الاسكندرية ورشيد وعلى كل الشاطئ لكنا لا تستمر طويلا ، ويشاهد عند المقطم الملل على القاهرة أغوار وحفرات لا بد انها كانت مجارى لسيول قديمة .

٢

عن السكان ، وطبقتهم المختلفة

كان تقدير تعداد سكان مصر على الدوام عرضة لأخطاء خطيرة ، وقد وقع اغلب المؤرخين المحدثين والقدامى فى مبالغات كبيرة يمكن لاي توصيف بسيط للممكن ان يحضها . والى جانب الخسومات التى قدمتها الحملة الفرنسية للعلوم والفنون والآثار فى مصر ، فانها قد حثت كذلك على استخدام الاحصاء فى الأبحاث والدراسات التى تتخذ موضوعا لها أحد الأمور الهامة ، وهكذا امكن التوصل ليس فقط الى تحديد مساحة الاراضى المنزرعة والقابلة للزراعة بطريقة اقرب الى الموضوعية ، بل وكذلك الى عدد القرى والكفور التى تغطى وادى النيل ، كما امكن بالمثل تقدير تعداد السكان فى مصر وكذا تعداد سكان مدنها الهامة . وبخلاف ما جمعه اثناء وجودى فى مصر من معلومات فقد استعرت هنا بعض التفاصيل من الدراسة التى كتبها جومار Jomard عن تعداد السكان فى مصر الحديثة مقارنا بتعداد السكان فى مصر القديمة . وحيث أن جومار قد اقام حساباته على معطيات أكثر دقة عن تلك التى جُمعت حتى الآن ، وحيث انه ابان عدد الموتى ، وخصوبة السيدات ومقدار الضرائب واستهلاك الحبوب بالاضافة الى أمور أخرى هامة ذات طابع اقتصادى وسياسى ، فانه قد توصل بذلك الى نتائج نعتبرها قريبة من الحقيقة .

وبعد ان قام جومار بالتحقق من تعداد سكان المدن الهامة فى مصر والثابت فى وثائق أصلية مثل سجلات الضرائب العقارية المسوكة بايدى الاداريين الابطاط ، وبعد مراجعة بيانات الوفيات التى جمعها المسيو

دى جينيت Desginettes اثناء ثلاث سنوات فى عمر حلفتنا وكذلك احصاءات المواليد التى جمعها المهندسون الفرنسيون . فاته — اى جوملر — قد استخلص نتيجة شبه مؤكدة عن تعداد الشعب فى مجموعه . وسوف اكفى هنا بايراد فقرة من ملخصه تضم نتيجتين متقاربتين وصل اليهما من طريقين مختلفين : « ان تحديد المساحة الحقيقية للارض المزروعة ثم حصر عدد السكان فى جزء محدد من مساحة البلاد يؤدي بعد تعميم هذه النسبة واضلفة الناتج الاجملى الى عدد سكان القاهرة الى نتيجة شبه مؤكدة وهى ان تعداد سكان مصر يبلغ ٢٢٢٠٠٠٠٠ نسمة . اما الطريقة الثانية فقد بينت ان عدد قرى مصر يبلغ ٢٦٠٠ قرية وان متوسط سكانها هو ٥٢٤ شخص لكل قرية اى ان تعداد سكان القرى يبلغ ٢٢٠٠٠٠٠٠ نسمة وباضافة سكان المدن الى ذلك الرقم فان تعداد مصر يبلغ ٢٢٦٧١٠٠٠ نسمة » .

وحسب ما سبق فقد تحدد تعداد سكان مصر بحوالى ٢٠ مليون من السكان ، ولا يدخل ضمن ذلك مطلقا عدد العربان الذين يعمرون الصحراوات والذين لا يمكن اخضاعهم لتعداد دقيق ، لكن مسميو جوبير Jaubert من جهة اخرى يقدر عدد الفرسان العربان بحسب الاحصاء الذى قام به بـ ٢٧٠٠٠٠ فارس ، فاذا ما اضفنا اليهم نفس العدد لاثخلص راجلين وعدد يتناسب مع ذلك من السيدات والاطفال فان مجموع تعداد لبناء قبائل العربان سوف يرتفع الى ١٢٠٠٠٠٠ نفس .

ولكى نقدم للقارئ فكرة عن مختلف طبقات السكان فى واحدة من مدن مصر ، فسوف نضع تحت ناظره جدولاً عن سكان القاهرة ، ولقد سهلت علينا اقامة الجيش الفرنسى فى هذه المدينة القيام بابحاثنا بشكل طيب لحد نستطيع معه ان نسط انفسنا باننا — شخصيا — قد حصلنا فى هذا الخصوص على معلومات شديدة القرب من الحقيقة .

كانت القاهرة فى عام ١٧٩٨ تضم ما بين ٢٥٠ — ٢٦٠ ألفاً من الاشخاص بما فى ذلك المالك والتجار الاجانب ، وقد قدر تعدادها بحسب احصاء تم قبل مجيء الحملة الفرنسية بـ ٣٠٠٠٠٠٠ نسمة ، ويمكن تقسيم هذا العدد على هذا النحو :

— المالك بما فيهم جنود الأوجاقات وعلى وجه العموم كل الفرق
المسكينة المكونة من رقيق تم تحريرهم بعد ذلك مثل المالك ١٢ر٠٠٠

— الملاك ٦ر٠٠٠

— التجار الذين تمتد معاملاتهم الى خارج البلاد ٤ر٠٠٠

ويتضمن هذا العدد التجار الاجانب الذين لا يستقرون في القاهرة الا
لوقت محدد مثل اولئك الذين يمتلكون محلات في خان الخليلي والذين
لا يستقر معظمهم فيها ، وكذلك التجار القادمين من ازمير والقسطنطينية
وبغداد وطلب وجدة وينبع ... الخ ، وهم يطلون الى القاهرة مع البضائع
التي يبيعونها ويرحلون بعد ثلاثة او اربعة شهور محلين ببضائع اخرى
عند العودة .

— حرفيون مستقرون سواء كانوا اسطوات او عمال
عاديين ٢٥ر٠٠٠

— صغار تجار القطاعي الذين يبيعون المأكولات
والزيت والارز والخضروات ومواد اخرى ٥ر٠٠٠

ولا يمتلك هؤلاء على الاطلاق اى رأسمال فهم يبيعون في النهار
ما يحصلون عليه في الليل استدانة من تجار الجملة ويدفعون من نتاج
بيعاتهم كل اسبوع . ونادرا ما يكون هذا التاجر ميسورا بل ان حالته
كثيرا ما تتدهور يوما بعد يوم حتى ينتهي به الامر بان يهجر هذه المهنة
ليحترف عملا آخر .

— القهوجية : اى اصحاب تلك المحلات التى يقصدها الناس من
يختلف الحرف ليتناولوا القهوة والشربات ويدخنوا ويستمتعوا الى
الموسيقين والرواة .. ٢ر٠٠٠

وهؤلاء الناس يشتررون كل يوم ما يرونه ضروريا لاستهلاك اليوم

ويستلزم هذا النوع من الصنامة رأس مال قليل اذ تكفى ٥٠ بوطاسقة (١)
(خردة) لانشاء مقهى جميل ولدفع ايجار المحل الذى تشغله ولتجهيز الاثاث
والآتية اللازمة (٢) .

— خدم فكور : قواس ، سليس ، سقاء ، فراشى ٣٠٠.٠٠٠

— عمال ، حاملين ، عمال يومية ١٥٠.٠٠٠

٩٩.٠٠٠ اجمالى الفكور البالغين =

ويمكن ان يصل عدد النساء البالغات الى : ١٢٦.٠٠٠

كما يمكن ان يصل عدد الاطفال من الجنسين الى ٧٥.٠٠٠

وبذا يبلغ اجمالى عدد سكان القاهرة الى : ٣٠٠.٠٠٠

ومن بين الـ ٩٩.٠٠٠ شخص من الفكور يمكن ان نحصى على
الاقل ٢٦.٠٠٠ شخص ليست لهم بحكم سنهم زوجات (٣) . وليس ثمة اسرة
ميسورة ولو قليلا الا وتمتلك على الاقل بعض الصبيد السود ، ويستطيع
الاوربيون المقيمون فى مصر ان يشتروا هم ايضا عبيدا ليعملوا فى خدمتهم ،
وهذا امر غير ممنوع به فى بقية ولايات الباب العالى .

(١) تساوى البوطاسقة ٩٠ باراة ، ووقت اقامتنا فى مصر ، كانت الباراة
تساوى تقريبا ٤ سنتيمات وكانت تساوى من قبل ٥ر٧ سنتيمات ، وقد
تناقصت قيمتها الآن كثيرا .

(٢) يوجد فى تركيا مثلاً يوجد فى مصر عدد هائل من مثل هذه المحلات .
ويتكون اثانها من مقعد طويل بلا مساند ، مستدير او مستطيل بحسب شكل
المحل ، وتوضع على هذه المقاعد حصر (حصرة) ويقعد الاتراك على
هذه المقاعد ليخضوا النارجيلة ولينفكروا ويشربوا القهوة بلا سكر . وامكن
انتجمع هذه تسمى بالتركية كافيناي ويديرها عادة رؤساء الكولوك : اى
البريد الحربى .

(٣) توصل المسينو جومار بعد حساب اسمه على النسبة القائمة بين
عدد الموتى وعدد المولودين وكذلك تعداد الاحياء الى تقدير عدد سكان
القاهرة بـ ٢٦٣٧٠٠ نسمة .

وعنى اثناء حكم على بك ، كان عدد دواب النقل فى القاهرة مثل الحمير والبغال يصل الى ٢٢.٠٠٠ لكن عدد البغال ضئيل لحد كبير ، ويمكن أن يبلغ عدد الحمير المستخدمة فى التنقل داخل المدينة أو ضواحيها ولنقل الفلكة واعطاب المراعى بلا اذى مبالغة حوالى ٣.٠٠٠ حمار . ولا يعرف المصريون علمة استخدام العربات لنقل بضائعهم وهذا ما يضاعف لحد كبير من عدد الحيوانات التى تقوم بهذا الدور . ويستخدم الجمل للمسافات الطويلة . وحيث أن الحمار لا يتطلب قدرا من العناية مثلها يتطلب الحصان فانه يستخدم كدابة لغالبية السكان . وكان ممنوعا على الأوروبيين لوقت طويل أن يستخدموا دابة أخرى غير الحمار بل كان عليهم اذا ما قاربوا اثناء جولاتهم مملوكا بسيطا أن ينزلوا أمامه على الأرض دليلا على الاحترام . كذلك كان الأمر بخصوص اليهود والأروام وبقية الرعايا الأخرى . ويبلغ عدد سكان مصر القديمة من ١٠ — ١١ الف نسمة من بينهم ٦٠٠ من المسيحيين المنشقين .

وقد حان الآن الوقت لكى نتحدث عن الديانات التى تنقسم سكان مصر . ونبدأ بلى لمحة عامة عن ذلك .

٣

عن الأديان المختلفة

جميع فى مصر على وجه التقريب كل عبادات ومذاهب الدين الإسلامى(*) ويمكن أن نقسمها الى ما يلى :

١ — اتباع المذهب الحنفى ، ويعتق بلاط القسطنطينية هذا المذهب ، لذا تحت أن يكون قاضى العسكر حنفيا على الدوام ، ولكن ذلك ليس بالأمر الحتى بالنسبة لقضاة الأقاليم . وكانت حكومة مصر السابقة (على مجيء الحملة) تتبع بالمثل المذهب الحنفى .

(*) من الواضح أن المؤلف لم يكن ملما الا بالمذاهب الإسلامية السنية فقط .

٢ — أتباع المذهب الشافعى : وهذا المذهب هو أكثر المذاهب انتشارا في القاهرة وهو مذهب المشايخ والمصلحة .

٣ — أتباع المذهب المالكي .

٤ — أتباع المذهب الحنبلى : وأتباع هذا المذهب نادرون لحد كبير .

وسوف يندهش القارئ الذى تعود على الدوام ان يقرأ فى كتب التاريخ عن المعارك الدامية التى تتبع حركات الانشقاق الدينية حين يعرف ان كل هذه المذاهب متسامحة غاية التسامح فيما بينها فليس ثمة اى عدااء أو تنافس ، وليس ثمة اى اضطهاد من جانب اقواها ، كما لا يفكر أحدها على الاطلاق فى الحصول على انصار له من أبناء المذاهب الأخرى ، وهذا ما يدل على اعتدال شعيد ، بل ان أتباع المذهب الحنفى يتميزون عن أتباع بقية المذاهب بأنهم أكثر تسامحا .

ويمكن ان نعد الطوائف الآتية بين المسيحيين :

الاقباط

١ — طائفة كاثوليكية وتتبع البابا .

٢ — طائفة من الهرطقة وتخضع لبطريك . ويتبع هؤلاء آراء اوتيوخوس ونسطوريوس ولكن مع اختلافات كبيرة . وهم ينكرون الطبيعة المزدوجة للمسيح .

الاروام

١ — الكاثوليك : ويخضعون للبابا .

٢ — المنشقون. ويخضعون لـ ٤ بطاركة : واحد فى القسطنطينية ، وآخر فى القاهرة ، وثالث فى دمشق والرابع فى القدس .

الأرمن

- ١ — الكاثوليك : ويخضعون للبابا .
- ٢ — المنشقون : ويتمون أحد البطارقة .

المارونيون

وهم كاثوليك ويخضعون للبطريرك في لبنان .

وليس في مصر لا كالفانيون ولا لوثريون .

وينقسم اليهود في مصر ايضا الى طائفتين اهمهما طائفة القرائين .
وهما متسامختان فيما بينهما . اما بقية طوائف هذه الديانة والتي تحدث
عنها نيبور Niebuhr في كتابه Voyage de L'arabie فمجهولة تماما في
مصر وفي كل وادي النيل .

٤

عن الاقتباط بشكل خاص(*)

لعل اكثر الطوائف اثاره للاهتمام من بين كل سكان مصر هي طائفة
الاقتباط بلا جدال ، ذلك انهم يعتبرون انفسهم احفادا للمصريين القدماء

(*) من نافلة القول ان نذكر باننا هنا بصدد اثر علمي يقتضى الواجب
نظله بأمانة نصا وروحا ، ومع ذلك فيجدر بالذكر بان الصورة القائمة
هنا هي نموذج لحالة كل المصريين باختلاف طوائفهم في ذلك العهد حيث كان
كل أبناء مصر يعانون وان اختلفت الحجج والادعاءات بحسب مقتضى الحال
وبرغم ذلك فان الصورة هنا تختلف في كليتها ، بل يصل الاختلاف احيانا
لحد التناقض مع ما جاء في دراسات أخرى بوصف مصر نذكر منها على
سبيل المثال ما جاء بدراسة دي بوا — ايبه في وصف مدينة منوف . وما
جاء بدراسة لانكريه عن نظام الضرائب على الاراضي الزراعية وكذلك
ما جاء بدراسة جيرار عن الزراعة والتجارة والصناعة — كما ان بعض
ما جاء في هذا الفصل لا يمكن التسليم بصحته بحال من الأحوال بل لا يمكن
تصور طرحه على الاطلاق فليس هناك ما هو ايسر من نحسه (المترجم) .

كما يرون في لغتهم وفي المسارات التي سلكتها الأحداث التاريخية ما يرجع كفة مثل هذا الادعاء . ومما لا جدال فيه أن لهم ملمحا فزيقيا شديد القرب من ملحح الأمريقيين لحد يكفى لكى يحملنا على أن ننسب لهم أصلا يعود الى الدولة القديمة ، ولعل بمقدورنا أن نفترض أن جنسهم قد استطاع أن يظل نقيًا ، بعيدا عن أى اختلاط بالآغريق اذ ليس ثمة بينهما أى ملح من تشابه . وعندما استولى الاسكندر على مصر واستقر فيها الآغريق بشكل دائم تحت حكم البطالمة فلا بد أن كان ثمة جنسان متميزان ، ومنذ ذلك الوقت أصبح المصريون ، الذين عرفوا باسم الآقباط ، يشكلون طائفة منفصلة بالرغم من الغزوات المتتابعة من الرومان والعرب والعثمانيين ، وما تزال هذه الطائفة منفصلة تماما حتى اليوم عن بقية الأجناس التي تشكل الآن الجزء الأعظم من سكان مصر .

منذ الأيام الأولى للمسيحية ، أرسل بطرس الرسول الى المصريين القديس مرقس كى يبشرهم بالانجيل ، فنجبت فصلحته وحملته على الفور العقول ، وأصبح له جمهور من الاتباع . وهكذا تأسست كنيسة الاسكندرية التي أصبحت ذائعة الصيت فى الشرق . ولكن ، بعد ذلك . تطلبت آراء أوتيخوس ونسطوريوس ، وظلت هذه البذور الأولى للانشقاق تعمل عملها حتى اليوم .

ونلابط منشآت دينية بالغة الروعة كما نرى فى كثير من الكنائس والأديرة الخربة ، كما أنهم أنشأوا فى مصر العلبا على وجه الخصوص كنائس رائعة . ويبدو الصعيد بمثابة مهد لهم ، فقد كانت أعدادهم هناك على الدوام كبيرة وما يزال الأمر كذلك حتى اليوم ، لكنهم بعد كثير من القتلبات والأزمات السياسية لقوا مصير سكان مصر الآخرين ، ذلك أن ديانتهم بعد أن فقدت جزءا من سطوتها التي اكتنتها سيطرة الإباطرة الرومان فقدت كذلك جزءا من عظمتها وازدهارها ، وبرغم ذلك فقد ظل لهم ما يقرب من مائة دير من بينها خمسة أديرة خاصة بالنساء اثنتان منها فى القاهرة وواحد فى مصر القديمة وآخر فى مكان منعزل بالقرب من منفلوط ، وهذا الدير الأخير مثال لحالة بالغة الندرة والشذوذ بشكل غير مستحب ، فهو ينقسم الى قسمين منفصلين : واحد للرجال وآخر للنساء ، يضمهما معا سور واحد دون أن يكون ثمة — رغم ذلك — أى اتصال بينهما ،

ولا يلعب الاقباط في مصر الا دورا تثنيليا ، ومهارة شعبيهم هي مصدر حياتهم ، وقد استطاعوا تحت حكم الأتراك ان يحتفظوا بجزء من العمل الإداري لم يخرج مطلقا عن أيديهم منذ المصور باللغة القدم هو مسك سجلات الضرائب والدخول والملكيات ، أي أنهم باختصار الملون بمساحة مصر ، ويتمون بأنهم لم يكونوا على الدوام في عملهم هذا على درجة كافية من الأمانة والنزاهة .

. وهم يقومون بعمليات تقسيم التركات العقارية ، وهم كتيبة مصر الحقيقين كما أنهم أيضا مساحوها وقد انهمك عامتهم في ممارسة فنون الصناعة . وتعيش الأبيرة بفعل الهبات وعن طريق دخول متواضعة تأتي من بعض الملكيـات الضئيلة التي احتفظوا بحق استغلالها ، كما أنهم يقومون بمساعدة فقرائهم عن طريق جمع تبرعات عامة ، ويقوم بجمع هذه التبرعات مفتشون يختارهم البطريق على الدوام من أبناء العائلات الكبيرة ، ورهبانهم بسطاء في ملابسهم وطعامهم كما أن الرزق — أي الدخول — الممنوحة لهم لا تكفيهم الا مع الحرمان الشديد ، لذا فهم لا يأكلون في اليوم سوى مرة واحدة ، ويكون طعامهم من الخضر وقليل من السمك ولا يسمح لهم بأكل اللحوم الا في أيام الأعياد . وملابسهم عبارة عن رداء كتاني طويل ، والراهبات لسن بأحسن من هؤلاء لبسا .

وهكذا امكن للأقباط ان يتماسكوا في شكل امة متحدة داخل بلد منهمز ، ويعطى مجتمعهم الصغير لمصر بفضل بعض الانظمة المقتبسة من القيم الانجيلية مظهرا من مظاهر الاتحاد والوفاق والالفة ، وهو امر نادر في تلك البلاد التي تكبت بالطغيان والاستبداد .

وبرغم هذا فان الاقباط لا يخلون من العيوب — وهذه العيوب انما هي نتيجة حماية لتلك الحالة من الاذلال التي انتهوا اليها تحت حكم الأتراك ، فحيث أنهم كانوا على الدوام مضطرين للاستكانة وللتظاهر بخلاف ما يبطنون فقد أصبحت الغالبية منهم تتصف بصفات الجشع وبأخلاق الأجراء المرتزقين . وهذه بالتأكيد هي مسيرة كل الشعوب المقهورة على مدار التاريخ ، فالتعاس

والوحشية هما النتيجة الطبيعية للعبودية والاذلال (١) .

ومع ذلك فقد بقيت لهم على الأمل حرية للعبادة ، ذلك ان محمدا الذي كان سياسيا محتكا قد ترك للشعوب التي خضعت لسيطرته حرية ممارسة شعائهم الدينية كما ترك لهم الحق في ان يسروا امورهم بموجب قوانينهم الخاصة ولكن داخل اطار سيطرة النظم الاسلامية ، وقد سار على نهجه القويم الخلفاء من بعده ، ولعل الديانة الاسلامية تدبّر بنجاحها السريع لهذا الاعتدال الحكيم اكثر مما تدبّر لقوة السلاح . ومهما يكن الامر فان الاقباط — وعموما كل مسيحيي الشرق — قد لعبوا ثورا في سياسة بلادهم بل ان الممالك انفسهم لم يكن بمقدورهم ان ينهوا امتيازها كهذا تدعّمه مبادئ دينهم اكثر مما تدعّمه العادة وفعل الزمن (٢) .

وتتخذ امة الاقباط كرئيس أعلى لها وكزعيم ديني ونيوي حبرا هو الشخصية الأولى في الكنيسة ويلقب بالبطريرك ، ولا تعرف لسلطته حدود الا ما تفرضه العادات المستقرة وارادة حكام البلاد . وهو يفصل في كل الخلافات التي تقع بين كل رعيته . لكن حكمه في ذلك ليس نهائيا اذ يمكن للأطراف المتنازعة ، باتفاق فيما بينها ، ان ترفع الامر الى القاضي ، الذي يقر عادة حكم البطريرك ، اما الجنح والجرائم فتعامل بطريقة اخرى ، فالبطريرك لا يفصل الا في الجرائم الصغيرة التي لا تتطلب الا عقابا اصلاحيا ، فعندما يتهم قبطي على سبيل المثال بالسرقة من احد المسلمين ، فان المسلم يرفع شكواه الى البطريرك . اما اذا كان المسلم — على عكس ذلك — هو

(١) مما يبين إلى أي حد كان الأقباط يحتقرون من قبل المسلمين أن عمادتهم ينبغي ان تكون من لون واحد مما يؤدي الى التعرف عليهم من بعد ، ويمكن ان يقال، الى تعرضهم لزرابة العامة ، ولا يسمح لهم مطلقا بأن يكون لهم عمادة تماثل عمادة المسلمين . فهي عبارة عن شريط ضيق يلف حول طربوش يغطي الجبهة . ومع ذلك فان الاقباط عندما يتوجهون الى الاقاليم لتحصيل الضرائب فانهم لا تتلهم اهانات من قبل المسلمين وليس هذا بفعل الاعتیاد الطويل ، بقدر ما يعود الى وجود قوة من انجنود معهم لحمايتهم .

(٢) لعل القارئ قد لاحظ هذا التناقض فيما يذكره المؤلف هنا وما سبق ان ذكره في بداية هذه الفقرة . (المترجم) .

السارق فان القبطى يرفع شكايته امام القاضى او يطلب العدالة من حاكم المدينة نفسه ويقوم الطرف القبطى بنفسه بتقدير حقوقه امام المحاكم .

اما حوادث القتل والجرائم الكبرى ، فليست من اختصاص محكمة البطريك ، فهى من اختصاص الضباط المكلفين من قبل شرطة المدن بمطاردة ومحاكمة كبار المذنبين . وفى بعض الأحيان يتمكن المذنب من التملص من العقاب عن طريق دفع مبلغ من النقود لمن يمسكون بسيف العدالة — ويحدث هذا أيضا بالنسبة للمسلمين .

ويختار البطريك على الدوام من بين رهبان دير سان انطوان ويتم ذلك بالانتخاب ، وعندما يراد اختيار خليفة له فان المطارنة وكبار القسس ينضمون الى كبار رجالات الأمة القبطية .

وتتكون الجمعية العمومية من ٤٠ — ٥٠ شخصا ، ثم يقرمون فى عملية الانتخاب ، ويمين الراهب الذى يحصل على اكبر عدد من الأصوات فى منصب البطريك .

ويشكل المطارنة الصف الثانى من هيكلية الكنيسة القبطية ، وليس لهؤلاء الأساقفة من دخل الا ما يحصلون عليه من هبات من أتاليهم . ويبلغ ايراد كنيسة العاصمة حوالى ١٠٠.٠٠٠ بوظقة (خردة) وهو ايراد بعض المنشآت الخيرية المخصصة لها وهذا الدخل البسيط هو اساس دخل البطريك ، لكنه يستطيع على الدوام ان يعثر على الوسائل التى يزد بها مخصصاته الشرفية ، وهى دخول عرضية (غير ثابتة) لكنها تصل فى بعض الأحيان الى رقم كبير للغاية . والاسكندرية هى مقر البطريكية . لكن البطريك يقيم فى القاهرة حتى يكون فى وضع يمكنه من رعاية مصالح شعبه والدفاع عن حقوقه امام السلطة المسلمة .

ويتمتع رجال الدين من الدرجة الاكبر أيضا بأهمية كبيرة ، لكنهم جهلة وفقراء ، وتسمح لهم قوانين كنيستهم بالزواج الذى ينبغى أن يسبق رسالتهم . ولا يسمح لهم بالزواج طيلة حياتهم الا مرة واحدة . وعندما يموت احد القسس الاقباط يتجمع كبار رعاياه كى يحددوا لمطران الولاية رجل الدين الذى يبدو لهم اكثر جدارة بولاية المتوفى ويمين المطران على

النور القسيس الذى وقع عليه اختيارهم . وكل الكنائس ملوكة لهيئة رجال الدين ويصرف عليها من الهبات والتبرعات .

ويثق القبطى ثقة عمياء فى مساواة طائفته ، ولهؤلاء القسس تأثير كبير على النفوس . ويمقدورهم - بقليل من الحيلة - أن يسيثوا استغلال ذلك التقديس الذى يحيطهم الناس به ليمودوا بالنفع على انفسهم . لكنهم فى غالب الأحيان جهلة مثل بقية أبناء الشعب ، وليس ثمة بينهم الا عدد ضئيل للغاية قد وصلوا الى درجة من العلم يستطيعون معها ان يقرأوا كتب الطقوس الدينية وهى الكتب الوحيدة التى ما تزال تستخدم اللغة القبطية حتى اليوم (١) .

وبالرغم من هذا التقدير الميق لرجال الدين فان القبطى لا يسمح لنزجته أن تسفر عن وجهها امامهم (ونحن هنا نتحدث فقط عن الطبقة اليسورة منهم) بل ان البطريك لا يمكنه ان يرى سيدة سافرة الا اذا كان زوجها هو الذى سمح بذلك وعن طيب خاطر .

ولهؤلاء الأقباط ايام للصوم وايام للاعياد الدينية هى على وجه التقريب نفس اوقاتها . ويتمثل الاختلاف الوحيد فى طول المدة او قصرها وكذلك فى طريقة اداها . وعدد مناسبات صيامهم أربع مناسبات فى العام وهى تسبق الأسرار الكبرى لديانتنا، والصيام السابق على عيد الفصح (القيامة) هو اطولها جميعا وهو كذلك اشدها مشقة . ويبلغ طوله ٥٠ يوما . ولا يمكن للمسيحى طيلة هذه المدة أن يتناول سوى وجبتين فى اليوم ، ويمتنع تماما عن تناول اللحوم والأسماك وكل ما له روح على وجه العموم . وتأمر الكنيسة بأن يمتنع الناس عن ادخال أي شيء إلى أفواههم حتى ولو كان دخان النارجيلة قبل الظهيرة وهى موعد الوجبة الاولى . ويستمر الصيام السابق على عيد الميلاد ٤٣ يوما ويبلغ صيام العذراء ١٥ يوما ويتراوح صيام الرسل بين ١٥ - ٤٠ يوما حسب المسافة الموجودة بين عيد الميلاد والصوم الكبير . وهم طيلة ايام الامساك (الصوم) لا يتناولون سوى

(١) يمكن القول بأن اللغة القبطية كانت هى اللغبة العامية للمصريين القدماء وأن رموزها ليست سوى الحروف اليونانية مضافا إليها بعض الحروف لاستعاب الأصوات التى ليس لها شبيهة فى اللغة اليونانية .

وجبتين : واحدة عند الظهر والأخرى في المساء ولا يمكن تناول السمك أو البيض أو اللبن دون الحصول على إذن من المطارنة وفي بعض الأحيان لا بد من اللجوء مباشرة إلى البطريرك ، وبخصوص مدة الصيام وصرامته ، فإن ثمة تشابها كبيرا مع الكنيسة اليونانية في الشرق ، فضلا عن ذلك فهناك عدد كبير من الروابط بين الطائفتين . وليس هذا مما يبحث على الدهشة ، فاصل الكنيستين واحد كما انهما يتبعان على وجه التقريب نفس المبادئ .

ويمارس الأقباط كذلك الاعتراف ، وهم يشتركون في هذا الطقس الديني مع المسيحيين عموما ، لكن ثمة عادة خاصة بهم تبدو مناقضة تماما أو على الأقل غريبة عن مذهب المسيح تلك هي عادة الختان للجنسين (١) . وبالرغم من أن هذه العملية ليست فيما يبدو الزامية بالنسبة لكل الأقباط ، فإتباعهم مع ذلك يخضعون لها إما بفعل الاعتقاد وإما بفعل الأفكار المسبقة . وتصر الأمهات على ضرورة ختان أطفالهن إذ يتصورن أن أبناءهن لن يكونوا بصالحين للانجاب ما لم يمروا بهذا الأمر المؤلم .

وفي الصعيد يختتن كل الأقباط ، لكن عددا كبيرا منهم في القاهرة يرفض ذلك ، لكن عادة ختان الأطفال الصغار شائعة في كل مكان ، وهي تتم دون وساطة القسيس ، ويختتن الجنسان في سن السابعة أو الثامنة . وينتهي يوم هذه العملية عادة بعيد عائلي ، لكن ينبغي أن يسبق العباد عملية الختان ويتلقى الأطفال سر القربان المقدس في فترات تختلف بحسب الجنس ، فهو يتم بالنسبة للذكور بعد ٤ يوما من ولادتهم وبالنسبة للإناث بعد ٨ يوما .

ويسارع الأقباط بتزويج أبنائهم ما أن يروا أنهم قد بلغوا سن البلوغ وكذلك يتم تزويج الفتيات في سن الثانية عشرة بينما يتزوج الأولاد في سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة . ولا ينبغي أن ندهش لمثل هذه الزيجات التي تتم هكذا قبل الأوان في منطقة كهذه يعمل فيها الطقس على سرعة نمو الجسم كما يعمل على إثارة الشهوات منذ سن مبكرة .

(١) يبدو أن هذه إعادة قد انتقلت إليهم عن قدماء المصريين الذين كانوا يمارسون هذه العادة . انظر هيرودت : الكتاب الثاني . فقرة ١٠٤ .
ترجمة لارشيه Larchet

ويرسل الأتباط أولادهم الى مدارس صغيرة ، حيث يحطمون القراءة والكتابة الى جانب المبادئ الأولى للدين . ويتمتع بهذه الميزة كل الأطفال الذكور بلا تمييز ، لكن الفتيات لا يستطعن الذهاب الى المدرسة الا بموافقة أمهاتهن اللاتي يعترضن على ذلك في بعض الأحيان . ولم نشاهد في القاهرة نقادة واحدة تتردد على المدرسة وعلى العكس من ذلك في الصعيد حيث يذهب الى المدارس هناك مثل الأولاد ولا ينقطعن عن الذهاب الى المدرسة حتى في سن الثالثة أو التاسعة وهو السن الذي يبدأ فيه في التشكل ولا يعن أطفالا .

لقد اطلنا بعض الشيء . لكننا راينا من واجبنا ان نبدا أولا بالوقوف على بعض التفاصيل حول الأتباط . لأن معرفتنا بهذه الأمة لا تزال شديدة الضالة . وسوف نعود الى الموضوع نفسه في فصل آخر . وسوف نحاول ان نقدم فكرة كاملة عن عادات وتقاليد ونظم ومؤسسات وحرف هذه الأمة التي ظلت شبه منسية حتى يومنا هذا من بقية المذاهب المسيحية .

٥

عن العربان على وجه الخصوص

تتكون الكتلة الكبرى من الشعب المصري من عرب استقروا وارتبطوا بشكل اساسي بالارض ، ولا تختلف عاداتهم في شيء عن عادات من نعتهم باسم المصريين . لكن العربان الرحل ينقسمون إلى قبائل رحالة ، تنقل خيلها من صحراء لاخرى ، ولا يخضع ابنائها الا لمشايخهم ، ويتجاهلون سلطة الباشا والبكوات . ويستحق العربان منا اهتماما خاصا ، اذ ان لهم عادات مختلفة ، وسوف نرسم سريعا تلك الملامح الأساسية التي تميزهم ؛ لأن هذه اللوحة سوف تساهم في تكوين فكرة عن المؤثرات التي تؤثر في سكان مصر على وجه العموم .

يبلغ عدد العربان الرحل حسب احصاء قريب . ٤ ألفا . ويمكن لنا بالقيام بعملية نسبة ان نحصل على العدد التقريبي لكل هؤلاء العربان ونسأهم وأطفالهم . . . الخ . وهم يشغلون الصحراوات المحيطة بمصر من كلا الجانبين . ويقرب عدد منهم في بعض الأحيان من ضفاف النهر

ليزرعوا اراضى يستاجرونها من حكومة الاقليم . ويمكن اعتبارهم جميعا من اتباع عقيدة محمد بل انهم يتسمون باسم المسلمين ، ومع ذلك فان مبادئهم الدينية تبدو شديدة التباين كما يرى بعض الاوربيين الذين زاروهم ، ومن المؤكد ان عقائد هذه الشعوب وكذلك التقاليد الراسخة التى احتفظوا بها عن اصولهم وكذلك اخبارهم التاريخية لا بد ان تحظى باهتمام خاص من قبل الرحالة اذ يمكن لمثل هذه الامور ان تساهم فى توضيح نقاط كثيرة غامضة فى التاريخ الحديث . لكن مثل هذه الدراسات على وجه العموم قد اهتمت لحد يفوق التصور على الرغم من ان العربان الرعاة قد نقلوا من جيل لجيل تاريخ آلاف من الوقائع التاريخية المجهولة من السهل ان تهتك لنا هذا النقاب الصفيق الذى تغلفهم به خرافاتهم واساطيرهم . وباختصار ، ولا نمل من تكرار ذلك ، فينبغى على كل من المؤرخ ورجل الآثار ان يحصل على معرفة عميقة عن عادات العربان وتقاليدهم .

وفيما يلي أسماء القبائل التى تقتسم فيها بينها صحراوات مصر الشاسعة وكذا أسماء الاقاليم التى تفضل هذه القبائل ان تستشرف حدودها:

ولاية المنصورة

١ — قبيلة درنة : وهى قبيلة قوية وكبيرة العدد ، لكن عوامل الضعف قد دبت فيها نتيجة للحرب الاخيرة التى شنها عليهم حاكم الولاية . وقد تبعثرت حاليا هذه القبيلة .

٢ — قبيلة البوارشة : وهى تسكن القرى وتحترف الزراعة .

٣ — قبيلة حسن طوبار : وتشغل قرى عديدة بمنطقة المنزلة .

ولاية البحيرة

طبقة اولى : الهنادى (*) طبقة ثانية : اولاد على

وتقيم هاتان القبيلتان فى خيام ، وهما اقوى قبائل مصر واكثرها شراسة . وعلى الرغم مما بينهما من خصومات وما يفرق بينهما من

(*) وردت فى الاصل باسم نيمادى Nemiady ولعله خطأ مطبعي .

عداوات بفعل من أحقاد وضفائن دينية إلا انهما يقتسمان نيبا بينهما السيطرة على الولاية وتتبع واحدة منهما أفكار شيخ يسمى : سعد ، أما الأخرى فتمتد في قداسة شيخ يسمى : حرام . ومن هنا تولد هذا النوع من الكراهية والتفور الذي استمر لأزمنة طويلة ذلك أن أحدا لم يستطع أن يعثر على أصل لهذين المذهبين أو مؤسسيهما ، بل لقد حدث أن انقسمت مصر بأكملها بفعل هذا الخلاف نفسه ، الذي أدى إلى قيام العداوات والضفائن بين الفريقين وأخذ كل فريق يدين الفريق الآخر ، ويتوعد بمقويات الدار الآخرة ، حتى وضعت حكومة على بك الشهير حدا لهذه العداوات المتعصبة، وعملت حكمة وحزم هذا الرجل — غير العادى الذى لم يكن ينقصه إلا نوع مختلف من التربية ؟ وكذلك أن يلعب دوره على مسرح من الأحداث أكبر اتساعا لكي يدهش العالم — على تذكير المصريين بمشاعر الاعتدال والتسامح التى اشتطوا في البعد عنها ، ومنذ ذلك الوقت ، فإن الناس يكادون يكونون قد نسوا كلا من سعد وحرام ، لكن أسس هذين الزعميين الروحيين قد ظلا يثيران الشقاق بين الشعوب الطليقة في الصحراوات .

ولم تكن سوريا لتبعد عن روح التعصب هذه ، فهكذا خلقت في كل هذه البلاد أحزاب اعتمتها. مثل هذه الأمور من الجبل والضلالات ، وبذلك أصبحت ديانتهم الخاطئة ، التى يسيئون هم انفسهم فهمها ، سببا للاحتقاد والضفائن والمواقف الجامحة ، مما أدى بشعوب بأكملها إلى التطرف الأرعن ، باسم ديانة يعملون هم انفسهم على الاساءة اليها .

وتقوم القبيلتان اللتان تحدثنا عنهما للتو ، بفرض ضرائب على سكان ولاية البحيرة تعادل تلك الضرائب التى تفرضها السلطات الحاكمة ، وبسبب نقص وسائل التمتع التى في حوزة السلطات الحاكمة . فقد ظل مثل هذا الطغيان البغيض سادرا .

ولاية الشرقية

طبقة ثانية
جميلة
بنى ايوب
جميلات

طبقة أولى
بلى
رفاعات
سمداني
اولاد على
الحيوان

وهذه القبائل كلها من العربان الرحل ، وهم لا يعرفون الزراعة ولا التجارة ، وحيث انهم قطاع طرق بالسليقة ، فقد أصبحوا قتلة بفعل الطمع والجشع ولا تفرض عليهم الحكومة اية ضرائب او اتاوات لكنهم يكتفون بأن يرسلوا كل عام الى شيخ القاهرة هدية تتكون من الخيول والجمال ، وبذلك يحصلون على حماية هذا الضابط ، بل يمكن القول على تفويض منه بالانغماس — دونما اعتراض من جانبه — فى جرائمهم المعتادة .

القبائل المتوطنة

طبقة ثانية
اولاد زهيرة
متولى
البوارشة
ورورة

بالصوالحية

طبقة أولى
القصاصين
الساكنين
الصوالحة
عايد
الزملى
اولاد موسى
لكام

وهؤلاء يسكنون القسرى ويفلحون الأرض ، ومع ذلك فان لديهم فى نفس الوقت — شأنهم شأن الأولين — ميلا لا يقاوم يدفعهم للقيام بأعمال السلب اذ تراهم فى معظم الاحيان يتركون محراثهم ليمسكوا ببنادقهم ويسلبوا امتعة المسافرين .

ولاية قليوب

طبقة ثمانية
العبيدة
طرابين

طبقة أولى
الموالحة وجهينة
الحويطات

وهم يقيمون في الخيام ويروعون سكان ضواحي القاهرة بفاراتهم التي يقومون بها للسلب والنهب . وهم يشاركون الفلاحين في زراعة الأرض ، ولكن دائما وبلا جدال على حساب هؤلاء الآخرين (١) .

٦

عن المالك ، وعن الأجانب

الذين استوطنوا مصر

عندما نتأمل قوة المالك وتقدمهم الذي ظلوا يحتفظون به على الدوام على قوات الباب العالي فسوف نجد بما لا يدع مجالا للشك أن قوتهم العسكرية الرائعة تلك لا تعود إلى تعدادهم بقدر ما تعود إلى قدراتهم وكفاءاتهم ، فتعدادهم ليس شيئا بالمرّة إذ لا يكاد يصل مجموع عددهم — سواء الذين حرروا منهم أو الذين ما زالوا أرقاء — إلى ثمانية أو تسعة آلاف رجل : وبرغم ذلك فقد توصلوا بفضل جراتهم وشجاعتهم ومزاجهم العسكري الذي تنميه نشأتهم العسكرية ، وكذلك بسبب من الذكريات الرائعة والطموح الذي لا يعرف لنفسه حدا ، توصلوا إلى قيادة شعب كبير مع تقييده بسلاسل من خوف وسحقه تحت وطأة أسمهم : المالك ، وهو الذي يمكن أن يقال بأنه أصبح مثيرا للرعب بسبب كثرة ما أحرز من انتصارات .

(١) لمزيد من التفاصيل ، أرجع إلى دراسات دي بوا ايميه وجومار وإلى الجدول الذي وضعه اميديه جوير Amédée Jaubert وسوف نعود في الفصل الثالث إلى هذا الموضوع بالتفصيل .

(ونجد جدول جوير الخاص بالقبائل العربية التي تقيم ما بين مصر وفلسطين في بداية المجلد الثاني من الترجمة العربية) . (المترجم) .

ومن الممكن أن تنسب قلة عدد المالك إلى عاداتهم في الزواج من نساء اجنبيات مثلهم ، وفضلا عن ذلك فان طقس مصر يحول دون تكاثر الاجانب عموما ، حتى عندما يتزوج هؤلاء من مصريات ، فالاطفال ، في الحالة الاولى ، يموتون وهم لما يبلغوا من العمر بضع سنوات . وحيث كان المالك — هكذا — محرومين من فرص التكاثر الطبيعي ، فقد بات عليهم ان يلجأوا الى هؤلاء الذين ينحدرون من نفس اصولهم ، فكانوا يشترون الرقيق الشبان ويقومون بتدريهم عسكريا ثم يعقنونهم بعد ذلك . وكان هؤلاء الرقيق اما شركسة واما قوقازيين ، وكانوا يحملون اولاً الى القسطنطينية ثم يرسلون من هناك الى كل انحاء الامبراطورية العثمانية حيث يشتريهم الاغنياء . وتنسب زوجات المالك الى نفس هذين الاقليمين ، ويصلن الى تركيا بنفس الطريقة .

وفي بعض الاحيان ، وقبل مجيء الحملة الفرنسية ، كان يحدث ان يتزوج احد المالك ، بعد ان يدركه اليأس من الوصول الى المصنف الاولى من رجال الدولة ، من زوجة مصرية ، وعندئذ يكون له الحظ في انجاب الاطفال لكن ذريته تتميز مع ذلك بالضعف .

ويمكن لنا ان ندرج العبيد السود من الجنسيتين الذين كانوا يجلبون من اعماق افريقيا ضمن الشعوب الاجنبية التي استوطنت مصر . ففي كل عام كانت اسواق القاهرة تمتلئ بهؤلاء النساء ، الذين يتجاوز عدد النساء بينهم عدد الرجال ، وهذه التجارة المزدولة هي واحدة من المهن الرائجة في هذا الاقليم . ومن اسواق القاهرة ، تذهب افواج العبيد الى المدن الكبرى في آسيا مثل ازمير والقسطنطينية وحلفا ... الخ ، ويبقى عدد كبير منهم في نفس الوقت في القاهرة حيث يستخدمون في مختلف الاعمال ، ويميل المصريون الى تفضيل النساء الزنجيات ويشترى الرجل على هواه وخسب قدرته اثنتين أو ثلاثا وحتى ستا منهن .

وكما سبق ان قلنا فان للمسيحيين في مصر الحق في امتلاك العبيد ، بالرغم من انهم لا يتمتعون بهذا الحق في بقية الولايات التركية ، ومع ذلك فان هذا الحق محدد بشروط معينة ، فمن المحظور عليهم ان يمتلكوا عبيدا من الذكور اذ هم في هذا الصدد لا يستطيعون على الاكثر الا شراء اطفال صفار يتخلصون منهم عندما يكبرون ، ومع ذلك فقد كان يسمح لهم باقتناء

أى عدد من النساء الأباء يستطيعون الحصول عليه ، لذا كان لدى كل أسرة واحدة أو اثنتين على الأقل للقيام بأعمال البيت .

أما العثمانيون المقيمون في مصر فكانوا قليلي العدد . وكانت ذريتهم تنقرض شأنهم في ذلك شأن المالك ، ولنفس الأسباب . ويوجد بالمثل عديد من العائلات السورية التي استقرت في مصر بفرض التجارة ، ولكنها ليست بذات وزن كبير في أجناس هذا الشعب .

وتشغل قبائل النوبيين أو البرابرة مناطق عديدة في صعيد مصر . وبعض الجزر المجاورة لشلال أسوان ، وهي قبائل فقيرة وتتكون من بعض العائلات .

وفي ختام المطاف نذكر الأفرنج أو المسيحيين الأجانب . وهؤلاء لا يستقرون إلا في مناطق التجارة الكبرى مثل : الاسكندرية ، رشيد ، دمياط ، القاهرة ، وأهمية هذه الطائفة تعود الى ما تقوم به من عمليات تجارية أكثر مما تعود الى تعدادها .

تلك على وجه التقريب لوحة بالغة الإيجاز لمختلف العناصر والأجناس التي تقطن مصر ، وقد اكتفينا هنا بمجرد ذكرها ، لكننا سنعود إليها فيما بعد وعندئذ سنتحدث عنها بتفصيل أكبر .

٧

من العادات والتقاليد بشكل عام

يوجد في مصر ، شأنها في ذلك شأن بقية بلدان الشرق ، خليط مضطرب من العادات والتقاليد تعود الى أصول متنوعة وتنتج عن أسباب كثيرة . وهل كان يمكن للامر أن يكون على نحو آخر في بلد يمكن القول بأن كافة الأمم قد اختلطت فيه ؟ فالعادات إذن تتنوع بنفس الطريقة التي تشكلت بها فئات السكان بمختلف أديانهم وأصولهم . فنحن نجد في المدن مع شيء من الاختلاف نفس عادات الشعوب الشرقية ، ولقد كان هذا الاختلاف أمرا ضروريا بسبب طبيعة التربة وتأثير الطقس . أما في الريف وفي

الصحراوات فسوف نتعرف على رجل العصور الأولى ببساطة أذواقه ، هذا اذا لم تكن العصور المنصرمة قد تكفلت باتلاف فطرته .

تحدث كل فئات هذا الشعب لغة مشتركة هي اللغة العربية . وقد تمثل الاتباط كذلك هذه اللغة . واذا كان بعض العثماني قد احتفظوا بلغتهم الام فقد كان ذلك يحدث فيما بينهم وفي علاقاتهم مع ضباط الباشا الذين يحكمون مصر باسم السلطان . وقد نسيت اللغة اليونانية تماما او قل انها قد انكشفت في دائرة صغيرة من تجار هذا الشعب (اليوناني) الذين يقيمون في القاهرة او الاسكندرية .

لا يمكنك ان تكتشف ما يعتل في نفس المصريين عن طريق ملاحظهم . بصورة الوجه ليست مرآة لأفكارهم ، فشكلهم الخارجى في كل ظروف حياتهم يكاد يكون هو نفسه اذ يحتفظون في ملاحظهم بنفس الحيدة وعدم التأثير سواء حين تأكلهم الهوم او يعضهم الندم او كانوا في نشوة من سعادة عارمة ، وسواء كانت تحطمهم تقلبات غير منتظرة او كانت تنهشهم الغيرة والاحتقاد او يغفلون في داخلهم من الغضب او يتحرقون للانتقام . فليس ثمة مطلقا فعل منعكس : احمرار في الوجه او شحوب مفاجيء ، يستطيع ان يثني بصراع تلك العواطف المعقدة التي تهزم . ويمكننا ان نلتهمس اسبابا عديدة لهذا الجمود المذهل في الملامح ، قد لا يكون الطقس بعيدا عن هذه الحالة ، فحيث يبدو الطقس على الدوام بنفس الشكل ، فانه ينقل الى النفوس على نحو ما ثباته الدائم ، ومع ذلك فان الاسباب الرئيسية لذلك تكمن بالتأكيد في شكل التربية وفي الاعتقاد في القضاء والقدر المنتشر بين كافة الناس ، كما تعود في النهاية الى تعودهم ان يكونوا على الدوام عرضة لنزوات الطفافة الذين يعم ظلمهم البلاد ، ففي كل يوم تنشأ اخطاء وبشاعات جديدة ، تصبح الغفلة معها بالنسبة للمصريين — والشرقيين عموما — نوعا من الحيلة لمواجهة هذا السيف ، فعندما يعاقب الانسان على حركة او بسبب نظرة او احيانا مجرد الاشتباه ، كما لو أنه قد ارتكب جريمة ، فانه يصبح وقد اكتسب مقدرة عميقة على الاستيعاب والتمثل بحيث تصبح هذه الامور الجائرة حالات اعتيادية . لذا فلا ينبغي علينا ان نبحث عن مصدر آخر لاسباب هذا النوع من التسليم المستعذب للالام الذي يميز الشرقيين على وجه العموم : فالشكاوى والصيحات امور لا فائدة منها أمام

ارادة الطفافة . ويعرف المصرى كيف يمشى وتد اغضبه الالم ، وكيف يموت تحت عضا القواس. دون أن يقول كلمة ، فهذه ارادة الله ، والله اكبر ، والله غفور ... وتلك فقط هى الكلمات التى تأتى على لسانه عندما يبلغه نبا نجاح لم يكن يؤمل فيه ، وهى نفسها التى تفلت منه عندما يبلغه نبا كارثة كبرى المت به .

ويبدو خمول المصريين المتصقين بمخنهم امرا بالغ التناقض مع تقاليدنا حتى لنظنهم فى البداية بلهاء او معتوهين ، فحركاتهم واحاديثهم وابسط حركاتهم بل ومسراتهم ، كل ذلك يشى بعدم اكتراث مذل ، فانت تراهم ممددين لجزء طويل من النهار على ارائكهم او على حصرهم حسب درجة ثرائهم حتى تظن أن ليس ثمة فى هذه الدنيا ما يشغلهم الا ان يملأوا ويفرغوا على التوالى نارجيلتهم الطويلة ، وتبدو مخيلتهم وكأنها قد تخرت مثل أجسامهم لحد تخال معه — وهم فى حالة التنويم الروحى تلك — ان سماعهم لحكم بالموت صادر عليهم لن يكون بمقدوره ان يثير مجرد دهشتهم . وبرغم ذلك فتحت هذا القناع من السلبية البادية على ملامحهم يكمن خيال ملتهب . وسوف يكون من الظلم أن ننكر عليهم كل حساسية ، فعادة الصمت تجعل أحاسيسهم على العكس - وحيث يمكنهم بذلك تركيزها - أكثر حلة، كما انها تعطى لأرواحهم دفعات من النشاط تجعلهم فى بعض الأحيان قادرين على الاتيان بأفعال بالغة الجرأة، وفضلاً على ذلك فإن الفكر يكسب بعمق ما كان يمكن أن يفقده لو كانت الروح متوقدة .. ان ملكة الانتبسه ، والقدرة على التفكير تذهب الى أبعد مدى عند هؤلاء الناس الذين نخالهم غارقين فى بلادة مطلقة .

وتتوافق أحاسيس هذا الشعب مع بقية عاداته ، فالمرء منهم يستمتع فى الحمام مثلاً ببلذات عجيبة ، اذ لا بد أن تقوم واحدة من الخاديات على الدوام بتدليك قدمه اما باليد واما بقطعة من الطوب الأملس ، كما انه يمضى وقتاً طويلاً فى تهذيب لحيته . وهذه عادة قديمة جداً فى الشرق حيث لا تدلك القدم باليد الا فى المجتمعات الحميمية من الامل والأصدقاء ، ذلك ان الآداب العامة لا يمكن أن تسمح بهذا الفعل الشهوانى على الملا . لما عن حك الاقدام بقطعة ملساء من الطوب فهى لا تمارس الا عند الخروج من الحمام — وكلا الأمرين يعدان فى وقت معا ضرباً من الأمور الحسنية والشهوانية وكذلك عملاً من أعمال النظافة .

وقد تبدو ملذات من هذا النوع بالغة التفاهة فى نظر الأوروبي ، لكنها تكفى لتوفير جو من الرخاوة لذلك المصرى خالى البال ، فهو يتمتع بها وسط العطور وسحب الدخان والأبخرة المعطرة ، ويستطيع ان يوفرها لنفسه على الدوام ما دام الأمر يرتهن بمشيئته . فإذا ما أضفنا الى ذلك المشهد مسرات ومباهج الحريم والموسيقى والفناء ، وكذلك حبه قول أو سماع الحكايات ، ذلك الأمر الذى يستغرق جزءا كبيرا من سهرتهم ، لتكونت لدينا فكرة شبه كاملة عن مباهج الحياة عند المصريين وعن ملذاتهم .

ان كل شئ فى هذا الشعب يقدم صورة من التناقض الواضح مع عاداتنا نحن الأوروبيين . وهذا الاختلاف بلا جدال من صنع الطقس ، ومن صنع الأنظمة المدنية والمعتقدات الدينية كذلك . كما ان غيبة القانون تكاد تشل مختلف ضروب الصناعة فى الوقت الذى تتكفل فيه الحرارة الشديدة بتقليل نشاط القدرات الجسمية ، ولنا ان نتساءل ، لماذا يكلف الفلاح نفسه كبير عناء — فى بلد كهذا ليست الملكية فيه سوى ضرب من الأوهام — كي يحسن من زراعته اذا كانت جهوده تلك لن تؤدى بالضرورة الا الى إثراء مستغليه والى انتزاع مغارم جديدة منه ؟ ان المصرى يعرف حقيقة وضعه ، ويسير نتيجة لذلك ، أموره ، ويأتى الخوف ليضيف اثره الى فعل الطقس ليضعف من مقدرة جسمه بنفس القدر الذى تقيم به المعتقدات الدينية عقبة لا يمكن اجتيازها لتحول دون تقدم وتطوير أرضه ، وهكذا يظل الغنى ينتهب اللذات بينما يظل الفقير يروى بحبات عرقه أرضا خصبة مغطاء لكنه لا يستطيع ان يحصل منها الا على ما يقيم أوده .

ومن جهة أخرى يمكن القول بأن كل فروع الصناعة بلا استثناء مريسة للاستبداد . وفى نفس الوقت فان التجارة مزدهرة وليس ذلك لانها تلقى تشجيعا من الحكومة ولكن لان موقع مصر وثراء منتجاتها يهيئان للتجارة معنا لا ينضب . وهذه الحرفة هى المجال الوحيد الذى يمكن ان يعد المصرى بمستقبل زاهر ، فهى تقوده الى الثروة فى بعض الأحيان ، وهى فى هذا الصدد ، الحسنة الوحيدة التى بقيت لهم ، حيث ان صفتهم كمواطنين قد أغلقت امامهم طرق المجد والمراكز الكبرى فى وطنهم ، انظروا اذن ، الى اى حد تضاعل سكان واحدة من أجمل بقاع الأرض تحت هذه السيطرة الأجنبية وغير المشروعة ؟ ان الكوارث التى تنال منهم اليوم سوف

تظل تثقل عليهم طالما ظلت هذه العصا الخليطة لمستغليهم غير الجديرين تكوير عليهم ، ولسوف يظل المصري عبدا ، بائسا ، سلبيا ، خليلا ، تدوير به دواجل الشك دون أن يفكر فى وضعه المحزن . ولربما تكون بلادته تلك هبة من القدر ، اذ بفضلها لن يحضبه على الاطلاق ذلك الاحساس بالالام والمخاطر التى تهدده بلا انقطاع .

وبرغم ذلك ، فان للطبقات الشعبية تقاليد اقل تخفئا ، فذلك الرجل البائس الذى يتوقف بقلوه على قيد الحياة على عمله اليومي الدحوب ، نشيط بالضرورة لحد لا يمكن معه أن ينال منه التعب . ويتحمل الفلاح النيران التى تصبها عليه السماء الملتهبة لكى يبذر الأرض التى تمدّه بضرورات أسرته ، وسوف يدهش الأوربي الذى سبق له أن رأى الاثرياء المصريين ممددين على أرائكهم فى رخاوة ، بل يمكن القول بأنهم يخشون من أن ينال منهم التعب لو أنهم اتوا بلشارة الى خدمهم ، سوف يدهش عندما يرى السائس أو خاتم الاسطبل ، أثناء تدريبات المالك العسكرية وهو يجرى أمام حصان سيده ويتابع كل حركته لساعات طوال دون أن تبدو عليه اقل امارات التبرم أو الضجر فى الوقت الذى تلقى الشمس الملتهبة على جسمه العارى شواطى من رصاص ، ويؤخذ هؤلاء الخدم من طبقة الفلاحين عادة .

وعندما يتحدث احد الاوربيين لأحد سكان القاهرة مباهج الترفى وجمال الامكنة المخصصة لذلك فى أوروبا ، فان القاهري يجد صعوبة كبيرة فى أن يتفهم كيف يمكن أن تكون هذه الممارسة المتعبة واحدة من مباهج الاثرياء . فالقاهري عدو لكل حركة ، وهو يزحف بصعوبة من منزله الى مكانه . لذا فهو يذهب بالى هناك فى معظم الاحيان على ظهر الحصان أو العمار . وكل شئ مجهول فى مصر الا الحداثق ، فلكل المنازل التى تتمتع بمظهر حسن الى حد ما قطعة من الأرض صغيرة ، تزرع بالأشجار والخضروات لكن الأشجار تزرع بلا أدنى تنسيق كما أنها تزرع لمجرد الزينة، وفى بعض الاحيان يذهب رب البيت الى هناك ليستنشق الهواء تحت ظلها، لكنه هنا أيضا يتمدد فوق سجاجيد ومخدرات ، كما أنه لا يتنزه فى طرقات حديقته ولا يبين أدغال أشجار البرتقال كما أدمى ذلك عديد من الرحالة ، اذ ليس لهذه الحداثق طرقات كما أن أدغال البرتقال ليست منسقة بطريقة تعبد

الفزعات . وباختصار فإن المصريين يزرعون هذه القطعة من الأرض بجوار منازلهم كي يحصلوا طيلة العام على أنواع متعددة من المزروعات وليس لكى يستمتعوا بمشهد الربيع الدائم .

ويتمتع الفلاحون عادة بصحة جيدة ، ولامحهم بشوشة ، بحيث تتناقض مع ذلك الهوان الذى قدر عليهم على الدوام أن يقاسوا منه . وهم مجاف اشداء ، وهم يستطيعون تحمل كافة المتاعب ، فتراهم نائمين وقت الظهيرة فوق أرض ملتهبة وينامون على هذا النحو ساعات متوالية ، يتعرضين للهب الشمس ، وهو أمر يكفى لقتل الرجل الأوربى ، لكن تلك هى قوة الاعتقاد الذى يتوافق الفلاح معها على الدوام . وهم لا يكادون يحسون بالحرق إذ لا تمتلك هذه الطبقة الاوتها الجسدية ، ولعلها وفيها عدا هذه الميزة . اتمس طبقات مصر .

ولا يتمتع الأغنياء وسكان المدن بمثل هذه البنية القوية ، إذ يبدو عليهم منذ أعوامهم الأولى الضعف والتهدل ، فالأطفال من الجنسين شديدا النحول لحد كبير ، وعندما تتقدم بهم السن فانهم يحتفظون بهيئتهم التى كانوا عليها وهم صفار ، حتى ليظنهم المرء رجلا مريضين ، وسوف نتحدث فى مكان آخر عن الأمراض الخطيرة التى تهددهم ، لكننا هنا سوف نكتفى بالحديث عن آلام الأسنان التى يبدو أن الافراط فى الأكل هو السبب فى حدوثها ، إذ يتعرض الأغنياء من المصريين كثيرا لهذه الآلام ، حتى أنه من النادر أن نرى واحدا منهم سليم الفم بالرغم من كافة الاحتياطات التى يخفونها ليحتفظوا بأسنانهم سليمة ، فهم ينظفونها مرتين فى اليوم بنوع من مياه صابونية ولا يفوتهم أن يكرروا نفس الشيء بعد تناول أقل طعام . ويبدو أن سوء بعض ما يتناولون من أطعمة هو السبب فى هذه الآلام حيث أن الفلاحين لا يصابون مطلقا بأمراض الأسنان تلك . ومع ذلك فيستحيل علينا على سبيل المثال أن نتفق مع جان فيلد Jean wiled بأن أسنان المصريين تالفة لأنهم يصونون بكثرة تصب السكر ، فلو كان الأمر كذلك لكان سكان الريف أول من يهاجمهم هذا المرض ، كما أننا لا نستطيع كذلك أن ننسب هذه الأمراض بشكل مطلق الى عادة شرب المشروبات الساخنة وبشكل أساسى : القهوة ، ذلك أن آلام الأسنان كما لاحظ نيبور Niebuhr بحق فى كتابه Description de L, Arabie قديمة جدا فى مصر ، وهى تسبق

بوقت طويل اكتشاف البن ، اذ يشير هيرودت عندما يتحدث عن الأطباء الى فئة منهم مهمتها اساسا علاج النمل .

ويتميز المصريون باحترامهم لكبار السن ، كما ان حب الإبناء هو أيضا واحد من فضائلهم الأساسية ، وينظر الشبان لأبائهم بنوع من التقديس الدينى ولا يجرؤون أن يدخلوا أمامهم على الإطلاق ، ولا يسمحون لأنفسهم بتلك الميزة الا بعد زواجهم ، وهنا فقط يعتبرون أنفسهم رجالا ومع ذلك يظل آباؤهم على الدوام أولى أمرهم ، وموضع حبهم وعاطفتهم . وفى بلاد كهذه تدين بوجودها للنيل فان كل شيء يرتبط بهذا النهر ، وما تزال توجد حتى اليوم عادات كانت تحدث فى الأزمنة الماضية ، فالمسلمون على سبيل المثال ينتظرون أولى بشائر الفيضان والاحتفالات التى يقوم بها الناس فى هذه المناسبة لى يحتفلوا بأعراسهم ويستمر ذلك حتى حلول شهر رمضان، ومن النادر ان يتزوجوا قبل او بعد هذه الفترة التى يبدو ان العادة هى التى حددتها .

وقد فرض محمد الوضوء لمرات عديدة فى اليوم ، واصبح هذا التقليد واحدا من الفرائض الأساسية لتلك الديانة التى أسسها هذا المشرع . ونحن لا نستطيع ان نلومه فى هذا الخصوص حيث ان الوضوء فى كل البلدان الحارة ضرورى للنظافة ، بل انه ضرورى للصحة . ويفضل المسلمون كل جسمهم كلما استطاعوا او يكتفون بغسل أجزاء منه ، ومن هذه الأجزاء أعضاؤهم التناسلية ، ويستخدمون فى هذه العملية يدهم اليسرى ، اما اليمنى فتبقى لأمر أكثر نبلا . فهى التى توزع الطعام وتحبى أو تقدم للكبار إمارات الاحترام أو الخضوع بوضعها فوق الرأس .

والمساجد عبارة عن تجمعات شيطانية ، اذ يتجمع هناك اناس ينتمون فى أمور تتعارض تماما مع قداسة المكان ، بل هم يندمجون أحيانا فى اهتمامات مجافية للذوق ، فهناك ترى خليطا من المتصدين يؤدون الصلاة ، وبؤساء يتفلون ويقتلون ما بملابسهم وأجسامهم من قمل وبراغيث ، وعاطلين نائمين وحرفيين منهمكين فى ممارسة أعمالهم . وينظر لتلك الأمور بتسامح كبير وليست مصر هى البلد الإسلامى الوحيد التى تفتقر فيها بحكم العادة تلك العادات السيئة .

ويتقدس المسلمون هناك عددا من الأولياء الموتى ، وهم لا يعظمونهم الا لكى ينالوا منهم الصحة لانفسهم او الخصوبة لزوجاتهم العقيمات . ويرون فى اوليائهم كذلك القدرة على ابطال مفعول الحسد والسحر المؤذى ، ذلك ان الجهل والتعصب يحملانهم على ان ينسبوا لمجرد نظرة سريعة من العين الكثير من التأثير الضار على صحة المرء بل على حياتهم كلها . وجدير بالذكر ان اليهود وهم ليسوا اقل تعصبا ولا تطيرا من العرب يقدرسون اخبارهم لنفس الغرض . وبخلاف ذلك ، يلجأ العامة لوسائل أخرى كثيرة سنتحدث عنها فيما بعد لكى يبعدوا العين « الردية » كما يقولون .

ويقوم المصريون بممارسة أخرى مضحكة ، تعود الى ضعف نظامهم الروحى ، فيحرص المسلم منهم بعد ان يقص شعر رأسه او لحيته على الا يرمى بها فى الهواء ، بل يطويها بعناية داخل ورقة ثم يضمها بحرص فى احد الشقوق . ويتبع الشعب كله على وجه التقريب هذه العادة العجيبة .

وقد قام الجيش الفرنسى بعد احتلال هذه البلاد بإنشاء مستشفيات فى كل المدن الكبرى ، وكان بعض المسلمين يترددون على هذه المستشفيات للقيام بمهمة دفن الموتى . وقد لاحظنا انهم يضعون جثث المسيحيين بطريقة عكسية تماما لتلك التى يضعون بها جثث المسلمين . وسألناهم ذات يوم عن السبب فى هذا التمييز فأجابونا بجسدية تامة « اتنا نحن اتباع محمد الذى ينبغى لأرواحنا ان تصعد الى السماء ، لذا فنحن نرقد جثث المسلمين على ظهورها ، اما أرواح الكفار فينبغى على العكس من ذلك ان تهبط الى الأرض لذا فنحن نرقد جثثهم على بطونها حتى نسهل من مهمة أرواحها ونقبر عليها المسافة » .

وللمالك عادات ترجع الى مزاجهم وتربيتهم ، فهم لا يُشاهدون مطلقا بدون سلاح ، بل انهم لا يتوجهون الى حفلة طعام دون أن يرتدوا كافة سلاحهم ، ذلك ان الخيانات المستمرة فيما بينهم تفرض مثل هذا الحرس ، كانت الموائد والاحتفالات الكبرى على النوم هى المناسبة والوسيلة لتنفيذ عمليات الاغتيال او الانتقام ، انهم يتمسكون اذن بمناسبتهم باحتياطهم ضد هذه المكائد . ومن جهة أخرى ، فان عادة أن يكون المرء مسلحا هى عادة شائعة بين الشرعيين ، بل هى عندهم أمر من أمور الجاه والعز ، ويشكل السلاح على نحو ما جزاء من ملابسهم . وسوف يكون

الأمر في غير تمامه لو أن الحزام لم يكن ملينا بالطبنجات الفضية والخناجر الجميلة . وتتفق هذه الاداة القاتلة مع نوع الحياة التي يحيونها ومع ميولهم الجموح .

والمصريون بشكل طبيعي نحيلو الجسم ، وذوو أمزجة سوداوية ، ولا نجد من بينهم رجالا ضخام الجسم وأتواء الا عند الاقباط أو المسيحيين الشرقيين .

وأكثر الناس حياء بين المصريين هم الاقباط ، ولا يمكن للمرء أن يتصور الى أى حد بلغ جنبهم وتخائلهم ، ومن السهل تفسير ذلك ، محالة العبودية التي انتهوا اليها منذ قرون كثيرة هي السبب الحقيقي لذلك .

وإذا كان صحيحا أن مصر القديمة هي التي أوحى للشاعر أروفيوس بالأفكار الأولى لهارمونيته الموسيقية ، فإن مصر الحديثة قد فشلت في هذا المجال كما فشلت في أمور أخرى . فالموسيقى في هذا البلد ليست سوى نوع من الانغماس الغليظة والريفعة تنفرغ ضوضاءها المنفرة والمنافية للذوق السليم في الأذان فتكاد تخرجها . ومع ذلك فإن لهذه الموسيقى المليئة بالحبوب — كما نرى — قدرة عجيبة على ادخال السعادة الى الجنس اللطيف في مصر ، الذي يحتقر في نفس الوقت وبشكل كبير موسيقتنا الأوربية . وقد شاهدنا امرأة يغمى عليها من فرط الانتشاء وهي تستمع لصوت أجش لأحد المطربين العرب ، بينما كنا نحن الأجانب نعدّه صوتا عاجزا يبعث على التقتز . وهم يصحبون أغانيهم بألة موسيقية أو آلتين حادتين ليس بينهما تناسق (١) . ومغنيات مصر المفضلات هن العوالم (عالة) . وهن يشكلن واحدة من مباحج وملذات المصريين . ومع ذلك فإن صوت هؤلاء العوالم منفر وغير مقبول وينبغي أن تكون مصريا حتى تجد في

(١) ينبغي أن نلاحظ أن الموسيقى العربية — بعيدا عن التونات وأنصاف التونات الموجودة في سلمنا الكروماتيكي — تتمتع هي أيضا بأرباع التون . وهذه النغمة هي التي تأخذها الفن الأوربي ككشفات خاطئة . ولكن عندما تدرس الأغنية العربية بشكل أفضل فسوف نرى على الفور أن أرباع التونات هذه تشكل جزءا من السلم الموسيقي . انظر في هذا الخصوص دراسة المسيو فيوتو Villoteau حول موسيقى المصريين الحديثين .

وصف مصر ، الدولة الحديثة ، ج ١ ، ص ٦٠٧ وما بعدها ،

صوتهم بعض الطرب . وتنسب هؤلاء السيدات عادة الى الطبقات الشعبية ، وهن مشهورات بكونهن شاعرات مرتجلات .

ومن الأشياء التى تلفت نظر الأوربي أكثر من غيرها عند عبوره شوارع القاهرة أن يرى بعض الشبان تغطى أجسامهم الهلاليل والاثربة لكنهم يتجادلون فيما بينهم بكثير من الجدية والاهمية . وليس أكثر مثارا للدهشة من أن ترى بعضا من العامة يتشاجرون ، فهم يتبادلون السباب والصيحات العنيفة ، ويهدد بعضهم البعض ، بل يصل الأمر لحصد أن يتلايموا بالعصى ثم يتفرتون دون أن يصل بهم الأمر لأبعد من ذلك ، ومن النادر أن تصل مشاجراتهم لنتائج أكثر خطورة .

ونلاحظ فى المصانع المهارة التى يستخدم بها العمال إبهام قديمهم لاتجاز أعمالهم ، ولا تستطيع أيديهم بكثير من الجهد أن تجارى أقدامهم فى تنفيذ نفس الحركات بمثل هذه الدقة والسرعة .

ويمكن لنا أن نذكر تحت بند المهارة ، مهارة الحلاتين المصريين ، فلعلمهم ابرع زملاء مهنتهم فى العالم كله ، ومع ذلك غاساليهم تبعث على الضيق حين لا يكون المرء متعودا عليها . وهم يتنوتون على وجه الخصوص فى حلقة شعر الرأس بالموسى .

ويتمتع الشرقيون الذين يعملون بتجارة الفضة عامة بشهرة سيئة بخصوص أمانتهم واستقامتهم ، لكن هذا الاتهام ظالم ذلك أن الوزائين الموميين والصرافين والعاملين فى تبديل العملات مشهود لهم فى مصر على العكس من ذلك بالنزاهة والاستقامة ، ولعلنا لا نجد مثالا واحدا على أن رجلا واحدا من العاملين فى هذه المهن قد اتهم بإساءة استغلال هذه المهام العظيمة التى نيظت بهم . ويحوز الصرافون سمعة طيبة جدا فى مجال التجارة . ومع ذلك فمن الصحيح أن لديهم وسائل مشروعة كثيرة يصلون بواسطتها الى تكوين ثروة كبيرة دونما حاجة منهم الى الغش . وهم يستطيعون أن يتركوا عملهم هذا فى بضع سنوات ، او يستثمرون فيه حسب مزاجهم — ذلك أن هذا الوقت القصير يكفى عادة لى يجعل منهم أثملا بالفى الثراء .

٨

عن الأمراض الرئيسية

فى ظل وجود حرارة متساوية الدرجة — على وجه التقريب — طيلة العام ، وفى ظل سماء صافية تغسل الموجودات والأشياء كل صباح بما تكونه من الطل وندى ، فان مصر لا تتعرض الا لعدد قليل من الأمراض ، ومع ذلك فهذه الأمراض على قلتها قاتلة فى معظمها لحد يثير الفزع . ومما لا جدال فيه ان نضع على رأس قائمة هذه الأمراض : الطاعون ، هذا الوباء — الكارثة الذى استطاع بسبب النشاط الذى لم يمكن ادراكه حتى الآن للجسيمات الحاملة له ان يفلت الى اليوم من بحوث علم الطب . ويندلع الطاعون فى مصر على فترات تقتارب او تتباعد ، ويمكن القول بأنه نادرا ما ينقطع فى القاهرة والاسكندرية بصفة خاصة . فبعد ان ينكمش المرض بفعل الحرارة الشديدة او برودة الشتاء القارسة ، فانه يعود ليتولد من جديد وتعود اليه قواه المهلكة فى الفصل الذى تبيل الحرارة فيه الى الاعتدال . وفى بعض الأحيان يكون المرض طارئا وعارضا ، وعفئذ يكون قليل الخطورة ويختفى فجأة بعد مدة قصيرة ليعاود الظهور من جديد بعد بضعة اشهر . ويبدو توالى المسلمين وعدم حيطتهم وسذاجتهم الروحية باعتبارها الأسباب الرئيسية لبقاء هذه الكوارث . فهؤلاء فى الواقع ، يتصورون ، متمثلين بما ورد فى بعض نصوص القرآن ، ان ليس ثمة ما يحدث دون ارادة من الخالق ، وان ليس ثمة ما يمكنه ان يرد قضاءه ومشيئته التى لا محيص عنها ، لذا ينظرون الى الاحتياطات التى تم اللجوء اليها لمنع انتشار الطاعون كامور لا جدوى منها اذ اتهم ان يصيبوا مطلقا بلاذى اذا كان مقدرا لهم ان يعيشوا ، كما ان شيئا لا يمكن له ان يحيمهم اذا ما كانت مشيئة الله قد ارادت لهم ان يموتوا .

ويتذكر سكان القاهرة بفزع نوبة الطاعون التى حلت ايام على بك ، وتلك التى حلت ايام اسماعيل بك ، ولقد أدت النوبة الاخيرة على وجه الخصوص ، وهى التى اندلعت فى ربيع ١٧٩١ الى حدوث مطلق كبرى ، فقد كلفت تحصد الألوف فى كل يوم ، وكان اسماعيل بك وكبار المالك من بيته من أوائل ضحاياها . وقد كلفت هذه النوبة مدينة القاهرة ظلت سكنتها

ولسنا هنا بصدد الدخول فى تفاصيل حول مرض الطاعون ، فلسوف تذهب بنا الظنون مذاهب شتى حول تحديد اسبابه دون أن نتمكن بطريقة كافية من أن نحدد طبيعة العوامل المتسببة فى حدوثه . ذلك أننا لا نريد أن نضاعف من حجم عدد الامراضات التى قدمت والتى سوف تقدم فى هذا الخصوص ، فالطاعون ينتقل بفعل الاحتكاك والتلامس ، فإذا ما استطاع المرء أن ينعزل تماما وأن يمتنع عن ملامسة جسم مريض أو استنشاق هواء تنفسه فبإمكانه أن يتأكد أنه سوف يفلت منه . ويعتقدون هناك فى الشرق أن المرض يمكن أن ينتقل أيضا عن طريق حاسة الشم ، وأن الزهور تنثر بيسهولة الأبخرة العفنة الناقلة للطاعون (١) .

وبرغم أن الدوسنتاريا أقل بشاعة من الطاعون بكثير . فإن آثارها فى مصر ليست أقل تدميرا ، وذلك بسبب أظعمة المصريين الرديئة وبسبب استعداد أجسامهم وبنيتهم التالفة ، وبسبب لهم هذا المرض دمارا مروعا ، وهو يهاجم أطفالهم على وجه الخصوص ويحصدهم بطريقة تبعث على الرعب .

وفى نفس الوقت فقد قدر على المصريين المحاطين بالصحراوات من كل جانب ، حيث تنتشر رمالها الناعمة والحادة بفعل الريح وحيث يتعرضون هناك لتقلبات مفاجئة فى درجات الحرارة ولرخات الطل المتزايدة — قدر عليهم أن يتعرضوا لأمراض العيون منذ زمان ضارب فى القدم وهذا ما يؤكد هيرودت حين يشير — من بين الأطباء — الى أولئك الذين يعملون منهم فى علاج أمراض العيون . وليس الرمد اليوم منتشرا بأقل مما كان عليه فى الماضى . بل لعل انتشاره قد ازداد بسبب من إهمال الشعب وعدم

(١) أظهر السيدان ديجينيت ولارى des Genettes & Larry كبيرا أطباء الجيش أثناء مدة الحملة ، شجاعة تعلو على كل مديح حتى يتعرفا على العوامل المسببة لهذا المرض ، وقد أمكنهما أن يجمعا مخاطرين بذلك بحياتهما عددا كبيرا من الملاحظات القيمة عن اساليب العلاج الواجب اتباعها . ويتذكر كل رجال الجيش الذين لا يزالون على قيد الحياة ، بكل الأسى تضحيتهما الكريمة . انظر مؤلفاتهما وانظر كذلك مقالة السيد الدكتور سافارسى Savaresy من الطاعون الذى قسمها الى مذكراته ، وكذلك مقالة المسيو أسالينى Assalini

حيطته ، اذ ينام الناس فى الهواء الطلق ، حتى لتساعد الرطوبة وبرودة الجو فى تكوين التقيحات التى تسبق علل العيون او عقدان البصر .

ولم يكن بمقدور جنودنا ان يفلتوا من هذا المرض ، وقد ظفوه فى البداية معديا . ولم يكن التجار الاجانب ليفلتوا بدورهم منه ، حتى لبدو وكان المرض يفضل سكنى عيونهم ، ومع ذلك فهو لا يستقى المواطنين ، فمن بين كل خمسة اشخاص ، ثمة واحد يضع عصبة على عينيه .

اما الجدري الذى كان بشعا فى بلادنا منذ زمن طويل ، فانه يواصل تدميره فى الشرق حيث يهيبء له التعصب والخرافات — كما فى حالة الطاعون عمرا طويلا(١) وهو مرض بشع فى مصر ، ويظهر هناك بشكل منزع وبدرجة اشد خطورة مما كان يحدث فى اوربا . ونلاحظ ما يفلت الاطفال فى سن مبكرة من مخاطره وخبئه ، واذا ما كان بعض البالغين او الرجال الناضجين يشفون منه فانه يترك على كل اجسامهم ندوبا عميقة ، وهو ينتشر فى فترة معينة من العام شأنه فى ذلك شأن الطاعون(٢) . لكن ما يجعله ابلغ ضررا منه فى اى مكان آخر ، ان الامراض التنفسية لا تشفى هناك بشكل جذرى . لذا ينتقل ميكروبيها البالغ النشاط من جيل لجيل ويصيب الشعب كله وينتقل الى دم الاطفال مع لبن الرضاعة ، وعندما يأتى الجدري بعد ذلك ليهاجم هذه الكتلنات الضعيفة التى اطلقت فيها بالفعل منابع الحياة نفسها ، فلا بد ان نستنتج بسهولة انه سيكون من الصعب على هؤلاء الاطفال الضعاف ان يقاوموا شدة هذا المرض . لذا ، كانت هذه النسبة الكبيرة من الوفيات بين الاطفال فى القاهرة وبقيّة المدن .

ومن الامراض الشائعة فى مصر كذلك الفتق والدمامل . وكان يمكن ان تصبح هذه الامراض اكثر انتشارا لو لم تكن تلك الحيطه الحكيمه من جانب الفلاحين اذ يضغطون اسفل البطن بواسطة حزام جلدى عريض وتهاجم هذه الامراض العارضة الحيوان كما تهاجم الانسان . لكن الانسان

(١) يعتقد كثير من الاطباء ان مرض الجدري قد نشأ اصلا فى مصر .

(٢) انظر ما كتبه المسيو جومار Jomard فى دراسته عن المقلنة بين سكان مصر الحديثة وسكانها القدامى .

لا يلتقى لها فى البداية الاهتمام الكافى ولذا يزيد المرض خطورة ويصبح فى شكل تقيحات تستعصى على الشفاء ولما يكن المريض بعد قد شرع فى العلاج وهكذا شأن القوم مع الأمراض الأخرى ، فالرقى والأدعية الدينية هى العلاج الناجح لكل الأمراض عند عامة الشعب . أما عيادات الطب الشعبى التى انشئت فى المدن فهى تفتال حياة من يسلم إليها نفسه طائعا مختارا من الأغنياء ، وفى الوقت نفسه فإن الخرافة تعمل من تلقاء نفسها كعلاج ناجع غريب لهذا البلد ، الذى تسير أموره المعتقدات المسبقة والجهل والتعصب .

وتشكل كل الظروف التى رصدناها فى الأجزاء ١ ، ٣ ، ٨ العناصر التى عملت على تشكيل أو تعديل تقاليد المصريين وعاداتهم ، ويعود بعض هذه الظروف الى كل العصور حيث أنها ترتبط بالطقس وبالبنية الطبيعية لمصر ، أما بعضها الآخر فهو ثمرة الديانة المسيطرة والأنظمة المستقرة والقوانين التى تحكم البلاد بمقتضاها . وينبغى علينا كى نكون فكرة دقيقة عن بقية الأسباب التى تؤثر بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على تقاليد الاقليم ، أن ننفذ الى كل الوقائع ، وهذا ما سوف نفعله فى الفصول القادمة .

الفصل الثاني

عَنِ الْإِنْسَانِ الْمَضْرِي فِي سِنَوَاتِ عُمُرِهِ الْأُولَى

الطفولة والتربية - الفنون والعلوم
والآداب

١

عن خصوصية المرأة ونظام الرضاعة

قد لا يكون خارجا عن موضوعنا — قبل أن نتحدث من خصوصية النساء في مصر — أن نخوض في بعض التفاصيل حول حياة المرأة المنزلية وحول المكثفة التي تشغلها في المجتمع . فملاحظات من هذا النوع ترتبط بالموضوع بشكل اساسي . واذا كانت المرأة لا تحدث عند الشعوب الشرقية الا تأثيرا بالغ الضالة على الرجل بالمقارنة بما يحدث عندنا في اوربا ، فان الأطفال في سنى عمرهم الاولى برغم ذلك يخضعون لتأثيرها ، ولا يمكن أن يكون امر كهذا — بالنسبة للدارس الواعى — الا واحدا من العوامل التي تؤثر في تقاليد الأمم ، اذ لا يمكن أن يكون مثل هذا الامر خاليا من التأثير ، حتى وان عد من قبيل الاسباب غير المباشرة .

وتقيم الطبقة والثروة بين نساء مصر اختلافات وفروقا أكبر بكثير من تلك التي تحدث عند شعوب الغرب ، لكن هذه الفروق لا تتضح في مجال القرية التي يتلقينها في طفولتهن ، وهي تكاد تكون معدومة بالنسبة لجنسهن كله ، بقدر ما تتضح في مجال العادات التي تنتشر في اوساطهن كنساء وفيما تحاط به السيدات من علية القوم من احتفال وامتياز ومن هذه الناحية ، يمكن لنا القول بأنه لا توجد في مصر الا طبقتان من السيدات : طبقة ترفل في الثراء ، ويؤدي الغنى الى رخاوة نسائها فيقضين حياتهن باكملها داخل مباهج ومسررات الحريم ، وطبقة اخرى قدرت على نسائها حياة نشيطة مليئة بالعمل . ولكي يتضح لك الفرق ، فما عليك الا أن تنظر الى واحدة من زوجات البكوات ، وان تدرس اذواقها وسلوكها ومباهجها وملذاتها واهتماماتها اليومية ، فهذا كفيلا بأن يقدم لك فكرة كاملة عن كل السيدات الثريات ، ثم عليك بعد ذلك أن تنفذ الى ما تحت سقف واحد من الحرفيين او الى داخل كوخ أحد الفلاحين وسوف ترى أن الظروف المتشابهة التي تحياها كل هؤلاء النسوة هي التي تحدد لهن ملابسهن . . .

وهكذا يمكنك أن ترى كل مباحج الرخاوة وترفها في جانب ، وفي جلها
آخر سوف ترى كل خشونة العمل ومقتضياته .

وبرغم ذلك كله فثمة ذلك الذوق الفطري عند كل النساء الذي يبدو
وكأنه يعمل على التقريب بينهن في مختلف ظروفهن ، ذلك أن هذا الذوق
يتعلق بالمرأة كامرأة بعيدا عن الطبقة التي تنتمي إليها ، ويمكن القول بأن
هذه هي نقطة الالتقاء الوحيدة التي تربط بين النساء على اختلاف
طبقاتهن ، ونعني بذلك حب التائق والتزين بالجلى ، فكثر من السيدات
في مصر يلبسن من تلك الحلى ما يفوق كل ثروة أزواجهن ، وليس من النادر
أن نرى هناك زوجة لحرفى بسيط تتزين بمجوهرات ثمينة لو أن اتسع
لواحدة من ثريات النساء في أوربا أن ترتديها لأدركتها كل إمارات الزهو
والخلاء ، ومع ذلك فقد تكون زوجة هذا الحرفى من يعانين في الحصول
على قوت يومها . وهذا الكلف من ناحية السيدات المصريات بهذا النوع من
الزينة يرتبط بطريقة احساس هؤلاء السيدات بكرامتهن حتى أن أبسط
تاجر لا بد أن يوفره لزوجته أرضاء لها ، ويؤدى ذلك في النهاية وبدرجة لم
تكن متوقعة الى تضيق ممارسة تعدد الزوجات ، لذا يكنى المسلم
التواضع الثراء بزوجة واحدة أو اثنتين ، ولن يكون بمقدوره أن يزيد عن
ذلك والا سوف يصعب عليه أن يساوى بينهن . وهكذا ، فقد وضع خيلاء
النساء وغرورهن حدودا لأمرات الرجال وشهواتهم .

ولقد سبق أن تحدثنا عن حياة سيدات الحريم ، وكيف أنها فارغة
ورتيبة ، وكيف أن الواحدة منهن تقضى يومها راقدة فوق فراشها أو مقعدة
على وسائل رخوة ، تحيط بها جمهرة من الإماء شحيدات الانتباه ، لحد
يتنبان ، معهما بما قد يجول في أرائنها حتى ليوفرن عليها حركة الإشارة من
أصبعها ، لذا فإن مثل هذه السيدة تكتسب في وقت قصير سمعة غير
مستحبة ، لكن الأتراك يعتبرون هذه السمعة واحدة من أهم شروط الجمال ،
ومع ذلك فلعل هذا الميل منهم يعود الى أن كل النساء هناك في المادة
سمينات ، وهذا طبيعى بالنسبة لنساء يتلقين هذا النوع من النشأة المرفهة .
وفضلا عن ذلك فلون بشرة هؤلاء السيدات ناصع البياض ، وهيون
غالبتهن آية في الجمال وملامحن على وجه العموم متناسقة . لكن جمود
ملامحن قد جعل وجوههن خالية من كل تعبير ، كما أن سكونهن يشي

برخلوتهن ، وعظلهن فضلا عن ذلك خال من لية معرفة . ونساء هذه الطبقة يلجأن الى وسائل تبدو لنا بالغة الغرابة حتى يضمن روتنا على جمالهن وحتى يتلوهن آثار الزمن ونعل الطيبة ، فحيث اتفن يرون فى كثافة الحواجب امرا شائها فانهن يستخدمن الموسيقى لكى يصبح هذا الحجاب الكث مجرد خيط رفيع فوق الجنون . وهن يعرفن كذلك المساحيق ويضمن على خدودهن الخال ويعرفن كافة الوسائل التى تستخدمها المرأة الأوربية فى التزين . وتلجأ الشابات المسيحيات وكذا الروميات اللاتى يطمحن أن يحصلن قبل الاوان على كل جانبية المراحة الى وضع ضامدات من لب لب الخبز الساخن بين النهدين وتحدث هذه العملية بالنمل اثرها ، ولكن غلان التدين قد نضجا بسرعة وقبل الاوان فتنها فى نفس الوقت يفقدان من مرونتهما ولعلنا نستطيع أن نجد فى ممارسة هذه الطريقة الغريبة سر السرعة التى يذبل بها جمال المرأة الشرقية . وهكذا فنساء مصر كما رأينا لسن اقل من مثيلاتهن الأوربيات غيرة على سطوة جمالهن وذلك بالرغم من أنه ليس أمامهن من فرصة لاستعراض جمالهن هذا الا امل أزواجهن أو اترابهن ، فهذا النوع من الانتصار يرضى كرامتهن بشدة .

وفى الطبقة الدنيا يتغير كل شيء ، فالنساء مهمولات بأمور البيت ، اما مباحج البطالة فلم تخلق لهن ، نهامن فى الحقول يقتسمن مع أزواجهن العمل أو يساهمن على الأقل فى جعل العمل على أزواجهن اقل مشقة ، لذا تراهن يتتمن بكل الخصائص الجسدية التى تنتج عن مثل هذا العمل المنتظم ، فاجسامهن قوية ، عارية من الشحوم ، وحركاتهن سهلة ، وخطوهن ميسور فى حين أن خطوات السيدات الميسورات ثقيلة متعثرة ، وعلى الرغم من بساطة ملابسهن فان لديهن الرغبة فى أن يتميزن وسط رفيقاتهن ، وذلك بالترين ببعض الحلى المتواضعة ، فيحطن أصابعهن بخواتم عريضة كما يفعل السائس و يزين خصلات شعرهن ببعض قطع من النقود .

ويقيم فى القاهرة وبولاق عديد من الأسر من اصل سورى ، ونساء هذه الأسرات فى العادة جميلات وقامتهن مديدة وعيونهن سوداء واسمة بها شيء من الاغراء ، لكن اتفن الاقنى والطويل بعض الشيء ربما يعطى لشكلهن لمحا من سموخ واضح ، ومع ذلك فهن يبدون بهذا المظهر المتجسرف فى مواجهة السيدات التركيات اللاتى يمثلنهن فى الزى والمعدات ،

وثمة عادة شائعة بين النساء — مسلمات ومسيحيات — وهى أن يسودن حافة جفونهن بالكحل ويحمرن أظافرهن بالحناء ، ويلاحظ المرء كيف يمكن لهذا اللون القاتم أن يضىء شيئا من الغلظة على الوجه ، لكننا برغم ذلك لا نستطيع أن نصدر حكما قاطعا فى هذا الصدد الا اذا رايناها عن قرب وفى ظروف حميمة وليس فى ظروف طارئة تاتى لتجعل مثل هذا الفضول ممكن التحقيق ، ذلك ان النساء فى كل الظروف لا يخرجن مطلقا سافرات الوجوه، بل يغطين وجوههن بالبرقع وهو غطاء مكون من قطعة من الموسلين ، توضع فوق الأنف والوجه وتضايق التنفس ولا بد انه يسبب لهن الكثير من الضيق ، وزيادة على ذلك ، تغطى جبهة المتزوجات منهن بعصابة من قماش اسود تترك بين البرقع والجبهة فراغا ضيقا تستطيع العين ان ترى من خلاله ، اما اولئك اللاتى لم يتزوجن بعد ، فيحملن على جباههن عصابة بيضاء ، اما لون البرقع فهو نفس اللون بالنسبة لهؤلاء ولاولئك .

ولا يدخل الرجال مطلقا فيما عدا بعض الاهل الاقربين الى مسكن السيدات ، ونادرا ما يأكل الزوج معهن ، ويخصص لهن الجزء العلوى من المنزل ، وهذه عادة شائعة عند الأتراك وعند كل الأمم الاسلامية .

وعندما كان يتاح لأحد الأجانب — قبل قدوم الحملة الفرنسية — شرف أن يمثل فى حضرة زوجة أحد البكوات ، او زوجة احدى الشخصيات الكبيرة ، فان هذه الزوجة لم تكن لتستقبله فى حجرتها ، بل فى حجرة طواشيها اول . لكنها لا تظهر لناظره ، وتأمر بتقديم القهوة والشربات الى ضيفها . وتظل تتحدث مع هذا الغريب عن طريق طواشيها دون أن تخرج مطلقا من خدرها . وهكذا لم يستطع الرحالة السابقون على الغزو أن يتعرفوا على احوال سيدات الطبقة المسيطرة ، وذهبت ادراج الرياح كل توسلاتهم للحوح ، فلم يكن عظماء مصر ليسمحوا لأحد بأن يتطلع الى جمال زوجاتهم . ومع ذلك فقد كانوا يستطيعون أن يوفقوا على الدوام بين واجبات ومقتضيات اللياقة وبين تقاليد بلادهم . وتتزوج النساء كما سبق لنا القول فى سن الثانية عشرة، ومن النادر أن تبقى واحدة منهن بلا زواج حتى من السابعة عشرة، بل يحدث أن يدعى أنهن قد نضجن فى سن العاشرة او الحادية عشرة ، ومع ذلك فلمل هذا الامر أقل انتشارا رغم أن ثمة امثلة

عديدة في هذا المجال لا تدع مجالاً للشك فيها نقول ، فقد حدث أن تزوجت شابات قد نضجن قبل الأوان وهن بعد في سن الخامسة أو العاشرة ، إلا أن مشورة السيدات لازمة في هذه الحالة ، ولم يكن زواج مثل هذا ليتم إلا بعد أن تعلن النسوة أن الزوجة الشابة قد بلغت مرحلة النضوج .

ويمكن للزوجة المصرية أن تصبح أما في سن الثانية عشرة ، لكنها تصل لذلك في العادة في سن الرابعة عشرة ، وتظل في سنواتها المقبلة تقدم الأدلة على خصوبتها المذهلة ومن الممكن لها أن تصبح أما مرة كل تسعة أشهر ، ولكننا نستطيع القول لكي تقدم نسبة دقيقة بأن كل مصرية تتزوج تنجب طفلاً كل ثلاثة أعوام ، ويقيم ذلك التقدير نوعاً من التعويض بالنسبة للسيدات اللاتي يمرضن أو أولئك اللاتي يتميزن بخصوبة قليلة أو اللاتي تعطلن بعض الأسباب الخاصة عاجزات عن الإنجاب . والعقم التام شديد الندرة في هذه البلاد ، بل أنه يعد بمثابة عار للمرأة ، لذا تلجأ السيدة العقيم إلى كل الوسائل التي تفرضها معتقدات النساء وخرافاتهن لكي تستطيع الإنجاب . ويقوم الدجالون والمحتالون من أهل البلاد أو من الغريباء باستغلال هذا النوع من النساء فيقدمون اليهن بأثمان كبيرة أشياء يقلل أتمها لا تخيب مطلقاً ، لكن الطبيعة والطقس يعملان عملهما فيساعدان بذلك هذه الأشياء - الوهم - التي يمكن القول بأنها عديمة الجدوى على الدوام .

لكن السيدات في نفس الوقت لا ييقنن خصيبات لسن متأخرة كما يحدث في أوروبا ، فما أن يقتربن من سن الثلاثين حتى تؤدي نوبات الحمل المتكررة إلى جعل الولادة عسيرة مما قد يكلف الطفل الذي كن سيتباهين به حياته . ومن الخامسة والثلاثين هي السن الطبيعية التي يتوقف عندها معظم السيدات عن الإنجاب ، ويظل بعضهن يتمتعن بنعمة أن يكن أمهات حتى سن الأربعين لكن تلك حالة شاذة ونادرة الحدوث . ومن غير المألوف أن ترى سيدة تنجب بعد هذه السن ، وتكون هذه فترة مزعجة بالنسبة للسيدات المصريات ، إذ يشعرن في هذا الوقت ببعض الاضطرابات والتقلبات التي تؤدي صحتهم ، لكن السيدة التي تغلت من هذه الأزمنة يمتد بها العمر في بعض الأحيان لسن متقدمة جداً .

وتتم الولادة عن طريق القابلات ، وهي على الدوام حوادث مميّدة بسبب تلك الحياة الرخوة الهائلة التي تجيهاها المصريات . وعندما لا تستطيع

امراة — بعد ان تكون قد استنفذت كل الوسائل التى يتيحها لها طب الركة العاجز — ان تتمتع بسعادتها فى ان تكون اما او ان تحتفظ بالأبناء الذين انت بهم الى هذا العالم ، فان التبنى يعوضها عن ذلك الحرمان الذى فرضته عليها الطبيعة ، ولا يمكن لك ان تسمع مطلقا من يقول بأن تلك السيدة عقيم او ان ذلك الرجل عاجز . ويقوم الموت بحصد اطفال العائلات الأجنبية على وجه الخصوص ، فالمماليك واليونانيون الآسيويون والعثمانيون والأوربيون وكافة أبناء الأجناس التى لا تنتمى لهذا الوطن يموتون فى المادة دون ذرية تخلفهم وذلك اذا ما تناسلوا فيما بينهم . أما عندما يتزوجون من سيدات هذا البلد فان بمقدورهم ان يتمتعوا عندئذ بمباهج الأبوة دون ان يستطيعوا مع ذلك ان يتطلعوا الى ان ينالوا نعمة ان يتركوا بعدهم ذرية كبيرة العدد .

ولا يصبح للمرأة المصرية من شاغل — وقد أصبحت اما — الا أن تعنى بطفلها ، فتضع فيه كل اهتمامها وتركز حوله عواطفها ، ولا تستطيع اقوى الشدائد ان تدفعها لكى تتخلص من هذا العباء الذى تظل فخورة به طيلة تسعة اشهر ، بل ان طفلها المرتقب ينسبها آلام الوضع ، فهذا الكائن الضعيف والعزيز هو تعويض لها عن آلامها الطويلة ، وكم هو جليل بالنسبة لها ان تقوم بواجبات الطبيعة ! انها لن تسلم مطلقا هذا الطفل الذى يدين لها بوجوده وجسمه السليم لعناية سيدة أخرى غريبة عنه ، فهى شديدة النهم للاطفائه الاولى ، وهى كذلك نظمته من لبنها ولا تخشى مطلقا ما يعدها به هذا المولود الجديد من متاعب ، فلقد قررت ان تتحمل ذلك بسرور ولسوف تتحمل فى شجاعة اية مخاطر كبرى قد تتهددها . لكنها لا يمكن ان تسمح له مطلقا بأن يخلع على أخرى ببساطة ذلك الاسم الذى يصنع لها سعادتها ومجدها، اسم الأم ، الذى تغار عليه وتفخر به ، لذلك لا تعرف فى مصر هذه الأمراض التى تثير أحزان الأمهات الشابات اللاتى يمتنعن عن ارضاع أطفالهن، أما عمليات سكب لبن صدر الأم وغيرها من الأمور التى تضعف صحة الأمهات فسوءات لا يعرفها الشرق . فكل امراة هناك هى مرضعة أسرته ، اما اذا ما شاءت الطبيعة الا تهيب الكمية الكافية من اللبن لارضاع مولودها الجديد فانها ستطلب معونة سيدة أخرى ، لكن هذه المرضعة لن تعد مطلقا غريبة عن الأسرة . اذ يمكن القول بأن صفتها كمرضعة سوف تنسبها الى هذه الأسرة وسوف تمنحها حقوقا أبدية فى مواطن الأبوين وفى عواطف الرضع . وهكذا يبدو ان العناية الالهية

تقيم نوعا من التمويه بين الزايا التى توزعها على الشعوب ، فهذا هو المصرى الذى ليست له نفس مباحنا وملذاتنا أو نفس ميزاتها الجسدية أو الروحية التى تبعده عن أسرته ، يعرف أكثر منا معنى المواطف الطبيعية ، فاطفاله هم كل شيء فى حياته . وهم مصدر كل سروره وفخره وآماله ، ولربما كانت إحاسيسه أكثر تبلدا وأقل تنوعا لكنها أكثر نفاذا وأكثر حقيقة ، وهو يدين بذلك الى براءة عاداته وكذا الى بساطة تقاليده . لقد وجدها كامنة فى نفسه وفى ثنياه أسرته ، فليس ثمة من المرارة والنهم العائلى ما يسهم بمباهجه .

وتولى النساء المسلمات لأطفالهن اهتمامات دقيقة كثيرا ما تاتى بعكس المرجو منها بالنسبة لهؤلاء الأطفال ، فهن يسرفن فى تغطيتهم بالملابس الثقيلة ويؤذين معدتهم بالطعمة غير صحية ، فيسرفن على سبيل المثال فى تقديم السكريات والفاكهة من كل نوع لهم وتكون النتيجة أن يهلك عدد كبير من هؤلاء الأطفال فى سن مبكرة ، ويأتى الجدرى ليساهم فى الارتفاع بنسبة الوفيات بينهم كما سبق لنا القول . ففى القاهرة على وجه الخصوص يتسبب الجدرى فى حدوث أضرار هائلة ، اذ يهاجم الأطفال من الجنسين ولما تكن أعمارهم قد تجاوزت السنتين أو الثلاث ، ولا يمكن لمثل هذه الأجسام الضعيفة التى اتلفت الأطعمة الضارة بنيتها أن تقاوم بسهولة عنف المرض . وهكذا يمكن القول بأن هذا الشعب يدين بوجوده لخصوصية نسائه بينما يصيب على الأجناس الأخرى أن تستر على قيد الحياة فى هذه البلاد ، وسوف نقدم الدليل على ذلك فى الجدول الآتى عن حالة أهم الأسر المملوكية :

اسماعيل بك : لم يترك الا بنتا واحدة .

ابراهيم بك : له طفلان على قيد الحياة .

قاضى آغا : أنجب ١١ طفلا ، بقى منهم ٤ على قيد الحياة .

مراد بك ، أيوب بك الصغير وأيوب بك الكبير ، الألى بك ، محمد بك المنقوخ ، عثمان بك تبلس ، عثمان بك الشرقاوى ، عثمان بك الأشقر ، عبد الرحمن بك ، عثمان بك البرديسى ، عثمان بك الطنبورجى ، حسن بك

الجدادى ، صالح بك ، ابراهيم بك الوالى ، محمد بك العبدولى ... كل هؤلاء بلا أطفال .

محروق بك بن ابراهيم بك : له طفلة واحدة على قيد الحياة :
على بك الكفيا : له طفلة واحدة على قيد الحياة وكذلك سليمان بك .
احمد بك الكرارجى : لم ينجب اطفالا على الاطلاق ، ونفس الشيء
بالنسبة لعثمان بك حسن وكذلك سليم بك ابو دياب وقاسم بك .
حسن الكاشف الشركسى : لم يخلف سوى طفل اعمى .
محمد اغا : انجب ٢٢ طفلا لم يبق منهم على قيد الحياة سوى طفل
واحد ضعيف البنية .

ومن هذا نرى كيف كان عدد اطفال المالك الذين يبقون على قيد
الحياة ضئيلا . ويمكننا من جهة اخرى ان نعد اسرا اجنبية اخرى كثيرة لم
تكن بأسعد حظا من ذلك . وهذا دليل على ان الوطنيين وحدهم فى مصر
هم الذين لديهم فرصة البقاء عن طريق التنازل . ويبدو ان طبيعة الطقس
تلفظ بضاد بذور الأجناس الغريبة .

وقد خصص محمد نصا عن الواجبات التى ينبغى على الأمهات
القيام بها تجاه اطفالهن . يقول المشرع العربى :

« والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة
وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف لا تكلف نفس الا وسعها
لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده ، وعلى الوارث مثل ذلك فان أراد
فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما وان اردتم ان تسترضعوا
اولادكم فلا جناح عليكم اذا سلتم ما آتيتم بالمعروف » (١) لكن السباح
البادى فى هذا النص يظل بالنسبة للزوجات المصريات غير مطروق .
اذ ان لهن صالحا مزدوجا فى ان يقمن بأنفسهن بالعناية التى يتطلبها

(١) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الآية ٢٣٣ — المترجم .

الأطفال ، فمن مدفوعات لذلك بدافع من الحب الأموى أولا ، وهن مدفوعات لذلك ثانيا بفعل احتياجهن لأن يجدن لأنفسهن اهتمامات وأعمالا تقطع الرتبة المعتادة في حياتهن ، ويتفق ذلك مع كثير من أساليهن فى السلوك ، فهؤلاء السيدات اللاتي تظلن رعوسهن من أبة معرفة واللاتي لا يعرفن عادة اللجوء الى الكتب للذة فراغهن ، يتمسكن — بفرحة طاغية — بأية وسيلة يمكن لها أن تزجى بمضى هذا الفراغ . من هنا فلن ممارسة واجبات الأمومة الشاقة بالنسبة لهن نوع من دفع الملل ، وإذا ما حدث أن حملن ثنية أثناء الرضاعة ، وهذا امر مألوف ، فتهن يستمررن فى ارضاع الطفل حتى الشهر السابع أو الثامن من الحمل حيث يكون اللبن قد تناقص ، وعندئذ يتخذن لطفلهن مرضعة .

ويتصرف البدو بطريقة جد مختلفة ، إذ لا تقوم الأمهات عندهم برضاعة أطفالهن ، حيث يرفض الآباء ذلك بحجة أنهم يسرفن فى تدليل الأطفال ، لذا يمهدون بالأمر الى مرضعات .

وقد سبق لنا أن تحدثنا عن العناية الفائقة التى توليها النساء المصريات المتقيات فى المدن لأطفالهن منذ نعومة أظفارهم وهى عناية تضر على الدوام بصحة أطفالهن ، ولكن زوجات الفلاحين — على العكس من ذلك — يكتفين بلف أطفالهن بقطعة من قماش خفيف ويحملنهم معهن ويسمحن لهم بالزحف شبه عراة على الأرض ، وينتج عن هذه النشأة أن يتعلم أطفال الفلاحين المشى فى سن مبكرة ، كما أنهم يكتسبون قواهم بسرعة ، ومنجاة بعد قليل يصبحون ناعمين لأبائهم . وعادة ارتداء السروال الشائعة فى أوربا مجهولة تماما فى مصر وكذا فى كل بلدان الشرق ، لذلك فننادرا ما نرى رجالا مقصنعين يجدون حرجا من الاستجابة لقضاء ضرورات الجسم .

والأب فى مصر هو الذى يقوم بتسمية طفله ، ويقوم لهذا الغرض بجميع اصديقاته وأقاربه فى اليوم السابع للولادة ، وعادة ما يختار لطفله اسم جده إذا كان الولود ذكرا ، أما إذا كان بنتا فليس ثمة قاعدة لاختيار اسمها ، ويختار لها عادة اسم زهرة أو اسم شيء من الأحياء الثمينة الموجودة فى الطبيعة .

الختان

بالرغم من أن الختان عادة إسلامية ، إلا أن المذاهب الإسلامية تنظر إليه بشكل مختلف ، فاتباع المذهب الشافعي يرونه واجبا دينيا لا محيص عنه ، أما اتباع المذهب الحنفي فيرون أن الختان ليس سوى فعل يثاب المرء عليه ويعتقون بأن بإمكان المرء أن يكون مسلما ، حسن الإسلام ، بدون ختان ، ومع ذلك فما دام ينبغى على المسلم أن يأخذ به فليس ثمة من الأسباب ما يكفل له أن يرفضه .

وليس ثمة سن محددة لأجراء عملية الختان هذه فيمكنى أن يختتن الأطفال الذكور قبل البلوغ إذ عليهم في هذه السن أن يؤدوا الصلاة ، وهم لا يستطيعون أن يحصلوا على الطهارة التي يتطلبها محمدا كشرط لهذه الشعيرة الدينية ما لم تكن غلفتهم قد انتزعت .

وعندما يريد أحد الآباء أن يقوم بختان ولده ، فإنه يقوده الى المسجد وهناك يصلى الإمام على الشاب الصغير الذى يخرج بعد ذلك من المسجد ليجد جمعا من الأهل والأصدقاء ، ويصعبه هؤلاء في جولات طويلة على ضجة الآلات الموسيقية ومع كثير من الأبهة حتى منزل والده . وعندما يكون هذا الطفل ابنا لأسرة سرية أو ذات نفوذ فإنه يمتطى حصانا جميلا مزركشا في بذخ ، وعندما يعود الى منزله ، تقدم وليمة يدعى اليها كل الأهل والأصدقاء ، وعند نهاية الوجبة يقوم الحلاق بقطع الغلفة بالموسى ويوقف تدفق الدم بواسطة دوا قابض ، وعندئذ يسارع كل المدعوين بتقديم الهدايا « للمطاهر » ، ولا تحضر النساء هذا الحفل ، وعند الطبقات الدنيا فقط تقوم النسوة بمصاحبة الطفل الى المساجد ويمعن به ، لكنهن لا يخضمن لعملية الختان هذه ، ومع ذلك فإن الفلاحين والعربان يقومون بقطع بظر الفتيات ويمسح الأثراك وسكان المدن هذا السلوك ما دام طول العضو لا يتطلب مثل هذا البتر ، وهي حالة نادرة جدا .

وكما سبق لنا القول فإن الإقباط يمارسون الختان ، ويخضع له أطفالهم الذكور في سن الثامنة أو التاسعة ، أما الفتيات ففي نفس السن .

تقريباً . وقد سبق أن أوضحنا أن هذه العادة قديمة في مصر ونضيف إلى ذلك أن اليهود الذين نشلوا بين المصريين — قد نقلوا هذه العادة إلى فلسطين ، وهذا التشابه لافت للنظر ويستحق الاهتمام كما نرى ، وقد سبقنا زملائنا إلى المطالبة بذلك ، ونحن نكرر ذلك هنا حيث أن هذا هو المكان الطبيعي لمثل هذا الطلب .

ويعتبر الختان عند المسلمين بمثابة الخطوة الأولى في الحياة ، إذ يمكن القول بأن الطفل كان يحيا حتى ذلك الوقت بجسمه فقط ، ولكنه بعد هذه السن سوف يبدأ حياته الأخلاقية والروحية ، إذ يؤمر عنده ببدء الصلاة ويلتزم الطوم والفنون بعد أن يكون قد سبق له التردد على المدرسة. لكن المدرسين لم يكونوا قد فرضوا شيئاً بعد على عقله الصغير . فالختان إذن هو بمثابة نهاية لرحلة الطفولة بالنسبة للمصري بكل نزقها وطيشها ، ويمكن القول بأنه بهذه العملية يولد مرة أخرى ، لكنه في هذه المرة يولد رجلاً .

٣

التطعيم الأولى

في القرآن — ذلك التشريع الديني والاجتماعي في الوقت نفسه — قلم محمد بتحديد السن التي ينبغي أن يكون الطفل قد بلغها لكي يبدأ تطعيمه الروحي والأخلاقي فقال :

« رب ابنك لسبع ، واضربه لسبع ، وآخه لسبع » (١) .

ومع ذلك ، فحيث أن الأطباء يدعون أن ملكات الطفل العقلية تتشكل منذ سن الرابعة أو الخامسة ، فإن الذي يهيم تطعيم طفله ، يحرص على أن يبدأ طفله تطعيمه أحياناً في هذه السن فيجعله يتردد على المدارس حتى

(١) هكذا في النص والمعروف أن هذا مضمون حديث نبوي شريف وليس آية قرآنية .

يتمود على الأثر على شكل الحروف ولكي يدركها دون مشقة كبيرة .
ويلتزم الآباء بأن يعموا لابنائهم نوع التعليم الذى يتناسب مع درجة ثرائهم ،
أو يلزمونهم حسب الحال بتعلم حرفة . وتعلم القراءة والكتابة يسبق كل
شئ ، لكن ذلك ليس الزاميا ولا حتى عاما حيث ان العدد الاكبر من الفلاحين
وابناء الطبقات الشعبية لا يعرفون القراءة والكتابة ، ويمكننا ان نقدر عدد
الذين يعرفون ذلك فى القاهرة بثلث عدد سكانها الذكر ، بل ويمكننا ان
نهبط بهذا العدد الى الربع فقط .

ومن النادر ان نرى مصرية يتحمل بنفسه مشقة تعليم طفله ، فمن
الطبيعى ان يتجنب الناس التصدى لعمل يمثل هذه المشقة ، لذا فهم
يرسلون ابنائهم الى المدارس مدعين بأنهم — اذا ما تولوا امر تعليمهم
بأنفسهم — لن يقوموا بهذه المهمة بالحزم اللازم . ويرسل الاغنياء اطفالهم
بصحبة احد الخدم ، أما الفقراء فيصحبونهم ، او يتولى مساعد المدرس
تجميع هؤلاء الاطفال ليصحبهم جميعا . وتقوم الامهات بارسال وجبات
الى اطفالهن الدارسين ، ويقتسم هؤلاء الاطفال طعامهم مع زملائهم
المعوزين ، وهذه العادة تتبع عن معتقدات حقه شائعة عند كل المسلمين ،
فبهذه الطريقة يتعلم الناس منذ طفولتهم كيف يصبحون خيرين وكيف تنمو
مع نموهم هذه الميول الخيرة التى تحض عليها مبادئ الدين . من هنا هذه
المساواة المطلقة التى تسود بينهم فهم لا يعرفون تلك التمايز الذى يعود الى
الأصل والانشأ ، بل ان الثروة نفسها ليس لها فى هذا الصدد الا ميزة
طفيفة . ايتعين علينا ان نتلمس وجود مثل هذه الافكار الخيرة وسط
هذا الخليط من النظم الممجية ؟ ولم لا ؟ فلماذا تفرض العناية الالهية
حواجز على حكمة البشر ؟

ولا يرسل الكبار ابنائهم ابدا الى المدارس العامة ، اما الفتيات فلا
يتلمن حتى مجرد القراءة ، واذا حدث ان كان بعضهن يمتلك هذه القدرة
فلا بد ان هذا امر بالغ الندرة ولا بد انهن قد تعلمنه فى معتزل الحريم ،
ويكون مدرسوهم فى هذه الحالة رجالا فى سن متقدمة ومحرومين من نعمة
البصر ، ولا يستطيع مثل هؤلاء المدرسين ان يعلموهن اكثر من حفظ بعض
آيات من القرآن . وعند هذا الحد تقريبا توقف التربية الاخلاقية للنساء
فى مصر .

وليس ثمة ما هو أكثر ضجيجا من مدرسة عامة في مصر، حيث يتعلم الأطفال كتابة الحروف الهجائية والكلمات ، في نفس الوقت الذي يتدربون فيه على نطقها . وهم عادة لا يتعلمون الا قراءة وكتابة وحفظ أجزاء من القرآن ، وفي هذا الحد البسيط ينحصر تعليمهم الاولي ويردد التلاميذ بصوت عال وهم متجمعون داخل نفس الفناء — الدروس التي سبق لهم ان تلقوها من هنا يمكننا ان نكون فكرة عن الضجيج الذي يسمع في الفصل، وعلى هذا فينبغي ان يكون المدرس متعودا على هذا الضجيج حتى يمكن له ان يتحملة . وبالإضافة الى تلك العادة الشائعة لدى كل الأطفال — عادة أن يغنوا وهم يستذكرون دروسهم أو أثناء قراءتهم — فإن أطفال مصر معتادون على تحريك الجزء الأعلى من جسمهم بشكل مستمر أثناء ذلك . وهذه الحركة الدائمة ، بالإضافة الى الأصوات غير المتنازعة تجعل من المدرسة العربية مشهدا فريدا بالغ الغرابة بالنسبة للمشاهد الأوربي . ويمتاقب الأطفال الذين يخلون بواجباتهم المدرسية أو بعلاقتهم بمعلمهم بقسوة ، ويمثل العقاب العادي في عدد غير محدود من الضربات بالجريدة — وهي فرع من شجرة نخيل — على باطن القدمين .

وعندما يحرز الأطفال تقدما في الكتابة والقراءة ، يبدأون التعلم بطريقة الإملاء . ولا يكلف المعلمون انفسهم مطلقا عناء تعليم أطفالهم لا الصلاة ولا القوانين التي فرضها النبي . ومع ذلك فإن القرآن هو الكتاب الوحيد في مراحل الدراسة الأولى . ويلتزم الآباء بتعليم ابنائهم قواعد الشريعة ، فعندما يقترب الابن من سن البلوغ يبدأ الاب دروسه الأولى ولا يستطيع الطفل أن يشارك في صلاة الجماعة الا بعد الختان ، وقد سبق ان أوضحنا في أي سن يتم ذلك .

وعلينا الآن ان نتحدث عن المدارس الأولية وعن نشأتها، ومن الأمور اللافتة للنظر ان المدارس العمومية لا تدين بوجودها الا لأعمال البر . وهذه المدارس كبيرة العدد في اية مدينة تحظى بدرجة ما من الاهمية . ويقوم الرجل الثرى عادة بتخصيص جزء من الميراث الذي سيتركه لولاده لانشاء مدرسة عمومية والصرف عليها . انظر اذن كيف يقوم كرم وتضحية الخاصة للذين لا جدال فيهما بسد ثغرات الإهمال الإجرامى من جانب الحكومة ؟ ولولا حسنات هؤلاء الأغنياء لكانت مصر وتركيا معا محرومتين تماما من

معرفة المبادئ الأولية للتعليم . وفى معظم الأحيان يكون المبلغ المخصص للعناية بالمدارس وغيروا لحد يسمح بالصرف على طعام وكساء وتعليم الأطفال الفقراء مهما كان عددهم .

ويدفع الآباء محدودو الثراء أتعابا ضئيلة للمدارس تتراوح ما بين ٣ — ٢٠ مدينى فى الاسبوع . والمدارس العمومية كثيرة جدا فى القاهرة وفى المدن الرئيسية ، ولكن من النادر أن نرى مدرسة واحدة فى الريف . وعلى الآباء الذين يريدون هناك أن يعلموا أبناءهم أن يرسلوهم الى امام المسجد .

والمسيحيين أيضا مدارسهم . وهى تعيش شأنها فى ذلك شأن الأديرة على الاعانات والعطايا الخيرية ، ويعيش المدرسون من الأتعاب المتواضعة التى يحصلونها من تلاميذهم ، وما أن يبدأ الأطفال فى معرفة القراءة حتى توضع بين أيديهم مزامير داود .

وإدارة المدرسة ، بل يمكن القول ملكيتها ، من حق نجل مؤسسها أو أحد ورثته ، وبإمكان هذا الوريث أن يبيعها أو أن يتنازل عنها لصالح آخر . ومع ذلك فينبغى أن يكون المدرس الموكل اليه امر التدريس قادرا على القيام بمهام وظيفته وأن يكون حافظا للقرآن ، وإذا ما رأى القاضى انه أقل كفاءة مما يقتضيه العمل فانه يستطيع أن يرغم القائم على امر إدارة المدرسة أن يختار مدرسا آخر أكفا ولكن مهنة التدريس لا تحظى بالعناية الكافية ، ومكانتها بالغة الضعف . وإذا ما كان المدرس كفئا لحد امكنه أن يجذب عددا كبيرا من التلاميذ فله عندئذ أن يأمل بعض النفع والا فعليه أن يعيش خامل الذكر وفى حال تقرب من العوز وليس له أن ينتظر نفعا .

وللقاضى حق التفتيش على المدارس الابتدائية ، وعندما يتبين هذا الموظف الكبير أن المبالغ المخصصة للعناية بهذه المنشآت وتلاميذها قد صرفت فى غير أغراضها ، فان له الحق فى أن يرغم القائمين على ادارتها على الامتثال لرغبة مؤسسها .

٤

العلوم والفنون

عندما يرغب الشبان بعد انتهاء دراستهم الأولية فى مواصلة دروسهم فانهم يطلعون لفترة فى تلك الكتب التى لها صلة بدراستهم المقبلة ، ثم يتوجهون الى الأزهر للاستماع الى دروس وشروح المشايخ . والجامع الأزهر — على نحو ما — هو الجامعة الوحيدة فى مصر . وهىئة التدريس به تضم من ٤٠ — ٥٠ مدرسا من بينهم خمسة أو ستة ذائعو الصيت .

وقلما يدرس هناك سوى القرآن وتقاليد السلف الأول ، والعقائد والشريعة والصلاة والحج وبقية الشعائر الدينية التى فرضها محمد . ولكل مذهب أساتذته الكلاسيكيون الذين لا يختلفون مطلقا فيما بينهم حول المبادئ الأساسية للعقيدة الإسلامية .

كان النبى العربى يدرك أن القوانين تكتسب قوة دافعة جديدة اذا ما تأسست على العقيدة الدينية نفسها . لذا فقد كان بعيد النظر حين ربط بين الأنظمة والمؤسسات وبين الدين وحين جعل من الواجبات التى تفرضها الحياة الاجتماعية على الناس فروضا يؤديها الانسان تجاه ربه وبذلك ادمج فى تشريع واحد كلا من المبادئ الدينية والقوانين المدنية . . ويحرص المدرسون تماما على عدم الفصل بين الأمرين فى دروسهم . وهم يشرحون فى اسهاب كل ما جاء فى أجزاء القرآن مع الاهتمام بتوضيح المعانى الحقيقية للكلمات ، وكذلك يدرسون القواعد أو النحو — أى تلك اللغة التى كان يتحدثها العلماء الأوائل . ويقوم أهم الأساتذ فى الأزهر بتدريس المنطق والمعانى أو البيان ، وهم يعرفون البيان بأنه فن التعبير عن افكار كثيرة فى اقل عدد من الكلمات وكذا فن استخدام كلمات كثيرة للتعبير عن افكار قليلة أى فن توسيع الفكرة أو تركيزها حسب مقتضى حال السامع .

وكان محمود ، والى مصر وابن هارون الرشيد ، قد جلب الى مصر مؤلفات الفلاسفة الأغريق وأمر بترجمتها الى العربية ، لكن هذه الترجمات لم تعد موجودة بمصر ولا يعرف الآن فى المدارس الا مجرد أسماء هؤلاء الفلاسفة وبعض مقتطفات من مؤلفاتهم .

وينقسم المدرسون والطلاب إلى ست حجرات (أروقة) أى فروع كبيرة : السوريون ، البربر ، الأغريق ، سكان الريف ، الصمعايدة ، العميان ، ويخصص الرواق السابع لبعض طلاب الأقاليم .

وتقدم الحكومة كل عام حوالى ٦٠٠ره أرب من الحبوب يوزعها شيخ الأزهر أو وكيله بين هذه الفروع وليس لغالبية القادمين من القرى وسيلة أخرى للمعيش الا ذلك الخبز الذى يحصلون عليه من شيخ رواتهم .

وليس ثمة من نفوذ لوظائف التدريس ، ولا ينشغل مدرسو الأزهر بالأمور العامة الا لى يجوزوا لأنفسهم شهرة وروادا عديدين ولكى يأخذوا نصيبا من تبرعات المسلمين المتحمسين فيحصلون بذلك على دخل بسيط يخصص لهم بالاضافة الى بعض الهدايا ، والى ما يحصلون عليه فى مقابل الفتاوى التى يصدرونها فى الأمور المدنية والجنايئة التى تعرض عليهم لابداء الراى لأنهم فى نفس الوقت رجال قضاء .

والطلاب ليسوا ببساطة مجرد مستمعين سالبين ، فبإمكانهم إيقاف المدرس عند نقطة لم يفهموها معانيها ، وأن يعارضوا رأيه برأى شيخ آخر فيقيموا بذلك نوعا من الجدل حتى يستخلصوا الحقيقة بشكل أفضل ، ومن جهة أخرى فان الشيخ بدوره يسأل طلابه لى يعرف ما ان كانوا قد فهموا وتقدموا .

وعندما ينتهى شاب من تحصيل دروسه ، ويأبى فى نفسه الكفاءة والعلم اللذين يؤهلانه كى يشغل وظيفة فى الجامع الكبير ، فانه يطلب الى شيوخه شهادات بكفائه ، ويتقدم الى شيخ الأزهر ليحصل منه على اذن القيام بالتدريس هناك بدوره ، ويدعو الشاب الى الدرس الاول الذى سيلقيه كل اصدقائه وكل العلماء (١) ، فيستمعون فى البداية اليه وبعد ذلك يسأله

(١) آن الاوان ان نبين هنا المعنى الذى يقصده العرب من مختلف هذه التسميات : عالم ، شيخ ، امام . الخ . العلماء هم أساتذة الشريعة الضليعون فى ذلك . وكل مسلم لديه علم يبلغه ويتخذ من ذلك حرفة له يسمى عالما .

أما الشيوخ فهم المدرسون ورجال الدين . وشيخ الجامع الأزهر هو فى نفس الوقت رئيس هيئة التدريس فيه ، ويعين عن طريق قيام المدرسين

العلماء ويجادلونه ويمارضون آراءه ، ويحاولون احراجه فاذا ما أمكنه أن يجيب على كل الاسئلة ويرد على كل الاعتراضات تأككت شهرته ويهرع الى دروسه الطلاب والسامعون وعلى العكس من ذلك اذا ما تردد أو ارتبك ولم يستطع أن يفوز بقدر كبير من الثقة ، لكنهم مع ذلك يحفظون عليه كرامته ويتحاشون اهانتة . لكنه يكون بذلك قد قدم عن نفسه فكرة سيئة بحيث لا يستطيع أن يأمل في المستقبل الا في نجاح متواضع .

ومن المستطاع ممارسة التعليم في مسجد آخر بخلاف الجامع الأزهر ، ويكفى الطالب في هذه الحالة الحصول على موافقة شيخ الأزهر الذى يحدد له المكان الذى ينبغي أن يدرس فيه .

وعندما يتقدم عديد من المرشحين للحصول على متعدد في الجامع الكبير وعندما لم يكن ثمة الا متعدد واحد شاغر فمن حق شيخ الأزهر أن يعطيه للشخص الذى يراه صالحا ، فهذا المركز ليس عرضة للتنافس ، ومن ناحية أخرى فليس للمدرس من لقب آخر سوى الشيخ أو المعلم وليس ثمة اى تمييز طبقي أو تفضيل مسبق بينهم . فعمق معرفتهم ، وسنهم وفضائلهم هى التى تحدد أوضاعهم . ويحمل الشبان تقديرا كبيرا لاولئك الذين علموهم

القدامى باختياره ، وهم يراعون أن يختاروا رجلا ناضجا مشهودا له بالمعلم ويحظى برضاء الحكومة . والمرشح الذى يفوز بأكبر عدد من الأصوات يقدم أولا الى الشيخ البكرى وهو زعيم أحفاد محمد فيخلع عليه جبة ويعينه في وظيفته الجديدة ثم يقدم بعد ذلك الى شيخ البلد والى الباشا اللذين يخلعان عليه جبة كذلك . وليس هناك راتب مخصص لهذه الوظيفة ، لكنه منصب بالغ الجاه والشرف ، ويعطى صاحبه حق الاشراف على كل المدرسين . فاذا ما جرؤ احدهم على الاعلان عن مبادئ مناقضة لآراء محمد ، فان بمقدور شيخ الأزهر أن ينحيه عن العمل بالتدريس في الجامع الكبير . لكن الاحترام الذى يكنه العلماء تقليديا لكل ما تعلموه نادرا ما يعرضهم لمثل هذا الموقف . اما المفتى فهو الشخص الذى يصدر الفتوى اى الراى القانونى حول الأمور التى تعرض عليه ، ولكل مذهب مفت ، ومفتى الجامع الأزهر هو رئيس كل المفتين ويمكنه أن يناقض فتواهم ، وهذه الفتاوى ليست في الواقع سوى آراء استشارية يحق للقاضى أن يأخذ بها أو ينحيها جاثبا حسب قوة الحجج التى تأسست عليها وحسب مكانة المفتى الذى أصدرها وعندما يموت مفتى أحد المذاهب يتجمع علماء المذاهب الأخرى

وشكلوهم فيصغون اليهم باحترام ويتلقون آراءهم بل وتأييدهم أحيانا بكثير من الازعان .

ويهمل المصريون المحدثون العلوم المتقنة بعكس أسلافهم، فالرياضيات لا تكاد تكون معروفة عندهم ، ويكتفى الفلكى هناك بتسجيل بعض الملاحظات عن طريق آلات ضخمة وعلى تحرير التقويم السنوى ، وفى نفس الوقت فنعد من يمتلكون مثل هذه المعارف ضئيل ، وليس ثمة فلكى شهير فى هذه الآونة الا شيخ واحد ، هو واضع التقويم الحالى وله بعض التلاميذ .

ولن نتحدث هنا لا عن النحت ولا عن الرسم ، فهما — فى مصر — لا يستحقان منا ادى اهتمام ، لكن العمارة أكثر تطورا ، ومقارنة المنازل الحديثة بالمنازل القديمة توضح تقدما محسوسا فى اساليب البنائين احرزوه منذ عدة سنوات ، فالتوزيعات تتم بشكل جيد تسمح بمرور الهواء والمحافظة على رطوبة المبنى ، لكن الذوق والأناقة فى حكم النادر .

ويمكننا أن نعيب على المصريين المحدثين نفس ما يعيبه الاغريق على أحفادهم . فهم يثفون كل شئ ولا يصلحون شيئا ، وهم يحيون فى حالة من عدم الانتظام والتباين ، لكن هذه العيوب لا تصدمهم مطلقا . ولقد تعلموا من العمال الفرنسيين فن صناعة الأحذية وأدوات المائدة الفضية والمجوهرات والمهاميز ، لكنهم لا يلتقون بالآلا لا لجمال الشكل ولا لتناسقه ، وتطريزهم جيد لكنهم يبرعون على وجه الخصوص فى الفخار ، وكثير من الزهريات التى يصيفونها تحتفظ بالشكل القديم ، ويستخدمون فى المصانع والورش وسائل بالغة البساطة والاقتصاد ، سوف نتحدث عنها فى الفصل الأخير من هذا المؤلف .

٥

الأدب والشعر

معرفة أوربا بالأدب العربى معرفة بالغة الضالة لدرجة لا تسمح بتكوين فكرة دقيقة عن ذلك العدد الكبير من الكتاب المشهورين الذين برعوا فى مختلف ضروب المعرفة . وباستثناء بعض العلماء المتخصصين فى الشرقيات

(المستشرقون) الذين ندين لمجهوداتهم بمعرفتنا لعديد من مؤلفات هذه الشعوب فان عدد الأشخاص الذين هم فى حالة تسمح لهم بالحكم على التراث الفكرى العربى ضئيل للغاية ، ومع ذلك فان العرب قد اثروا الشعر على الدوام ، وهو الفن الذى برعوا فيه اما النحو والبلاغة فقد تابعوا فى دراستهما بأبحاث عميقة (١) وكما هو الحال فى علوم الفقه والأخلاق ، اما مؤلفاتهم فى الطب والتاريخ والجغرافيا فتحتل اليوم بشهرة هى جديرة بها (٢) . ولا ينبغي لنا أن ندهش من أن الشعراء العرب قد احرزوا هذا القدر من النجاح والتفوق فثراء اللغة العربية ودقتها وجمالها يؤدى الى تفوقها على كافة اللغات الشرقية ، ولكن فحيث أن مجال دراستنا هنا لا يسمح لنا بأن نتوسع كثيرا فى دراسة الادب فسوف نكتفى بدراسة اللغة من حيث علاقاتها بتقاليد وعادات المصريين .

يتناول هذه اللغة ، فى مختلف البلدان التى تستخدم فيها ، بعض الاختلافات البسيطة سواء فى تركيباتها الدارجة أو فى نطق بعض الحروف الهجائية ، ويعدل سكان القاهرة ، المشهود لهم بأنهم يتحدثون العربية بكثير من الرقة من نطق كثير من الحروف الساكنة ليجعلوها مخالفة للشكل الذى تلتفظ به فى سوريا والجزيرة العربية . ويتمثل هذا الاختلاف على وجه الخصوص فى الحروف : ح ، ق ، ج ، فحرف ج يلفظ فى كل مكان كما تلفظ الـ g اللاتينية فى كلمة genou لكنها تلفظ فى مصر كما تلفظ الـ g الفرنسية فى كلمات gain, guerre, garçon اما حرف ق التى تماثل عندنا K الحلقية فلا نكاد نراها تلفظ على لسان المصريين ولا نكاد نحن نحس باستخدامهم لها الا عن طرق نوع من التوقيف أو من الهوة

(١) يمكنك الرجوع فى هذا الصدد الى المؤلفات العديدة المكتوبة باللغة العربية والتى تمتلك المكتبة الملكية منها مجموعة ثمينة . وسوف تتبين أن العرب كانوا مشغولين على وجه الخصوص بنظرية اللغة وأن القواعد أصبحت عندهم علما يتطلب دراسة متخصصة .

(٢) أولئك الذين حازوا أكبر قدر من الشهرة فى أوروبا من العلماء العرب هم : الحريرى ، الجوهري ، الفيروزبادى ، ابن سينا الذى يعرف باسم Avicenne ، المكين المعروف باسم Elmacin ، ابن خلدون ، ابن الفارض ، المتنبى ، ومن علماء الجغرافيا ، ابن حوقل ، أبو الفداء ، المقدسى ، الإدريسى .. الخ .

النتيجة عن تتابع حرفي عله يشكل كل منهما مقطعا صوتيا مستقلا : اولهما هو المقطع الصوتي السابق على الـ ق وثانيهما هو المقطع الذي تشكل الـ ق جزءا منه ، أما سكان الصعيد فيلفظونها بنفس الطريقة التي يلفظها البربر أى كما نلفظ نحن حرف الـ g في كلمة gain (١) .

سبق لنا ان قلنا بأن العرب قد برعوا على الدوام فى الشعر ، ولا يزال الأمر كذلك حتى اليوم عند كل طبقات المجتمع ، اذ نجد رجال الطبقات الشعبية فى مصر ، بل وحتى الأطفال لديهم حساسية فائقة لهارمونية الایقاع ، ولتكرار نفس الحروف الساكنة (السجع) .

ولعمال المادن أغنيات خاصة تساعدكم على انجاز اعمالهم ، ومن خاصية هذه الاغنيات ضبط حركات العمال والتقليل من مشقة المجهود الذى يبذلونه . ومع ذلك فمفوف نحطىء لو أننا تصورنا أن هذه الاغنيات الشعبية تراعى تلك القواعد الصارمة التى تحكم الشعر العربى (٢) ومن بين تلك

(١) بهذا يكون علينا ان نواجه ثلاث طرق لنطق هذا الحرف فى كلمة واحدة ، فكلمة بقرة على سبيل المثال يلفظها السوريون بقرة ، ويلفظها سكان مصر السفلى بأرة، أما سكان الصعيد والبربر فيلفظونها : بجرة .

(٢) تخضع موازين الشعر لقواعد بالغة التعقيد اذا ما قارناها بتلك التى تحكم كل أنواع الشعر المعروف ، اذ هى لا تحتم فقط نفس القافية والایقاع وانقسام البيت الى شطرين مثل الشعر الفرنسى ، بل هى تحتم كذلك عددا من التفعيلات بشكل يماثل العروض اللاتينية على وجه التقريب .

ويوجد فى اللغة العربية ١٦ نهطا او مقياسا . ويحمل كل واحد من هذه المقاييس اسم بحر ، تصريفاته مأخوذة — شأنها شأن كل الصيغ النحوية الأخرى — من الفعل العربى : فعل ، وعلينا ان نقيس الابيات اتى نؤلّفها على هذه التصريفات . والشطر يسمى مصراعا وكل مصراعين يشكلان بيتا ، ويقطع البيت الى أجزاء . ونقدم هنا تصريفات الـ ١٦ بحرا للشعر العربى مع بيان الاسماء الخاصة التى تطلق عليها وبعضها أكثر انتشارا من غيره كما انها تختلف فيما بينها من ناحية شدة او قلة السرعة .

- ١ — بحر الطويل : فاعولن فاعولن فاعولن فاعولن .
- ٢ — بحر المديد : فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن .
- ٣ — بحر البسيط : مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن .
- ٤ — بحر الوافر : مفاعلتن (ست مرات) .

التكوينات البالغة الجمال فى اللغة العربية نشير الى الموال ، وهى الاغنية

- ٥ - بحر الكامل : متفاعله (ست مرات) .
- ٦ - بحر الهزج : مفاعله (ست مرات) .
- ٧ - بحر الرجز : مستفعلن (ست مرات) .
- ٨ - بحر الرمل : فاعلاتن (ست مرات) .
- ٩ - بحر السريع : مستفعلن مستفعلن مفعولات (مرتين) .
- ١٠ - بحر المنسرح (او المسترسل) : مستفعلن مفعولات مستفعلن (مرتين) .
- ١١ - بحر الخفيف : فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن (مرتين) .
- ١٢ - بحر المضارع : ويسمى هكذا بسبب تشابه اوزانه مع بحر المنسرح : مفاعله فاعلاتن مفاعله (مرتين) .
- ١٣ - بحر المقتضب : مفعولات مستفعلن مستفعلن (مرتين) .
- ١٤ - بحر المجتث : مستفعلن فاعلاتن فاعلاتن .

ويرى النقاد ان هذا البحر قد يسمى هكذا اما لان الشعراء لا يستخدمونه الا مع حذف فاعلاتن الاخرة من كل مصراع . واما لانه بعد اختصاره على هذا النحو يبدو كما لو كان مشتقا من بحر الخفيف اذا ما حذفنا فاعلاتن الاولى من كل من مصراعيه . ونفس الشيء بالنسبة لبحر المقتضب ، فاسمه هذا يعود الى ان كل واحدة من مصراعيه عادة تنفذ مستفعلن الاخرة فيها فيبدو عندئذ وكأنه من بحر المنسرح بعد ان شططنا مستفعلن الاولى فى مصراعيه .

١٥ - بحر المتقارب ، وسمى هكذا بسبب تقاربه واختصار الزواحف التى تكونه : فعولن (٨ مرات) .

١٦ - بحر المتدارك ، اى الذى يلى البحور الاخرى ، ويسمى هكذا لانه البحر الاخير فى النظام الذى اخذ به العرب : فاعله (٨ مرات) .

ولا يحظى البحر الاخير بقبول معظم النحويين الذين لا يعترفون الا بـ ١٥ بحرا .

تلك هى البحور الـ ١٦ التى تنتظم الشعر العربى . واذا كانت هذه الانماط البدئية قد طبقت بصرامة فى البداية ، فان كل واحد من هذه البحور البدائية قد تناوله عدد كبير من التعديلات كان ينظر اليها فى البداية كنوع من الاستثناءات الشعرية لكن كثرة اللجوء اليها قد ادى الى تثبيتها حتى اصبح عدد هذه الاستثناءات الشعرية المباحة يماثل عدد البحور المنتظمة بل لقد شغلت مكان عدة بحور لم يستعمل قياسها الاول على الاطلاق فى كامل تمامه .

Romance المفضلة لدى الجنس اللطيف في مصر والذي يقارب الـ
 مفندنا . والموال اما قصير واما طويل وموضوعاته على الدوام هي مباحج
 الحب ، والشكوى من الحبيب الذي خان او الذي هجر ، وتصوير جمال
 المحبوب ، ورسالة حب بين عاشقين ولواعج الغياب .. وعندما يفنى هذا
 الشعر بنغمة خفيفة متهدجة ،ثيرة للعاطفة فالامر يستدعى نوعا من المد
 والاسترسال . لذا فمثل هذه الاغنيات من أجمل مباحج ومسررات الحريم ،
 وما ان يؤلف موال جديد حتى تتكفل العوالم والالاتية على الفور باذاعته،
 ليستقر بين النساء المصريات اذ يتسابقن على حفظه والتغنى به .

= وتسمى كلمات التعريف الثماني التي تشكل مختلف البحور ، وهي :
 فاعلاتن ، فاعلن ، فاعيلن ، فعولن ، مفعولات ، متفاعلن ، متفاعلتن ،
 مستفاعلن ، تسمى هذه الكلمات اجزاء البحر ، والمفرد جزء .

كما يشار الى المجموعات المختلفة من الحروف والحركات التي يتكون
 منها كل جزء باسم اسباب (حبال) واوتاد،وعندما يوجد حرفان اولهما متحرك
 والثاني ساكن مثل : هل ، لا ، قم ، فانهما يشكلان سببا خفيفا ، اما اذا
 كان الحرفان متحركين ، وينقسمان نتيجة لذلك الى مقطعين صوتيين مثل :
 هو ، لك ، فانهما يشكلان سببا ثقيلًا . والاوتاد الاركان هي ايضا من
 نوعين : وتد مجموع ، وهو مجموعة تتكون من حرفين متحركين بعدهما حرف
 ساكن، مثل : لها، لَقَدْ . وتد مفروق ، وهو عبارة عن مجموعة مكونة من حرف
 ساكن يقع بين حرفين متحركين مثل : قلت ، صار . والجزء الأخير من المصراع
 الأول يشار إليه باسم عروض بينما يشار الى الجزء الأخير من البيت باسم :
 ضرب ويسمى حضوا كل الأجزاء الأخرى من البحر . ويطلق اسم صدر على
 الجزء الأول من البيت، وابتداء على الجزء الأول من المصراع الثاني . إذن فكلمة
 حشو تشير إلى أجزاء البيت التي ليست لا العروض ولا الضرب ولا الصدر ولا
 الابتداء .

وتبعاً للتعديلات المختلفة التي اباحها العرب وادخلوها على القياس
 وسموها باسم زحاف او علل ، يمكننا ان نعد بالنسبة للبحور الستة
 عشر ٣٦ عروضاً و٦٧ ضرباً مختلفة .

ويعنى علم العروض بمعرفة هذه الانماط الاولية والتفريق بينها ، ولكي
 نعرض الامر كما ينبغي فان ذلك يستلزم مؤلفا كاملا ، لكن حدود هذا
 الهامش البسيط لا تسمح لنا بقول المزيد .

(هذا الهامش عن الشعر العربي قدمه لنا السيد عجوب) = (وهو
 جوزيف عجوب وكان مترجما للحملة ووضع اول قاموس فرنسي - عربي) .

ويضم الموال مقرة واحدة تتكون من خمسة أبيات أو أربعة فى حالات كثيرة . وتتراوح أوزان هذه البيوت من ٨ - ١٢ مقطعا أو ١٤ مقطعا فى بعض الأحيان ، وينبغى أن يكون لكل أبيات الموال نفس الوزن ونفس القافية فيما عدا البيت الرابع فى الموال الذى يتكون من أربعة أبيات .

ويكاد يكون هذا البيت قبل الأخير بلا قافية ، ونادرا ما يكون بحره هو نفس بحور البيوت الأخرى للموال ، فإذا ما حدث أحيانا وكثرت له نفس القافية فإن ذلك لا يتم الا فى حالة الموال الذى يتكون من أربعة أبيات .

ويحدث أحيانا أن نستخدم نفس الكلمة كقافية فى كل أبيات الموال ، لكن ينبغى أن يكون لها معنى مختلف فى كل واحد من هذه الأبيات ، ولدينا عند بعض شعرائنا أمثلة لهذه القوافى ذات الجنس الواحد والمعنى المختلف . ونكتفى بأن نورد هنا هذين البيتين للشاعر بوالو :

Prends-moi le bon Parti : Laisse - Là tous tes livres.

Cent francs au dernier Cinq. Combien Font-ils ? Vingt livres? (*)

ومن المعروف أن اللغة العربية تضم عددا كبيرا من مثل هذه التجانسات فى المعنى ولكن حيث أن الموال أبعد من أن يخضع لصرامة القواعد التى تحكم الشعر العربى الفصيح ، فإن الشعراء لا يكلفون أنفسهم عناء تحمل هذه الصرامة . فيستخدمون نفس الكلمة المأخوذة على نفس المعنى ، عدة مرات كقافية . وينظر لهذا الاستثناء الشعرى باعتباره كسرا لقواعد الشعر .

وفىما يلى مثال لموال من خمسة أبيات :

(*) فى البيت الاول كلمة livres تعنى : كتب وفى الثالى تعنى جنيهاً .

(المترجم) .

الاهيف الى تمناء القلب ودعاه
 فى موقف النذل خلا العاشتين ودعاه
 كمن قلت للمين كنى عن هواه ودعاه
 كمن له قلب قاسى لم رحم عاشق
 ولا يخاف من أنينه فى الدجى ودعاه

والآبيات الآتية مثال على موال مكون من أربعة أبيات :

يا غربتى فى بلاد التماس ذلتنى
 يا كلمة النذل ثالتنى وحطتنى
 يا دمعتى نزلت على خدى حرقتنى
 يا حصرتى راحت رفاتى وخلتنى

ولمىا يلى ترجمة لأبيات موال ألف خصيصا لامتنادح مقياس جزيرة
 الروضة كما قدمها لنا السيد عجوب :

« اعجبوا لجمال المقياس ، وبالفن الذى بنى به . لا يوجد فى إيماننا
 هذه ما يمكنه أن يضارع هذا البناء ، ولا تستطيع القرون الآتية أن تقدم
 شيئا يماثله . لقد بناه مهندس نابذ ذكى ، شديد العلم ، وأظهر فيه كل
 روعة فنه ، وسوف يضيع أمهر الفنانين وقتهم سدى لو حاولوا تقليد جماله .
 انه مقياس مفيد ، كان مفيدا وسيظل مفيدا على مدار السنين ، طوله ٢١
 فراما ، وعندما تبلغ المياه الذراع الـ ١٦ تغرق مياه الفيضان فى أرض
 الريف » (❖) .

(❖) اكتفيت بالترجمة لعدم امكان الوصول الى النص الاصلى ،
 (المترجم) .

الفصل الثالث

عَنِ الْإِنْسَانِ الْمِصْرِيِّ فِي طُورِ الرَّجُولَةِ
الْعَادَاتِ الْمَذْنِيَّةِ وَالْأُسْرَةِ

١

من الزواج

الزواج في مصر هو عقد اتفاق خلص لا يحتاج الى تصديق ديني او قانوني . اذ يمثل فقط في الارادة التي يعبر عنها الطرفان المتعاقدان، وتكفي موافقتهما المتبادلة ليكون هذا الزواج مشروعا . وتمطى المرأة موافقتها بنفسها او من خلال وكيل وفي هذه الحالة يذهب الشخص الذي يمثلها الى الزوج المقبل ليتسلم المهر ويقول له في حضور شاهدين : زوجتك ويجب الآخر : قبلت . ويتم الزواج هكذا بدون أية اجراءات رسمية اخرى .

ولا تقدم الزوجة الجديدة مهرا (دوتة) لزوجها ، وفي بعض الاحيان تتلقى في هدية من والدها ، ولكن هذه الهدية تطوع منه وليس من حقها ان تفرضها عليه ، ويحدث في احيان اخرى الا يكون للزوجة من مهر الا ما يقدمه الزوج ، فالشريعة تحتم على الزوج تقديم مهر لزوجته ، وتختلف قيمته باختلاف المذاهب ، فيحتم احدها الا يقل المهر عن عشرة دراهم اى حوالى ١٨٠ بارة . ويكتفى مذهب آخر بمجرد ان يكون ثمة مهر حتى ولو كان المهر لا يتجاوز دبتة من الحديد . ومع ذلك فلا يفوت اهلى الزوجة ان يقدمها اليها هدايا تناسب مع ثروتهم تمثل في مجوهرات وملابس ، لكنها لا تعطى مطلقا عقارات زراعية . وفي حالة ما اذا كان المهر لم يتم تحديده قبل اليوم المحدد للزواج — وهذا شيء نادر الحدوث — فيحدد المهر طبقا لمهر أم العروس او واحدة من اقرب قريبتها . والمهر الذي يقدم للزوجة عن طريق ازواجهن عمدا اساسى من عهد الزواج ، وهو حق مطلق لهن ، وسوف تتضح لنا فيما بعد اهميته .

ويحرص الكبار وامراء الطبقة الثرية على ان يتخذوا شهودا على زواجهم من بين رجال الشرع الذين يكتبون عقد الزواج ويودعونه عند الكاتب العمومي . اما الفلاحون فيكتفون بتسجيل زيجاتهم عند قاضى الولاية ، لما

سكان المدن فيهملون كل أشكال الرسميات وتتم الزيجات بينهم دون اتفاقات مكتوبة .

ولا يستطيع المسلم ان يتزوج لا ابنته ولا اخته ولا بنت اخيه او بنت اخته ولا بنت زوجته ولا اخته فى الرضاعة بل ولا أخت زوجته الا اذا كانت زوجته قد ماتت أو كان قد انفصل عنها . وبخلاف ذلك يسمح لـ بالزواج من بقية درجات القرى الأخرى .

ولا يعترض الدين على ارتباط المسلم بزوجة من ديانة أخرى : مسيحية أو يهودية ، وقد سمح محمد بهذه الزيجات لأنه يعترف بموسى والمسيح نبيين ورسولين من عند الله ، لكنه لم يسمح مطلقا باتخاذ زوجات من عقائد أخرى خلاف ذلك ، بل ليس ثمة سوى أمثلة محدودة لمسلمين قد استفادوا من هذا التفويض من جانب الشرع . وينشأ الأطفال الذين يولدون من زيجات كهذه على دين محمد ولا تراث الزوجة فى هذه الحالة عن زوجها ما لم تكن ثمة وصية ، ويمكن للزوج ان يقدم لها جزءا من ثروته كهبة اختيارية .

وتزويج الأبناء قبل سن البلوغ حق مطلق يتمتع به أرباب العائلات بل ان موافقة الأبناء انفسهم لا ضرورة لها وليس بإمكانهم أن يفكوا — عن طريق الطلاق — وثاقا عقد على هذا النحو ، ولكن اذا كان الأبناء بالغين فان موافقتهم لا غنى عنها ، لكنهم يقرون اختيار اهاليهم فى معظم الأحيان فلك أن الجنسيتين على الدوام — حيث لا وسيلة للاتصال بينهما — لن يستطيعا إقامة زواج على أساس من الاختيار أو العاطفة المتبادلة ، وفى نفس الوقت فليس مسموحا لزوج بأن يقرب زوجته الا بعد بلوغها السن الذى حددته الطبيعة للبلوغ حيث تصبح قادرة على الانجاب ، فيبقى الأب ابنته لديه حتى تبلغ سن الخامسة عشرة لكن حقوقه هذه تتوقف عند بلوغها هذه السن ، ويحظى الأب بالتقدير عادة اذا ما اعترض على اتمام زواج لم يحن بعد أوانه . وينبغى أن نلاحظ أن والد الزوج لا يقيم اعتراضات من هذا النوع اذا ما وافق والد الزوجة على أن تذهب على الفور الى أحضان زوجها ، ولا تقيم أسرة الزوج أية عقبات تحول دون اتصال الزوجين ولكن يتندر أن نجد فى اوساط الطبقة الدنيا زيجات تتم قبل الوقت المناسب .

ويحدث كثيرا الا يكون الزوج الشاب قد رأى من قبل المرأة التى

تزوجها ، ولم تكن لديه بالتالى فكرة عن جمالها وكفايتها الا عن طريق واحدة من تربيته او صديقات أسرته لذلك فان الليلة الاولى للزفاف لا يكون لها من نتيجة الا القطيعة التامة لتذهب الزوجة غاضبة الى بيت ابيها . ومع ذلك ، فانه اذا ما الح رجل فى أن يرى تلك التى يعرضون عليه الزواج منها فان الشريعة تبيح أن تكشف الفتاة عن وجهها ويديها امامه . ولا يمكن أن يتم هذا الا فى حضور اهلها وفى الفترة التى قارب الزواج فيها مرحلة التمام . وعلى الرغم من هذا فنادر ما يلح احدهم فى ذلك مطلقا حيث أن العادات المتبعة تعارضه . ومن بين الأسباب التى تؤدى الى زواج مبتسر كهذا خوف الآباء من استسلام ابنائهم الى ملاذ مهلكة للصحة تحت ضغوط من شهواتهم .

ويمكن للمسلم أن يتزوج من أربع زوجات شرعيات بالاضافة لآى عدد من الاماء يستطيع اطعامه ، ومع ذلك فحيث أن عليه كما سبق القول أن يوفر لهن جميعا حياة طيبة ، بالاضافة الى ما ينشده المرء من مسعدة وهناء عائلى ، فان المسلمين من كافة الطبقات يحرصون على ألا يفيدوا من هذه الرخصة التى اباحتها الشريعة الا باعتدال بالغ . وليس لكبار الشخصيات فى العادة الا زوجة شرعية واحدة ، وقد تدفع احدهم الرغبة فى انجاب الاطفال او فى الحصول على مصاهرة ممتازة الى الحصول على زوجة ثانية . وعلى الشخص المتزوج من أكثر من زوجة أن ينسلم فى مسكن كل واحدة من زوجاته بالتبادل ، اما اذا تصرف بطريقة مخالفة فسوف يلام على سلوكه علنا فتنضيل زوجة على الاخريات ينظر اليه كامر ظالم لا يسمح به لانفسهم اولئك الحريصون على هوائهم العائلى والذين تسيروهم مشاعرهم الرقيقة . وعندما لا تكون الزوجات فى حالة وفاق فيما بينهما — وهذا هو الامر الشائع — فان الزوج ملزم بتخصيص منزل لاية واحدة ممنه تطلب ذلك ولا يستطيع الرجل أن ينجح فى الاحتفاظ بعدة زوجات فى منزل واحد الا بقوة الارادة وبالصبر والكرم او بطريق العنف والاستبداد .

وتعتمد الزوجات أكثر شيوعا بين الدليقات الشعبية . وهم يسيئون كذلك استغلال سهولة ايقاع الطلاق بزوجاتهم حيث أن الامر لن يكلفهم الا مهورا بالغ الضالة ، وحيث أنهم — بسبب تلك النظرة فى طباعهم — ينظرون للمرأة كمخلوق ناقص غير جدير بالاحترام .

ويتم الاحتفال الذى نصح به محمد لإعلان حدث بهذه الأهمية فى منزل والد الزوجة ، لكن الوقت لم يكن قد حان بعد كى يستطيع الزوج أن يرى زوجته الا اذا كان الاثنان قد بلغا سن الرشد ، وتنقضى الأيام التى تسبق الارتباط فى أمراح عند الأسترتين فيدعى الرجال الى منزل والد الزوج وتدعى النساء الى منزل والد الزوجة ، وتنقضى الزوجة يوما فى الحمام ، وتذهب الى هناك فى صحبة تربياتها وصديقاتها ، يغطيها تماما قناع كبير وزين رأسها تاج وتسير تحت هودج تسبقه عالة وفرقة من الموسيقيين . وتجعل اصوات الآلات الموسيقية واغنيات العرس وصُباحات الفرح التى تطلقها السيدات (الزغاريد) اللأى يشكن الموكب - كل ذلك يجعل من ذلك الموكب مسيرة صاخبة مليئة بالحوية ، وعندما يصل الموكب فى نهاية المطاف الى الحمام ، فان العروس تستعرض على صاحباتها حليها ، فتملأ المياخر بالبخور الطيب الرائحة ، وتراق المطور الغالية بسخاء وبذخ وتكشف صاحبات العروس عن أجمل زينتھن ، وينقضى اليوم فى مرح بهيج وتقدم الاماء او خادمات الحمام القهوة والشربات والفطائر والحلوى ثم يعود موكب العروس الى بيت أبيها بنفس الطريقة التى ذهب بها الى الحمام (١) .

(١) حيث ان فخامة وأبهة حفلات الزفاف تختلفان تبعاً لدرجة ثراء الزوج فقد اكتفينا فى المتن بأن نقدم فكرة عامة لكننا فى هذا الهامش سوف ندخل فى بعض التفاصيل الدقيقة حتى لا نهمل شيئاً يمكنه أن يحدد خاصة عادات مختلف الطبقات الإسلامية فى مصر .

فى أثناء التوجه الى الحمام تتحجب كل السيدات فى الموكب وكذا العروس ، وتحمل العروس فى بعض الأحيان على رأسها وعاء مغطى بشال من الكشمير يتدلى من كل الجهات ويغطى الوجه تماما ويكون الشال مزُدانا بالكثير من الجواهرات والأحجار الكريمة التى أستعارتها الزوجة ان لم تكن تملكها هى نفسها . وحتى يكون الشال أكثر بريقاً فانه يغطى من الأمام بورقة طويلة من الذهب . وبرغم أن الشال يتدلى حتى القدمين تقريبا فاننا نستطيع أن نلمح من خلال الفتحات التى يكشف عنها عن ملابس الزوجة البالغة البذخ والمطرزة بخيوط الفضة والذهب . وترتدى الزوجة خفين من جلد الماعز الأصفر ونعلا مطرزا وهى لا تكشف مطلقا عن يديها . ويسمح شكل ملابسها بأن نكون فكرة عن قايمةا ودرجة سميتها . وهى تسير تحت هودج تغطيه ناموسية من الكريشة المصبوغة باللونين الأخضر والأحمر ويحمله الأصدقاء أو الأقارب من أركانه الأربعة . وعندما يحتفل أحد المالك

ولا يفوت الزوج بدوره أن يذهب الى الحمام العام — وهذه عادة يتبعها الأثرياء على الدوام حتى عندما يكون لديهم في منازلهم حماماتهم

بزواجه على هذا النحو فإن المالك هم الذين يحملون أركان الهودج ويسير مع العروس تحت الهودج اثنتان من خيرة صديقاتها مزيتان بأعلى الحلى وتسير خلفها أمها ، ويتقدم المسيرة رجال يحملون الدفوف وبعدهم خادم يسير أمام الهودج حاملا على رأسه طبقا من الفضة أو النحاس الملقى بالذهب مغطى بقطعة من الحرير المطرز . ويحتوى هذا الوعاء على زوج من الأحذية الخشبية (التبقاب) المزدان بشرط من الفضة ، ويحتوى كذلك على مشط من العاج محلى بالفضة كذلك ، وقممين صنوين من السكر ناصع البياض وشمعتين بضاويتين ومنديلين من المولدين المطرز بالفضة ، وأخيرا على رطائين (الرطل) = ١٨٠ درهم ويساوى تقريبا نصف كيلو جرام ونصف الجرام ، ١٠٠ رطل = ٥٥ كيلو جرام) من البن أحدهما مغلف بشكل يختلف عن الآخر ويضم الموكب فتيات ومدعوات يصل عددهن الى ٢٠ ، ٣٠ ، أو ٦٠ سيدة .

ويلاحظ في حفلات زفاف الطبقة الدنيا وجود نفس العادات مع تعديلات طفيفة . نبدا من المجوهرات والأحجار الكريمة التى تزين الشال الذى يتدلى حول العروس ، يرصع الشال بكمية كبيرة من النقود الفضية ، ويحمل رجال من العامة أطراف الهودج الذى يسبقه بعض العبيد يرتدون ملابس على نمط القسطنطينية وموسيقيون يركبون الحمار ويقوم رجل يسير بالقرب من العروس برشها من أن لآخر بهاء العطر بينما تقفل المسيرة جمهرة من النساء ينشدن الأغاني التى تنشد عادة في مناسبات العرس .

وخارج مدينة الاسكندرية شاهدنا عروسا بدوية كانوا يتجولون بها ، وكانت تركب فوق جمل ، وتصحبها الماشية والائانات وكل الأشياء التى تلتقيها كحمار ، وكان الموكب بطيئا ، بل كان أحيانا يتوقف وقفات قصيرة . وكان البدو يطلقون الأجرة النارية من بنادقهم كما كانوا يعزفون الموسيقى بينما يواصل النساء غناءهن بلا انقطاع .

وجدير بالذكر أن هذه الاحتفالات التى تتم خارج البيت والتى عرضنا للتو تفاصيلها لا يمارسها البكوات وكبار الشخصيات بالقاهرة ، ذلك أن احتفالات العرس عند هؤلاء تتم داخل البيوت ، كما أن المشايخ وبقية المسلمين الذين حصلوا على تدر كبير من التعليم قد هجروا بالمثل عادة تقديم الدليل على بكاره زوجاتهم للأقارب والأصدقاء باعتبار ذلك شسبا يخدش الحشمة .

أما عامة الشعب والأتباط فانهم وحدهم الذين ما يزالون يمارسون هذا السلوك .

الخالصة . وهو يقوم بإبلاغ رغبته في ذلك الى أسطى الحمام عشية اليوم الذى يرغب أن يذهب فيه الى هناك ، فيسارع العمال بتجهيز الحمام بطريقة لائقة ويزينونه باللورود في حالة السيدات أما في حالة الرجال فيكتفى بإحراق البخور فيه وفي نفس الوقت يكون العريس قد دعا ١٥ - ٢٠ من أصدقائه ليصحبوه ، وبعد أن يدخلوا صالة الحمام لا يقبل دخول أشخاص آخرين . وهم في الغالب يحضرون معهم بياضاتهم وأغطيتهم وغوطهم ، كما يجلبون معهم عازفين للترفيه عنهم . ويأتى مدير الحمام نفسه لاستقبال الجميع ويقود العريس الى الحمام وينسحب لياتى بعد قليل حاملا الأرجيلة وعندما ينتهى العريس من حمامه يقوده مدير الحمام مرة أخرى الى الحجرة الأولى . وفي اليوم الأول الذى يمضيه هؤلاء في الحمام لا يأكلون شيئا ، ويحصل مدير الحمام من العريس على ٦٠٠ - ١٠٠٠ ، وأحيانا ألفين من البارات حسب درجة ثرائه .

ويؤدى الأثرياء حفلة الحمام هذه مرتين .

وأخيرا يحل اليوم الكبير حيث ينبغي أن تذهب الزوجة الى بيت زوجها ، ويأتى الأب أو واحد من أصدقائه ليأخذها من بيتها ويسير خلفها موكب لا يقل روعة عن موكبها الى الحمام ، وتسير العروس تحت هودج وتغطى طيلة الطريق بقناع لا يكشف شيئا ويسير أمامها العبيد حاملين مجوهراتها وملابسها في سلال مزدانة ، لكنها لا تتوجه مباشرة الى منزل زوجها ، بل تقوم بجولة طويلة زيادة في الأبهة ، وعندما تصل الى بيت الزوجية ، يحتفل بقدموها باتامة وجبة بانخة في مسكن النساء ولا يكون الزوج من بين المدعوين اذ هو يتوجه في المساء الى المسجد للصلاة ، يصحبه أثاربه وأصدقائه وتسبقه جوقة من الموسيقيين ، وعند عودته الى بيته تقدم القهوة والشربات ثم يدخل حجرة العروس وتنسحب بقية السيدات فيما عدا القابلة والبلانة ويقرب الزوج من زوجته المغطاة بقناعها ويسمى باسم الله ، اله محمد ، بينما قلبه يدق خوفا وأملا وعندئذ تنسحب بدورها السيدتان الغريبتان وعندما تصبح الزوجة بمفردها مع زوجها فانها تقدم له العسل والفطائر ومأكولات أخرى على هذه الشاكلة رمزا معبرا عن العاطفة والمودة التى هى حق لكل منهما على الآخر والتي هى الضمانة الأكثر وثوقا لكفالة حياة عائلية هائسة .

وتتلقى الزوجة ثلثي مهرها عند دخولها الى منزل الزوجية ، ويكون هذا المبلغ ملكا خاصا بها وهي تستطيع أن تنصرف فيه على النحو الذي يعجبها ولا يمكن للزوج أن يحاسبها عليه مطلقا ، بل ليس له مجرد الحق في مناقشتها في أمره .

ويحسن بنا هنا أن نلاحظ بأننا سوف نكون قد اخطأنا على نحو كبير إذا ما اعتقدنا أن المسلمات — برغم خضوعهن لنفوذ أزواجهن — يمكن أن يعاملن باستبداد وطفيلان من قبل أزواجهن فلن وضمنهن على العكس من ذلك طيب لحد كبير ، كما انهن في نفس الوقت ترضى فيه التقاليد والقوانين عليهن بنوع من الانسحاب والتوقع الدائم — يتوصلن لامتلاك نفوذ لا شك فيه على عقول أزواجهن كما ان هؤلاء لا يستطيعون مطلقا ان يسيئوا معاملتهن بل ولا حتى ان ينهروهن بحدة اذ للزوجة في هذه الحالة او تلك ان تطلب الانفصال وتعود الى بيت أبيها .

ويتكفل الاهل بتعليم الزوجة واجباتها وحقوقها الزوجية ، ولا يتدخل لأزواج مطلقا في الأمر ، ويتم ذلك عادة قبل الزواج . وهكذا تعمل عادات وأصول اللياقة على التخفيف لحد ما من تزمّت تلك الولاية المستبيدة التي تعطيها الشريعة للرجال على زوجاتهم . ومع ذلك فالنساء سميدات بقدرهن ، ولا يمكن لهن أن يتصورن مجرد تصور ، كيف يمكن أن تكون نساء الغرب ، في حالة أكثر امتيازاً مما هن عليه .

٢

الانفصال والطلاق

جعلت الشريعة الإسلامية من الطلاق امرا بالغ السهولة اذ يكفي أن يقول الرجل لزوجته : انت طلاق — حتى يكون الطلاق قد وقع دون أن يكون القاضي في حاجة لأن يتدخل في الأمر او أن يقف على دواعي هذا الطلاق . وهنا تتسلم الزوجة الباقي من مهرها وتحمل معها مجوهراتها وبقية متعلقاتها وتنسحب من بيت الزوجية . وقد حدد محمد الأمر على النحو التالي في القرآن : « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة اشهر وعشرا ماذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن

بالمعروف»^(١) «لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعهوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين . وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم»^(٢) . وحسب أوامر المشرع هذه ، فإن الزوج إذا ما طلق زوجته في اليوم الأول لزواجهما دون أن يباشرها — وهذا امر يحدث في بعض الأحيان — فليس ينبغي عليه أن يدفع لها إلا نصف مهرها ، أما إذا ما حدث لزوج طلق زوجته أن استعاضها مرة أخرى وكرر الزواج والانفصال ليليل عدد مرات ذلك ثلاثا مع نفس المرأة ، فإنه لا يستطيع أن يتخذ منها بعد ذلك زوجة شرعية ، إلا إذا مرت قبل ذلك بأحضان رجل آخر . وقد يبدو هذا التشدد من جانب المشرع للوهلة الأولى هجيا أو باعثا على الضحك ومع ذلك فإننا نجد فيه فكرة عميقة ومعرفة عظيمة بنفوس البشر ، فبوضع الزوج هكذا عرضة لنوازع الغيرة — وهى عاطفة بالغة العنف عند الشرقيين — فسوف يكون عليه أن يتروى ولا يستجيب ببساطة لأبسط مشاعر الغضب فيقرر هكذا ببساطة ويمثل هذه السرعة الفائقة طلاقا ظالما في معظم الأحيان ، سوف يتحمل هو قبل غيره عواقبه القاسية إذا ما عاد به الندم والعاطفة ذات يوم إلى مشاعر ارق . ولذا السبب فتد حدث أكثر من مرة أن قام الزوج المطلق — وهو يتحسر على جمال وفضائل زوجته في الوقت الذي يريد فيه أن يذعن لأحكام الشرع — بدعوة أحد أصدقائه إلى اتخاذ طليقته — هو — زوجة له ، ويتفق مع هذا الصديق على أن يقوم بتطليقها دون أن يقربها في فترة هذا الزواج القصير المدى ، ومع ذلك فينبغى أن يظل هذا الاتفاق سرا على الناس جميعا بخلاف الأطراف الثلاثة المعنية ، ويتحتم على وجه الخصوص أن يكون ثمة ثقة تامة في الزوجة لأنها هى التى سوف تلعب الدور الرئيسى في مثل هذا التواطؤ الغريب . ومع ذلك فقد حدث في بعض الأحيان أن نسي مثل هذا الصديق — بعد أن أخذه جمال عروسه تلك — نفسه لدرجة يخون معها ما بينه وبين صديقه الفيور من ثقة وصداقة بل ويحتفظ بتلك الزوجة التى كان عليه فقط أن يتظاهر بالزواج منها .

وحيث أن محبدا قد تنبأ بأن الطلاق يمكن أن يقع بسبب ناله كمجرد نفور طارئ ، فقد نصح الزوج المطلق — حتى يتجنب بتسدر الامكن

(١) القرآن الكريم . آية ٢٣٤ البقرة . (المترجم) .

(٢) القرآن الكريم . ٢٣٦ - ٢٣٧ البقرة . (المترجم) .

مثل هذه المسألة العائلية — بأن يبقيا في بيته مدة ثلاثة أشهر على أمل أن يؤدي أعمال الفكر أو تؤدي بعض المجاملات المتبادلة الى إعادة الود بينهما قبل انقضاء هذه المهلة ، ويرغم التحكة البادية في مثل هذا الأمر فانه نادرا ما يحدث ، اذ من المعتاد في القاهرة ان تخرج المرأة من بيت زوجها بمجرد ان يتم طلاقها منه . ويمكن للمطلقة ان تتزوج بعد مضي ثلاثة أشهر من انفصالها أى بعد ان تاتيها عادة النساء الشهرية ثلاث مرات ، ويعتبر اعلانها هي للأمر كافيا ، فاذا ما حدث ووجدت نفسها حاملا في هذه الفترة فان الأب المطلق لا يمكنه أن يطلب طفله الى حضنته الا بعد ان يبلغ من العمر ٧ سنوات بالنسبة للذكور ، اما بالنسبة للإناث فانه لا يستطيع ان يطلبها الى حضنته الا بعد ان تصل الى سن البلوغ ، وفي نفس الوقت ، فانه — الأب المطلق — ملزم بأن يدفع مصاريف رعاية وإطعام وتعليم الوليد مهما كان جنسه .

وقد يحدث ان تنتقل الأم الى بيت زوج جديد ، وفي هذه الحالة تمهد بوليدها الى رعاية جدته أو واحدة من اقرب قريباتها فتاة كانت أو أرملة ولا يمكن للأب ان يسترد طفله الا في حالة ما اذا لم يكن لزوجته أسرة ، ونادرا ما يحدث ذلك (١) .

والزنا هو أخطر اتهام يمكن أن يوجهه زوج الى زوجته ، لكن

(١) نضيف الى هذا العرض لتواعد الطلاق ان الرجل اذا ما طلق زوجته قبل ان يخطئ بها فانه ليس ملزما نحوها الا بنصف المهر ولكن لو حدثت خلوة بينهما ولو مرة واحدة فهو ملزم قبلها بدفع المهر كله . وتحمل البنت أو المرأة المطلقة معها الى بيت أبيها كل ما خرج منه بالإضافة الى حقوقها هي قبل طليقتها وهي عبارة عن الثلث الأخير من المهر ، وهي تقسّمه عند خروجها من بيت زوجها ويكون ذلك دليلا على القطيعة وكما سبق القول فليس ثمة إجراءات قضائية أو عقود مكتوبة للتصديق على الزواج أو لتسجيل الطلاق ، ونمتنع هنا عن الادلاء بأرائنا حول غرابة وشنوؤ هذه العادات كما قد يراها من تختلف أنظمتهم عن هذه النظم ، ومع ذلك فقد يكون المشرع العربي قد استهدف من وراء ذلك التشريعات ان يتفادى مضار اكبر خطورة ، فلكل الشعوب طباع خاصة بها كالأجواء التي يعيشون فيها، وعلى أولئك الذين يريدون الحكم على أنظمة وعادات الآخرين ان يراعوا هذه الحقيقة التي لا مفر منها وأن يقرروا نتيجة لذلك . وهذا هو المعذر الوحيد الذي يمكن التماسه لمحمد .

المشرع جعل هذا الاتهام عسيرا على الاثبات لدرجة لا يمكن معها ان نفكر الا عددا بائع الضالة لسيدات ادن او عوقبن على مثل هذه التهمة . ومع ذلك فاذا ما اتسم شخص ما خمس مرات امام القاضي ان زوجته تد خاتته ، ثم اتسمت هي خمس مرات على عكس ذلك فان القاضي يحكم بطلانها ويصبح انفصالها ابديا . ولسنا بحاجة للقول بان ابناء الطبقة العليا او حتى الطبقات البسيطة يتفادون على الدوام الفضيحة التى تنجم عن حكم كهذا ، اذ لا يعرض نفسه وعرضه لمثل هذه المهانة الا ضماض النفوس وقليلوا الحياء ، لكى يشبعوا شهوة الانتقام والرغبة فى التشهير التى تستبد بهم .

ولا يمكن للمرأة بمطلق حريتها ان تغادر بيت الزوجية . واذا ما نشأ نفور او كراهية او كان هو يهملها او يسىء معاملتها فانها تستطيع ان تحمله عن طريق عروض سخية تقدمها له ان يقبل الانفصال بينهما ، فاذا ما رفض وظل سادرا فى اساليبه السيئة فانها تتوجه الى القاضي ويفحص الأخير شكاوها ويحكم بالطلاق اذا ما اقتنع بالأسباب التى قدمتها له ، وفى هذه الحالة لا تفقد المرأة أى حق من حقوقها وتحفظ بكل مهرها وكل امتيازاتها ، اما اذا قبل الزوج الطلاق الذى عرضته عليه زوجته فلا يمكنه ان يردها الى عصمته الا بعد ان يعقد عليها عقد زواج جديد .

وكنتيجة حتمية ، فلا بد ان يكون الطلاق فى بلاد ليس للمرأة فيها فى غالب الأحيان حق اختيار زوجها ، أكثر انتشارا منه فى البلاد التى تتم فيها الزيجات نتيجة لعواطف وميول متبادلة ، كما انه أكثر شيوعا من جهة أخرى بسبب السهولة التى منحها القوانين للأزواج ، وهذا ما يحدث فى تركيا ومصر . وبالرغم من الحقوق التى رتبها محمد للنساء قبل ازواجهن ، وبالرغم مما فرضه على الأزواج بضرورة ابقاء زوجاتهم فى البيت ثلاثة اشهر بعد الانفصال الاول فان الطلاق بالغ الشيوخ . ومع ذلك فلا بد ان نقر بان ليس ثمة ما يشين امرأة مطلقة ، فهى تستطيع العيش على زوج آخر بسهولة ، لكن حياة الناس تتأثر على الدوام من مثل هذه الحرية المعبية وان كان الامر المؤكد — نقول هذا باسم الحقيقة — ان التقدم الحضارى قد جعل من مثل هذا الفعل المعيب اقل انتشارا بين الطبقة العليا فى المجتمع ، بل يكاد ينظر اليه كأمر ماس بالشرف . وسعيدة هى تلك الامم التى يمكن للمقتل والاخلاق عندها ان تنتزع السوءات من جنورها وبخاصة عند هؤلاء الذين

يمانون من جموح عواطفهم وشهواتهم : وتلك هي طباع المصريين . ونحن في وضع يسمح لنا بتكوين هذا الرأي عنهم بعد تلك الفترة التي اتمناها في وطنهم ولعله ليس ببعيد ذلك اليوم الذي ستبذل فيه الجهود لاعتناهم الى حظيرة العلوم والفنون ومختلف مناحي الحضارة ، بل يمكننا ان نتجسس بالقول بان جهودا كهذه لن تلتى اية صعوبة ، فالنجاح في هذا الامر يتجاوز بكثير مرحلة الامل .

ولابد قبل ان ننهي هذا الفصل ان نتحدث عن بعض الاعتبارات العلمية حول حياة ودور النساء في مصر وحول الطريقة التي تمضي عليها حياتهن ، فهذا الجنس الذي كان موضوعا لاهتمامنا وعنايتنا هو ابعد ما يكون — كما سبق ان لاحظنا — عن ان يحصل على نفس الامتيازات التي يحصل عليها المسلمون الرجال ، فالمرأة — وقد انعزلت عن المجتمع — محكوم عليها بالعدم المطلق وبالعزلة ، ويضمها المسلمون في عداد الكائنات التي لا تحظى بقدر كاف من الذكاء ونعمة العقل . ويعود هذا التهمين من شأن المرأة الى الخليفة عمر وذلك حين منعه من الاسهام في ممارسة الواجبات الدينية ، فلقد صك بذلك امرا لا راد له بالحط من شأن النساء ، وان كان محمد نفسه ليس ببعيد عن مشاركته في ذلك ، فنهجه الديني مجحف بالجنس اللطيف ، ويمكنك بلا جدال ان تهدم الدعائم التي تنهض عليها جنته الموعودة ، فما عليك لكي تفعل ذلك الا ان تستبعد منها اولئك النسوة الفتيلات . ولكن ، او لم يكن بمقدوره ان يعثر على وسيلة اكثر انصافا كي يربط احلامه الرائعة بالعقل والعمل ؟ .

وحيث ان الرجال يضمون النساء في مرتبة ادنى منهم فانهم يكون نحوهم نوعا من الاستخفاف والاحتقار تتعرض معه النساء على الدوام لاهانتهم بل ولضروب من قسوتهم الرهيبة ، لكن اساءة معاملتهم تلك — كما سبق لنا القول — لا تأتي من جانب الزوج بل تتعرض النسوة لذلك من جانب اهلن قبل الزواج ، ثم يتعرضن لنفس المخاطر بمجرد ان يصبحن مطلقات ، وليس بمقدورهن ان يؤمن أنفسهن ضد هذا العصف الا في حمالة زوج . ومن نافلة القول ان نلفت النظر الى اتنا ننحى بالعلوم هنا على الطبقات الدنيا من سكان المدن ، وعلى أولئك الذين تكاد لم تمسهم الحضارة في الريف . اما الرجل التركي ، او ذلك الرجل الذي ينتهي الى اعيان المصريين فانه ينظر الى ضرب زوجته باعتباره عملا اجراميا يمثل ما هو باعث على

العار . لكن هذه النظرة الانسانية والعاقلة ليست للأسف هي الشائعة ولا يدعمها القانون بسطوته . وسوف نجعلنا الحكاية التي سنقصها هنا نقف على رأى المسلمين فى النساء — ومن الممكن أن نقص آلاف الأمثلة — لكننا نكتفى هنا بتلك الحكاية التى كنا نحن بأنفسنا طرفا فيها .

كنا فى قرية الرحمانية ، عندما لجأت امرأة وعديد من الرجال الى منزل واحد من زملائنا ، وركعت وركع الجميع على ركبهم طالبين العدل أو بالاحرى الانتقام ، حيث يفضل الشرقيون استخدام تلك الكلمة الأخيرة ، وكانت المرأة ملطخة بالدم . طامن زميلنا من روعها واكتشف انها مضروية فوق رأسها ، وأراد أن يخلع النقاب الذى يغطى وجهها ، لكنها قاومت ، فكرر المحاولة وانتزع النقاب لكن البائسة — التى كانت تتمسك وهى فى آلامها تلك ، بالواجبات التى تفرضها على جنسها عادات وتقاليد بلادها — غطت وجهها بيديها ، واحتراما من زميلنا لمعتقدات كهذه فقد قص الشعر المحيط بالجرح وضدده بنفسه ، حيث لم يكن ثمة طبيب ، وربط الضمادة بقطعة من قميص مزقه لهذا الغرض ، وعندما شاهده بعض المسلمين والأتباط يقوم بهذا العمل ، أظهروا بالغ دهشتهم علنا ، بل وعبروا عن استنكارهم لقيام رجل يشغل منصبا عاما مثله بالانحدار لدرجة يضمد معها كائنا حقيرا ، وتلك رؤيتهم للمرأة . وعندما صدمته همجيتهم تلك أراد أن يطردهم ، لكنهم ظلوا يقولون له أنه بذلك يسئ الى كرامته .

ويضيف زميلنا : « توجهت على الفور الى حاكم الولاية وعرضت عليه الأمر ، فحولنى كامل السلطة فى عقاب المذنب الذى كنت قد أمرت بالقضاء القبض عليه . وعندما عدت الى منزلى وجدت هذا الرجل .

— أهو أنت أيها الهمجى الذى عامل هذه المسكينة بهذه الوحشية ؟
فأجابنى ضاحكا :

— ماذا ؟ اتظنها وحشية أن تضرب امرأة ؟

— وذلك الدم الذى أسلته ؟

فأجاب — لا يمحو دم الرجل الا الدم ، لكن ليس هذا هو الأبر بالنسبة للنساء .

واستفزنى الهدوء الذى يصطنعه فى ربوده فقلت له :

— نحن قضاتك . وتلك القسوة التى أبديتها جريمة كبرى فى نظرنا
وسنعاقبك .

— وهل ستماقبوننى لو أتنى جرحت بقرة ؟

— بلا جدال . اذا لم تكن ملكا لك .

— اذن فاستمعوا لأسبابى ، وسوف ترون أنه كان على ان أسلك
هذا السلوك . لقد انتزع المالك منى حقلى لكى يعطوه لابن عمى . ثم جاء
الفرنسيون ليصلحوا من مظالم المالك : أفلا يحق لى اذن أن استرد املاكى
السابقة ؟ لكن ابن عمى واخوته وابنه اعترضوا على ذلك فضربتهم ، وسأظل
أضربهم حتى يعيدوا الى أرضى . اتنى لا اطالب الا بما هو حق لى ، بل
اتنى الجأ لهذا الغرض الى عدالة القوانين الفرنسية .

— حسن ، ما دمت تتحدث عن القوانين الفرنسية ، فاعرف اذن انها
تعاقب السفاحين والذين يسمحون لأنفسهم بارتكاب أعمال العنف ضد
الآخرين .

واستدعيت الى بيتى اعيان وشيوخ القرية .

— ما هو العقاب الذى توقعونه على الذين يضربون او يجرحون عامدين
أحد الرجال ؟

فأجابوا فى وقت واحد :

— عصا فى مقابل كل عصا وليس ثمة أكثر من ذلك . اما العقوبات
التي نعاقب بها عموما فهمى : الغرامات ، الضرب بالعصا ، الموت .

— يكفى ، والرجل الذى مثل أمامنا الآن قد جرح هذه البائسة ، وهو
يطلب أن يعامل حسب القوانين الفرنسية . فليعلم اذن أن الانسان حسب
هذه القوانين لا يستطيع أن يحصل على حقوقه بنفسه ، وأن للمرأة نفس
الحقوق التى للرجل ، وأن دمها ليس أقل قيمة من دمه . ونتيجة لذلك
فسوف يضرب على الفور ٢٥ عصا .

— ٢٥ عصا ؟ (صاحوا جميعا بلهجة تنم عن دهشة شديدة) ليس هذا عدلا ، فهذا اقصى ما كنا سنوقعه عليه من عقاب لو انه قتلها .
— نعم ٢٥ عصا ولتنفذ أوامرى على الفور ، واذا ماتت المرأة سنخذ اجراءات اخرى .

وعندما حان وقت تطبيق العقاب لم يشأ اى منهم أن يتحمل مسئولية تنفيذه ، فأرسلت فى استدعاء القواس لكنه مارس واجبه برخاوة وحرص ، حتى أن خادما ملطيا كان يشاركتى الشمور بالفضب ، انتزع منه العصا واكمل هو العقاب بالقسوة التى يقتضيها الحال .

وهذه الحكاية تصور — دون حاجة منا الى تعليق — تقاليد الطبقة الدنيا من الشعب ، وتعطى فكرة دقيقة عن رأى ابنائها فى النساء فى مصر ، ويكاد الأمر يكون على هذا النحو فى كل بلدان الشرق .

٣

الطعام

القناعة فضيلة مصرية ، واذا كنا نجد اثرياء المدن الكبرى يتصفون بالشراهة ويصنعون اطعمة بسيطة الاعداد ليتناولوها بكميات كبيرة جدا (ويوجه هذا اللوم الى الممالك بصفة خاصة) ، فان الطبقة العاملة وكذلك الفلاحين شديدا القناعة بشكل لافت للنظر ، فهم لا يتناولون من الطعام الا ما يكفى كى يقيم اودهم ، فضلا عن ذلك مفذاؤهم هذا بالغ السوء والفقر لدرجة أن المرء لا يكاد يتصور كيف يمكن أن يكنهم هذا الطعام وكيف يكنهم والحالة هذه أن يقوموا بأعمالهم الشاقة .

ويحب المصريون قبل كل شئ لحم الضأن ، ولكن الطبقات الشعبية لا يمكنها أن تستمتع بمثل هذا الترف الا ايام المناسبات الهامة أما بقية العام فهم تعيش على الخضروات الطازجة والسبك المالح ودرنات النباتات ويقول من نوع الحمص والفول والترمس .. وتباع الاطعمة الاخيرة مطبوخة وتشكل بالاضافة الى بعض الفاكهة الغذاء الرئيسى لسكان المدن .

وبالرغم من أن تربة مصر تنتج القمح بكميات وفيرة ، وأن لبذور القمح هنا خاصية ممتازة ، وأن سعرها اقل بكثير من سعرها في أوربا إلا أن القمح لا يشكل الغذاء الأساسى لغالبية السكان . كما يحدث في كل مكان ، إذ يترك الفلاح وصغار الناس بدافع فطرى بل ربما يكون الأمر بدافع اقتصادى — للأغنياء عادة أكل الخبز الذى ينظرون اليه كأمر من أمور الترف ، ليتغنوا هم بوجه خاص على الخضروات التى تزرع في كل الفصول فيأكلون بدلا من الخبز — على سبيل المثال : درنات القلقاس ، جذور الجزر ، ثمار البابية ، والبادنجان ، والخيار ، والشمام والبطيخ والعبد اللاوى (العجور) وأنواع أخرى من الشمام تزرع بمصر . وأوراق الخبازى والملوخية والحلبة ، وهذه النباتات مرطبة ومخاطية — وبالإضافة الى ذلك ياكلون حبوب الفرة ، والفرة المويجة والترمس والحمص . كما يتخفون بشمار النخل (البلح) والسمنك المملح واللبن الرائب والجبن والعسل الأسود . وكما سبق أن قلنا فإن اللحم أبعد من أن يكون طعاما يوميا لتلك الطبقات .

وربما جاز لنا أن نجد في كسل المصريين الفطرى وفي ندرة الوقود في بلادهم بعض أسباب هذا الصيام المستمر الذى حكموا به على أنفسهم حتى يتخلصوا من جيرة المطبخ ، ولعلها هي نفس الأسباب التى دفعتهم الى تفضيل استخدام الأطعمة التى يمكن أن تؤكل نيئة وبلا اعداد أو تلك التى يمكن طهيها بكميات كبيرة على يد اناس يحترمون ذلك كمهنة لهم ، وفضلا عن ذلك غلو اننا قارنا طريقتهم في الغذاء هذه وتلك التى كانت لدى قدماء المصريين لوجدنا تماثلا كبيرا سواء في المأكولات أو في بساطة اعدادها (١) .

(١) يقول هيرودت عن غذاء المصريين بينما هو يتحدث عن بعض عاداتهم :

« أما عن الطعام . فقد تفتق ذهنهم عن وسائل دعوية للحصول عليه بسهولة ، فعنما يكون فيضان النيل في أوجه ويصبح الريف أشبه بالبحر ، تظهر في المياه كميات هائلة من الزنابق يسميها المصريون البشنين (اللوتس) ، فيقومون بجمعها وتجفيفها في الشمس ثم يأخذون بذورها التى تشبه بذور الخشخاش ويصحنونها ليصنعوا منها الخبز الذى يقومون بنضاجه على النار ، كما ياكلون كذلك جذور هذا النبات ومذاقها طيب لذيق ، وهى مستديرة وفى حجم التفاحة . وثمة نوع آخر من الزنابق تشبه الورود وتنمو

وإنما حرارة الصيف الشديد يأكل الناس بشغف : البنجر والخيار
والبصل المنقوع في الخل ، وهذا النوع من الطعام رخيص الثمن وينادى
عليه الباعة في الشوارع ويعرضونه في الميادين حيث يتجمع العصابة أيام
الاعيداد ، وفي هذا الفصل أيضا يأكل الناس أوراق الحلبة ، ويصنع المصري
لنفسه وجبة شهية مكونة من الخس والخيار والبطيخ أو الشمام دون أن
يقوم بتعليق الصنفين الأولين ، وهو يأكل السلطة بشهية عظيمة ولا يكلف
نفسه عناء تزويدها بالزيت أو الخل ، ويأكل كحلوى ، كيزان الذرة المشوية
قليلا في الفرن والتي قطعت قبل أن تبلغ مرحلة النضوج .

بكرة أيضا في مياه النيل ، ويقوم المصريون بجمع ثمارها التي توجد بها كمية
من حبوب حسنة المذاق وفي حجم نواة الزيتون وهي تؤكل خضراء أو جافة .
أما البردى فهو محصول سنوى ، وعندما يؤخذ من المستنقعات يقطع
الجزء العلوى منه ويستخدم استخدامات عدة . أما جزؤه السفلى وما يتبقى
من النبات — ويبلغ طوله حوالى ذراع — فانه يؤكل نيئا أما الذين يريدون
له مذاقا أفضل فيقومون بتحميره في فرن ملتهب ، وبعض المصريين لا يعيش
الا على السمك ، وهم ينزعون أحشاءه ويجففونه في الشمس ويأكلونه بعد
ذلك (هيردوت ، الكتاب الثانى ، الفقرة ٦ ، ص ٧١ ترجمة : لارشيه)
ويضيف المؤرخ في مكان آخر من كتابه « يصنع المصريون خبزهم من الشعير
ويعيشون على السمك النيء المجفف في الشمس والمقبل في ملح مالح ويأكلون
كذلك السمك والبط وبعض الطيور الصغيرة ، وهم يأكلون هذه الأصناف
نيئة بعد تليحها » .

ويتحدث ديودور الصقلى في نفس الموضوع فيقول :

« يقال أن المصريين في بادئ أمرهم كانوا يعيشون على الأعشاب فكانوا
يأكلون الكرنب وجذور النباتات التي يعثرون عليها في المستنقعات دون
أساس للمفاضلة بينها إلا المذاق ، وكانوا يأكلون على وجه الخصوص
العشب المسمى المرجية agrostis ومذاقه طيب للغاية وكان غذاء
كافيا للإنسان ، ومن المؤكد أنه كان مفيدا على وجه الخصوص لقطعانهم
فقد كان يؤدي الى تسمينها بشكل واضح ولا يزال المصريون حتى اليوم —
عرفنا بما اداه هذا النبات من فائدة لأبائهم — يحملون هذا النبات في
أيديهم وهم ذاهبون الى المعابد لتأدية الصلاة لآلهتهم ، والطعام الثانى
للمصريين هو السمك ويهيء لهم النهر كميات هائلة منه ، وتظل كميات
كبيرة منه على سطح الأرض بعد انحسار المياه ، كما انهم يأكلون كذلك لحم
ماشيتهم ويستخدمون جلودها في صنع ملابسهم ، وقد تعلموا مؤخرا اكل
الفاكهة وأهمها البشنين (اللوتس) الذى يستخدمونه في صنع الخبز .

وعندما تنقضى مواسم الفاكهة والخضروات ، يصبح الطهاة الذين يقومون بيطهو كميات كبيرة من الفول والحمص ... الخ المصدر الوحيد لطعام الطبقة الدنيا من الشعب . ولعل هذه المناسبة التى ينبغى ان نقول فيها كلمة عن طريقتهم فى طهو هذه الاطعمة ، وهى طريقة اقتصادية للغاية وبألغة البساطة فطهاة الشعب — ان كان يصح ان نسميهم بهذا الاسم — لديهم قدور من الفخار كبيرة الحجم ، يقومون بملئها حتى ثلاثة ارباعها بالبقول المغبورة بالمياه وتسمى هذه : قدرة الطبخ بلغة اهل البلاد وبعد ان تملأ القدرة بهذه الطريقة يفلق حلقتها تماما بالليون النبلى وطحن الطفل ثم تدفن فى رماد الحمامات العامة الملتهب وتترك هكذا لمدة ٥ — ٦ ساعات وبعد ذلك يصبح الطعام مطهوا تماما وصالحا للبيع ويشتره الجمهور بكميات قليلة مع قليل من الملح ويزين احيانا بالخبس وقليل من التوابل . ويساوى الطبق من هذا الطعام — اذا كان مزودا بالتوابل : فلفل اسود . فلفل اخضر ، زنجبيل — بارة واحدة اما اذا لم يكن مزودا بالتوابل فلا يزيد ثمنه عن ٦ اجداد (١) . اما اولئك الذين ييغون توفيرا اكبر فيمكنهم ان يكتفوا بكميات من الترمس . ويطهى الترمس بنفس الطريقة السابقة ولكى يفقد الترمس مرارته فانه يستنبت قبل اعداده ثم يغسل وذلك بوضعه فى سلال تدلى وسط النيل وعندما يتم كل ذلك يطهى الترمس . ولا تساوى كمية كبيرة من هذا الخضار — اكثر من ٢ — ٣ اجداد ومضلا عن ذلك ، فهذه الكمية — مع قناعة المصريين الشديدة — تكفى وجبة لرجل .

والبلح الطازج او المجفف هو ايضا ذو نفع كبير للطبقات الشعبية وبخاصة سكان الريف . ويكاد لا يكون للبدو من طعام سواه . وفي الصعيد، توجد قرى باكملها لا تعيش الا على البلح وحده لمدة تزيد على عشرة اشهر فى العام ، وتؤكل هذه الفاكهة فى حالات مختلفة من النضوج وتستهلك منها القاهرة والمدن الأخرى كميات كبيرة ، ويأتى جزء كبير من البلح الذى يأكله سكان الدلتا من الصعيد ، وهو يصل الى هناك طازجا او مجففا ، ويصل النوع الآخر اما بكامل هيئته واما منزوع النوى فى هيئة كتلة مضغوطة (عجوة) وهذا ما يجعله قابلا لان يبقى فترة طويلة دون ان يلف . وعندما تقطع منه قطعة فانها تشبه اللحم المفروم الذى يسميه الجزار فى باريس

(١) الجديد عملة من النحاس ، والبارة تساوى ١٢ اجداد .

Fromage de cochon والبلح المجفف سواء كان بكامل هيئته أو ممعدا بالشكل الذى بيناه للتو غالى الثمن لانه ينقل من مكان بعيد ، ويسبب غلو سعره فان الطبقات الدنيا لا تستطيع التزود به ، لذا فهي تكفى بالبلح الطازج الذى يجمع فى مناطق مجاورة ، ولهذا فهو يؤكل قبل أن يصل الى تمام نضجه .

وتزود التجارة مصر بأنواع عديدة من الفواكه المجففة مثل العنب والمشمش والخوخ والفسق واللو ، ويزرع فى البلاد التى والزيتون أما عنب كورنيشة المجفف فهو يدخل كثيرا فى اعداد وجبات الأثرياء .

وبخلاف تجار البقول المطهورة ، يشاهد فى القاهرة اعداد من الشوائين الذين يبيعون السمك المقلى واللحم المفروم المعد على هيئة كرات صغيرة مشوية ومغلطة بأوراق العنب على هيئة كرات كبيرة فى حجم المصفر موضوعة فى أسياخ صغيرة من الخشب .

وينظر الفلاحون الى شحوم الحيوانات باعتبارها الطعام الأمثل لكن فقرهم لا يسمح لهم بالحصول على ما يشبع حاجتهم منها على الدوام ، ويستهلك الاتباط كميات كبيرة من زيت الزيتون ويدخلونه فى كل شيء حتى انهم يرشون به خبزهم ، وهذه العادة السيئة سبب لكثير من الامراض التى تصيبهم هم بشكل خاص ، لكن المصريين على وجه العموم يأكلون بنهم بذور الخشخاش وبذوراً أخرى يستحبونها ، ومشروباتهم هى الشرابات وسائل آخر يدخل فى تركيبه الاميون بشكل رئيسى ، ويلجأ الأثرياء لهذا المشروب الأخير للسكر لكن الفقراء فى غالب الأحيان لا يشربون الا الماء القراح وأنواعا من الشرابات الرديء وتحرم الشريعة الاسلامية الخور كما يعرف الناس جميعا حتى تمنع السكر ، ويراعى المسلمون المتمسكون بدينهم ذلك ، اما الكبار والتجار والجنود فيرتكبون هذه المعصية فى الخفاء .

ويصنع المصريون عددا من المشروبات الروحية وأحسنها واجودها هو المشروب المصنوع من العنب المجفف أما ما يستخرج من التين والجميز والبلح وثمار التين الشوكى فهي اذنى قيمة ، ويفرط الاتباط فى تناول هذه

الخمور (١) فيشربون منها زجاجات بأكملها وهو ما يؤدي بهم الى الاصابة بالدمامل ، اما الذين يشربون من مياه النيل طيلة العام دون مراعاة للفصول ودون القيام بتنقيتها فانهم يتعرضون لباديء حمى تهدم بنيتهم بشكل غير محسوس .

ذلك ان مياه النيل يصيبها العطب كل عام قرب نهاية ابريل . اما البيرة فهي مجهولة تماما في مصر اليوم بالرغم من ان هيرودت تد تحدث عنها كمشروب عند قدماء المصريين (٢) .

٤

الملبس

لا تتأثر ملابس المصريين على الاطلاق بأهواء الموضة وتقلباتها مثلما يحدث عندنا . فشكلها ثابت لا يتغير أبدا . والألوان الزاهية هي اكثر الألوان التي تحظى بالقبول . والاتساع ميزة واضحة في ملابس المصريين وهم يشتركون في هذا مع كل الشرقيين حيث لا تستطيع هذه الشعوب تحمل الملابس الضيقة مطلقا : « فاللباس » والقميص والبنيش والجبّة والتغطان . . تفصل كلها على نفس الوتيرة ، ومن الطريف ان نذكر هنا ما كان يقوله

(١) يستهلك المسيحيون في سوريا والاقباط في مصر المشروبات الروحية المستخلصة من العنب المجفف بكميات كبيرة ويشرب منه الآخرون على وجه الخصوص زجاجات بأكملها بعد عشاءهم وكانت قد اتهمت من نقل الى ذلك بالبالغة ولكنه قدم لى الأدلة على صحة ذلك ومع ذلك فقد ظلت علم دهشتى من ان مثل هذا الافراط في الشرب لا يؤدي الى قتل الشارب او حتى على الأقل الى بلوغه ذروة السكر .

(٢) هيرودت : المراجع السابق . ص ٧٧ ويصنع المسيحيون كميات قليلة من الخمور في الفيوم ولكنهم لا يعرفون كيف يصنعونها بشكل طيب ، ولم تكن الخمر مجهولة لقدماء المصريين كما تصور البعض حسب نص لهيرودت ترجم على نحو غير دقيق فتد راينسا في آثارهم رسوما لحصاد العنب وصنع الخمر والآنية التي كانت تقدم فيها . انظر دراسة المسيو كوستاز Costaz عن وصف مغارات مدينة طيبة . وقد حاول الفرنسيون صنع الخمر في القاهرة ولكن الحروب اوقفت تجاربهم .

الرجل المصرى عندما يرى أحدا يمر أمامه وهو يرتدى بنطلونا يصنع حسب الموضة ، أحضره معه من فرنسا — وهو لذلك بالغ الضيق — : « ماذا ! هل الاتمثلة قليلة جدا لديكم حتى تصنعوه بهذا الشكل ؟ » .

ولكى نتعرف جيدا على الملابس المصرية ، سنقدم فيما يلى بيانا مفصلا لختلف أجزاء هذه الملابس ، وسنبدا بملابس الرجال .

اللباس : سروال الصيف ، وهو عادة من القيل .

الشرشير : سروال الشتاء وهو من الجوخ .

السروال : سروال الملوك ولونه احمر ويصنع من حرير وارد من البندقية .

القميص : وذراعه غير مشقوقين ، ويتدلى حتى العقبين ويلبس فوق السروال واكمامه واسعة وبالغة الطول .

اليلك : صديرى خاص بالملوك وهو واسع وقصير واكمامه طويلة جدا وبالغة الاتساع .

القفطان : رداء مفتوح من الامام بكمين كبيرين جدا ويلبس فوق للصديرى .

الجبة : رداء مفتوح هو الآخر وتلبس فوق القفطان ، واكمامها ليست قصيرة بالمقارنة باكمام القفطان ، ويضاف اليها الفراء فى الشتاء .

البنيش : روب واسع جدا واكمامه بالغة الطول تتجاوز طول الذراع واليد وهى مشقوقة عند اطرافها .

الحزام : وهو من المسلمين او الصوف او الحرير ويلبس فوق القفطان .

الطربوش : وهو من اللباد ويفطى الرأس حتى الاذنين .

الثال : وهو قطعة طويلة من المسلمين او من قماش صوفى ويلف حول الطربوش عدة مرات - ويصنع ثال الاثرياء من الكشمير .

الصديري : وهو صغير وبدون اكمام .

العمة : ويطلق الاسم على غطاء الرأس بجزئيه (الطربوش + الشال)

التاووق : فطاء الرأس عند الأتراك والبكوات وهو مستدير الشكل شديد الارتفاع وأكثر اتساعا عند القمة عنه عند القاعدة ، ويغطي جزؤه الأسفل بشال ملفوف حوله بعناية بالغة .

الطرحة : قطعة تماش من المسلمين أو جزء من الشال يتدلى خلف الرأس بعد أن يلف عدة مرات حول الطربوش ويستقر على الكتفين وله تأثير جميل وتطرز حوافه أحيانا بالذهب .

ولا يقل الحذاء تعقيدا عن بقية أجزاء الملابس ، وهو يتكون من المست وهو من جلد الماعز يغطي كل القدم ثم البابوش والصرمة وهما أيضا من جلد الماعز وتوضع فيها القدم مغطاة بالمست وعند الدخول الى مسكن مغروش بالسجاجيد يخلع البابوش والصرمة حسبما يقضى الذوق ، وينتقل الناس عند ركوب الخيل أو حتى عند القيام بجولات في شوارع المدينة — الخف وهو من جلد السخيتان الأحمر أو الأصفر ، وهذا مشترك بين الرجال والنساء .

ويحب الرجال أن يحملوا في حزامهم خنجر ثمينه محلاة بالأحجار الكريمة ، وتتجلى أبهة المالك في فخامة طينجاتهم ، ويهوى الأثرياء اقتناء الأرجيلات الرائعة . وتحب كل الطبقات بلا استثناء أن تغطي أصابعها البنصر بالخواتم التي تتفاوت قيمتها حسب الطبقة والثراء . وهذه الخواتم تجعلها فصوص الأحجار الكريمة وهي من الفضة بالنسبة للرجال ومن الذهب بالنسبة للنساء .

ومن نافذة القول أن نلفت انتباه القارئ الى أن الزي الكامل الذي بينا تفاصيل كل أجزائه انما هو زي الكبار والأثرياء . أما الطبقات الشعبية فلا تكلف نفسها كل هذا العناء ، فخرينة ملابسهم لا تحتوى على أكثر من ثلاث أو أربع قطع من الملابس لا تتغير الا عندما تصبح مهلهلة الأطراف فالفلاحون رجالا ونساء يذهبون الى حقولهم شبه عارين . أما عمال الطبقات

الدنيا وكذلك جبهة سكان المدن فيسترون اجسامهم بالكاد ببعض الهلهل (١) .

(١) يذكر احد زملائنا ان المصريين من كل الطبقات يميلون الى الابهة في ملابسهم ، وقد شغفت بتحرى هذه الملاحظة مع واحد من خدمنا . كانت خزانة ملابسها لا تكاد تساوى نصف ثمنك عندما دخل في خدمتنا ، ويكفى ذلك لنذكر ان خادمنا هذا كان شبه عار . وكان الاجر الذى يحصل عليه منا معقولا لحد كبير ، كما انه كان يحصل على بعض المنافع من اثمان المشتريات التى كنت اكله بها . وبالإضافة الى ذلك فقد كان يحصل فى الخفاء على هدايا واتاوات ممن يترددون على فى العمل . وقد أدى ذلك كله الى ثرائه شيئا فشيئا ، حتى انه فى خلال سنة واحدة — وقد بدأ يدخل فى طور الرجولة — لم يعد ذلك الشبح الذى كانه فى البداية ، فقد نما لحد اننى تعرفت عليه بصعوبة . وقد بدأ بأن اشترى لنفسه ما يلى :

- ١ — قميص من التيل الأزرق له كمان طويلان وهو يعتبر فى الصيف الرداء الوحيد عند السكان .
- ٢ — طربوش جديد وله شال من القطن .
- ٣ — مركوب احمر اللون .
- ٤ — حزام من الصوف .
- ٥ — سروال من التيل .
- ٦ — خاتم ، والخاتم يعطى أهمية للابسه .
- ملابة وهى قطعة من نسيج قطنى من اللونين الابيض والأزرق طولها ٨ اقدام وعرضها ٤ اقدام وتستخدم فى شكل بالطو .
- ٨ — دفية وهى قميص كبير من البوركان الأسود ويستخدمها كبار شخصيات القرية .
- ٩ — صديرى من القطن .

- ١٠ — جبة وهى نوع من الروب دى شامبر من الحرير أو القطن .
- ١١ — قفطان من الجوخ على شكل روب مصير .
- ١٢ — بنيش وهو روب كبير من الجوخ .
- ولم يعد ينقصه سوى شال من الكشمير ومعطف ليصبح شبيها بكبار القوم فى بلده .

وكان فى البداية يسير على قدميه ثم اخذ يتنقى مشاويره على ظهر حمار ثم على ظهر حصان خاص به ، وكان نشيطا فى البداية ، وعندما أصبح ميسورا جعل هناك من يعاونه . ثم لجأ الى خادم يخدمه كنت ادفع له اجره ايضا ، وفى النهاية اتخذ الخادم الأول هذا لنفسه خادما خاصا . وانى لمتأكد اننى — عندما تركنا مصر — كنت على وشك ان ارى الخادم الجديد يتخذ لنفسه بدوره خادما له .

وعلى منوال بقية المسلمين . يحلق المصري رأسه بالموسى ولا يترك فوق جبهته الا خصلة من الشعر . هذه العادة تسبب العديد من الأمراض ، وتؤدى بصفة خاصة الى اصابة العيون بالالتهابات والرمد ، اذ لا يمكن لاحدهم ان يخلع العمامة الثقيلة التى تغطى رأسه دون ان يتعرض للاصابة بالبرد ، وهى الاصابة التى تؤدى الى تكدس الأورام الصديدية فى العيون ولتجنب ذلك تغطى الرأس بأردية ثقيلة جدا مما يجعل هذا الجزء من الجسم اكثر حساسية لأقل برودة ، ومع ذلك فربما كانت طريقة المصريين هذه فى حلاقة الرأس هى التى تقيهم الاصابة بالآلام الرأس من حيث انها تسهل حدوث العرق — اذ نادرا ما تصيبهم هذه الآلام ، وينبغى ان نقول كذلك ان المصريين لا يسيرون برعوسهم عارية مطلقا مثلما نفعل نحن فى أوروبا .

ويستدل على ثراء المرأة المصرية من زينتها — اذ على الرغم من انها لا تستطيع أن تتألق بزينتها وحليها الا أمام زوجها وامها وأخواتها وصديقاتها ، فهى ليست أقل ميلا للآبهة ولا أقل استعدادا للتألق . وهى تغطى جسدها بأغلى الملابس التى تنثر فوتها ببذخ وبدون أى اختيار او تناسق حليها ومجوهراتها وكل ما لديها من احجار كريمة . وهى تحلى جيدها بالعقود التى يمكن أن نسميها سلاسل من ذهب ، وتتدلى هذه السلاسل حتى أسفل الصدر ويتدلى من هذه السلاسل عادة صندوقتان صغيران يضم احدهما آية قرآنية ويضم الآخر بعضا من العطور . وتحلى السيدة من الطبقة العليا الجزء الأدنى من ذراعيها بأساور من ذهب يتراوح عرضها بين ٤ — ٥ بوصات ويتفاوت مقدار سمكها ، وترتدى فى قدميها أساور مائلة ، ولكن تلك ليست عادة عامة ، واصابهما مثقلة بالخواتم التى ترصعها الاحجار الكريمة . ومع ذلك فعندما تنزل الى الشارع فانها تقبر كل مظاهر الثراء هذه تحت البرقع والسبلة وهى قميص كبير من القاتاز يغطى كل ملابسها وينزل حتى عقبيها . وتترزين النساء على هذا النحو عند ذهابهن الى الحمام أو عند قيامهن بزيارة أو عندما يستقبلن فى بيوتهن قريباتهن وصديقاتهن .

وحيث أننا قدمنا بياناً بملابس الرجال، فإن من المناسب ان نقدم هنا الملابس التى تضمها خزانة النساء وهى كما يلى :

اللباس : كالسون أو كيلوت صيفي(١) من الكتان أو القطن .

الشنيتيان : لباس الشتاء .

الدكة : حزام يربط به السروال حول البطن .

القميص :

البلك : روب يرتدى فوق القميص ، وهو مفتوح من الأمام واكمامه طويلة وضيقة .

الفستان : روب يحل محل البلك وهو غير مفتوح . وقد اعتادت السيدات الأوريبات المقيبات في مصر على ارتدائه تقليدا لسيدات القسطنطينية اللاتي يرتدينه في بعض الأحيان .

الجبة : روب يرتدى فوق الفستان واكمامه قصيرة جدا ، ويضاف اليه الفراء في الشتاء ، ويطلق عليه عندئذ اسم : وش مروة .

الحزام : وهو في الصيف من الموسلين أو الحرير ، وفي الشتاء من الصوف أو الكشمير .

وعندما يعقد من الخلف يتدلى على هيئة مثلث .

الطاقية : غطاء يغطي الرأس مباشرة ويستبدل دائما .

الطربوش : غطاء رأس يرتدى فوق الطاقية .

القمطة : قطعة من الموسلين تلف عدة مرات حول الطربوش ، وهي جزءان ، والجزء الذى يدور حول الرأس نفسها احمر اللون او من لون آخر زاه جدا ، ويشكل الغطاء كله حول الرأس شريطا اسطوانيا بارزا يرصع باللالى والأحجار الكريمة .

(١) من المعروف أن النساء الشرقيات قد اكتسبن عادة لبس السراويل، وليس هناك فرق في هذه الناحية بين المسيحيات أو اليهوديات أو المسلمات.

الربطة : وتطلق على غطاء الرأس في مجموعه .

العقدة : عقد من اللؤلؤ .

الشواطة : مسبحة من اللؤلؤ يربط كل طرف من طرفيها بأحد جانبي الربطة .

الضفاير : خصلات من الحرير تزيد من طول خصلات الشعر .

البرق : قطع ذهبية صغيرة تربط بالضفاير ويتدلّى من طرف قطع البرق هذه قطع نقدية صغيرة (سكين) Sequins .

السبلة : قميص واسع من التفتاز يغطى كل الملابس ويتدلّى حتى يلامس الأرض وترتديه النساء عند خروجهن وعند ذهابهن الى الحمام او الزيارة ولا يخلعنه الا اذا احلت عليهن من هن في زيارتها وخاصة اذا كانت الأخيرة تنتهى الى الطبقة العليا .

البرقع : قناع الوجه ابتداء من أسفل الأنف . ويتصل بالربطة من فوق الجبهة من الجانبين . وهو قماش الموشين أو الكتان الأبيض الناعم ويتدلّى حتى الركبتين ، ولا غنى عنه لسيدة تريد أن تخرج خارج بيتها .

الحبرة : قطعة كبيرة من قماش التفتاز الأسود توضع فوق الرأس وتغطى به الربطة والملابس واليدين ، وتخلعه المرأة عند دخولها احد البيوت .

التزيرة : وهى مجموع السبلة والبرقع والحبرة .

الخلخال : اسورة فى القدم .

ولا تختلف احذية النساء عن احذية الرجال التى سبق ان تحدثنا عنها الا انما يختص بالاحذية الحشبية التى تستخدمها النساء داخل البيوت % وتسمى هذه الاحذية : الققباب .

ونساء الطبقات الشعبية أبعد ما يكن عن الاقتراب من هذه الابهة فى

ملابسهن ، فهن لا يرتدين في القاهرة أو الريف الا سروالا من فوقه قميص أزرق اللون واسع جدا . اكمامه طويلة وواسعة تنزل حتى الردفين . وهن في نفس الوقت محجبات وتضفر شعورهن على طريقة سيدات الطبقة الراقية ، لكنهن يعلتن في اطراف هذه الضفائر أجراسا صغيرة أو أشياء أخرى يتخذنها كزينة وتتدلى بطول الظهر . وتضع الفتيات في بعض الاحيان أجراسا صغيرة في اقدمهن ، ويحلى غطاء رأس الأطفال بصف من القطع الفضية أو قطع من النقود تحيط بالرأس (١) . لكن شيئا من هذه الأبهة لا يظهر للعين خارج البيوت ، فكل شيء يخفى تحت الملابس حتى بداية الوجه ، ولا يرى من النساء عادة الا عيونهن بل يخفى جزء من هذه العيون ، ويمكن القول أن الأطفال يدثرون هكذا حتى يتفادوا نظرات الحسد التي ترمقهم بها العيون الحاسدة التي يعتبرها المصريون المتطهرون بالغة الإذى ، وتتدلى من اذان نساء العامة اقراط ، وتتدلى الاقراط احيانا من الأنوف لكن هذه الحالة نادرة . وتحيط النساء اذرعهن وأقدامهن كذلك بأطواق من المعدن ، كما يرسمن فوق شفاههن وذقونهن وصدرهن رسوما للزينة زرقاء أو سوداء (الوشم) وهى رسوم تهازل تلك التي ترى المسيحيات اثناء فترة الحج يرسمنها فوق اذرعهن دلالة على التقوى والولاء .

وتنظر السيدات من الطبقة الميسورة — شأنهن في ذلك شأن نساء الطبقات الفقيرة — الى مختلف التشويهات التي تحدثنا عنها فيما سبق ، باعتبارها نوعا من الجاذبية أو على الأقل نوعا من التزين ، وبخاصة عادة التقليل من سمك الحواجب ، كما يعين ايضا بصبغ اليدين والقدمين بالاصفر والاظافر بالاحمر وذلك باستعمال الحناء . وهذه العادة أكثر انتشارا بين الطبقات الشعبية وهى ترتبط اساسا بالتقاليد وبحالة التحفظ التي ينبغى

(١) أخبرنا أحد أبناء طرابلس أن المسلمين يحيطون رعوس أطفالهم بنقود ذهبية عليها كتعويذ بعض آيات من القرآن ، ولهذا السبب فهم يحتفظون — ما يزالون — بكثير من قطع النقود الكوفية وهذا ما يسهل على الأوربيين الراغبين في اقتناء دنائير أو عملات تعود لعصر الخلفاء أن يعثروا في حليات الفتيات المسلمات على بيعتهم . فضلا عن ذلك فلا تستخدم النقود الكوفية الا كزينة ، ولولا هذه العادة لكانت قد انقرضت منذ وقت طويل .

أن تكون عليها النساء أمام الرجال ، فالغرض من هذه العادة منع العين الفضولية من استجلاء درجة بياض الجسم عن طريق النظر الى بشرة اليد اذا ظلت في لونها الطبيعي .

٥

التقاليد والعادات المختلفة

ترتبط تقاليد المصريين بأنظمتهم ، لذا يمكن القول بأن هذه التقاليد انما هي وليدة هذه النظم . ومما لا جدال فيه أن معظم قوانينهم تقوم على معرفة دقيقة بالطبقتين وانها تبدو متمثلة تماما لطبائع الناس وكذلك للموقع الجغرافي للبلاد . ويمكن القول كذلك بأن المشرع العربى قد حسب مدى سرعة ونجاح انتشار مذهبه السياسى والدينى الجديد وذلك بقياسه لمعقول واذواق مواطنيه فتجنب تلك المعركة — الخطرة على الدوام — التى يدخلها المجددون ضد عواطف واهواء أولئك الذين يريدون اصلاحهم ، لذا فقد اعلى من شأن اتباعه فى نظر انفسهم بفعل ديانة اسمها بشكل ماهر واستطاع أن يتوصل الى أن يبرهن على عظمتها لأناس جهلاء سذج ، فلقد احترم تقاليدهم العائلية ، وكان متسامحا مع هفواتهم ونقاط ضعفهم ، وعندما شاء أن يقدم مكافأة لأولئك الذين يمثلون مبادئه السهلة، تملق عواطفهم الجموح حين وعدهم بأنهم سيكونون خير أمم الأرض وعندما رأى نفسه واثقا من أن مذهبه يتدعم بشرهم ببهاج سماوية مثالية ، ولقد توج النجاح آماله ، وحصل محمد على نفس النجاح الذى حازه ليكوريج(*) دون أن يؤسس انظمتهم الفكرية على قوة من الاخلاق أو على اشارة السبيل أمام امته ، ولسوف تظل عقيدته هذه فى أوج فعاليتها فى الشرق طالما ظلت شعوب هذا الشرق بعيدة عن مدارج التقدم والحضارة الحديثة . وفضلا عن ذلك فانه ليبدا أن طبيعة عقلية الشرقيين تؤمن لمثل هذه العقيدة طول البقاء .

(*) Lycurgue مشرع اسبارطة ، عاش فى القرن التاسع قبل الميلاد . وجدير بالذكر أننا نقدم هنا ترجمة للأصل نصا وروحا وان كانت لنا تحفظات هامة على كثير مما ورد فى هذه الفقرة — ومع ذلك فقد آن لنا أن نلم بكل ما يقال عنا ، فليس كل ما يقال صحيحا على اطلاقه، بالاضافة الى أن هذه الامكار قد تجاوزها حتى الفكر الاوربى نفسه اليوم .
(المترجم)

اذن فليس المجتمع هو الذى ينظم التقاليد فى مصر ، كما أن « الموضة » لا تغير من هذا المجتمع بحسب أهوائها وتطلبتها ، فكل شيء فيه يستند الى النظام الروحى والدينى ويظل — مثله — فى حالة من الثبات لا تقبل التغيير ، فكل ما كتبه الرحالة القدماء الموثوق بهم عن العرب ما يزال على حاله حتى اليوم ، ولو أنهم عادوا الى الحياة اليوم ليخوضوا فى نفس الأمر لوجدوا انه لا ينبغى عليهم أن يغيروا اليوم شيئا مما قالوه فى ذلك الماضى البعيد ، والى أن يحين ذلك الوقت الذى تتفجر فيه ثورة يبدو انها ما تزال شديدة البعد ، فلسوف تظل عادات الشرقيين الاسرية هى . وعلى كل فسوف نكتفى بأن نقدم هنا لمحة سريعة عن حياة المصريين الخاصة ، فمن طريق مثل هذا الفحص فقط يستطيع المراقب أن يكون حكمه بل أن المراقب لا يمكنه أن يعرف مدى عمق الروح القومية الحقيقية لشعب ما الا اذا فحصه باهتمام من هذا المنظور .

ان المجتمع الذى تستعبد فيه نساؤه لا يقدم مطلقا هذا المزيج من الرقة واللياقة اللتين تميزان الأمم الأوربية على وجه الخصوص ، وحيث أننا لا نكاد نحس بأثر للنساء على العادات الاجتماعية فى مصر فمن الممكن أن نفهم بسهولة لماذا تتميز التقاليد فى مصر بوجه عام بهذه الغلظة المهجية التى هى بالتأكيد غلظة تقاليد العرب الغزاة . وتلك فى الواقع هى المحوطة التى تتضح لأول وهلة ، فرياضة الشعب والعبابه ومسرته ذات طابع خليع ، متهور ووحشى فى وقت معا ، ، وسوف يكون الأمر بالتأكيد على نحو مخالف لو كان للنساء نصيب فى صنع هذه التقاليد ، فالاعتبارات التى ستولى لهن — من حيث جنسهن — سوف تؤدى غريزيا الى تولد مشاعر اللياقة . وعندئذ سوف تكون الامة هى الصانعة لشكل مجتمعها .

وتتوزع حياة المصرى من أبناء الطبقة الميسورة ما بين الصلاة والحمام والملاذات الحسية والكسل وتدخين النارجيلة وشرب القهوة . وقد يجوز لنا أن نقول بأن الشعب كله يقضى جل وقته فى التدخين ، ولا يستخدم الأغنياء الا تبغ اللاذقية (١) الذى تستهلك منه كميات كبيرة فى مصر ، أما الفقراء

(١) اللاذقية هى لادوسيا Ladociè القديمة وقد بناها سيلوكيس Sèleucus وسماها على اسم أمه ، وتقع على الساحل السورى ويزرع التبغ على التلال المحيطة بها .

فيقتنمون بالتبغ المحلى الذى لا يمتاز بنفس المذاق اللذيذ الذى لتبغ اللانقية لكن سمره مناسب . وتشرب القهوة فى فناجين جد قصيرة ويكون سكر ، وهناك بعض من الناس يشرب ما يزيد على العشرين فناجنا من القهوة فى اليوم الواحد .

ويكون ابفاء الطبقة الشعبية من خلاصة نوع من القنب الذى يسمونه الحشيش مستحضرا مخدرا يتعاطونه بلذة شديدة ويؤدى هذا المستحضر الى السكر او بالأحرى الى احداث نوع من الخدر ، وفى هذه الحالة من الخدر الجسمانى والروحى يحصل البؤساء على هدنة من الالم ومضايقاتهم . اما الاغنياء فيبحثون عن هذا الخدر عن طريق خلاصة او عصارة الخشخاش المطبوخ . ومن خاصية هذا المشروب أنه يسبب نوعا من الاسى العميق ويصبح الجسم والعقل بعد تناوله اكثر تهالكا عما كانتاه من قبل .

ومسكن الحريم مكان له حرمة والأزواج وحدهم هم الذين يستطيعون التردد عليه بحرية ولا يمكن لأبواب هذا المكان المحرم أن تفتح مطلقا لرجل آخر بخلاف الطبيب أو الكاتب أى ذلك النوع من موظفى السكرتارية الذين تستخدمهم عادة نساء الطبقة العليا . ولا يستدعى الأطباء الا فى الحالات العاجلة والملحة وفضلا عن ذلك فليس بإمكانهم أن يروا مريضاتهم الا فى حضرة الاماء أو الاغوات (١) بل ان النساء — حتى فى هذه الحالة — لا يخلن نقابهن . أما الكاتب ، فلا يسمح له مطلقا بالدخول الى الحجرة التى تشغلها سيقته فيبقى فى الحجرة المجاورة ويفتح باب اتصال بين الحجرتين ويكتب هو حسب الأوامر التى تلى عليه ، وفى كثير من البيوت يكون للكاتب حجرة تقع أسفل مسكن الحريم ، وتلى عليه المباشرة (الوكيل) — وهى سيدة تعمل فى خدمة ربة البيت ولكنها ليست من الاماء — أوامر سيدة البيت .

وتراعى هذه التقاليد بشدة عند كل الأسر المتميزة والتى تتباهى بنسبها العالى ، بل إن السؤال عن حال السيدات يعتبر أمرا معييا مهما كان الدافع الذى يمليه ، فالرجل على سبيل المثال لا يسمح لنفسه بأن يسأل رجلا آخر عن أخبار زوجته ما لم تكن ثمة روابط حميمة بينهما بل انه فى هذه الحالة أيضا يستخدم تعبيرا يصلح لمثل هذه المناسبات مثل : كيف حال العائلة ؟

(١) بدأ البكوات (المالك) يقتنون الاغوات فى الفترة الأخيرة

أو كيف حال (الناس اللي فوق) ؟ وكذلك لا تسمح آداب اللياقة بادخال
العوالم فى بيوت العائلات المتسكة بالأصول والتقاليد ، اذ لا يمكن لهؤلاء
العوالم أن يدخلن مثل هذه البيوت الا أيام الاحتفالات والمناسبات الكبرى ،
ولا يكون ثمة من شكوى الا أن فى أغانيهن أو رقصاتهن شيئا من الخلعة
لا يليق . أما رقص الغوازى الذى يرى فى شوارع القاهرة ، فمثل هؤلاء
الغفويرين على التقاليد يستبعدونه بغلظة .

ومع ذلك فنبغى القول بأنه ليست كل العائلات على هذه الدرجة من
التعنت ، بل ان هناك الكثيرين ممن تسمح تقاليدهم المتراخية لزوجاتهم بأن
يحقن المكائد الغرامية فى داخل الحريم نفسه أو فى خارجه بمعونة من
امائهن ، فيتظاهرن على سبيل المثال بأنهن ذاهبات الى الحمام أو للقيام
بزيارة ويذهبن بدلا من ذلك الى لقاء غرامى ، ولابد أن نستنتج أن البطالة
التي يحيون فيها وكذا حرارة الطقس الملتهبة هي التي تهيج شهواتهن
وتحملهن بلا انقطاع على الاستجابة للذات الحواس ، فما أن تلهب خيالهن
رغبات أو احتياجات جديدة حتى يطرقن كل وسيلة لاشباعها ، ولكن الذى
يضع حدا لذلك كله هو خوف المرأة من أن يطلقها زوجها بل وأن تلتى الموت
على يديه .

ويشكل السقامون نوعا من رسل الغرام ، ويلعبون دورا رئيسيا فى
مكائد الحب . ولسيدات الطبقة الراقية عبيد من نفس جنسهن (اماء) يعهد
اليهن بالعناية بأمورهن ، وعلى رأس هؤلاء جميعا الخازنة وهي التي تعنى
بالمجوهرات والنقود وخزينة الملابس ، وهي أول من تفوز بالعتق ، ويلبها
فى الترتيب والأهمية - من حيث الوظائف - تلك التي تأمر باعداد القهوة
والشربات : أى تلك المكلفة برعاية واجبات الضيافة ، ويلبها تلك الأمة
المكلفة بالتنقيش على المطبخ ولها السطوة على كل الاماء ، وتتفاوت درجة
تقسيم هذه الاعمال بحسب طبقة وثروة ربة البيت ، بل ان بعض هذه
الاعمال توكل الى عائلات حرة مثل اعمال المباشرة أو الوكالة . ولا يحق
للسيدات أن يستخدمن خدما الا من نفس جنسهن أو من الاغوات ، وثمة
شيوخ عميان يأتون لتعليم العبيد الصلاة . ويشغل الاغا (الطواشى) حجرة
فى الطابق الأرضى وبإمكانه أن يدخل فى حرية الى جناح الحريم وهو
يقوم بنقل أوامر رب البيت الى ربة البيت ، ويمكن القول بأنه يستخدم
كحلقة اتصال بين الاثنين .

ونادرا ما تخرج المصريات الى خارج بيوتهن ، واذا حدث ذلك فانهن يفضلن ساعة قدوم الليل لقضاء مشاويرهن الصغيرة . اما عند سفرهن فيوضعن داخل هودج عرضه قدام وعمته ثلاثة اقدام وتطوّه قبة صغيرة على هيئة قوس ، ويحمل الجبل اثنان من هذه الهودج بعد شدّها الى جنبه ، كذلك لا تتجول السيدات في حدائق بيوتهن وهي حدائق تنقصها المرات ، ويمضين اياما بأكملها على ارائكنهن ويتسلى بعضهن بنزل حرير او قطن الهند ، ويقوم من تستطعن التطريز منهن بتطريز المناديل التي تستخدم كغطاء للرأس او الشيلان (الشال) التي يصنع منها حزام أزواجهن بكشكشات صغيرة .

ومن السهل التعرف على الاماء من حيث ان شعرهن يرتفع فسوق رعوسهن ، ومستأنهن مقفل وتغطى رعوسهن واكتافهن بدلا من القناع الكبير او الطرحة قطعة من قماش التيل او القطن ، كما يغطين بها وجوههن في حضرة الرجال .

ومع ذلك فان نساء الطبقات الشعبية لا يستشعرن مثل هذه المضايقات اذ يقدر عليهن على الدوام الانهماك في اعمال خارج بيوتهن ، لكنهن طيلة الوقت متحجبات بالبرقع وبخاصة اذا ما لحن رجلا ، واكثر ما يشغلن هو احضار طعام أزواجهن ، والذهب لجلب المياه في جرار يحملنها على رأسهن بمهارة (١) ، وفي نفس الوقت فاكثر الفلاحات لا يعرفن الحياكة ، لذا يتركن ملابسهن الخفيفة — التي تغطيهن وقد تدلت مزقتها ، اما لأنهن لا يستطعن رتقها ، واما لأنهن لا يجدن ضرورة في تكليف أنفسهن هذا العناء ، ويجدن سمادة فائقة في ألا يعملن شيئا ثم في أن يقعين على حصيرة أو حتى على الرمال . وهذه البلاد التي نلاحظها في كل بلدان الشرق ، ينبغي أن تجد لنفسها في مصر بالذات بعض العذر ، اذ ان حرارة الجو المرتفعة تحتم الاسترخاء . وتحب المصريات عموما تدخين النارجيلة،

(١) عندما لا يكون حجم هذه الجرار كبيرا فانهن يحملنها على اكنهن ويتكئن بمزمتن على الجنب ويرفعن اليد الأخرى الى أعلى، وتتفق هذه الطريقة تماما مع طريقة المصريات القدامى ويكفي للاقتناع بذلك ان نلقى نظرة على الرسوم المنقولة عن تلك الرسوم الموجودة في كهوف كثيرة في صعيد مصر .

لكن هذا المزاج نادر الشبوع عند نساء الطبقة الراقية ، وهؤلاء لا يدخن مطلقا فى حضرة أزواجهن ولا يحصلن على مثل هذه المتعة الاخفية .

وكما سبق لنا القول ، فان الحمام هو احد المتع الرئيسية عند المصريين من كلا الجنسين على قدم المساواة ، وللسيدات من الطبقة الميسورة حمامات فى بيوتهن يعتنن بتزويدها على الدوام بالمياه الساخنة والبخار ، ويتبادلن فيما بينهن الزيارات الى حمام كل منهن كما لو كانت زيارات الى مكان بهيج ، وهناك يستعرضن مجوهراتهن وأجمل ملابسهن وكل أبهتهن ويستخدمن ببذخ صارخ ماء الورد والعطور ، ويقضين يومهن هناك يتناولن القهوة والشربات والفطائر وينغمسن فى كل انواع التسلية والترفيه (١) .

وتراعى السيدات فيما بينهن — شأنهن فى ذلك شأن الرجال — وبكل الاهتمام والتدقيق هذه الطقوس والاعتبارات التى لهن بحكم الطبقة والثروة والصمت والاحترام ملازمان العظيمة ، واذا ما كان ثمة سيدتان قد نشأتا معا وعاشتتا معا فى مودة منذ طفولتهما ، ثم تزوجت احدهما من ثرى (٢) ، أو ذى مكانة مرموقة فان لهجة الحديث بينهما تتغير على الفور ، وللرجال احتفال خاص بمراعاة واجبات الذوق واللباقة فيما بينهم وبأن يقدموا من تلقاء انفسهم دلائل الاحترام والتقدير فالأدنى يقبل يد الأعلى بل ويقبل أحيانا طرف رداءه اذا كان ثمة فارق كبير بينهما أو يكتفى أحيانا برفع اليد اليمنى الى الصدر لتأكيد ندية الصداقة التى بينهما ، إما عندما توضع اليد على الراس فانها تعبير بالخضوع من المرعوس الى رؤسائه الكبار .

(١) عندما تقوم سيدة بزيارة أخرى تكن لها بعض الود أو الصداقة فانها تدعوها لأخذ حمام وكذا النوم عندها ، وينتج عن ذلك أن تستمر الزيارة أحيانا لعدة أيام .

(٢) هذه الطريقة لدى الشرعيين فى قياس لهجتهم وحركاتهم بحسب الثروة والجاه ، تلاحظ على وجه الخصوص عند الممالك ، فهؤلاء الرجال الذين كانوا — كلهم على وجه التقريب — أبناء لرعاة أو لفلاحين يحرصون على الحصول على قدر من الثروة والتكريم يتناسب مع طبقتهم الجديدة التى أمكنهم الارتقاء اليها .

لكن احترام الأبناء لأبائهم وأمهاتهم يذهب لأبعد من ذلك ، فهم لا يخرجون من كنف الحريم قبل سن البلوغ ويخضع الفكور منهم لهذه القاعدة ، ومع ذلك فهم لا يسكنون نفس الحجرة التى تقيم فيها الأم ، ويأتون كل صباح لتقبيل يدها ويظلون للحظات واقفين أمامها وأذرعهم معقودة على صدورهم ، ثم ينزلون بعد ذلك الى والدهم ويقدمون له نفس امارات الاحترام ، ومع ذلك غالباً لا يقبل وجودهم على مائدته الا اذا كان ذلك فى يوم يعد من اعياد الأسرة . وهو — كذلك — لا يسرف فى تدليلهم ويحتفظ معهم باستمرار باللباقة الواجبة ، وهذه عادة علمية عند كل الطبقات وتستطيع الطبقة الدنيا وحدها ان تخرق هذه القاعدة ، وليست المرأة اكثر احتراما من جانب زوجها فمن النادر ان تدعى للطعام معه وتظل سيدات الطبقات الشعبية واقفات بينما يتناول الأزواج الطعام ، ولا يجلسن لتناول طعامهن الا اذا فرغ من ذلك الأزواج .

ويخصص اليوم السابع لمولد الطفل لأفراح كبرى تجرى داخل الأسرة ، وفى هذا اليوم تأتى كل السيدات اللاتى كن من قبل اماء عند أم المولود لزيارتها ، فتستقبلهن المباشرة فى أول حجرة وتأمر بتقديم القهوة والشربك لهن ، وبعد ربع ساعة تقبل ربة البيت التى كانت قد انسحبت عند قدومهن الى حجرة أخرى ، عندئذ يهرع نحوها الجميع حتى يحظين بنوال شرف السماح لهن بتقبيل يدها ، ثم تجلس السيدة وتظل معقوفاتها واقفات أمامها ، وبعد ما يقرب من نصف ساعة من الحفل ، تنسحب السيدة وتعطى لمباشرتها الأمر فى أن تبقى من معقوفاتها ، أولئك اللاتى تريد هى الاحتفاظ بهن وتخرج الأخريات على الفور .

وعندما يصعد زوج الى حجرة زوجته فانه يعطى ذلك مسبقا عن طريق أحد الطواشى أو واحد من العبيد ، لكنه لا يظهر مطلقا اذا كان بالحريم غريبات . . وتراعى الزوجة أن تبعد عن ناظره الاماء اللاتى يمكن لجمالهن أن يغويه ، ومع ذلك ، فانه اذا ما لمح واحدة منهن ونالت اعجابه وأبدى الرغبة فى أن يبقى وحده معها ، فان زوجته تبدى الكثير من التلطف لحد تنسحب معه من الحجرة . ولكى تحتفظ زوجات البكوات بالسلطة التى لهن على أزواجهن فانهن يقدمن لهم على الدوام تضحيات من هذا النوع ، بل ويذهبن الى حد تقديم الاماء الجميلات كهدايا لأزواجهن

ويزينهن بالمجوهرات والملابس الفاخرة . وكانت زوجة مراد بك تقدم له مثل هذه الرعاية ، لكن هؤلاء المحظيات اللائى يقمن بامتاع الزوج مسaire لرغبات سيدهن يحتفظن لها على الدوام بامارات الاحترام والتبجيل ويحرصن على الدوام على مراعاة مصالحها .

ولم يكن من النادر — وخاصة فى الأزمنة الأخيرة — ان ترى ارملة واحد من البكوات أو الكشاف تتزوج واحداً من ممالك زوجها ، وفى هذه الحالة يظل هذا الملوك يحتفظ لها بأكبر قدر من التقدير والرعاية ، مهما كانت المكانة التى سيصل اليها فيما بعد ، واذا ما كانت هذه الزوجة مدققة فى مثل هذه الأمور ، فانه لا يجرؤ ان يسمح لنفسه بالتصرف بحرية مع الاماء ، ولكنه فى نفس الوقت يجاهد كى يخفى عنها مفايراته التى يمكن له ان يمارسها خارج نطاق الحريم . ويحكى ان ابراهيم بك الذى كان من قبل مملوكا لمحمد بك ثم تزوج من ارملة بعد وفاته ، قد ضبطته زوجته هذه ذات يوم مع واحدة من امائها فقامت — وقد طعنت فى كرامتها — بضربه بقسوة وهى تصب عليه شتائمها ، لكن الخوف من مثل ذلك لم يستطع ان يكبح جماح شهوات هذا البك ، ويقال ان زوجته تلك ، الغيور والمتجبرة فى وقت واحد كانت تأمر باغراق — او دس السم — لاي واحدة من امائها تشك هى فى ان لها علاقة بزوجها .

وفى مصر ، لا ينام الرجال بجوار زوجاتهم ، وهذه عادة عامة عند كل الطبقات ، وللأغنياء حجرات مستقلة ، اما الفقراء فيختارون الركنين المتقابلين من حجرتهم التى هى عبارة عن خص أو كوخ فقير ، ويوضع الفراش وسط حجرة كبيرة ، وهو بالنسبة للرجل الميسور سجادة مبسوطة على الواح خشبية ، وتحيط بالسجادة اربع مخدات فخمة ، اثنتان منها على اليمين واثنان على اليسار ليحصر بذلك الفراغ الذى ينبغى ان يشغله الفرد ويوضع اعلى ذلك غطاء أو ناموسية من الحرير أو المولدين (١) ، وقد

(١) لا غنى عن الناموسية فى مصر حيث تهمل الحشرات بحشرات الفراش . وبدون هذا الاحتياط لا يكاد المرء يستطيع النوم ، اما أبناء الطبقات الشعبية فانهم وحدهم — بحكم التعود الطويل — الذين يستطيعون تحمل ازعاج هذه الحشرات .

شاهدنا بعضا منها مطرزا بالذهب والفضة . ولا يكلف الفقراء أنفسهم مثل هذا العناء فهم يتمددون على حصيرة مصنوعة من سعف النخيل وينامون بكامل ملابسهم .

وقلما يغير الناس من كلتا الطبقتين من ملابسهم الداخلية أثناء النوم ، ويساهم ذلك في وجود الحشرات الضارة بملابسهم كالقمل والبراغيث ، كما يؤدي الى تكاثرها .

ويلجأ الناس لمادة بالغة الغرابة ليعطى الشخص النائم ، فلا يتم ذلك بأحداث صوت أو هزة حتى ينهض من نومه ، لكن واحدة من الاماء تلتى محدثة بعض الصخب وتدغدغ له بيدها باطن قدمه ، وبذا تنترعه هذه الدغدغة برفق من نومه . وهذا الاحتياط الناعم يشي برخاوة من يلجأون اليه ، فهو دليل على الحياة المخفنة التي يحياها هؤلاء ، وهو احتياط يمكن القول بأنه لم يكن بمقدور أهالى سيياريس(*) القدامى أن يخترعوا أمرا بلوقه رقة ودقة .

وفي ختام فصلنا هذا نقدم جدولا مقارنا بين المواقيت الفرنسية والمواقيت التي تقابلها عند المسلمين ، ويحتاج هذا الجدول الى شرح تمهيدي :

يقسم المسلمون فترة اليوم ابتداء من غروب الشمس ، ويحسبون ٢٤ ساعة في المسافة التي تفصل بين الغروبين ، ولكن بعد ان يصل العدد الى رقم ١٢ يعودون ثانية مطلقا للعدد ١ ، ٢ ، ٣ .. الخ . فلذا حسبنا مثلا أن الغروب قد تم في الساعة ١٢ ، فانه تاتى بعد ذلك الساعة الواحدة ثم الساعة الثانية ، وهكذا .. الخ .

وعند معرفة الوقت الفرنسى ، فان من الممكن تحديد الساعات عند المسلمين وذلك بعد اضافة العدد ٥ ، وعلى هذا فلذا كتبت الساعة لدينا في فرنسا الرابعة صباحا فانها تكون عند الاتراك التاسعة وعندما تكون عندها ٥ ، ٦ ، ٧ ، فهي عند الاتراك ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، وعندما تكون لدينا ٨ ، ٩ ، ١٠ ، فهي لدى الاتراك ليست ١٣ ، ١٤ ، ١٥ وانما ١ ، ٢ ، ٣ .

(*) سيياريس مدينة اغريقية قديمة اشتهرت بالفراء والتurf .
(المترجم)

وهكذا فانه يمكننا أن نتبنى كقاعدة عامة المبعثين التاليين :

١ — باضافة ٥ الى رقم الساعة الفرنسية فان حاصل الرقمين يوضح لنا الساعة عند المسلمين اذا لم يكن الحاصل يتجاوز الرقم ١٢ .

٢ — اما اذا ما تجاوز الحاصل الرقم ١٢ فان الزائد يؤخذ منفصلا ليكون هو الوقت عند المسلمين . فاذما ما افترضنا أن الساعة هي الثالثة عند الفرنسيين فباضافة ٥ تصبح الساعة الثامنة لدى المسلمين، اما اذا افترضنا انها ٩ لدى الفرنسيين فثنا نجد أننا باضافة ٥ سنحصل على رقم ١٤ وهو ما تجاوز ١٢ وبطرح ١٢ منه يتبقى لدينا ٢ ويكون هذا الرقم هو الوقت عند المسلمين .

ونظرة سريعة الى الجدول التالى تبين لنا مثل ذلك الارتباط في كل ساعات الليل والنهار .

جدول ارتباط التوقيت

الساعة عند المسلمين	الساعة في فرنسا	الساعة عند المسلمين	الساعة في فرنسا
٦ نهارا	الواحدة بعد الظهر	٥ ليلا	منتصف الليل
» ٧	» الثانية	» ٦	الواحدة صباحا
» ٨	» الثالثة	» ٧	» الثانية
» ٩	» الرابعة	» ٨	» الثالثة
» ١٠	» الخامسة	» ٩	» الرابعة
» ١١	» السادسة	» ١٠	» الخامسة
» ١٢ المغرب	» السابعة	١١ صباحا	» السادسة
١ ليلا	» الثامنة	» ١٢	» السابعة
» ٢	» التاسعة	١ نهارا	» الثامنة
» ٣	» العاشرة	» ٢	» التاسعة
» ٤	» الحادية عشرة	» ٣	» العاشرة
» وهكذا	» منتصف الليل	» ٤	» الحادية عشرة
—	—	» ٥	الظهر

٦

الطباع

المصرى خجول بطبعه ، وهو يتفادى الخطر بقدر ما يستطيع . لكنه — ما أن يجد نفسه وسط المخاطر بالرغم من حيطة — يبدى همة ما كتت تظن في البداية أنها لعبه ، وليس ثمة ما يساوى رباطة جأشه وفي نفس الوقت تواكله ، ولقد واثنا الفرصة لتسجيل هذه الملاحظة عدة مرات أثناء حملتنا ، وهذا ما يبرهن على ما سبق أن قلناه من أن اصلاح مساوئ نظام الحكم سوف يؤدي بسهولة فائقة ، الى أن يرد لهذا الشعب كل الفضائل التي فقدوها ، بل التي لا يظنها هو نفسه كائنة فيه . كما أن ذلك سوف يوقظ فيه كل مشاعر النبل والهمة وعظمة الروح التي خفقتها الى حين تلك الانظمة الشيطانية التي يزرع تحت نيرها ، اذ تعمل هذه الانظمة الخبيثة على تدمير اخلاقيات الافراد (١) بشكل محزن ، من هنا ، ذلك الشبح الوضيع الذي يلاحظ عند البناء الطبقة الدنيا من المجتمع وذلك الرياء الذي نجده لدى كل افراد المجتمع . فحيث أن المصرى يلتقى الهوان فى طاعة الكبار ، الذين يعرفون تماما معنى تلك السلطة التي فى حوزتهم والتي لا حدود لها والذين يتحكم فيهم خيلاؤهم الشرس ، فانه — اى المصرى — يحمل بين جوانحه روحا منكسرة تنش عن نفسها فى كل حركاته وايماءاته فيتخلل ويتحسس كلماته مع كل من يخشى توتهم. ونفوذهم ، وعندما يتاح له أن يدرج فى مصاف الاثرياء ، فانه يعمل على اشعار البؤساء الذين ياتهمون بأمره بوطاة استعلائه وتحكمه ، وتلك نتيجة طبيعية للقربية التي تلقاها وللالملة التي رآها فى حياته والتي آن أوان أن يحتذى بها .

ولا يستحق الفلاح أو الحرفى — مهما كانت مهنته — من أن يستجدى، حيث لا يهمهم كثيرا ما سوف يقال عنهم وعن حالهم . بل انهم يفعلون كل

(١) لا نقصد بحديثنا هذا النظم الاسلامية ، ولكننا نقصد تلك القواعد والقوانين الممجية والاستبدادية للبكوات المالك ، والتي شوهت لحد كبير اشكال ونظم الادارة التي وضعها سليم وسليمان الثانى .

ما نى وسمعهم ليظهروا أمام الناس بظهر البؤس والعوز بقدر الامكان . ولى المساء حين يترك العامل الورشة التى يعمل بها . فانه يلج فى الحصول على اجره من ذلك اليوم ، ويظل يعذبك حتى تدفع له ، وقد يكون هذا الاحاح القلق تعبيراً عن حاجة حقيقية عند البعض ، لكنه عند البعض الآخر مجرد تعبير عن تخوف العامل من ان لا يحصل على ثمره عمله وجهده ، ومضلاً عن ذلك فان الكثيرين منهم لا يبدون مثل هذا التلهف فى الحصول على اجورهم الا لكى يقدموا للقائمين على شئون الأجور والمال ، الدليل على عوزهم وبهذه الطريقة يتفادون تلك المظالم والمخارم التى تهدد على الدوام أولئك الذين يبدو عليهم انهم يعيشون فى بحبوحة من العيش .

وعندما تعطى للمصرى مالا ، نقداً أو عينا ، فانه يحرص على الدوام ان يحرك ابهام يده اليمنى قائلاً - كمان واحد ، ويذكرنا هذا بفصلة كانت للشيخ مريك (وربما موسيا أو مصبح) شيخ احدى قبائل بدو الأفراد . فقد جاء ذات يوم يشكو الى حاكم ولاية البحيرة من أن بدو بنى عـون شنوا عليه الحرب وانه يحتاج إلى دعم لصدهم، وطلب لذلك فصيلة من خمسين رجلاً . ووعده القائد بالاستجابة لذلك ، ثم بدأت المحادثة تفوض لى أمور عامة ، وعندما آن له ان يمضى فقد عاد يذكر القائد من جديد بالدعم الذى وعده به ، وسأله عما ستكون عليه هذه المصونة ، فأجابته القائد بأنها ستكون عبارة عن خمسين جندياً ومدفع متهف الشيخ لى حدة : خمسين جندياً ؟ فقط خمسين زودها واحدا ، اجعلهم واحداً وخمسين ، واحداً وخمسين : ولى اثناء ذلك كان يحرك ابهام يده اليمنى بطريقة استجداء مضحكة ، حتى اتنا لم نتمالك انفسنا من الضحك ، ومع ذلك فقد استوجب الأمر ان نسترضيه بأن نجعل الفصيلة تتكون من ٥١ رجلاً بدلاً من ٥٠ .

ومن الصعب ان نوفق بين عادة حب المال لدى المصريين وبين خمولهم وبلادتهم التى يمكن القول بأنها قاعدة لطباع المصريين ، بل بين ذلك وبين سلوك الحذر والاحتراس الذى يسيطر على أبناء البلاد . فلم نسمع على الاطلاق اية شكوى من سرقات المنازل ، أو قل ان هذه حالة نادرة تماماً بل اتنا سوف ندهش أكثر من ذلك اذا ما علمنا أن البيوت والمحلات التى تضم بضائع غالية لا يقتل معظمها الا بضبات (ضبة) من الخشب غير جيدة الصنع . وباستثناء العربان والبدو ، يتميز المصريون بالاستقامة التى تعود

فى جانب كبير منها الى قسوة العقوبات التى توقع على اللصوص ، فكثيرا ما تبقى بالات البضائع الغالية الثمن لأيام عدة على الرصيف أو فى الطرق العامة فى حراسة ذمة الاهلين ، ولم نسمع أن ملكا قد شكك من نتائج مثل هذه الثقة .

ذات يوم قام أحد الدلالين الأتراك لنا بعملية تجارية عادت عليه بريح قدره ٨٠ فرنكا ، وبعد فترة من الوقت ذهبنا لنحنه فى أمر صفقة أخرى لا تقل عن الأولى عطاء بالنسبة له ، وكان جالسا على المقهى يدخن نارجيلته بعظمة ، وبصموبة شديدة أصاخ السمع للعروض التى قدمت له ، ولأننا الحنا فى الطلب فقد رد : لست احتاج شيئا ، اذهبوا الى فلان فهو بائس فقير وسيفعل لكم ما تطلبونه منى ومثلنى تماما . . لقد فكرنا هذه الواقعة ذات الدلالة لكى نقدم مثالا على ذلك التناقض الذى يسيطر دائما والذى يقوم بين الطباع وبين السلوك . ومع ذلك فليس ثمة ما هو أكثر كرما ولا أكثر عظمة من ذلك بل ولا أكثر حكمة مما يتضح فى هذا السلوك . الست على حق اذن حين آمل بأنه سيكون فى الامكان أن ندخل عند امثال هؤلاء القوم افكارا أكثر عدالة اذا ما اشعت عليهم أضواء الحضارة الأوروبية (١) . ولست آمل على الإطلاق من تكرار مثل هذه الحقيقة التى لا جدال فى صحتها .

(١) ولكن على الرغم من هذا المثال الطيب فإن الشعب فى مجموعه لا يتصف بالكرم ، وذلك ناتج عن الحاجة أكثر منه عن الطبع ذلك أن الكرم يفترض المسيرة واذا ما ظهر المصرى بذلك فسوف يتعرض لمظالم الحكام وانتهاباتهم .

هكذا ينبغي أن يقتل الخوف والطفيان أجمل الفضائل ؟ ومما يدل على أن المصريين أسخياء بطبعهم — بل مجبولون على فعل الخير — أن أولئك الذين استطاعوا منهم بفضل مكانتهم ونفوذهم وثروتهم الا تنالهم مظالم وانتهاكات حكام الطغاة ، يعيشون فى بيوتهم فى ابهة وترف ويقومون عدة مرات فى العام بتوزيع الهبات والمعطآت .

٧

عن المثنية والخيول وكافة دواب الحمل

لا يمكن للمصريين أن يكون لديهم ذلك العدد من القطعان الكبيرة من الحيوانات التى لدينا ، والسبب فى ذلك بالغ الوضوح ، فالراعى عندهم ليست بمثل وغرتها عندنا . فإذا ما استثنينا مصر السفلى وشطآن وادى النيل بعرض ١ - ٣ فراسخ ، فسوف نجد أن أراضى مصر قاحلة تماما ، بحيث يستحيل اطعام الماشية ، ومع ذلك فسكان الريف يمتلكون جميعا بعض الأبقار والجاموس وبعض الماعز وبخاصة فى الدلتا ، لكن الجمال والخيول والحمير توجد بأعداد أكبر ، لأن مهمة اطعام هذه الحيوانات أقل صعوبة ، إذ لا يقدم للخيول سوى القبن (قش مدروس تحت النورج الذى يقوم بدرس القمح والشعير) والبرسيم . ويطعمون فى الربيع بالشعير بمشبه وهو يزرع لهذا الغرض ولا ينبغى أن يترك فى الأرض حتى يبلغ مرحلة النضوج ، ويقوم زراعى الشعير بتشكيل حزم صغيرة منه يبيعونها فى المدن : كل حزمة بواقع ١ ، ٢ مدينى . أما المالك وغيرهم من الأثرياء الذين يحرصون أن تكون خيولهم قوية جبيلة المنظر ، فيطعمونها بالشعير الحب(١) .

ولا تلقى الجمال مثل هذه العناية الكبيرة إذ لا يقدم لها سوى القش والفول المطحون بالرحى ، وبالإضافة لذلك فإن الجمال تقرض أوراق وبراعم الأشواك التى تنمو على حواف الترع وشواطئ النهر ، وتقدم لها فى الربيع أوراق الأشجار ، وهو طعام مفضل لديها ، وعندما تصبح حرارة الصيف ملتفة يجمع الفلاحون أوراق الأشجار ليستخدموها شتاء فى اطعام الثيران والماعز .

(١) يطعم العربان خيولهم بأشياء قليلة جدا . وهذه الخيول نحيلة وقوية وتتجمل المشاقق والحرمان لدرجة أكبر من الخيول الجميلة المنظر ، وهى لا تشرب سوى مرة واحدة فى اليوم ، ويردد العرب دائما هذه الحكمة : يا بخت الخيل عند الفز ، يا بخت العرب مع الخيل ، وذلك تعبيرا عن أن العربى يحصل على منافع كبيرة من حصانه بأقل التكاليف فى الوقت الذى يحصل فيه حصان الملوك من سيده على نحو ما على أكبر النفع .

والحمار هو دابة الركوب المعتادة لأبناء الشعب ، وقد تعمود الفرنسيون على تلك الدابة بسهولة ، وفى الحقيقة فإن الحمار فى مصر لا يتميز بهذا البطء ولا بالمظهر الدنىء اللذين لنظيره فى أوربا . فسرعته مناسبة وخطوه جميل ويخب بسرعة طيبة ، وهو شديد التحمل ، وقد راينا فى الصحراء حميرا صغيرة الجسم لكنها تحمل فوق ظهرانيها ما يقارب من نصف حمولة الجمل ، ومع ذلك فإن الحمار يقاوم التعب بأحسن مما تستطيع الجمال .

وتوجد فى القاهرة انواع عديدة من هذا الحيوان ، والنوع الكبير منه جميل الشكل ، ويستحق بالفعل الأطراء الذى امتدحه به بوفون Buffon ويبلغ علوه من ٣ — ٣ ١/٢ اقدام دون أن تدخل فى ذلك ارتفاع الرأس ، ورقبته عريضة قصيرة ورأسه مرتفع جميل ، وقامة جسمه متناسقة ، وله ملمح نبيل وعيناه مليئتان بالحيوية . انه حيوان قوى ، جميل الخطو ، ويناسب الفرسان لكنه غالى الثمن ويفضل فى معظم الأحيان على الحصان اذ يباع بحوالى ٦٠ — ٧٠ قرشا اسبانيا ، ومن نافلة القول ان نؤكد بأن هذا النوع جميل جدا ويستحق بالفعل تلهف الناس على استنجاؤه للسير به فى شوارع المدينة ، وهو مملوك لأمراد يستطيعون شراءه .

أما ذلك النوع من الحمير التى يقودها المكاريون فهو اصغر بكثير لكنها بالمثل بالغة الجودة . ويدفع فى الجولة التى تمتد من أول القاهرة الى آخرها حوالى ٦ — ١٠ بارات . ويكلف ايجار انحمار ليوم بأكمله ٣٠ — ٤٠ بارة وكان السعر اقل من ذلك بكثير قبل مجيئنا الى مصر . وسبب ارتفاع السعر بالغ الوضوح ، فمع مجيء الفرنسيين تضاعف عدد الجولات فى شوارع المدينة . ويتبع المكارى حماره جريا على الأقدام ، ويحمل فى يده قضيبا صغيرا من الحديد تتدلى منه الجالجل ، وصخب هذه الأجراس الصغيرة تجعل الحمار يخب ، فاذا لم يجر بالسرعة المطلوبة ينخسه المكارى بهذا القضيب ، فهو مدبب من أحد طرفيه .

ويوجد فى القاهرة عدد كبير من البغال يستخدمها رجال الدين وكبار التجار ، وثمنها هى الأخرى مرتفع . وقبل مجيء الفرنسيين الى القاهرة

لم يكن يحق لأحد سوى المالك أن يمتطى ظهور الخيل (١) . وكان من عادة المالك أن يمدحوا بخيولهم عدوا ولوحظ أنهم لا يسبرون بخيولهم هذه وهي تغز ، وكانوا يدربون هذه الخيول بأن يندفعوا الواحد ضد الآخر ، وأن يتلامسوا بفعل الاقتراب ثم يتجاوز الواحد منهما الآخر ثم يناوشان بعضهما البعض بالسيف وكانت إحدى تدريباتهم المفضلة أن يوقفوا حصانهم فجأة وهو في أقصى سرعته ، وكانت هذه الحركات المفاجئة والعنيفة والصعبة تعرض الحصان لانحراف خطر مما يحطم له سائيه . لذلك فإن أغلب الخيول التي تدربت على هذا النمط المملوكي كانت تعاني من هذا العيب ، فقد كانت سيقاتها ضعيفة لحد كبير ، وقد لاحظنا أكثر من ذلك أن معظمها يجهز بشيء من الصلابة والقسوة ، كما أنها تعاني من ضيق في حركاتها ، وذلك ناتج بلا جدال عن القيود التي وضعت في أقدامها لأوقات طويلة .

ومن النادر أن نرى في مصر حصانا خفيا ، فهم يركبون الخيل في سن الثالثة ، وعندما يتجاوز عمر الخيول العاشرة يكف استخدامها ، وثمة خيول مصرية بالغة الجمال لكنها مع ذلك ليست من نوع واحد ، وخيول الصيد أكثرها جدارة ، فسائتها — شأنها في ذلك شأن كلمة الخيول العربية — دقيقة رفيعة ، وعينها بقطة ورأسها مستقيمة . أما كفلها فانه أقل بدانة مما لخيولنا الرعوية وحركاتها أتينة وخطوها مناسب ، خاصة إذا لم تكن قد اطلقتها طريقة المالك في التدريب ، ومع ذلك فربما لم يكن فيها جيمعا نفس ما في خيولنا الحربية من نبيل وعزم ، ولن يجد الفرنسيون مثيلا لهذه الخيول المصرية في قفزا وليونتها ، لكنها أقل من خيولنا احتفاظا بقوتها ، كما أنها أقل منها احتمالا للمشاق ، ويقال أنها بالغة الخفة وأنها

(١) يؤكد بعضهم أن الميسور روزي Rosetti تفصل النمسا قد أراد ذات يوم أن يتمتع بهذا الحق لكن الناس أنزلوه من فوق ظهر الحصان .

تفوق على خيولنا في سرعتها ولكني شأهت فرسا فرنسيا تسبق حصانا عربيا قويا بمسافة كبيرة (١) .

والخيل في مجبوعها ليست في مثل عنف خيولنا ، فالأمر يضي غلبة في الهدوء في حظائر الخيول ، ومن السهل أن نضعها بالقرب من الفرس دون أن تضطرب الأمور .

وفي أثناء اقامتنا في مصر كان سعر الحصان يبلغ من ١٢-٢٠ لويص وينبغي أن نلاحظ أن المالك كاتوا قد رفعوا سعره في هذه الفترة .

ولا يركب العربيان مطلقا الا الفرس ويطقون أهمية كبيرة على الاحتفاظ بأنسابها الطيبة نقية بعيدا عن أي اختلاط ، بل ولديهم خبراء في علم اجناسها ، والفرس المسمى كويت هو أكثرها امتيازاً ولا تقدر بثمن ، ويبلغ ثمنها من ٥ - ٦ آلاف فرنك ، وقد رأينا منها اثنتين أو ثلاثا رائعة الجمال .

وللخيول العربية صغيرة الحجم والتي تد لا تلفت الانتباه بملحة شكلها ميزات تموضها عن مظهرها المتواضع هذا ، اذ هي في العادة أكبر سرعة من الخيول الأخرى كما أنها أكبر منها بكثير مقاومة للتعب .

(١) تتغلب الخيول في مصر عنلية مائة ، فبعد أقل جولة تقوم بها ينبغي أن يقوم أحد الخدم بجعلها تمشي حتى يجف عرقها ، وبدون هذا الاحتياط يمكن أن تموت على الفور ، وهي في العادة جفولة وتعرض كثيرا لمرض الرثتين ، ويستخدم الشرقيون ركبا للسرّج ، عرضه كبير ويستخدمونه في نفس الوقت كحماسر ، وتلك ضربة قوية لهتك منذ الحصان ، ولجليلها قوى وجاف والطريّة التي يستخدم بها هناك تؤدي سريعا إلى تعظم فك الخيول فلا يمكن ابقائها بعد ذلك - اذا ما انضفت تعذر - الا عن طريق هذا اللجام .

تقاليد عربان البحيرة

يمكننا أن نحصى في ولاية البحيرة الواقعة ما بين الاسكندرية والقاهرة والفرع الأبير للنيل سبع قبائل أساسية من العربان ، استقر عديد منها هناك منذ زمان بعيد .

وأكبر هذه القبائل عددا قبيلتنا الهنادي والجوابي ، ويمكن أن يبلغ تعداد الأولى ٣٠٠٠ شخص رجالا ونساء بينها تكون الثانية على نحو ما أمة صغيرة من الرماة ، يحكمها شيخ كبير ورث المشيخة عن أجداده . وحيث أن عائلته هي أقوى عائلات القبيلة فإنه يمارس سلطته المطلقة بحق الوراثة ، حيث لا توجد هناك أية قوانين وضعية . وتنقسم القبيلة الى ثلاث طبقات تنقسم كل منها بدورها الى عائلات ، أما مكان الإقامة فواحد بالنسبة للجميع ، ولكل واحد قطيعه من حول خيمته وهذه القطعان تتكون من جمال ومائية صغيرة ، ويمكن للعربي المتواضع الثراء أن يمتلك ٤ أو ٥ أو ٦ من اناث الجمال واثنين من ذكورها ، بخلاف الماشية الصغيرة التي يمتلك منها عددا كبيرا .

وتغير القبائل أماكنها في فترات منتظمة الى حد ما ، ويحدد مناطق تجوالها الأمل في العثور على المراعى اللازمة لامتداد قطعانها بالغذاء ، ولهذا تذهب الجوابي كل عام من مربوط الى الصعيد ، وهكذا فانهم يبرون بوادي بحيرات النطرون ويحملون معهم كبيات من الملح ويحصلون في مقابل ذلك على ثمن تحدده العادة ، وفي نفس الوقت يذهب هؤلاء العربان انفسهم الى الواحات لشراء البلح الطازج أو المجفف ليبيعه بعد ذلك لصغار التجار في مصر .

وتقاليد هؤلاء العربان بسيطة ورعوية وتناى بهم عن القيام بالسطو والنهب ، اذ لا يمكن أن يواجه مثل هذا الاتهام الا لعدد جد ضئيل من امتهم الصغيرة تلك ، ولا يحدث بينهم الا قدر ضئيل من السرقات التي يلقي مرتكبوها عقابا رادعا من الشيوخ .

وفى أثناء جولاتهم تلك ، والتي تتم ببطء شديد ، يمشى الاتوبياء من الرجال سفار السن على اقدامهم بينما يركب الشيوخ والاطفال على ظهور الجمال ، وتسهر النسوة على شئون النقل مع أزواجهن ، وهن لا يغطين وجوههن الا امام الأغراب ، وتبتدىء الجمال المسيرة نليها قطعان الماعثلات المختلفة ، وهذه القطعان منفصلة فيما بينها . ويبلغ تعداد حيوانات القطيع ٢٠٠ ، ٣٠٠ ، ٥٠٠ وأكثر .

وملابس افراد هذه القبيلة هى نفس ملابس بقية العربان ، فالرجال يرتدون قميصا خشنا ومغطا من الصوف الأبيض او الفائق ويلفونه فوق رعوسهم ليقوا حرارة الشمس ، كما يستخدمونه غطاء فى الليل ، وللشيوخ معطف من الصوف الابيض . لكنه أكثر نعومة ، ولا ترتدى النساء الا جلبابا خفيا ويزين خصلات شعرهن بزينات متعددة .

ويرى قليل من الخيل لدى الجوابى حيث لا يتجاوز عدد فرساتها الاربعين ، بينما يبلغ تعداد فرسان الهنادى أكثر من ثمانمائة .

وأبناء قبيلة الجوابى شديدا التدين ، وهم يتبعون الديانة الاسلامية بشكلها الأنتقى ولا تعرف عائلاتها الكبيرة عادة التدخين ، فهذه العادة لم تدخل القبيلة مطلقا ، كما أنهم يمتنعون عنها اما احتراما لعاداتهم القديمة واما بدائع دينى غامض بحيث لم نجد فى هذه الامة الصغيرة الا عجوزا واحدا يهوى تدخين التبغ وينتسب هذا الشيخ الى عئلة قديمة ويقبل فطه هذا الذى يتعارض مع العادات المتبعة بتسامح اعتبارا لسنة ، ولا تدفع الجوابى ضرائب مطلقا ويكتفون بأن يرسلوا كل عام الى قائمقام دمنهور هدية تتألف من بعض الجمال .

وتعيش الجوابى فى قناعة شديدة ، وهى عادة شائعة — كما رأينا — عند كل العربان ، ويكتفى المرء هناك بوجبتين ، واحدة عند الظهر والاخرى عند غروب الشمس ، وتتكون الوجبة من اثنين او ثلاث بلحات مع شيء من الخبز مخموس بالزبد الذائب على النار . ويكاد المرء لا يتصور كيف يمكن لأجسام تغذت على هذا النحو ، أن تتحمل تلك المشاق التى لم نسمع عنها ، وتحت سماء ملتهبة لهذا الحد . ولايكاد يبلغ اجمالى كمية الطعام التى يتناولها المرء فى اليوم ٦ او ٧ أوقيت ، وبرغم فلك فالعربان بوجه عام

حسنو الصحة ، وإذا ما استثنينا أمراض العيون - وهى الأمراض المتوطنة - فإنهم أقل من غيرهم عرضة للأمراض من كافة شعوب أوربا (١) ، فضلا عن ذلك فهم لا يتناولون المشروبات الروحية ويكتفون بشرب اللبن الفوق والماء القراح ، وتصنع آنية الشرب التى يستخدمونها من الخشب ، أما تلك الأنية الطينية المعروفة باسم القلة فليست شائعة عندهم ، وشرب القهوة يعد واحدا من المتع التى نادرا ما يسمحون بها لأنفسهم ، وليس بينهم من يعتاد عليها سوى الشيوخ ، ولا يقدم هذا المشروب فى الخيمات الأخرى الا عند الترحيب بزائر غريب .

والجوابى مضيافون بالغو الكرم ، وينحون حمايتهم لكل الناس بلا تمييز ، بل أنهم يدخلون فى حماهم حتى المجرمين المطاردين ، ويقيم الغريب فى خيمة مضيفه الذى يبذل كل جهده لكى يكرم وفادته ، وتغطى النساء وجوههن امامه دلالة على الاحترام . وتتجلى مودة العربان وكرمهم خاصة فى الوجبات التى تقدم للمسافرين الذين يلجأون اليهم طلبا للضيافة ، فهذه باذخة بالنسبة لظروف المضيفين ، وتتكون من الأرز والخبز والبصل المشوى وخروف مسلوك يقدم فى طبق كبير انتزعت منه فقط بعض اجزاء لتحميرها وتقدم فى الأخرى على المائدة ، وزيادة فى تكريم الضيوف يحرص المضيف على أن يختار لهم بنفسه أحسن قطع اللحم ، وقد يدهش المرء من عواطف واحاسيس هؤلاء الناس الذين هم بالكاد فى اول اطوار الحضارة ، ومن اخلاصهم وحماستهم حين يتحدثون عن مبايع خيانتهم . تلك .

ويتكون اثاث الخيمة من سجادة خشنة وبعض الأواني الخشبية او الفخارية واسلحة من انواع مختلفة واحباتا بعض ادوات من الحبال واثاث من نوع خاص . وليس فى خيمة شيخ القبيلة ما هو أكثر من ذلك ، وربما يكون الشيء الوحيد الذى يميزها عن بقية الخيام هو فخامة السجادة المفروشة فيها . وألتي ليس فيها برغم ذلك شئ غير عادى وقد يصل ثمنها الى ٣٠ - ٤٠ قرشا أسبائيا .

(١) أنظر : Voiney, Etat politique de la Syrie, p. 361 et s.
وكل ما قاله هذا المؤلف عن بدو سوريا ينطبق على بدو مصر .

ويقوم العربان بجولات طويلة للغاية في الصحراء . ويقفون فيها أحيانا لمدة تبلغ العشرين يوما وأكثر ، ويجعلهم تعودهم الطويل يتعرفون على السهول الرملية ، فهم يعرفون الأماكن التي توجد بها المياه وليس ثمة من صحراء مهما كانت قاحلة لا تحتوى على مصادر للمياه أو على الأقل لا تحتوى على آبار للمياه الصالحة للشرب ولو كانت مالحة بعض الشيء ، فضلا عن ذلك فهم يحملون على جملهم الماء والمؤن الضرورية ، ويحتفظ المسافر بالماء في آنية كبيرة من الجلد يفلتها بسداة خشبية ويمطرها بالمسكة .

أما البدو الذين يمشون على السلب والذين سنتحدث عنهم بعد قليل فثانهم يجمعون كل ما سلبوه ليقسموه فيما بينهم حسب تواعد متفق عليها حتى يتجنبوا الامتنال فيما بينهم ، ونادرة هي الحالات التي يستوجب فيها أن تعود الخيل أو الأتمعة السلوبة على واحد دون الآخر ، ونلغز كذلك ما يفوتهم أن يخصصوا جزءا من هذه الأسلاب لشيخ القبيلة حتى ولو كان غائبا .

والنساء عند هذه الشعوب الجوابية لسن متعطلات ، بل يمتنعن قماش الخيام وينسجن بأنفسهن السجاجيد لتثبث هذه الخيام ، وهن يستطعن صباغة هذه السجاجيد بالألوان زاهية ومتنوعة وتكاد هذه الألوان أن تكون أكثر ثباتا من ألوان أجمل سجاجيد الأناضول . وعندما يذهب بعض العربان إلى المدن ، فثمة يأخذون على عاتقهم القيام بالأعمال التجارية الخاصة بالقبيلة كما يحضرون الأمباج اللازمة لعمل النساء .

ومن حق العربي أن يتخذ لنفسه عدة زوجات ، ولكنه نلغز ما يستعمل هذا الحق ، فلكل عربى زوجة واحدة ، ويشترى الأغنياء منهم إماء وتنجبت وعبيدا سودا في بعض الأحيان . وتسبح لهم الشريعة بالطلاق شأن بقية المسلمين ، لكن عادة الطلاق ليست منتشرة بينهم بنفس درجة انتشارها عند سكان المدن المصرية . بل أن من يطلق زوجته منهم يجر على نفسه نوعا من الاحتقار ويعرض نفسه للرفض العام . وقد شوهدت بنت أحد الشيوخ الكبار وهى ترفض أن تعيش مع أبيها لأنه طلق أمها ، كما لم يستطع ابنه الشاب الذي كان يدير شئون عائلته بذكاء كبير أن يمنع نفسه من أن ينظر لهذا السلوك من جانب أبيه باحتقار شديد .

ويدفع لنساء هذه القبيلة مهر كما يسمح لهن بامتلاك القطعان .

والحرية هي كنز المربان الثمين . فهم ينفرون من أى نوع من الخضوع . وهم يفضلون ان يقدر عليهم البقاء فى عزلتهم الواسعة تلك فى الصحراء عن ان يتحملوا خضوعا من أى نوع . ولا يريد الجوابى أن يرتبطوا بشكل مطلق بزراعة الأراضى اما لانهم يخشون ابدال طبائعهم واما لانهم ينفرون غريزيا من الزراعة واما تمسكا منهم بعاداتهم القديمة . وفى بعض الأحيان يبنون قطعة من الأرض روتها الأمطار ، ومع ذلك فان توقع حصولهم على محصول ومير فى العام التالى لا يغريهم مطلقا على البقاء ، بل انهم يكتفون بما حصلوا ويحملون خيابهم الى مكان آخر .

ونحن نرى من هذه التفاصيل كيف أننا هنا فى أوربا سوف نكون مجتفين تجاه العرب لو أننا نظرنا اليهم كأناس همج ليس لديهم شفقة ولا رحمة ، فلقد ترددنا عليهم كثيرا وكنا شهودا على مودتهم وفطرتهم البسيطة وفضائلهم الرعوية ، واذا كان ثمة من بينهم قبائل تستحق لوم الأوربيين فنحن لا نستطيع أن نعمم هذا اللوم دون أن نحكم على أنفسنا بالجور وعدم الانصاف ، فتقاليد الجوابى وكذا تقاليد عدد كبير من قبائل أخرى لا نستطيع أن نقاومها بالحديث هنا، ليست بأقل جدارة بأن تتخذ نمونجا يحتذى من تقاليد أمة متحضرة .

وتوجد على مشارف ولاية البحيرة بخلاف قبيلتى الهنادى والجوابى ، القبائل الآتية :

١ — قبيلة الأفراد ، ويمكن القول بأنها ليست سوى فرع من الهنادى وتكون من حوالى ٣٠٠ فارس .

٢ — قبيلة الجولى ، وتضم أكثر من ٤٠٠ فارس .

٣ — قبيلة بنى عون ، وتبلغ قوتها ٣٥٠ رجل يركبون الخيل .

٤ — قبيلة أولاد على ، وتبلغ قوتها ٣٠٠ رجل يركبون الخيل .

والقبائل الثلاث الأخيرة متحالفة فيما بينها ، وهى فى حالة حرب مستمرة مع القبائل الأولى . وهذه القبائل المختلفة قد اقتسمت على نحو

ما السلطة المطلقة على الولاية ، ونشروا مساعدتهم وحميتهم على بعض القرى ضد عشائر أخرى من البدو في مقابل اتاوة سنوية . وعندما ترفض واحدة من هذه القرى أن تدفع المبلغ المتفق عليه أو إذا لم تستطع ذلك فإن الحماة المدعين يغيرون من أموارهم ، وينتظرون حتى يصل الفلاحون معهم ماشيتهم إلى الحقول ، وعندئذ تنشق منهم الأرض فجأة ، وينتقمون كل ما يستطيعون ، ولا يردون ما سلبوه إلا إذا حصلوا على ضعف الاتوة التي سبق الاتفاق عليها ، ويتم هذا الصلح بالاتفاق بين الطرفين . لكن الغرم يقع على الدوام على الفلاحين الذين لا يمكنهم أن يعرضوا أنفسهم لمثل هذا الابتزاز البشع دون دواعي قوية . أما إذا ما اتفق الفلاحون فيما بينهم ، فإن القبيلة الحامية تقوم بحصارهم حتى يدفعوا الاتوة مع المخلفات التي يحلو للاتفوى أن يفرضها . ولكن إذا ما حدث — صدمة — أن حملت القرية السلاح لتدفع المعتدين بالقوة فالويل للفلاح الذي يقتل بدويا أو حتى يحدث فيه جرحا ولو بسيطا ، والويل لأسرته ولخريته ، فالدم لا يعوضه إلا الدم ، ولسوف ينتقم الجريح وأهله أو حلفاؤه لعاره الآن أو في المستقبل . . وعند موت أحد البدو يمهّد إلى ابنه أو إلى أقربائه الآخرين بمهمة الثار وهذا مرض مقدس ذلك أن قانون الدم عند البدو هو أهم القوانين التي تطبق عندهم . وقد حدث مرات كثيرة أن طلب ثار واحد من الأهل أو الأجداد بعد أن كانت قد انقضت فترة كبيرة من الزمن منذ موته . وعندما تسنح فرصة الانتقام فإن المتضرر أو من يتصرف باسمه لا يفوته أن يمسك بها ، وعندئذ لا يعرف لغضبه حدود ، ومع ذلك فيمكن شراء الدم بجمل مالى ، لكن مثل هذا الاتفاق ينبغي أن يصدق عليه كل أفراد العائلة والا اعتبر كأن لم يكن . وبخصوص الجرح البسيط يمكن الاكتفاء ببمبلغ يتفاوت قدره بحسب الجرح ، ويدفع هذا المبلغ نقدا أو عينا ، أما بخصوص الموت فيفضل الانتقام ولسوف تحل أسرة المتوفى نفسها بالعار الشديد إذا هي قبلت في مقابل دم القاتل عدية مهما كبرت ، تاركة بذلك روح قتيلها هائمة (١) .

(١) يدخل Vomey في بعض التفاصيل المتصلة بهذه العادة الهجينة ، لكننا نكتفي بأن نحيل قراعا إلى مؤلفه :

ونقدم هنا أمثلة على تطبيق قانون الدم كيهما نبين كيف أن العرب قساة في هذه النقطة .

ذات يوم تقابل اثنان من الأعراب : أحدهما من الأفراد والأخر من الهنادى بالقرب من بسنتاواى ، وهى قرية تقع على بعد ١٢ كم من جنوب شرق الاسكندرية . وكان الأمرانى يتود تسعة أو عشرة ثيران تملكها هذه القرية فسأله الهنادى :

- هل صحيح انكم فى سلم مع الفرنسيين ؟
- صحيح .
- اليس من الأحسن أن تتحالفوا معنا بدلا من أن تتحالفوا معهم ؟
- ماذا تريد ؟ هكذا أراد الشيخ مريك .

فقال الهنادى :

- وهذه الثيران ، هل تقودها الى معسكر الفرنسيين .
- لا ..
- لكنى أمنعك من ذلك وسأخذها منك
- لا تقدر على ذلك ..

وهنا هوجم البدوى المتحالف بمن ، وبعد معركة خفيفة ، خدش أثناءها الهنادى خدشا بسيطا فى يده فصاح : « يا ربى : اتقاتلنى بدلا من أن تقاتل الفرنسيين ؟ » .

فاجابه الآخر غخورا بما أحرزه من كسب :

- لا عليك الا أن تنشد السلام . ابتعد .
- السلام : سأمنعه بارادتى ، ولكن (وأشار الى يده) .. الدم ؟
- حسن ، لا عليك ، اطلب ما تريد .
- اعطنى ثورا من الثيران التى تقودها فينتهى الامر .

وانتهت المعركة بالفعل بهذه الطريقة . ومع ذلك دفعت القرية الأجر
المقدر لحارس ثيرانهم هذا بالرغم من أن الثيران قد نقصت واحدا بسبب
غلطة منه هو .

ويعرف الفلاحون معرفة تامة ذلك الطبع الحقود الذي للبدوى ، حتى
انهم يتحاشون ان يجرحوه أو ان يقتلوه مهما كان حجم الضرر الذي وقع
منه عليهم .

ذات يوم لمح احد البدو بينما هو يمر على حصانه في سوق دمنهور
بقرة اعجبته فألقى على عنقها حبلا به عقدة متحركة وجذبها اليه وسار بها،
وبعد ان افاق الفلاحون من دهشتهم جروا خلف السارق وادركوه في اللحظة
التي كان فيها على وشك ان يجتاز ومعه غنيمته ترعة مليئة بالمياه ، فأوقفوه،
وبعد ان استعادوا منه بقرتهم ذبحوا حصانه امام عينيه ، ثم أرقدوه هو
نفسه على بطنه وضربوه بالعصا ٢٥ ضربة ، وبعد ذلك انهضوه واطلقوا
سراحه . ووصلت في هذه اللحظة الى المكان داورية فرنسية قد أرسلت في
اثر البدوى ، ودهش القائد وسريته الصغيرة من أن الفلاحين قد قتلوا
الحصان ولم يقتلوا اللص وسألوا سبب هذا الأمر العجيب ، وعندئذ أجلب
أكبر الفلاحين سنا عن طريق مترجم بأنهم قتلوا الحصان عقبا للبدوى ،
وبأنهم استبقوا البدوى حتى لا يعرضوا انفسهم لحق لا يمكنهم الاملات منه
وهو حق تعويض الدم .

واذا كانت الشراسة والعناد اللذان يبدوان في طباع البدو الحقود ،
يكنيان لتقديم فكرة سيئة عن أخلاقيات هؤلاء القوم ، فان من الصعب ان
يكون حكمنا عليهم بأفضل من ذلك اذا ما نظرنا الى أخلاقياتهم بميزار
المسقات الحميدة والفطرة السليمة ، ولقد قدموا لنا اثناء مدة الحملة
أكثر من دليل على ما يمكن للمرء ان ينتظره وان يخشاه منهم لكننا نكتفى هنا
بأن نروى الحكاية التالية لأنها تقدم لنا أمرا من أكثر أمورهم غرابة .

بعد عدة ايام من عملية ١٤ فلوريال(*) التي هزم فيها ٤٠٠ من الفرنسيين وردوا خمسة وعشرين الفا من البدو والمغاربية والفلسلايين المتمردين ، جاعنا الشيخ مريك شيخ الافراد لزيارتنا وسألناه اين كان وقت الاحداث . فاجاب ببساطة « كنت على بعد ١/٢ فرسخ من ميدان المعركة مع كل ابناء القبيلة على خيولنا ومسلحين — اه ؟ وماذا كنتم فاعلين بسلاحكم ؟ — كنا سنبتك الاضطراب في صفوفكم بإعمال السيف فيكم واكمال هزيمتكم لو دارت الدائرة عليكم » . وقد ادهشنا هذه الاجابة لكننا تماكنا انفسنا وسألناه : — ولكن ، السنا في سلم معكم ؟

— هذا صحيح ، لكن لا ينبغي ان يدهشكم سلوكنا فطريقة البدو دائما هي الانتفاض على الضعيف ولكن نحن ؟ نحن الذين صادقتكم ! هذا صحيح ، لكن الصداقة بيننا لا تستمر الا طالما انتم اقوياء . ولقد اتيج لمدا الشيخ مريك هذا ان يطبق بتمامه بعد عام كامل ، فقد كان البدو قبيل معركة هليوبوليس على استعداد للعمل لصالح العثمانيين ، بل ان قبائل عدة كانت قد انحازت بالفعل الى صفوفهم ، ولكن ما ان تقهر الجيش العثماني حتى انقض هؤلاء الحلفاء الخطرون عليه ونهبوا مؤنه وابادوا عددا كبيرا من جنوده حتى كادوا ان يأسروا الصدر الاعظم نفسه(١) .

(*) الشهر الثامن من التقويم الرسمي لفرنسا ، ابتداء من ٢٢ سبتمبر ١٧٩٢ ، وقسمت بمقتضاه السنة الى ١٢ شهرا ، بواقع ٣٠ يوما للشهر . اما الايام الخمسة الباقية من السنة فقد عرمت بأيام الشعب وجعلت كلها اعيادا ، ويعرف اليوم السادس — في السنوات الكبيسة — بيوم الثورة ، وقد قسمت الشهور الى ثلاث عشرينات ، وجعل اليوم العاشر من كل منها يوم عطلة . والأشهر الاثنى عشر هي : فنديمير ، برومير ، فريمر ، نيفوز ، بليفوز ، فنتوز ، جرمينال ، فلوريال ، بريريال ، مسيدور ، ترميدور ، فريكتيدور . (المترجم)

(١) ونحكي كذلك الحكاية التالية وهي ان كانت لا تضيف شيئا الى ما ذكرنا الا ان لها جانبا فكاهيا لحد ما . في اثناء معركة دارت بين البدو الحامين لدمنهور مع بدو آخرين حماة لقرية سرنباي ، ذهب الاولون للاستيلاء على ماشية القرية الأخيرة ، ورد الآخرون على الشر بالشر فانتهبوا دمنهور ، وبرغم قصر مدة المعركة فانها قد تركنا البلدين بلا ماشية على الإطلاق .

وعندما نزع البدو . والفلاحون المتحالفون معهم ، الحامية الفرنسية في المنصورة وكانت تقدر بـ ١٢٠ رجلا . أتاح الحظ لجنديين من التساميين هؤلاء الثالث أن ينجوا بحياتهما . واصطحبهما البدو أسيرين ، وكان هذان البائسان بالإضافة إلى ثالث أمكنه الهرب هم كل من بقى من أفراد الحامية على قيد الحياة بعد الكارثة التي حلت . وبرغم كل شيء فنحن مدينون لهما بالمعلومات التي سنقدمها هنا — برغم النقص البليد فيها — حول مختلف عادات هؤلاء البدو .

كان معسكر القبيلة يقع على بعد ثلاثة فراسخ من المنصورة . وقد أشاع الأسيران في البداية أكبر قدر من الدهشة بين سيدات واطفال إحدى القرى حيث توقف الذين كانوا يقتادونها ليحصلوا لهما على بعض الطعام . وعندما وصل الأسيران إلى خيمة المريان ، أبلغا بأن ليس ثمة ما ينبغي أن يخشياه على حياتهما ، وبرغم ذلك فإن قيام هؤلاء الهمج بنهب أسير فرنسي آخر ونى برود تام أمامهما لم يوح لهما بكثير من الثقة في مثل هذه الوعود . لم يفرض على الأسيرين القيام بأي عمل . بل لقد قضيت لهما بعض طلباتهما .

وقد لاحظ الأسيران أن طعام القبيلة شديد البساطة ، فكمية من العنيس وبعض البقلاوة تقدم في طبق يشبه القلاة ، أو بعض الحب المجروش المغلى وعليه شيء من الزبد يكفى وجبة لرجل ، وفضلا عن ذلك فهذه الأصناف تقدم بكمية قليلة للغاية ، وقد تبين للأسيرين أن أهم أشخاص القبيلة ، برغم مكانته وثروته وهو يرتدى قمائشا من الحرير ويمتد على حشوية ويغمر باستمرار من ملابسه — لم تكن تقدم له أية طقوس تدل على الاحترام كما أنه يأكل مع الجميع دون تمييز . وكان هذا الرجل يتناول القهوة مع عدد صغير من أبناء القبيلة ، كما شاهد الأسيران عددا كبيرا من المريان يدخنون النارجيلة . وكانت ملابس هؤلاء لا تختلف في شيء عن ملابس البدو الآخرين الذين سبق أن تحدثنا عنهم .

وفي أثناء الفترة التي أقامها الأسيران في معسكر هؤلاء المريان ، لاحظا أن هؤلاء يغيرون أماكنهم باستمرار ولكن دون أن يهتموا كثيرا عن المكان الذي تركوه ، وكانوا يهدفون بتنقلهم هذا الحصول على المراعى اللازمة لقطعاتهم الكثيرة .

كانت القبيلة في مجوعها تمتلك حوالى المائة من الخيول ومثلها من الجمال واعدادا هائلة من الغنم والماعز والماشية كبيرة الحجم . تلك كانت كل ثروتها ، وكانت نفس الخيمة حسب اُتوال الأسيرين تضم الأسرة بأكملها بلا تمييز بين سن أو جنس ، فكان الأب والأم والأطفال يقضون النهار والليل معا دون أن يكون ثمة فاصل بين هذا أو ذاك من افراد الأسرة ، ولم يكن النساء متحجبات وكن يلبسن في آذانهن أقراطا من المعدن واساور ، وكان أزواجهن يعاملونهن برقة ، وعندما كن يلحن الفرسان عائدين من تجوالهم ، كانت كل واحدة من أولئك اللاتي يشارك أزواجهن في هذا التجوال ، تهرع للقائه : وتبدى له اكبر امارات الابتهاج والفرحة اذا كان يحمل معه اسلأبا ، اما اذا كان قد عاد خالى الوفاض فانها تلقاه في صمت . وكانت الاسلاب توزع بين أولئك الذين شاركوا في الغارة .

وكانت النساء والرجال — وبخاصة الرجال — يؤدون صلوات عديدة، ودين القبيلة هو نفس دين محمد ولكن مع شيء من الخلط برغم أنه لم يكن بمقدور الأسيرين أن يلاحظا ذلك .

ويبدو أن النساء اكبر عددا من الرجال وهن يشتغلن في عمل قماش الخيام . والأطفال كثيرو العدد وترضعهم أمهاتهم حتى سن السنتين أو ثلاث سنوات ، ويظلون عراة تماما حتى سن السادسة أو الثامنة ، وفي هذه السن ترتدى البنث قطعة من القماش — أو قميصا — حول خصرها . والرقص هو اللعبة المفضلة عند هؤلاء الأطفال ، وهو عبارة عن التقز بشكل دائرى مع تحريك الخصرين وكل منتصف الجسم بطريقة خليعة ، وهم يرقصون معا بينما يقومون في نفس الوقت بالغناء .

وهؤلاء العربان ، وبخاصة نساؤهم ، كثيرو الكلام ، وتدور بين النساء مشاحنات عديدة تنتهى على الدوام بالصلح بينهما بعد جلبة وصيحات كثيرة . واحترام المسنين هو أحد الفضائل الأساسية لهذه القبيلة ويشعر الأولاد نحو والديهم بتقديس كبير ، وامراض العيون هى على وجه التقريب المرض الوحيد الذى يصيب هؤلاء العربان ، فلم نر من بينهم لا مقعدا ولا كسيحا ، والادوية التى يستخدمونها باللغة البساطة . وهم يجبرون الاطراف المكسورة بربطات منفرة وخشنة . وهم يعمرّون حتى يبلغوا سن

الشيخوخة الطاعنة ونادرا ما يعانون من الأمراض التي تهاجمنا مع تقدم السن .

ولنا ان نشعر بالأسف لان الأسيرين لم يستطيعا ملاحظة الاحتفالات الجنائزية للقبيلة وكذا بعض العادات الأخرى المثيرة للفضول . هذا كل ما أمكنهما ان يخبرانا به . ونضيف انيه هنا بعض الأمور التي تتصل بالعربان بوجه عام حتى نفرغ مما ينبغي ان نقوله بشأن هذه الشعوب .

لقد لوحظ ان عربان الصحراء الغربية وبخاصة في ضواحي الاسكندرية كانوا احسن تسليحا واكثر شراسة من عربان الصحراء الشرقية ، ويعود هذا الاختلاف بشكل اكيد الى السهولة التي يجدها عربان الغرب في التزود بالأسلحة والفخائر من الاسكندرية . كما ان فرصتهم في التزود بالسلاح اكبر حيث ان الاتاوة التي يحصلونها من الحجاج الذين ينزلون من البحر الى الاسكندرية اكبر بكثير من تلك الاتاوة التي يحصلها العربان الآخرون ، ذلك لأنهم هم اول من ينبغي ان يدفع لهم . فضلا عن ذلك فان ما يؤدي الى جعلهم اكثر انعزالا عن غيرهم من العربان هو ان ولاية البحيرة لا تجنب انتباه الحكومة بشكل كاف . اذ انها اقل خصوبة وبلانلى اقل انتاجا من باقى الولايات .

وينقسم العربان فيما بينهم من حيث طريقة السكنى — الى عربان يقيمون في خيام وعربان يقيمون في منازل — وقد يبدو هذا القول من قبيل تحصيل الحاصل ، لكننا هنا نلفت النظر الى انه ثمة من بين البدو — حتى هؤلاء الذين يتميزون بالشراسة وحب الحرب — مزارعون طيبون بؤساء يقيمون في قرى فقيرة ويزرعون على التخوم بعض مساحات من الأرض القابلة للزراعة ، وتسكن بقية القبيلة تحت الخيام حيث تناسب هذه الطريقة بشكل افضل تقاليدهم العسكرية وحيث انها كذلك تسهل غاراتهم وتسمح لهم بان يغيروا مكانهم بحرية حتى يعثروا على المراعى الضرورية لاطعام قطعانهم .

ويشكل العربان المرابطون طبقة أخرى من العربان الطلقاء ، وهم يعيشون على زراعة بعض الأراضي المهجورة وعلى تجارة الماشية . وهم في اوقات الحصاد ، يساعدون الفلاحين في أعمالهم في مقابل اجر ، كما انهم

يقومون أيضا بنقل البضائع ويؤجرون جمالهم للفلاحين وتمهيدى المراكب ،
ويجلبون الى المدن منتجات كثيرة من داخل البلاد . ويسمى هؤلاء بالعربان
المسلمين وهم بالتاكيد يستحقون هذه التسمية اذ ليس ثمة ما هو أبسط
ولا أكثر براءة وفطرة من طريقتهم في الحياة .

ويقطن مناطق من ولايتى الشرقية وقلوب أعداد كبيرة من قبائل
البدو ، وبعض هذه القبائل رحل وبعضها يمكن القول بأنه متوطن .
ولا تختلف تقاليدهم فى شىء عن تقاليد الآخرين لذا نلن ندخل بشأنهم فى
تفاصيل تعد من قبيل الحشو . وقد قدمنا فى الفصل الاول أسماء القبائل
ومقدار القوة الحربية لكل منها .

٩

الحمامات العامة

يمكن أن نحصى أكثر من مائة حمام بالقاهرة ، يواظب السكان على
الذهاب إليها وبخاصة فى الشتاء حتى يتسقوا مع أحكام شريعتهم ،
اذ يسمح الصيف للطبقة الدنيا منهم بالتطهر والاغتسال فى النهر حيث تكون
مياهه شبه فاترة ، أما الشتاء يبرده فانه يحرمهم من هذه الوسيلة
الاقتصادية ، وهذا يتوجه الى الحمامات حوالى مرة كل اسبوع اولئك
القادرين منهم ليحصلوا بمصاريف زهيدة على متعة يطمح اليها الفقراء
والاغنياء معا .

أما رجال الطبقة الممتازة ، او بالأحرى أولئك الذين يحوزون ثروة
كبيرة — حيث ان السلطة فى مصر أكثر منها فى البلدان الأخرى ترتبط
بدرجة الثراء — فانهم يمتلكون فى بيوتهم حمامات خاصة . وبرغم ذلك
فان هذا لا يمنهم من أن يلتقوا بين الحين والحين فى الحمامات العامة
ليروحوأ عن أنفسهم فيما بينهم ، كما يذهب الى الحمامات العامة كبار
رجال السلطة ، ولنفس الغرض ، وفى هذه الحالة ، يخطر مدير الحمام
فيكف عن استقبال أى واند ، ويتوم باستدعاء فرقة موسيقية واعداد وجبة
شهيية ، ويظل هؤلاء هناك يروحون عن أنفسهم حتى حلول المساء ، ويحصل
مدير الحمام دوما على ما يكتبه لحد الرضا من كرم هؤلاء السادة الكبار

اذ يدفعون له عند خروجهم في متابل كل يارة يحصل عليها من ابناء الطبقات الشعبية قطعة من الذهب .

ويذهب الى هناك أيضا ، المالك الذين لم يصلوا بعد لمرتبة الحكم . ويقودهم الى هناك الخزنة دار . ونقدم لهم في بعض الأحيان وجبة حافلة ويروحون كذلك عن انفسهم .

ويوجد بكل حمام مغطس ملء بمياه شديدة السخونة وبعد ان ينهى المرء من استحمامه يغطس فيه للحضات . وطريقة الاستحمام التي تبع هناك تختلف عن طريقتنا نحن في ذلك . فبعد ان يدخل المرء ، يستقبله الخدم في الحجرة الأولى حيث يودع ملابسه . ويعتد حول جسمه فوطة بسيطة ثم يقاد الى ممر يحس وهو سائر فيه بوهج الحرارة يشتد شيئاً فشيئاً لتصبح قوية عند اقترابه من الحجرة الثانية ، وهناك يجد نفسه وسط سحابة من بخار ساخن معطر يخترق مسام كل جسمه ويرتد على قطعة من قماش صوفى ، فيقترب منه على الفور خادم يلبس في يده قفازاً ، او يسك بفوطة من صوف ناعم . وعندما يتأكد ان البخار قد اخترق كل المسام بشكل كاف وحدث بالاطراف نوعاً من اللبونة . يبدأ بأن يطعلق كل مفاصل الرافد ، وتكاد هذه العملية لا تسبب سوى ألم خفيف تعوضه تلك اللبونة التي تحدثها بعد ذلك في حركة الجسم ، ويستطيع الاوربيون الذين لم يعتادوا مثل هذه العملية ويخشون نتائجها — أن يرفضوها بطلق حريتهم .

وبعد ذلك يدلك الخادم الجسم بالقفاز او قطعة الصوف التي بيده . ويكون التدليك قويا لحد يظن معه المرء ان جلده سينفصل عن جسمه ، ويتوالى سقوط خيوط سوداء اذ يتخلص الجسم من كل الوساخات التي كانت عالقة به ، بل ان المسام نفسها تتخلص من اقل شيء يمكن ان يسدها ، وفي اثناء هذه العملية يكون النزيل الصبور غارقاً في عرقه ، ثم يقتاد بعد ذلك الى حجرة مجاورة ليبقى وحده ويفتسل بمياه تاتى من عيني مياه ، احداها ساخنة ومياه الأخرى باردة ، ثم يرتدى قميصاً ليعود في التهلية الى الحجرة الأولى حيث يقدم له الخادم وهو جالس على اريكته النارجيلة وفجأناً من القهوه ، وعندما يحين خروجه تكون ملابسه قد معطرت بدخان خشب الصبر وترش رأسه وكل جسمه برغاوى مسليون

مطر ، أما النساء فيستخدمن في نهاية حمامهن عجينة تنزع كل الشعر الزائد من جسمهن (١) .

ويقوم مدير الحمام بتعطير الحجرات واعداد ماء الورد ، ويحصل عادة مقابل كل هذه الخدمات على ما يكفيه إذا كان رواده من الأثرياء ، ونادرا ما يكون مكان الاستحمام واحدا بالنسبة للجنسين ، اذ ينقسم المبنى الى قسمين لكل منهما مدخل مستقل ، وفي هذه الحالة الاولى يخصص لكل من الجنسين موعد خاص . وتذهب النساء عادة الى الحمام في وقت متأخر ، وما ان يدخلن حتى تعلق قطعة قماش مطرزة او سجادة لتنبه الجمهور الى حضورهن ، ومنذ ذلك الوقت لا يمكن لاي رجل ان يدخل ، ويستبدل بكافة الخم الذكور على الفور وبدون استثناء خادمت ، واذا دخل رجل برعونة الى حمام وقت وجود النساء فسوف تحدث ضجة شديدة ولا يمكن له الا ان يدفع ثمن رعونته .

ومن جهة اخرى ، فعلى الرغم من ان عادات الشرق وتلك القسوة التي يبيدها المشرع ضد النساء ، تنهض على الشك وعدم الثقة في المرأة ، فان هذه القسوة تخف حقتها شيئا ما عن طريق الحرية التي منحت للنساء في التجمع بالحمامات ، فهذا التجمع هو على نحو ما عيّد تستخدم فيه النساء كل زينتهن واناقتن ، حيث لا امل لهن في جذب انتباه الرجال وسماع العبارات التي تطرى جمالهن — ذلك الامل الجميل لجنسهن كله — ما دمن لا يظهرن في محفل عام دون ان يكون رأسهن ووجههن بل وجزء من نصفهن الاعلى مغطى بالطرحة ، ومع ذلك فهذه البهجة التي تحملن على التباهي والتفاخر بفخامة ملابسهن وروعة زينتهن هي واحدة من الانتصارات التي ترضى غرور كبريائهن ، فما ان يدخلن الحمام حتى يسارعن باسقاط تلك الاقنعة المزعجة ليستعرضن تحت نظر رفيقاتهن بريق حلين ، وغاية كل منهن بل ومطمحها ان تخسف بجانب جمالها جمال الاخريات ، بعدد قطع النقود الذهبية المدلاة من خصلات شعرها ، وبروعة الماسات والحلى التي تترين بها وبالفساتين الغالية التي ترتديها . ومع ذلك فهذا الاشباع البسيط

(١) ينبغى على المرأة المسلمة الا تستبقى سوى شعر الحاجبين والرموش، وهي عادة شبه دينية توجب عليهن التخلص من بقية شعر الجسم .

للكرامة والكبرياء الأنثوى تحرزها أبة واحدة منهم بمعد قطع النقود الذهبية المدلاة من خصلات شعرها وبذلك الروعة التى تكفى لكى تقتسل من الغضب الفنتين أو ثلاثا من منافساتها ، فأمام من سوف تتباهى بتفوقها ذلك (١) ؟

ولا تختلف الخدمة التى تحصل عليها المرأة ولا طريقة استحمامها عما قلناه بخصوص الرجال فيما عدا ان قطعة الصوف التى يدلك بها الجسم تكون أكثر نعومة لحد طيب وفيما انهن يستهلكن مقدرا كبيرا من الصابون . وتسرف سيدات الطبقة الراقية فى استهلاك العطور وماء الورد ، وهو ترف لا تقدر عليه الأخريات حتى أيام العرس والأفراح (٢) .

(١) لا يسمح للرجال كما سبق القول بدخول الحمامات التى بها نساء ، والرجال الوحيدون الذين يتمتعون بهذه الميزة هم الموسيقيون ويختارون من بين العميان المسنين ، ويمكن القول انهم يعطون المرأة تلك الفرصة الفريدة للاستماع الى اصوات الفكور .

(٢) يمكن ان يكلف ايجار الحمام بدون أثاثات من أى نوع مستعده فى اليوم الواحد من ٦٠ الى ١٨٠ بارة حسب موقع وجمال وفخامة المبنى ، ويلزم ١٠٠ خردة لأكثر الحمامات تواضعا ، ولتأثيث حمام بشكل لائق أى ليكون فى مستوى معظم حمامات المدينة فان ٢٠٠ — ٣٠٠ خردة تعتبر مبلغا كافيا ، وتبلغ بمصاريف الحمام المعد جيدا من ٨٠٠ — ١٠٠٠ خردة ، وتتكلف صيانة الأثاث فى اليوم الواحد ١٠ — ٤٠ مدينى ، ويتكلف اطعام الحيوانات المستخدمة ٢٠ مدينى (ويدخل ثمن شراء هذه الحيوانات ضمن المبلغ المقدر للتأثيث) ، وتجفيف الحمام ودفع أجور العاملين به يلزم بمبلغ ١٢٠ — ١٨٠ مدينى يوميا يحصل منها الحارس وحده على ٣٠ بارة . ولا يحصل خدم الحجرة الأولى على دخل ثابت ، فهم لا يتلقون أجرا الا ما يحصلونه من هبات الرواد ، أما القائمون بالخدمة فى الداخل فيحصلون على ٢/٣ أو ١/٢ أو ١/٣ ما يدفعه الرواد ، ويبلغ عدد خدم الحمام الواحد ١٢ — ١٣ خادما .

وفى منشأة من هذا النوع يبلغ عدد الوافدين ٥٠ — ٦٠ شخصا فى اليوم الواحد وأحيانا يزيد العدد عن ذلك . ويدفع عن الحمام الكامل كحد أقصى ٢٠ — ٣٠ بارة ، ويحصل العامة على حمامهم بسعر أقل ، فلا يدفعون أكثر من ٨ — ١٠ أو ١٥ بارة على الأكثر . ومما يعوض المتعهد عن ذلك زيارات الكبار وهم يدفعون بسخاء كما سبق القول . ويمكن أن نعم ما قلناه على كل الحمامات فى مصر اذ هى لا تختلف الا من حيث درجة فخامة المبنى ، لكن طئوس الحمام وتكاليفه تكاد تكون هى هى .

١٠

المقامى

تضم مدينة القاهرة حوالى ١٢٠٠ مقهى بخلاف مقاهى مصر القديمة وبولاق ، حيث تضم مصر القديمة ٥٠ مقهى اما بولاق فيبلغ تعداد مقاهيها المائة . وليست لهذه المباني اية علاقة بالمباني التى تحمل نفس الاسم فى فرنسا الا من حيث استهلاك البن على الرغم من أن هذا المشروب يعد ويشرب بطريقة مختلفة ، فليس فى هذه المباني أثاثات على الإطلاق وليس ثمة مرايا أو ديكورات داخلية أو خارجية ، فقط ثمة منصات (دكة) خشبية تشكل نوعا من المقاعد الدائرية بطول جدران المبنى ، وكذلك بعض الحصر من سعف النخيل ، أو أبسطة خشنة الذوق فى المقاهى الأكثر فخامة بالإضافة الى بنك خشبى عادى بالغ البساطة . تلك فقط هى اثاثات المقهى المصرية ، وهناك يضطجع المترددون على الحصر التى تغطى تلك المنصات الخشبية وتقدم القهوة مغلية فى فناجين يبلغ حجمها ثلث حجم ما نستخدمه نحن من فناجين ، ولا تشرب القهوة الا ملتبة لكنهم يرشفونها ، وتلك عادة شائعة فى الشرق تتطلب نوعا من التعود ، وتوضع الفناجين فى صحون صغيرة من النحاس ، تشبه الآنية المصنوعة من الخزف والتى نعرفها باسم ظرف البيض ويسمى بالعرب باسم : ظرف ، أما الفناجين فهى أحيانا من البورسلين وتستورد من ألمانيا ، أو هى فى الغالب من الخزف وتزينها عدة نقوش وهى تستورد كذلك من ألمانيا ، ويكاد يكون استخدام السكر فى صنع القهوة غير معروف . وعندما وصل الفرنسيون الى مصر ظل الاهلون لفترة طويلة يسخرون من عاداتهم وضع السكر فى البن . وفى نفس الوقت ، يحتفظ مدير كل مقهى بعدد كبير من النارجيلات مبسمها من العظم أو من الرخام أو الالبستر (الرخام الشفاف) بدلا من أن يكون بن الكهرمان الأصفر ويعدها للزبائن الذين يطلبونها ، وينبغى على كل مرئاد أن يحمل معه تبغه ، بل أن المعتادين على التدخين نادرا ما يسيرون دون نارجيلاتهم .

وتخضع مقاهى القاهرة للإشراف المباشر لرئيس يشترى لنفسه حق التزامها وتدفع له كل مقهى رسما صغيرا فى بداية السنة التركية «الهجرية» (أول المحرم) ويبلغ هذا الرسم ١٠ - ٤٠ مدينى وتعفى من دفعه المقاهى

الفقيرة . ويستطيع كل من يريد أن يبنى مقهى أن يفعل ذلك بمطلق حرية لكنه لا يستطيع مباشرة العمل فيها قبل الحصول على تفويض من المشرف على الحرفة ، اذ هو على نحو ما ملكف عادة بالادارة الداخلية والاشراف على هذه المنشآت ، كما أنه ملزم بتقديم مرتكبي المخالفات من أبناء هذه الحرفة الى العدالة ، وتوكل مهمة الاشراف هذه عادة الى اغا الانتكشارية (الكخيا المتولى) الذى يدفع حق هذا الالتزام الى السلطة .

ويتردد على المقهى الفخم ما بين مائتين الى مائتين وخمسين فردا فى اليوم الواحد ، ويتناول الفرد عادة ٢ - ٣ فناجين من القهوة فى مقابل ١١/٢ بارة للفنجان ، وثمة أناس - فقراء مع ذلك - يبلغ استهلاكهم فى اليوم الواحد ٢٠ فنجانا، لكن الاستهلاك المعتاد يبلغ من ٦ - ٧ فناجين ، ويكسب محير المقهى كثيرا اذا كان زبائنه من الاثرياء .

وثمة كثير من المقاهى يباع فيها الاميون وهو نوع من المعجون المخلوط بالأعشاب ، وتتخذ الطبقة الدنيا من الشعب من هذه العقاقير وسيلة للسكر والانتشاء ، ويعتاد عليه ثلثا عدد الحرفيين وكذا الأمر بالنسبة للفئات الأخرى من السكان ، كما أنهم يسكرون داخل بيوتهم بالرغم من أن الدين يحرم ذلك ، ويعتقل البوليس ويعاقب السكارى الذين يكون هذيانهم بالغ الصخب ، وغربا عدا ذلك لا يضايقهم أحد ويكونون بمثابة تسلية بهيجة للناس بسبب هذيانهم وحركاتهم المجنونة (١) .

ويوجد فى كل مقهى عدد من الرواة والمنشدین يحكون اويغنون حكاية

(١) لا يشبه السكر الناتج عن الاميون ذلك السكر الذى تحدثه الخور ، فعندما تتخذ حواس رجل ما بفعل الاميون فانه يبدو فى حالة شديدة من البهجة ويضحك بصوت عال ويكون هذيانه عادة مرحا ، وفى بعض الاحيان يفرق فى احلامه السعيدة وفى احيان أخرى يشرك معه الناس فى احلامه وسعادته . وقد يتخيل نفسه سلطانا أو شيخ بلد ، كما قد يظن نفسه احيانا متطيا صهوة حصان ويطلب من الآخرين أن يعاونوه فى وضع قدمه على الأرض .

واذا ما عارضه أحد فانه لا يفضب مطلقا وانما يصبح جبانا يفرغه اقل صوت . ونراه ينتقل من اشد حالات الابتهاج والمرح الى اشد حالات اليأس والحزن فيبكي ويعول ويسقط فى غيبوبة .

صحيحة أو وهمية عن شخصية خارقة ورد اسمها في النصوص الدينية أو التاريخ الاسلامى ، ويكون الالتقاء عادة حيا مليئا بالقوة والحيوية ، كما أن الأغنيات تمطىء بعبق النمر ووهجه ، وتكون نغمة الحكى مرتفعة اما نغمة الحوار فمتوسطة ، ويتوقف الراوى فى معظم الأحيان ليسال مستمعيه ما ان كانوا يشكون فى صحة حكاية او ما ان كانت الحكاية (فى مجملها) جميلة او خيرة ، ويزيد منشدو المقامى هؤلاء حكاياتهم حيوية عن طريق حركات بالغة التعبير ، ويصحبونها او يستقونها بموسيقى غريبة تصدر عن آلة موسيقية وترية . وهى مصنوعة من الجلد ويحك العازف بقوسه الشمرات المشدودة بالآلة والى تستخدم كأوتار فتصدر نغمات خشنة صماء ، ويدفع مدير المقهى فى بعض الأحيان لهؤلاء المنشدين ، لكنهم فى العادة لا يحصلون من أجر الا ما يدفعه الجمهور عن طيب خاطر . وتاريخ الاسكندرية وجنكيز خان هو الموضوع الذى يستوحى منه هؤلاء المنشدون العرب مادة اغنياتهم ويضيفون الى ذلك الوف الحكايات الرائعة بالاضافة الى قصص المعارك البطولية التى يفترونها من أحداث بلادهم .

ويستدعى المالك من الطبقة الحاكمة والمشهود لهم بالشجاعة هؤلاء المنشدين الى منازلهم ويكافئونهم بسخاء .

وفى المقامى الفخمة تسمع أحيانا الحان من تلك الألحان الشائعة فى مصر ، يؤديها بعض الفنانين الذين يحصلون على أجورهم من اصحاب المقامى ومن يتطوع من الزبائن . وفى هذه الحالة يستمع الرواد فى صمت ، بحيث لا تسمع صيحة ولا ضجة ، ويبدو الفنان وهو يؤدى أغنية غارقا فى حلم عميق وهذا واحد من الملامح المميزة للطبع الشرقى . وفى بعض الأحيان يتنافس شخصان أو عدد أكبر على دور شطرنج ويخيل اليك وأنت تشاهدهم مندجين فى اللعب أنهم بكم قد حرموا من نعمة الكلام ، ويتطلع المتفرجون دون أن ينبسوا بكلمة أو يهمسوا بفكرة ، ويمضى الأمر فى شكل تمثيل صامت (باثوميم) الا اذا جاء الى المقهى مخمورا أو فاقد وعيه ليعكر صفو هذا الهدوء ، وليدخل على اللاعبين ومشاهديهم البهجة بأفانين هذيانه (١) .

(١) قدما فى فقرة سابقة فكرة تربية عن المصاريف اللازمة لإدارة وتأثيث حمام عام ، ونفعل الآن نفس الشيء بالنسبة للمقهى علما بأننا قلنا

الرياضة والألعاب

تتنفق ألعاب الشرقيين مع حدة طباعهم ، ونستطيع ان نتعرف فيها على ذوق شعب مولع بالتفكير يعجبه ان يتأمل حتى وهو يمارس ضروب اللهو التى يهاواها : فالطاولة والضامة والشطرنج هى الألعاب التى يفضلها المصريون وهى كذلك الألعاب التى ينغمس فيها أبناء الطبقات الراقية على وجه الخصوص ، والتى يفضلها الشعب بصفة عامة على بقية الألعاب ، وتتمتع الشطرنج بشكل خاص بتفضيل الجميع . والناس هناك شديدي الولع بهذه اللعبة ، وليس من النادر أن ترى لاعبين متنافسين يقضيان فى الدور الواحد أياما بأكملها . ورقعة الشطرنج شأنها شأن الدمى شديدة البساطة ، ولا يعود ذلك الى أن المسلمين ينفرون من الصور والرسوم فحسب ، بل لأن صناعتهم فى نفس الوقت ليسوا شديدي المهارة كما أنهم لا يحصلون فى مقابلها على أجر يتناسب مع ما يبذلونه فى صنعها من جهد اذا ما عنوا بتجويد عملهم (١) . ورقع الشطرنج والضامة المصنوعة من الخشب الثمين لا يستخدمها الا الاثرياء وكبار القوم ، أما أبناء الطبقة

كلمة موجزة عنها فى الفصل الاول . يبلغ ثمن اثاثات أجمل مقهى بالقاهرة عندما لا يكون قد سبق استعماله ٤ خردة بينما لا يتجاوز ثمن اثاث المقهى المتواضعة ١ - ١٢ خردة = ٧ - ٨ حصرة ، ١٥ كنكة تهوة ، ١٥ فنجانا من الخزف ، عدد من الفناجين الصغيرة والظروف النحاسية التى يوضع فوقها الفنجان . تلك هى كل الأنية التى ينبغى شراؤها ، ويلزم زيادة على ذلك ٢٥ - ٣٠ بارة يوميا ثمنا للخشب ، ورطل من البن يبلغ ثمنه ٤ بارة ونفقة خادسين ومدير المقهى . وهذا كله شيء بالغ الضالة ، لذا فان حالة القهوجى بانسة جدا فى مصر ، وقد رأينا مقهى بكامل أثاثه تؤجر فى اليوم الواحد بمبلغ ٦ - ٧ بارات . ويتعمد المستأجر بصيانة الأثاث .

(١) ومع ذلك فقد رأينا فى مصر رقع شطرنج بالغة الفخامة ومصنوعة بشكل جيد لحد لا يمكن أن تصنع مثيلاتها فى أوربا بسهولة . وهى مصنوعة من العاج وخشب الأكاسيا ، وكل ما فيها منفذ بشكل بديع ، ورسوماتها بالغة الجمال حتى ليندهش المرء كيف لا يلقي مثل هذا الفن ما يستحقه من رعاية ، ولا يملك مثل هذه الرقع الجميلة الا الاثرياء وكبار القوم .

الشعبية فيستخدمون قطعة قماش خيطة فوتها مربعات من قماش الجوخ من ألوان مختلفة ، وتستخدم قطعة القماش هذه كرتعة للعب ثم كطبة توضع فيها الدمي بعد انتهاء اللعب .

وثمة ألعاب مهارة أخرى تتطلب شيئا من التأمل ، وتنتشر هناك لعبة المنقلة ، ويلعبها اثنان مع كل منهما لوحان حفرت فيهما ستة ثقوب ، ويضع اللاعبان في كل ثقب من هذه الثقوب ست قطع من الحجارة أو مثلها من الزلط ، ثم هناك تلك اللعبة التي يطلق عليها العرب اسم طاب والتي تحدث عنها كثيرا العلامة Th. Hyde وهي بدورها منتشرة بين الشرقيين . وتلعب بواسطة دمي مختلفة الألوان عددها في سوريا ٢١ وفي مصر ١٩ أو ١٧ لكن عددها على الدوام فردى ، وتوضع في الصف الخارجى عند بدء الدور . وقد شاهدنا هذه اللعبة عند بعض المارونيين في القاهرة . كان ثمة رتعة بها أربعة صفوف في كل صف ٢١ مربعا ، ويسك كل لاعب بأربع من العصي الصغيرة والمسطحة : سوداء من جانب وببضاء من الجانب الآخر . وعندما تتم اللعبة في الهواء الطلق تلقى هذه العصي على سكين مفروسة في الأرض ، وعلى مسلة مرشوقة في كبة عندما يلعبها تاجران داخل متجرهما، وعند بدء اللعب يختار أحدهما اللعب عن اليمين ويختار الآخر اللعب عن اليسار بهدف أن تتقابل الدمي . وعندما يحصل الأول على طاب أو ثلاثة أبيض وواحد أسود (١) يترك قطعة من قطعه الموجودة بالربع الأول من صفه الى المربع الأول من الصف الثانى من جهته . فإذا لم يحصل على طاب يحل الدور على الثانى وهكذا حتى يحصل أحدهما على طاب، ولا يمكن تحريك أية قطعة من الصف الخارجى لأول مرة الا بعد حصول صاحبها على طاب . وهذا بيان بالنوبات الأخرى : دق اثنان : اى اثنان أبيض واثنان أسود ، وفي هذه المرة تحرك القطعة التي سبق تحريكها في الطاب الأول لمربعين ، دق ثلاثة اى ثلاثة أسود وواحد أبيض وفي هذه المرة يمكن تحريك الدمية لثلاثة مربعات ، أربعة أسود وبمدها تتحرك الدمية أربعة مربعات، ستة أو أربعة أبيض وتكسب ستة مربعات ، واللاعب الذى يحصل على

(١) يقول Th. Hyde ثلاثة أسود وواحد أبيض ، اذن فأخذنا قد فهم الامر على نحو خاطئ أو لعل قواعد اللعبة هي التي تتغير تبعا للبلاد التي تنتشر فيها .

طاب أربعة أو ستة يستمر في اللعب ويحرك دماه ، واللاعب الذى ينفذ دماه كلها في الصف الثانى يتدرج بها في الصف الثالث ، وهكذا بالتبادل بين هذا وذاك حتى يتخلص أحدهما من دماه .

ويلعب الأتراك والعرب أيضا لعبة بالزوج والفرد . وقد شاهدنا في القاهرة بعض المسيحيين من أهل البلاد يثبتون على الأرض قطعة من الفضة ويحاولون لمسها بكرة صغيرة ، وثمة قاعدة تنظم الحالات التى تتقبل فيها كرات اللاعبين ، لكننا للأسف قد أهملنا تدوين القواعد التى تنظم هذه الألعاب ولعل الكثير من قرائنا سوف يغفرون لنا عن طيب خاطر هذا التقصير من جانبنا .

وركوب الخيل هو الرياضة المفضلة عند العثمانيين وكبار الأتراك . وهم في هذه اللعبة ينمون بالدرجة الأولى مهارتهم الحربية ، إذ يتجمع كبار الشخصيات في القاهرة مرتين في الأسبوع في ميدان واسع يسمى المصطبة . ويصبحون معهم أعدادا كبيرة من العبيد والخدم ، وكلهم يركبون الخيل مثل سائتهم ويتدربون على الجريد ، فينتسمون الى فريقين يحمل كل منهما على الآخر بأقصى سرعة ، وكل واحد مسلح بعضا من الجريد طولها أربعة أقدام ومتوسطة السمك ، ويقذف بها منافسه افتقا وبقوة شديدة ، وثمة فرسان يبدون في تدريبهم هذا من القوة والحيوية حذا يمكن معه لتقنياتهم تلك أن تكسر — فيما لو أصابت — عظم غريمه ، والمهارة هنا هى أن يتفادى الغريم عصا غريمه أو أن يلقاها باليد ، وقد عرفت واحدا من الكبار انكسرت ساقه في شبابه بهذه الطريقة . أما أولئك الذين يفضلون التدريب على إطلاق النار فيضمون أصيضا (بردك) فوق كومة من الرمل ، ويصوبون عليها بالبنادق وهم يجرون فوق خيولهم بأقصى سرعة . وهم يستخدمون في هذا التدريب السهم بالرغم من أنه لا تنقصهم البنادق ، ولا يلجأ الرماة لتلك الوسيلة الا لأجادة التصويب ، ذلك أن الهواء الذى يجذبهم بشدة عندما يجرون بأقصى سرعتهم سوف يمنع وصول الشرارة الى الرصاصة فلا تنطلق ، بينما لا يوجد مثل هذا العيب عند التدريب بالسهم . ويتسلى السادة أيضا بجذب الأقواس ، وتشاهد في الميادين عمد صغيرة نصبت تكريبا لأولئك الذين اظهروا في التدريب قدرة خارقة للمادة .

وعندما يبلغ ارتفاع النيل حدا معيناً ينتزه الكبار في قواربهم الفخمة ، ويمارسون التجديف في بركة النيل والأزيكية ، وهناك يطلقون بنادق الرش ويصحبون معهم موسيقيين ليسروا عنهم اثناء نزحاتهم النيلية .

ويتدرب عامة الناس أيضاً ، وهم في هذا يقلدون الكبار ، فيفعلون على نطاق ضيق ما يفعله هؤلاء على نطاق واسع ، فقد شاهدنا على سبيل المثال خدم الشخصيات الكبيرة في القاهرة يتدربون على قذف عصا طولها ٥ - ٦ اقدام في اتجاه افقى ، وهم بهذا يهيئون انفسهم لتدريب الجريد الذى سبق ان تحدثنا عنه ، وكانوا يمارسون تدريبهم وهم يجرون على اقدامهم حتى يكونوا اكثر مهارة عندما يحين وقت الرمى من فوق ظهر الحصان . ويتبارز اهالى المدن وكذا الفلاحون بعضى كبيرة مع مراعاة قواعد معينة ، وقد جرت العادة ان يقوم المتبارز في بداية اللعب بحركات معينة هى بالتأكيد نوع من التحية ، يحاول بعدها كل من المتبارزين ان يضرب غريمه في راسه ، وهى العضو الوحيد في الجسم الذى ينبغى استهدافه . وتتجلى المهارة في تفادى الضربة ، وهذه المباراة تشبه فن لاعبى العصا المشهورين في نورمانديا وبريتانى . وثمة مصارعون مصريون يمسكون بعصا في يدهم اليمنى وحشية صغيرة في يدهم اليسرى ، ويوجهون الضربات الى الذراعين فقط ، ويسمى هذا التدريب « لعب الكب » . وقد شاهدنا كذلك في شوارع القاهرة مصارعين لا يرتدون من الملابس سوى سروال بالغ الضيق وكل جسمهم مدهون بالزيت ، ويتناسك هؤلاء المتصارعون ويحاولون ان يطرحوا بعضهم البعض ارضا ، لكن حركاتهم تنقصها القوة والحيوية والمهارة . وبعد دقائق طويلة يحدثون فيها بضع حركات نسميها تجاوزا مجهودات ، يدع احد المتصارعين نفسه ليسقط وتنتهى بذلك المصارعة . وامثال هؤلاء المصارعين لا يمكن لهم ان يتجاسروا على عرض مهارتهم تلك في فارس ، حيث يبرع المصارعون هناك في مثل هذه التدريبات الجسدية ، لكنهم يلفتون النظر ، في مصر ، وبرغم كل شيء ، فليس ثمة في بقية ولايات السلطان من هم اكثر من هؤلاء مهارة .

الاعیاد الدينية ، المبادئ الرئيسية للعقيدة الإسلامية

ترتبط اعیاد المسلمين بمناسبات دينية : وفي مصر ، يحرص الناس . . على الاحتفال بعيد لا يتصل بالمعتقدات الدينية هو عيد فتح الخليج في القاهرة ، او عيد وفاء النيل ، وهو عيد وطنی ، يعود الى ازمئة ضلرية في القدم . اما بقية الاعیاد فتتوالى بالترتيب التالي :

- شهر محرم : عودة المحمل من مكة .
- شرحه (كذا) : عيد مولد النبي .
- الشهور التي تلى ذلك : احتفالات متوالية بمولد الاولياء .
- آخر ايام شعبان : ليلة اول رمضان ويطن في هذا العيد بدا المصيلم لمدة شهر تمرى له نفس الاسم (رمضان) .
- آخر ايام رمضان : عيد كبير يستمر ثلاثة ايام .
- ٢٧ شوال : سفر المحمل .
- ١٠ ذو الحجة : العيد الكبير ويتفق مع وصول الحجاج الى مكة .

ويتصدر احتفال عيد الخليج الباشا وكبار شخصيات الحكومة ، مثل شيخ البلد والقاضى والدفتردار او مستشار الحكومة وكخيا الجلوشية ، وفرقة الاتكشارية والكشاف وكل كبار الشخصيات ، وعند الصباح يصل الباشا مع اهل بيته اى مع فباطه ورجاله ، ويصل البكوات مع مماليكهم ، ويصحبهم جمهور كبير من الموسيقيين ويحتلون جزءا من الميدان ، بينما تكون القوارب تغطى سطح الترفة ، وتمتاز قوارب السيدات بفخامتها وبهوانجها التي تغلق عليهن بدافع الغيرة ، ويخلع الباشا جبة على كل من الاغا وبقية كبار الضباط ثم يعطى الاشارة ، وعندئذ يقوم عمال معدون لهذا الغرض برمي تمثال او عمود طينى في النيل وسط ضجيج الهتافات والالات الموسيقية، ثم يقطع السد وتتدفق مياه النيل على الفور في شوارع المدينة لتصبح ائشبه

بالبحيرات وقبل أن ينسحب الباشا يلقي في النهر بقبضة من العملات الذهبية والفضية يتسابق الى الفوز بها غواصون مهرة ، وينقضى ما يتبقى من النهار في امراح ومسررات تستمر حتى الليلة التالية . ولهذا الاستبشار والابتهاج العام ما يبرره ، حيث أن الفيضان هو ضمان الازدهار للجميع . فعندما يحل الفيضان يبدأ الناس يأملون في محصول وغير بل يمكن القول بأنهم قد بدأوا يحلمون بما يعدمهم به من منافع (١) .

وفي أيام العيد يقوم الممثلون المهرجون الذى يعرفون باسم البهلوانات بامتاع الجماهير بحركاتهم ودعاباتهم . ويمكن القول بأن ضروب اللهو لهذا الشعب تتجلى في العروض الهزلية بل والمرجلة الى حد ما والتي يعرضها في الشوارع مهرجون متجولون كما انها تتجلى في المقالب التي يعرضها بعض الحواة المهرة الى حد ما في فئهم . وقد شاهدنا في شوارع القاهرة عدة مرات رجالا يلعبون العرائس . ويلقى هذا العرض الصغير اقبالا كبيرا ، والمسرح الذى يستخدم لذلك الغرض بالغ البساطة وبالغ الصغر . ويستطيع شخص واحد بمفرده أن يحمله بسهولة . ويقف الممثل في المربع الخشبي الذى يده بطريقة تمكنه من رؤية خشبة العرض والمتفرجون من خلال فتحات صنعت لهذا الغرض دون أن يراه أحد ، ويمرر دماه عن طريق فتحات أخرى لجعلها تؤدي الحركات التي يريدتها عن طريق خيوط يحركها على هواه ، وحيث أنه ليس من المناسب أن تصدر هذه الدمى أصواتا تماثل قوة صوته هو ، فانه يجعل صوته الطبيعي حادا ، ويتم ذلك بواسطة أداة صغيرة يضمها في فمه ويجعله بالغ الرقة ومصحوبا بأنغام الناي وقت الحوار الذى يديره على السنة هذه الدمى الصغيرة ، ويمضى الأمر على ما يرام اذا لم تكن التمثيلية معيبة ، وتبدأ الدمى عادة بتهنئة بعضها البعض ثم يتشاجران بعد ذلك وتنتهى تلك التمثيلية الهزلية عادة بالشجار وفي الواقع فان عددا كبيرا من المشاهدين يهوى هذا النوع من ضروب الترفيه ، ويضطر البهلوان لأن يجاريهم في ذلك .

(١) تسمى الدمية التي تلقى في النيل عروسة أى الزوجة الجديدة . ويعتقد أن هذه العادة تعود الى ديانة قدماء المصريين الذين كانوا يخصصون فيها يقال عذراء شابة ليلقوا بها في النهر ، حسبما يقول كثير من مؤرخى مصر القديمة .

وقد رأينا واحدا من الحواة يجوب شوارع القاهرة ومعه مسنبور متقطع أى تسيل المياه منه ثم تنقطع فجأة لتسيل لبعض لحظات . ويطلب الحاوى من مسنبوره — حسب حالته الميكانيكية التى يعرفها جيدا — أن يتدفق بالمياه أو أن يتوقف ، لكن الناس تنطلى عليهم الخدعة ويصفقون لتلك المهارة المزعومة ويكافئونه بأعطائه قطع النقود ، ويلقى آخر بحفنة من التراب فى اناء ملىء بالماء ثم يسترد التراب جانبا من الاناء .

ويمسك ثالث بكأس له قاعان يغلطهما غطاءان ، ويمد أن يتحدث الى جمهوره طويلا وبعد كثير من المداعبات والتهريج ينفخ فى توتعة كبيرة ، ثم يرفع غطاء أحد القاعين ليظهر بيضة ، ثم يواصل مداعباته وهزلياته ثم يكشف عن القاع الآخر للكأس ليظهر كتكوتان يظنهما الجمهور بديلا عن البيضة الترم راوها فى البداية ، ويلقى مشعوذ رابع بقفل مغلق فى وجه طفل فيمنفتح القفل ويمسك بخد الطفل من الداخل والخارج . وهؤلاء المشعوذون يرفعون عن الشعب ويدفع لهم جمهورهم مبالغ شديدة التواضع ، وهم لا يطلبون من جمهورهم الدفع مقدما ، وعندما تنتهى اللعبة يدفع من يشاء على قدر ما يشاء .

وفى شهر رمضان ، وهو فى وقت معا وقت سفر المحمل ووقت منيلام الأتراك (المسلمين) يسرى أهالى القاهرة كثيرا عن أنفسهم وبخاصة فى الليل . وينام الأغنياء نهلا حيث لا يسمح الدين بالأكل طالما لا تزال الشمس فى الأفق ، ويتناولون طعامهم عند قدوم الليل . ومع ذلك فانه يرى بالميادين اثناء النهار ، وبخاصة فى ميدان الرملية ، فى سفح القلعة ، جمهور من الحواة يشبهون أولئك الذين تحدثنا عنهم .

ويشاهد فى مصر كذلك اشخاص ليست لهم من مهنة او وسيلة لكسب العيش الا عرض القروود والحيوانات التى تمتاز بالفكاهة ودفعها لتقديم العاب لتسلية العامة . وثمة آخرون ، أكثر حيلة ، يعرضون الثعابين ويجعلونها ترقص على نفحات تعزف على آلة ما (١) وقد يبدو هذا الأمر بالغ الغرابة

(١) كتبنا فى مكان آخر من هذا المؤلف فترة عن سحرة الانعامى المحدثين وهم امتداد للسحرة القدماء ، وانظر كذلك نبذة عن مدينة رشيد ، تأليف جولوا ، ص ٣٥٤ . (المجلد الثالث من الطبعة العربية - المترجم) .

لأن لا يعرف حب الزواحف بشكل عام للموسيقى بحيث يرفعون رأسهم والجزء الأمامي من جسمهم عند سماع صوت المزمار ، وهذه الحركات هي التي تشكل رقصة الثعابين ، ومن السهل كذلك دفع القروء للرقص فهي من نوع في اليمن ويجلبها العربان من هناك حيث هي أكثر وداعة من بقية اصناف القروء ويقومون بتربيتها .

ولابد في النهاية من كلمة عن الممثلين الهزليين وعن بعض العروض التمثيلية في مصر ، ونحن لا يخالفنا الشك في وجود ممثلين حقيقيين في مصر مع وجود تمثيلات تتبع كافة قواعد التمثيلات . وقد شاهدنا فرقة من الممثلين الهزليين في القاهرة تتألف من مسلمين ويهود ومسيحيين ، ويدل مظهرهم على أنهم لا يصادفون حظهم في هذه البلاد، وهم يستخدمون فناء بيتهم كمسرح وثمة سائر يحجب خلفه ملابسهم ، ويذهب لمشاهدة هذه الفرقة كثير من الأوروبيين الذين أتوا في مصر منذ عدة سنوات دون أن يشاهدوا أية عروض مسرحية ، كما تستدعى هذه الفرقة الى بيوت التجار الإيطاليين وتقدم عرضها في حجرة أعدت لهذا الغرض ، ومع ذلك فلم نجد في هذا العرض ما يرضينا : لا الموسيقى ولا أداء الممثلين ، بالإضافة الى أننا لا نعرف من العربية ما يكفى لكي نفهمهم جيدا ، كما أننا وجدنا أن ليس ثمة ما يدعو لعناء أن يترجم لنا معنى التمثيلية ، فقد كان كل شيء رديئا وعاريا من الذوق كما كان الأداء متكلفا ، وكان الأمر يدور حول امرأة عربية تستدرج المسافرين الى خيمتها لتسرقهم وتسيء معاملتهم ثم تطلق سراهم ، وعندما كانت المرأة قد تمكنت من سرقة كثيرين وتهيأت لتفعل الشيء نفسه مع آخرين ... عبر أحد التجار — من النظارة بصوت عال عن القرف الذي يسببه له العرض ، وحتى لا يبدو الآخرون أقل رهافة حس منه فقد سارعوا بايقاف العرض ، بينما لم يكن الممثلون قد وصلوا بعد الى نصف التمثيلية .

كان ينبغي أن نتكلم هنا كذلك عن العوالم اللائي سبق لنا ان تحدثنا عنهن ، ولكن حيث أن هؤلاء النسوة كثيرات في القاهرة ، وحيث انهن يشكلن على نحو ما طائفة حرفية فيسوف نتحدث عنهن في الفصل المخصص للحرف .

الفصل الرابع

الإنسان المصّر في طور الشيخوخة الموت
والجنازات

١

عن احترام الشيخوخة

قد لا يكون من المناسب أن نبحث عن ممارسة الفضائل الطبيعية عند الشعوب المتحضرة حيث تتوافق الانثائية والمصالح ، أبناء الحضارة الشرعيين ، مع أضواء المعرفة اذا صح القول . ذلك ان أئق المعارف عند الشعوب كلها اتسع كلها ابتعدت هذه الشعوب عن حياة الطبيعة ، ولا ينبغي أن نمضى بهذه الفكرة لحد أبعد من ذلك ، ومع أننا لا نفتوى هنا أن نعقد مقارنة متمسفة ، إلا أنه ينبغي علينا القول بأن الشرقيين وان كانوا قد اهلوا تعلم العلوم والآداب ، إلا أنهم قد استطاعوا على الأقل أن يحتفظوا ببعض آثار من العادات والفضائل البدائية . والا ، فهل ثمة عند أمم الشرق ما يستوجب المديح أكثر من ذلك الاحترام العميق الذي يكونه نحو الشيخوخة ؟ ويتميز المصري على وجه الخصوص بهذا الشعور النبيل ، ولقد حض عليه محمد في تعاليمه لحد وجد من الضروري أن يجعل من ذلك مبدأ دينيا ومحنيا في وقت مما ، وحتى اليوم ، فان شيئا لم يستطع أن ينال من قوة هذا المطلب الذي حثه المشرع ، كما أن الوضع الحالي للتقاليد سوف يهبط لهذا الأمر فرصة لبقاء أطول . وفي مقابل ذلك ، فان المفكر يستطيع أن ينمى على الشعوب الأوربية — التي تطورت صناعاتها وممارستها لحد مذهب — هذه اللامبالاة الشديدة نحو الشيخوخة ، في الوقت الذي تعمل في مجتمعاتهم قوانين تنطق بالحكمة وتشهد بالعبقريّة والاحساس العظيم لواجبها ، وكذا بتلك الدرجة الكبيرة من التحضر التي وصل اليها أولئك الذين شرعت من أجلهم هذه القوانين ، لكن المرء ليدعش حقا عندما لا يجد في مجموعة القوانين هذه فصلا مخصصا للواجبات التي ينبغي مراعاتها نحو كبار السن . ونستعير هنا ، حول هذا الموضوع ، بعض الأفكار التي وردت على لسان مؤلف كتاب رسائل عن مصر : *Lettres sur l'Egypte* الذي انتقدنا بمرارة وأحيانا بتحامل صرخ ، وترسم

أقواله بدقة ذلك الفرق الكائن بين أفكار وعادات شعوب الشرق ، وبين مثيلاتها عند شعوب الغرب بخصوص الشيخوخة :

« ان الشيخوخة عند كل الشعوب المتحضرة ، حيث يعيش الانسان وسط عائلته فترة أقل ، لا تلقى من الاحترام نفس ما تلقاه في مصر ، بل انها تكاد تكون في معظم الأحيان نقيضه ، حيث ينبغى على الملتحى ذى الشعر البياض ان يصمت أمام غرور الشباب ومباهاته ، وان يلعب دور طفل حتى يمكن تحمله في داخل نطاق العائلة ، فما أن يحس الانسان عندنا بأن سنوات العمر قد بدأت تثقل كاهله ، وبأن مباهج حياته تتضاؤل ، حتى يرى نفسه وقد أصبح عبئا ثقيلا على أولئك الذين يدينون بوجودهم له . وعندما يصبح في حاجة الى المواساة والسلوى يرى نفسه وقد أنكر عليه حق الرعاية وأغلقت دونه القلوب ، عندئذ تزحف الى جسده برودة قاتلة وترتجف من برودة الوحدة روحه دون أن يجد من حب زوجه وحنانها ما يبعث بالدفع اليه ، في مثل هذه الأم يموت المعجوز — وهو الذى كان من قبل والدا عطوفا — قبل وقت طويل من نزوله الى ظلمات القبر .

فلنخلع اذن النقاب عن وضع ليس عاما لحسن الحظ ، فتلك المشاهد المؤثرة التى كنت اراها كل يوم في هذا البلد (مصر) قد اضطررتنى ان اتقدم لكم هذا النقيض المقابل ، فهنا (في مصر) ، يبتسم المعجوز الذى تلبس لحيته صدره وهو يلتقى الاحترام ، يبتسم — برغم وطأة وضعف هذه الشيخوخة — لأحفاده وهم يأتون لداعبته ، وينشرح صدره وهو يرى أربعة أجيال تهرع اليه لتقدم اليه ما تفرضه عليها الشفقة الحنون ، فيتذوق بذلك بهجة الحياة حتى آخر لحظة من لحظات عمره (١) .

وفي واقع الأمر فان الأوروبيين لا يمكنهم ان يرضوا عن انفسهم بثقة وأعجاب عندما يرون هذا الاحترام الذى يبلغ مرتبة التقديس والذى توليه الأمم الاسلامية لكبار السن ، فهؤلاء الناس الذين نطلق عليهم ذلك النعت المقزز المرعب : المتوحشون والبرابرة ، يقدمون لنا في هذا الخصوص مثلا يجدر بالاحتذاء ، على أجمل الفضائل في حين انها قل ان تنال اهتمامنا مع انها تستحق كل اجلال . اما هنا في مصر فكم يعرف الشيوخ ما سوف يلقون

من محبة الشباب وعواطفهم ! لذا فانهم هناك لا يلجأون لتلك الحيل التي لا جدوى منها لتفادي ما تعدده لهم الايام — حيث هم شيوخ — من اهتلت ، انهم على العكس من ذلك يتباهون بخطوط السن التي تفضن وجوههم ، ولحياتهم البيضاء سببا للاحترام المهيّب ، وملابسهم تتسق مع كرامة ووقار عمرهم ، وكل شيء فيهم يفسح عن المهابة والاهمية ، فاذا تكلموا اُنصت الجميع لما يقولون في احترام شديد ، وليست اقوالهم بالاقوال الباطلة الثاقبة ، ولا هم يستشعرون مطلقا تلك المرارة التي تقطر بها عادة سنوات العجز والشيخوخة . انهم يتركون الحياة بلا ألم ، بل انهم لا يكلون يشعرون بذلك على الاطلاق . فبقدر ما يزيد تربهم من تلك النهاية المحتومة بقدر ما تتضاعف عناية ذويهم بهم ، فلا يعانون من الألم الذي تسببه رؤية أبناء عاقين يتشوقون لساعتهم الأخيرة حتى يقتسموا « أسلاب » تركتهم فمثل هذا النهم البشع لا تعرفه مطلقا أمم الشرق . ومهما كان هؤلاء الاولاد غاسدين فانهم على الدوام يجدون الدموع التي يذرفونها بغزارة على مقبرة أبيهم ، بل انهم ليقبلون عن طيب خاطر القيام بأية تضحيات مهما عظمت لو كان في ذلك ما يبد آياها ثبينة في عمر آبائهم . ولهذا السبب ، فجريمة قتل الوالدين ، تلك الجريمة البشعة التي يثير مجرد اسمها الهلع في القلوب ، والتي لم يقرر بشأنها المشرعون القدامى أى جزاء ، كما لو كان من المستحيل عليهم أن يتخيلوا أن تقدم كائنات وهبها الله نعمة العقل أن ترتكبها على الاطلاق (١) ، مثل هذه الجريمة البشعة ، لم تعرفها مصر ، بل كل الولايات التركية ، على الاطلاق .

والشيخ العجوز هو الحكم الطبيعي الذي يفصل في المنازعات الصغيرة التي تنشأ بين أفراد أسرته ، وما يقضى به ، حكم تلتزم به كافة الأطراف بلا تردد ، كما لو أنها حكمة مقدسة تلك التي جاءت على لسانه .

ويترجم العرب كلمة Vieillard (مسن — عجوز) بكلمة : شيخ ، وهو لقب شرف يوحى بمعنى التشريف والسيادة (٢) ، فالشيوخ هم الذين

(١) نذكر في هذا الصدد أن سولون قد أهمل من قانونه بخصوص قتل الوالدين إذ كان ينظر لهذه الجريمة باعتبارها أمرا مستحيلا . انظر : Plutarque

(٢) بل ان كلمة Seigneur « سيد — شريف » تشتق من الكلمة اللاتينية Senior وهي تساوى كلمة شيخ . وفي كل العصور نجد أن فكرة الشيخوخة تحمل معها فكرة الاحترام والسيطرة .

يحكمون القبائل ويمارسون على النفوس سطوة تماثل سلطة الحكام ، والكلمة الأولى في كل العائلات المصرية للأب الأكبر سنا ، وهو الذى يتقدم الاحتفالات العامة ، وله مركز الصدارة في المجالس ، ويقف الناس جميعا عند قدميه ، وتوجه اليه على الدوام علامات الاحترام والتقدير ، وأمامه يتحفظ الشباب وينضبط وهو الجوج بطبعه ، وينصت بشغف الى ما يقصونه من حكايات ويجد في احاديثهم ما يرضيه ، بل اننا نكاد نصل لحد الاعتقاد بأن هذا التواصل الحر غير المتكلف للتجربة ، يساهم أكثر من أى شئ آخر في اصفاء الوقار على طباع الرجل الشرقى منذ نعومة اظفاره ، وهو الوقار الذى لا يتكون عند أبناء الشعوب الأخرى الا فى سن متأخرة ، ويفعل تقدم العمر .

و فضلا عن ذلك فان الشرق - الذى نتفق على انه مهد الحضارات - كان مسرحا للتقاليد الأبوية القديمة ، ففى هذه المنطقة من العالم تستمر التقاليد وقتا أطول من غيرها ، حتى اننا ما زلنا نجدهم يعيشون بكل بساطتهم التى كانت لهم وهم يعيشون تحت الخيام ، وثمة تقاليد عديدة تعود الى عصور متأخرة للغاية ، لكنها ما تزال مستمرة داخل العائلات ، وعندما استولى العرب على آسيا نشروا فيها مع معتقداتهم الدينية تلك العادات الاجتماعية التى لأبائهم . وحيث ان احترام الشيخوخة بالغ القدم بالفعل فى مصر كما تشهد بذلك نصوص عديدة من الكتابات ، المقدسة ، فان هذا التقليد قد ازداد صرامة بفعل سطوة التقاليد العربية ، حيث الصولجان معنود للسلطة الأبوية التى يبدو ان طبيعة الحياة نفسها تهيئه لها ، وهو نفس ما كان يحدث فى مصر القديمة عندما كانت ما تزال مزدهرة (١) .

اما السبب الذى ظلت بفضل هذه الفضيلة الحميدة بعيدة عن أى تغيير ، فهو أن الشعوب التى تمارسها لا تعاني من ذلك الفساد الروحى والأخلاقى الذى تعاني منه عادة المجتمعات الكبيرة ، وتجد سعادتها فى المباحج الطبيعية ، ونادرا ما تبحث عن هذه المباحج بعيدا عن وقائع حياتها الداخلية . ولأن

(١) لم يكن يتفق مع المصريين من الاغريق بخصوص احترام الصفار لكبار السن الا أهالى لاسيديمونيا ، فاذا ما قابل شاب عجوزا فانه يدع العجوز يسبقه وإذا ما قدم إلى مكان به بعض الشبان فانهم ينهضون . انظر هيرودت ج ٢ ، الفقرة ٨ ، ترجمة Larcnet طبعة ١٧٨٦

أبناء هذه الشعوب كذلك سعداء في جهالتهم حيث هم محرومون من الميزات التي تهيئها المدينة عادة ، فانهم كذلك بمعيدون عن المساوىء التي تجرّها المدنية معها . وإذا كانت أوربا هي وطن الفنون ومسرّح ملذات الشبلب ومغامراته ، فإن الشرق — ومصر بوجه خاص — هو على نحو ما ، جنة للشيوخ .

٢

الجنائزات

يكن المصريون المحدثون — شأنهم في ذلك شأن أسلافهم القدامى — احتراماً خاصاً للموت ، وتصحب الجنائز باحتفال كبير وإن كان الأمر يتم بشكل مغاير لما كان يحدث في الماضي ، إذ لم تعد تحفظ أجسام الموتى، لكنها — على الأقل — تودع في احترام كبير في القبر ، مثواها الأخير . ويبدى أهل المتوفى واصدقاؤه إمارات على حزنهم ، ويجهز الموتى بشيء من الأبهة ، كما أن احترام المقابر واحد من المبادئ الإسلامية التي لا يمكن خرقها (١) .

وليس ثمة ما يستطيع أن يصور ألم أسرة حرّما الموت من عضو عزيز منها . ففي الأيام الأولى بعد الموت ، يكون ياس مرعب ثم يأخذ شيئاً فشيئاً ملمحاً أقل جزعاً . وتستسلم السيدات تلقائياً لأحزانهن الشديدة فيملأن الجو بالحويل ويتركن البيت الذي اختطف منه الموت واحداً من الأهل، أو الابن أو الزوج ليعلن للجيران وللسارة عن طريق صرخاتهن المدوية ، المثيرة للحزن الشديد ، بأنهن قد أصبن بخسارة لا تعوض . ويهرع الناس نحو المرأة المكومة ويحاولون تهدئة اضطرابها ، بينما هي في أحزانها وجزعها تنزع شعرها وتضرب بقوة صدرها فيصحبونها إلى المنزل الذي حل به الموت ويدخلون معها، وتتجمع كثرات حول الميت: تحرك بعضهن ساقيه أو ذراعيه ، وتضع أخريات أيديهن فوق قلبه ليتأكدن أنه ليست هناك

(١) يقسم المصريون عادة بقبر آبائهم ومن الشائع هناك أن تسميهم يقولون : بقرية الوالد ، بقرية أمي .

علامة أو نبضة تدل على الحياة ، وبعد ذلك يذهبن لابلاغ شيخ الجامع الذى يعد على الفور بعض النائحات المأجورات (الندابات) ، وهؤلاء النسوة مدربات على الاجهاش بالبكاء والمويل وعلى القاء المرائى المؤثرة ، وعلى اطلاق صيحات لها ايقاع حزين ، ويستدعين فى رثائهن اهل المتوفى واصدقاءه، وينشدن اناشيد تقال فى هذه المناسبات بنغمة بكائية ، وقد يكون ما يقال كلمات عادية شائعة مما يؤدى لحدوث مفارقة بين ما يقال وبين النغمة التى يلفظ بها، وإذا كان المتوفى ثريا، تقيم الندابات وسط عائلته فترة طويلة اما اذا كان غير ذلك فانهن يرحلن بعد عدة ايام ، بل وفى بعض الأحيان ينصرفن مباشرة بعد اتسام الدفن .

والرجال عادة اكثر ثباتا فى هذه الظروف المؤسفة ، فأنهم صامت ، يمارسون خلاله تعذيبا للنفس تكاد تظنهم يستعذبونه ، ومهما كانت المرارة التى تنعم قلوبهم ، فهم يجاهدون أن يكتنموه ، ويساهم جمود ملامحهم بالاضافة الى ايمانهم العميق بالقضاء والقدر ، فى جعل هذه المرارة رازحة ، ومع ذلك فهم يهجرون لعدة ايام مجتمع اصدقائهم ، فليست احزانهم برغم وقارها اقل حدة . وهناك عادة أن يقوم الناس من أعضاء الأسرة المكلمة — فى بعض الأحيان — بصبغ ايديهم بالنيلة كما يمتنعون عن الاغتسال المعتاد طالما ظلت الصباغة فى ايديهم ، كما لا تكف النساء بالمثل عن البكاء الا اذا اختفت هذه انصبغة تماما .

ويتم الدفن بعد فترة قصيرة من اسلام المتوفى للروح اذ ينتقل الى المقابر فى ظرف ٥ — ٦ ساعات من موته الا اذا كان ثمة دواع تبعث على الشك فى أننا بصدد حالة استغراق فى النوم نتيجة لفقدان شديد للوعى ، فهذه العادة — عادة الدفن السريع — التى تنقصها الحيطة تتسبب فى بعض الحالات فى حدوث جرائم غير مقصودة ، فمن الممكن لنا أن نفترض فى بلد كهذا لا يزال فيه الدواء شبه مجهول ، بأنهم قد يعتبرون موتا حقيقيا ما هو ليس بالكثير من غيبوبة حدثت بسبب هبوط فى بعض وظائف الجسم . ولهذا فمن الممكن أن تقع بعض المساوئ نتيجة لهذه المعجلة الشديدة فى اجراءات الدفن . فما أن يموت احدهم حتى يرسل فى احضار الرجال أو النساء ، حسب الجنس ، الذين يحترفون غسل الموتى ، ويقوم هؤلاء باخطار بيت المال ، ويطلبون الاذن بالانتقال الى البيت الذى به الجثة ، ويسجونها على طاولة وينظفونها فى عناية فائقة ، ويغطون فى حضرة اقرب الاهل الاعضاء

الجنسية للمتوفى ، ويلفونه بعد ذلك بقمائش أبيض غير مخيط ، وإذا كان الميت واحداً من العامة فانه يكن بأحسن ملابسه حالا ، لكن المسلمين المتتورين يدينون هذه العادة باعتبارها عادةً سخيطة ومضحكة . وتوضع الجثة فى تابوت عمومى لا غطاء له ويفطى بقمائش مطرز ، وتكون رأس الجثة دائماً الى الامام ، كما يحرصون على وضع مائة فوقها اذا كان الميت رجلاً او زهورا اذا كانت الجثة لامرأة .

بعد هذه التجهيزات تبدأ الجنازة مسيرتها نحو المسجد ، ويفضل فى ذلك الجامع الأزهر باعتباره أقدس مساجد القاهرة ، ويتقدم الجنازة عدد من الصبيان بيدهم عصى ، ويستشيرون فى ثلاثة صفوف من ستة اشخاص وهم متشابكو الأيدى ، وينشدون بنغمة وقورة ومهيبة صيغة العقيدة الإسلامية . لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، ويكررون ذلك حتى القبر ، ويلى هؤلاء مباشرة خدم المتوفى وهم يرتدون ملابس قاتمة ، وبعد هؤلاء تاتى الندابات مرتديات ثياباً زرقاء طويلة وحجاباً أبيض ، ليسبقن مباشرة الجثة المحمولة على اكتاف رجال أربعة ، والموضوعة داخل التابوت ، وخلف النعش تسير العائلة يصحبها عادة شيخ الجامع ، وفى النهاية ، يختتم الجنازة اتس من العامة وتسير الجنازة فى سرعة وتناسق .

ويوضع الجثمان للحظة فى المسجد ، ويؤدى الابن الصلاة على أبيه أو يؤديها خلف واحد من رجال الشرع ، وعند الخروج من المسجد ينسحب جزء من الموكب ، ويصحب المشايخ الجثمان حتى مكان المقبرة ويتبع هؤلاء عادة بعض اطفال المدارس ، ويحصل رجال المسجد على أجرهم عند المقبرة أنفسهم ، وتلك عادة هامة .

وبعد الوصول الى المقبرة ، يؤخذ الجثمان من النعش ، وينزل رجل فى الحفرة لياخذ الجثمان ليودعه القبر بحيث تكون رأسه متجهة الى الشرق ، وبعد ذلك يلقى أقرب اهل الميت بيده قليلاً من التراب على الجثمان ويفطئها الحفارون على الفور . وبعد ذلك يجلس الاغراب الذين صاحبوا الجنازة

ويأكلون حول الحفرة ، ويعود الاهل مع الندابات ليقيم عندهم لايام عدة
 مما يسبب مضايقات للجيران (١) .

ولا تدفن النعوش مطلقا ، فالجثمان — كما سبق القول — يودع في
 الحفرة التى أعدها الحفارون الذين أرسلهم الشيخ لهذا الغرض في مقابر
 الأسرة التى بنيت من قبل ، وهى في المقام الأول عبارة عن قبر من الحجارة
 تصف تحتها الاجساد بجوار بعضها البعض ، وطالما لم يبيل لحم الجثة
 فلا ينبغى ازعاج الميت ، ولكن عندما يبلى ما يغطى العظام فان العظام
 تجمع في لحد واحد ، وينظر الى الاحتفاظ بأى جزء من الجثة باعتباره
 جريمة ، اذ ينبغى ان تدفن الجثة بأكملها ، وعندما يموت أحد بعد قدوم الليل
 يتحتم انتظار شروق الشمس ليتم نقله الى المقبرة ، ويعتبر المسلمون ان من
 مبادئ دينهم الا يدفن الميت الا والشمس في الافق ، بل ويعلقون على
 مراعاة او خرق هذه العادة اهمية كبيرة حيث لها صلة بالسعادة او الشقاء
 في دار الخلود . ويقوم الاغنياء بدفع نفقات مقابر الفقراء ، ومقابر هؤلاء
 في الواقع بسيطة لكن اهليهم وزوجاتهم يزينونها بزرع الورود بدافع من
 العاطفة .

وتوجد مقابر المسيحيين في القاهرة بمصر القديمة ، ولا يسمح لهم
 بالدفن في مكان آخر ، وللارمن مدفن خاص بهم وهذه الطائفة من المسيحيين
 ليست كبيرة العدد اذ لا يكاد يبلغ تعدادها ٤٠٠ — ٥٠٠ شخص مستقرين
 بالمدينة .

(١) في مصر عادات كثيرة تشترك فيها مع كل ولايات الدولة العثمانية ،
 لكن ثمة عادات خاصة بمصر وحدها ، قد يكون من الطريف ان نعرض لها
 ومن هذه العادات الخاصة بمصر بكاء الندابات أثناء الجنازة ، ولا يحدث
 هذا عادة في القسطنطينية ولا في سوريا بل يمكن القول بأنهم غير معروفات
 في القسطنطينية اصلا . وفي مصر تظل زوجات المتوفى يطلقن الصرخات
 تسعة ايام متوالية ويستقبلن صديقاتهن اللاتي يأتين للبكاء معهن او
 يتظاهرن بالبكاء . ومع ذلك فالمسلمين من الطبقات العليا وكذا العلماء
 ينظرون الى هذا العويل باعتباره مخالفا لدين محمد ، ذلك ان الميت لم
 يفارق هذا العالم — في رأيهم — الا للذهاب الى مكان اسعد (الجنة) ،
 لكن الدموع ينظر اليها بتسامح لأنها تصدر عن عاطفة محمودة ، وعندما
 يموت رجال ميسورون يتمتعون باحترام كبير ، لا تحدث اية دلالة على
 القنوط او اليأس ، بل يحدث العكس احيانا فتطلق زغاريد الفرح .

ويتمسك بعض المسيحيين في مصر القديمة بعادة قديمة ، هي أن تكون لهم مقابر صغيرة في بيوتهم يحتفظون فيها ببقايا جثث ذويهم ، وربما لا تكون هذه العادة سوى اثر من ديانة قدماء المصريين ، لكنها محرمة بشدة في القاهرة اما بدائع صحى واما بسبب عدم التسامح من جانب المسلمين ، ويلاحظ هذا الميل نحو المقابر المنزلية بين كبار الأقباط بوجه خاص ، لذا فقد شيدوا بيوتا لهم في حى منفزل في مصر القديمة ليقبوا هناك مدامن لذويهم ، ويتوجهون الى هناك من القاهرة حيث يقيمون — على فترات من العام ، كما يحتفلون هناك بالأعياد الكبرى لطائفتهم مع الأهل والأصدقاء ولا يوجد في أى مكان آخر اثر لهذه العادة القديمة .

وفي نفس الوقت لمان الندابات وكذا الاشارات الخارجية الدالة على الحزن عند موت واحد من الأهل ، جزء أساسى بالدرجة الأولى من الطقوس الجنائزية القبطية ، بل انهم يذهبون في اشارات الحزن تلك لأبعد مما يذهب المسلمون ، فهم يملأون الضواحي المجاورة بصيحاتهم التى تعقبها على الفور صيحات الندابات ويستمر هذا العويل أحيانا عدة أسابيع ، بل يمكننا الافتراض بأن الأقباط هم الذين نقلوا هذه العادات الى المسلمين ، حيث من الثابت أن المسلمين في الأجزاء الأخرى من آسيا لا يراعون هذه العادات على الإطلاق ، وثمة نص عند هيرودت ننقله هنا ، يؤكد بالمثل أن البكاء — مصطنعا كان أو صحيحا — والذي يستسلم له الناس عند نعى قريب ، له اصل في مصر بالغ القدم . يقول المؤرخ الاغريقى : « عندما يموت رجل هام يغطى كل نساء منزله رعوسهن بل ووجوههن بالطين ويتركن الميت في المنزل ويحزمن وسط جسمهن ويكشفن عن صدورهن ويعبرن المدينة وهن يدقن على صدورهن وتصحبن في ذلك قريباتهن(١) » السنا نجد في هذه العادات التى تمارسها هاتان الامتان (المسلمون والمسيحيون) تماثلا كبيرا مع تلك التى نقلها هيرودت الموجز على الدوام والذي يبدو لنا عند قراءته انه قد تحدث بتفصيل أكبر مما يفعل عادة ؟ ان هؤلاء الأهل المكومين في الماضى قد تركوا مكاتهم بلا جدال لندابات اليوم . ويقدم لنا بقية وصفه نفس التطبيق مع اختلافات طفيفة للنسبة(٢) .

(١) هيرودت : ج ٢ ، الفقرة ٨٥ ، ترجمة Larchet طبعة ١٧٨٦ .
(٢) يقدم لنا ديودور البستلى نفس التفاصيل فيقول : « ما إن يموت

وعندما يشعر رجل ما بدنو أجله فإنه ينظم شئونه ، وإذا ما كان حذرا فإنه يجمع عددا صغيرا من أصدقائه ليشركهم في رغباته الأخيرة ، وتحتم الشريعة قبل توزيع التركة أن تجنب أولا المبالغ اللازمة لتسديد الديون ، وكذا الهبات الخيرية التي يكون المتوفى قد التزم بها . وللأبناء الشرعيين حق الارث ، أما غير الشرعيين فلا يحق لهم الارث دون نص صريح من الموصى . وهذه الترتيبات خاصة بالذكور وحدهم أما البنات والزوجات فليس لهن حق الارث في الملكيات العقارية . وسوف نتحدث بتفصيل أكبر عن هذه القوانين الجائرة في الفصل القادم من مؤلفنا (الفقرة الخامسة) والخاصة بالأنظمة والمؤسسات .

ويمكن للأرملة أن تتزوج مرة أخرى بعد مضي أربعة أشهر وعشرة أيام على وفاة زوجها إذا لم تكن حاملا ، وفي الحالة الأخيرة يمكنها أن تتزوج بعد الوضع ، وللأبناء أيضا حق الزواج بعد موت والدهم لكن اللياقة تحتم انتضاء فترة بين حدث محزن لهذا الحد وبين فعل يتطلب على الدوام مظاهر الخفة والفرح ، وفي ذلك تناقض واضح ، ولذا فإن من يستبجح لنفسه أن يعقب جنازة أى من والديه بحفل زفافه يغطى نفسه بوصفة لا تغتفر لدى الراى العام .

٣

المقابر

يبدى المصريون المحدثون اليوم عناية بمقابرهم تماثل عناية أسلافهم في الماضي ، تؤدي بهم لاثامة منشآت باذخة أقل عظمة حقيقة مما أسسه

أحد الناس حتى يسارع أهله وأصدقائه فيغطون رأسهم بالطين ويسرون في الشوارع ليكون حتى يتم دفن الجثمان » ولكن ثمة شيئا عند ديودور أكثر تحديدا عندما يتحدث عن حداد المصريين عند موت أحد الملوك « عند موت الملك تدخل مصر كلها في حداد : فيمزق الناس ملابسهم وتغلق المعابد أبوابها وتعلق الأضحيان وتوقف الأعياد والاحتفالات لمدة ٧٢ يوما . ويتقوم عدد من الرجال والنساء يبلغ ٢٠٠ - ٣٠٠ شخص ، ورأسهم مغطاة بالطين ويحزمون صدورهم برباط ، بالانتحاب والرناء على صوت الموسيقى مرتين في اليوم » . انظر ديودور ، الكتاب الأول ، الفصل الثاني .

القدماء ، لكنها على روعة غير عادية اذا ما وضعنا في الاعتبار حالة المصريين في الوقت الحاضر . لقد حدثت ثورة تامة في التقاليد والديانات والعادات الاجتماعية ومع ذلك فقد ظلت ضفاف النيل كما كانت في الماضي ، هي المكان الذي يحترم فيه أكثر من غيره اجداث الموتى وترابهم ، فليست هناك كما يحدث في البلدان الأخرى تلك الأحواش الفقيرة والمتهدمة التي تضم مقابر أولئك الذين انطفات شجرة حياتهم ، ولا يحدث فيها — كما يحدث في أماكن أخرى — أن يطأ المرء بقدميه وهو يسير في أرض قاحلة أو يجوس خلال الأعشاب البرية عظاما بشرية مبعثرة كيفما اتفق — نعم ليس ثمة مثل هذه الأعمال المموجة والناجمة عن الإهمال واللامبالاة ، والتي تكشف عن مدى ما تلقاه أرواح الموتى من أهانة وإزدراء على يد الأحياء . فكل شيء هنا — في هذا الصدد — يخطف ، غثة أشجار بسطة تظلل المقابر ، أو ثمة على الأثل ورود زرعتها بين القبور عاطفة محبة ، تحول مثل هذا المكان المتبسط إلى نوع من الحدائق العامة ، وثمة مقاعد وفراغات بين المقابر ترسم نوعا من الشوارع الصغيرة نرى على امتدادها آثار عمل الإنسان .

بالروعة بناء المقابر ! وبالروعة النقوش التي تغطيها .. ان المرء ليؤخذ بهذه الروعة الوريعة لحد أن يتذكر ما كان يحدث في الأزمنة الخوالي : « تتجلى عناية القدماء بمقابرهم في تلك الأموال الطائلة التي ينفقونها عليها، وفي إقامة الأهرامات والتنقيب في الجبال واستخدام الرسوم باللغة البذخ .. وباختصار في تلك الروعة المدهشة » . وما يزال نفس هذا الميل موجودا حتى اليوم . وينفق المصريون في هذا المجال من المال أكثر مما ينفقون على ملابسهم ومساكنهم . هنا يتجلى معنى ما قاله ديودور الصقلي عن أسلافهم من أنهم يعتبرون بيوتهم مجرد نزل عابرة لا ينبغي التوقف عندها طويلا، لذا فعنايتهم بها قليلة، في الوقت الذي يعتبرون فيه المقابر بمثابة دار للخلود فيشيدونها بكل الفن والمهارة وهو أمر كانوا ضليعين فيه . لقد تغيرت ديانتهم بشكل كامل ، ومع ذلك فقد ظلت المادة كما كانت في الماضي، فيجوار كل مدينة كبيرة توجد مدينة صغيرة للموتى ، حيث يكون لكل أسرة

ميسورة لحد ما مدفن خاص بها وحيث تزين كل المقابر بالنقوش والرسوم الجميلة (١) .

ويختار المصريون المحدثون لمقابرهم — شأنهم فى ذلك شأن المصريين القدماء — المناطق المرتفعة فوق مستوى النهر حتى لا تصل مياه النهر اليها فتهدمها ، ومن جهة أخرى فان الأراضى القابلة للزراعة فى الوادى غالية الثمن وضرورية للأحياء لدرجة لا يمكن معها أن يجعلوها منها مأواهم الأبدى ، وعلى هذا فينبغى أن يكون المكان الذى يستخدم كمقبرة قاحلا مجرد لا يبنى أو يزرع فيه . والأرض التى خصصت للناس فى مقبرهم الأخير ينبغى أن توقف عليهم والا تقلق هناك أجسادهم بأن يسمح للفلاح أن يفرس فيها سلاح محرائه . وإذا امتلأت مقبرة ما فلن ينازع أحد عظام الموتى فى مكان خصص لها فلا تخلق المقبرة من العظام ليخلو المكان لموتى جدد . . هناك فى هذه المقابر يرتد الفقير مستريحا تحت المكان الحجرى الذى خصص له . أما الفنى فان ما دفعه فى شراء تلك المساحة الضيقة التى يشغلها قبره لن يضيع هباء ، وهكذا ، فما أن تغطى المقابر مساحة من الأرض التى خصصت للمدافن حتى تسمح الحكومة بأرض جديدة لنفس الغرض ، وتهجر الأولى ، ومع ذلك يظل ينظر اليها الناس باحترام ورع ، ويصبح من أعمال الخير — لوقت طويل من هذا الهجر — أن يضع الناس الورود فوق رخام المقابر .

ويقع المدفن ، أو مدينة المقابر ، فى محفل المدن عادة ، وخارج نطاقها ، ويستطيع كل انسان أن يدخلها بلا عائق اذ ليس ثمة حائط أو سور يعوق الاقتراب منها . ويا لها من مفاجأة بالنسبة للأجانبى الذى لم يكن قد رأى حتى هذه اللحظة الا الاكواخ التى يسكنها الأحياء فى الريف عندما يرى هذه المقابر الباذخة ! ثمة غابة من المواميد والنصب التذكارية والأضرحة . . تغطى مساحة شاسعة : وقد يظن المرء فى البداية أنه أمام مدينة بدیعة هجرها عشية أمس سكانها . وعندما يرى شوارع المدفن فقد يظن أنه فى سهل مزروع بالمقابر . وفى كل مكان ستجلى قنون

(١) انظر وصف مدينة طيبة فى دراسة المسيو جومار عن المفارات والكهوف .

العمارة التى تتضائل الى جوارها — وبخاصة الاضرحة الكبيرة — عمارة المساجد وقصور الكبار .

وتصنع العواميد وشواهد القبور من الرخام الأبيض : اما اساس المقابر فمن الحجارة وتصنع القبة من الخشب وتغطيتها طبقات من الجبس أو الجير شديد البياض . ونقوش المقابر ذات ذوق شرقى وهى عبارة عن نقوش وزهور من مختلف الأنواع رسمت بعناية ، وتغطيتها أوراق مذهبة مما يعطيها مشهدا بديعا . اما أولئك الذين لم يحوزوا الا ثروة متواضعة فيكتفون بالكتابة على مقابر اهليهم بالأسود ، لكن الكتابة التى ينفذها الأغنياء على مقابرهم ذهبية اللون . وتتكون المقابر العادية من حجر فوق اللحد يرتفع من أحد جانبيه عمود يحمل عمامة وينتهى جانبه الآخر بقطعة حجر مسطحة ، تنتهى بشكل محبب وشذبت جوانبها لتأخذ شكل مسلة وتنتش عليها النقوش ، وهى فى بعض الأحيان رسم لشجرة سرو أو رسم لورود ينفذ بعناية شديدة . وتتكون مقابر السيدات من حجرين مسطحين ينهض أحدهما عند الرأس والآخر عند القدم ، وهما مليئان بالرسم والنقوش وينتهى كل منهما بشكل مسلة لكنها لا تحمل عمامة . وتصنع هذه الحجارة من الجرانيت أو من الحجارة الجبلية ، ولا تكون فى هذه الحالة مزدانة بأية نقوش . وفى بعض الأحيان تغطى المقبرة كتلة صماء من الحجر وهذا أمر كاف عند الاتقياء الورعين ، فكل انسان ييذل ما يستطيع لتكريم ذكرى نبيه . وفى آسيا حيث الأراضى خصبة والأمطار غزيرة يزرع الأتراك فى المدافن أشجار السرو ويشبه المدفن عندئذ غلبة واسعة ، اذ ترتفع هذه الأشجار الى علو شاهق . ومهما بلغ عمر الشجرة فلا يسبح بقطعها ، فقطع هذه الأشجار جريمة لا يغفرها القانون .

ويوم الجمعة بوجه خاص هو اليوم المحدد لزيارة المقابر ، وتذهب الأسرة الى هناك بأكملها فتصحب الأمهات أطفالهن ويتجمع هناك الأصدقاء ويجلسون حول مقبرة الفقيد ويترجمون على الحصر ليقنأوا بعض ما يحملون من هبات ، ويتحدثون بمرارة عن الخسارة التى حدثت وعن فضائل الفقيد وكفاءاته ومميزاته . وهم يذهبون الى مدينة السوتى هذه عند شروق الشمس ويمضون فترة الصباح كلها فى المصليات والدعوات الدينية . وفى

هذه الايام المهيبة يبلغ الزحام درجة تبدو معها المقابر وكأنها تقطنها جماهير غفيرة ويمكن ان نتخيل احبة النساء وهى ترغرف وملابس الرجال الزاهية بكل الالوان الفاتحة والمتنوعة ومخامة مباني المقابر التى تغطى السهل .
فنتذكر على الفور تلك الاساطير القديمة التى ولدت على نفس هذه الضفاف .. اذ تبدو هذه الاماكن وكأنها مقر لاشباح محظوظة ، يخيل للمرء انها تهيم على وجوها وهى تخطو خطوها البطيء وسط مساكن الموت هذه . أما تلك المجموعات المبعثرة هنا وهناك تحت أشجار الأكاسيا والجميز ، فتبدو وكأنها تقدم لعيون المسافر لوحة من جنة الدار الآخرة تكملها وتجسدها مخيلته .

وتبتلك العائلات الغنية كما سبق القول مقابر رائعة الجمال ، ويعتبر بعضها فى الواقع مساجد صغيرة ، وهى محاطة بسور ويدفن فيها عبيد الأسرة وخدما ويدفن السادة تحت القبة ثم تجمع عظامهم بعد ذلك فى قبر واحد — اما المقابر الأخرى فهى أكثر بساطة ، وتتكون من أساس من الحجارة تعلوه أربعة عواميد تحمل اقنية وسقيفة اما على شكل قبة او على هيئة هرم ، وتوضع الاجساد عند الأساس ، اما المقبرة او القبو فتظل خالية وتبنى تحت القبة التى تحدثنا عنها .

وفى معظم الاحيان ثبة مربع محفور وسط المستطيل الذى يغطى المقبرة ، ويملؤه الناس بالتراب لتزرع فيه الزهور بدافع المحبة والاعتزاز والتبجيل .

اما العامة الذين لا يقدرّون حتى ان يثبتوا مجرد حجر عادى علامة على المكان الذى يرقد فيه اعزاؤهم ، فانهم يكتفون برفع مستوى الأرض حول حفراتهم ، ويزرعون فيها بالمثل ورودا يأتون كل اسبوع لريها .

ومدافن المصريين تحظى بتقديسهم ، وهم يحرسون على ان يبعدوا عنها كل ما يمكنه ان ينال من قداستها . وتحاط مدينة القاهرة بأحواش مقابر سبق ان تحدثنا عن فخامتها ، لكن ينبغى ايضا ان ننوه بمدينة الموتى فى سيوط (اسيوط) فى صعيد مصر ، فهى تقع عند سفح جبل على حافة واد يانع الخضرة ويخترقها طريق واسع للغاية يفضى الى الصحراء . ويحيط كل مقبرة جدار ابيض ، تعلوه رسوم زاهية اللون ، وتظلل النخيل واشجار

الأكاسيا والجميز . وتعمل عاطفة الاحياء نحو ذويهم هناك على مضاعفة عدد هذه الأشجار والعناية بها .

وهكذا فان المصريين الذين تربط بينهم على الدوام المودة وصلات الدم ، يقدمون بعد موت أحبائهم علامات مؤثرة على ذلك الحزن العميق الذى انتلبهم بفقد هؤلاء . فهم — مثل أسلافهم — يحسون بقوة ببساج المشاعر الأسرية ، وتصدمهم بشكل مؤثر تلك الضربات التى تحرمهم من مخلوقات عزيزة عليهم ، خسارتها لا تعوض . وهكذا أيضا نراهم بعد أن يكونوا قد تذوقوا سعادة أن تشملهم المحبة أثناء حياتهم ، يتمتعون بعد أن يتركوا العالم الأرضى ، بسعادة أن يخيم على ذويهم الأسف على مفارقتهم .

٤

الحداد والتدابير

لدينا فى أوربا وقت محدد للحداد الكبير ، أما الحداد الصغير فيلى ذلك . لكن هذه الممارسات مجهولة فى الشرق ، فهناك يعبرون عن الحزن والأسى بطريقة أخرى ، كما أن للآلم هناك لغة غير تلك التى لدينا . فخلال عدد من الأيام حددها العرف ، تظل المرأة تبكى وفاة أقربها سواء داخل بيتها أو فى المسجد أو على القبر . وثمة وقت من أوقات النهار مخصص لهذا الواجب الحزين . وينفذ هذا الواجب بدقة تستعصى على الفهم . صحيح أننا نلاحظ فى بعض الأحيان نوعا من التكلف فى هذه الممارسات الخارجية ، إذ ليس من النادر على سبيل المثال أن نرى النسوة يعصرن الشارع وهن فى طريقتهن إلى المسجد أو إلى المقابر ، دون أن يبدين أية دلالة على الحزن ثم ينهضن من هناك بعد أن يكن قد أطلقن صرخات الحزن المؤثرة لمدة تقرب من ساعة ، ويرحلن دون أن تحتفظ ملامحن بأقل أثر لانفعالهن ، وبرغم ذلك فان هذه المظاهر صادقة وحقيقية عند العدد الأكبر من هؤلاء النسوة ، ولكى تقتنع بذلك ، فيمكنك أن ترى كما رأينا بأثاسات يهزهن الخوف من فقد أحد أقاربهن ، يحادثن أنفسهن ويعبرن بصوت خفيض وبطريقة تثير الشفقة عن القلق الذى يأكلهن ، وكثيرا ما سمعنا نسوة ينطقن أثناء سيرهن فى الشوارع بالدعوات الحارة كى يبعد الله المصيبة التى تهدد أسرتهن . ولا يقطع حديثهن إلا العبرات التى تمزق صدورهن ،

ويسبرن عن مشاعرهن تلك بلا حرج وبلهجة صادقة ويدعين الله ان يطيل عمر من يعانى من الخطر على حساب عمرهن . يقلن ذلك بحرارة لدرجة يكون من الظلم معها ان تشك فى اخلاصهن . فاذا كان الخوف من الخطر يعذبهن بمثل هذه الطريقة المؤلمة افلا ينبغي ان تفترسهن الاحزان اذا ما تحققت مخاوفهن ؟ وكثيرا ما راينا سيدة فقدت طفلها العزيز وهى تندفع الى خارج بيتها نائحة باكية ، لتجوب الشوارع لتلقى بصرخاتها المنتحبة تنادى طفلها بصوت يمزق القلب : يا والاد .. ياوالاد ! (يا ولد .. يا ولد).

والسيدات وحدهن فى محير يقمن محافل البكاء بعد موت اقاربهن . اما الرجال فعليهم كما سبق القول ان يظهروا قدرا اكبر من ضبط النفس فاذا تألموا فان المهم مركز . بل انهم يطلبون من النساء — اذا ما ذهبن الى بعيد فى التعبير عن يؤسهن (١) — ان يعتدلن ويتحلين بالصبر . وفى جهاز الدموع والاحزان يتجلى حداد مصر ولا يؤمن الدين زمانا محددا للحداد، ومع ذلك فإن الناس يرتدون ملابس قائمة علامة على الحداد، لكن ابناء الطبقات العليا لا يخضعون لهذه العادة ، فما ان يدفن شخص منهم وتؤدى عليه الصلوات حتى لا يعود ثمة أى حداد دينى ملزم . ويكتفون قضاء عدة ايام فى استقبال المعزين . ويدعى الى وجبة جنازية كل اصدقاء المتوفى ، وتخصص هذه الوجبة لذكراه التى تكون موضوعا للحديث ويأخذ كل مدعو فى تعديد مناقبه .

اما الندابات اللاتى يقمن مراسيم الدفن فمن نساء من الشعب مدريات منذ زمن طويل على العويل وتصنع صرخات اليأس . وليس ثمة مسلم متنور الا ويدين هذه المعادة الكاذبة ، ومع ذلك فقد لاحظنا انها لا تصدم الراى العام ، وتلجأ زوجة الواحد من الكبار عندما تخشى انها لن تستطيع ان تسكب وحدها على المرحوم قدرا كافيا من الدمع ، او ربما عندما تجد ان مهمة الانتخاب لمدة طويلة بلا انقطاع تفوق طاقتها — تلجأ الى استدعاء الندابات اللاتى يقمن فى الحجرة من البيت التى كان الجثمان مسجى فيها ، وهناك يقمن بتأبين الميت ولكن بطريقة شديدة النحيب .

(١) ليست النساء المسلمات وحدهن كما سبق القول هن اللاتى يبكين موتاهن . فربما تتفوق عليهن المسيحيات فى هذا الخصوص . وهذه المعادة عامة فى مصر .

وثبدأ احداهن باطراء فضائل المتوفى ، وما ان تلفظ اول كلمة حتى تطلق
 الاخرى فى صوت واحد صيحاته منفردة كما لو كان ذلك للتعبير عن
 حجم الخسارة التى اصابته المثلثة . وتشرب الندابات من ابريق موضوع
 على موقد فى نفس الحجرة وعقب كل نوبة تأبين — قدحا من القهوة ومع
 ذلك فليس فى صرخاتهن ما يمس قلب الاجنبى ، فهن يعولن اكثر مما
 يبيكين بعاطفة . واغلب هؤلاء التعيسات لا يسكين دموعا ويقتصر عملهن
 على الاتيان ببعض الحركات وان يرثين بنوع من الايقاع الحزين ،
 ولا يسمح للقلب الذى ينفطى وجههن ، والذين بدونه لا يمكن لمن ان
 يتجاسرن على الظهور امام الناس — لا يسمح للمرء ان يكشف كذب بكفهن .

وعلى الرغم من الاحتقار الذى يبديه المسلمون المتنورون لهذه
 الاحتفالات الجنائزية والتى تشبه مسرحية هزلية اكثر مما هى تعبير حقيقى
 عن الالم ، فان من المحتمل ان تظل هذه العادة لوقت طويل فى كابل قوتها ،
 اذ من الصعب ان تقتلع من جذورها معتقدات امتد بها العمر وتجسدت فى
 هذه العادة الضارية فى القدم ، وانه لامر اكثر مشقة عند شعب روتينى
 يبدو كما لو كان يرى على نحو ما ، فى حفوه حفو اسلافه ، امرا له قداسة
 الاديلن .

الفصل الخامس

النظم والمؤسسات

١

رجال الشريعة والقضاء

بعد أن انتهينا من الحديث عن التقاليد الأسرية والعادات الاجتماعية للمصريين المحدثين ، وبعد أن تعقبناهم فى مختلف أطوار حياتهم من المهد الى اللحد فسوف نهتم الآن بأنظمتهم ومؤسساتهم المدنية والدينية ، ولعل هذا هو أهم فصل فى مؤلفنا ، إذ كان من المستحيل على الرحالة الذين جاؤوا الى مصر قبل هزيمتها على يد الفرنسيين أن يحصلوا فى هذا الصدد على افكار ومعلومات موضوعية ، فقد كان ثمة عقبات كبيرة تحول دون إبحاث بهذه الدقة ، كما أن مثل هذه الأبحاث كانت تثير الملح كما كانت تثير ريبة وشكوك الحكومات المستبدة ، التى كانت تتولى شئون البلاد . لقد كان الأمر يتطلب وجود ودعم جيش منتصر مسيطر ، وعلاقات يومية ومباشرة مع السكان من كافة الطبقات حتى يمكن دراسة قوانين مصر ونظامها المالى والادارى . وقد سبق أن قدمت دراسة « استيف » Esîève لوحة كاملة عن الدخل العام وتوزيع واستخدام الضرائب ومختلف انواع الملكية ، اى انها قدمت باختصار لوحة عن كافة فروع الحكومة التى كان عليها الاشراف على مالية الدولة .

ولقد كانت المهام التى أوكلت إلى الأستاذ استيف هى التى مكنته من أن يرى بعينه كل شئ وأن يسبر فى ثنايا ذلك غور تلك الإدارة البطيئة والمعقدة . علينا إذن فى فصلنا هذا أن نهتم بالدرجة الاولى بالنظم والمؤسسات التى لا يدخل فى نطاقها الموضوع الذى عالج زميلنا وإن نبدا بالقوانين المدنية التى يخضع لها المصريون فى الوقت الحاضر ولكن من الأمور الملحة قبل أن نمضى فى تحييص هذه القوانين أن نتعرف على الأشخاص الذين كانوا أعضاء فى هذه المؤسسات أو قائمين على أمر هذه النظم . وحيث أن الشريعة الاسلامية وكتابها « القرآن الكريم » هما القاعدة الرئيسية التى تنهض عليها القوانين المدنية فان رجال الدين قد أصبحوا فى نفس الوقت رجال القانون . وهؤلاء ينقسمون الى عدة طوائف ومهامهم

بالغة التنوع . فبعضهم تقتصر مهمته على العناية بالمساجد ومن هؤلاء الامام ، وهذا النوع من الرجال ليسوا بالاغنياء ولا بنوى المكائنة ، فبإمكان كل مسلم ملم بالقراءة والكتابة واقامة الصلاة أن يكون اماما لمسجد . وهو ليس من رجال الدين المتخصصين ولا يرتدى زيا خاصا . وهذا النوع من العمل ورائى فى العائلات ومن الممكن التنازل عن هذه الوظيفة لآخر مقابل جعل من المال .

والقاضى هو الذى يفحص الأئمة ويمكنه أن يقبلهم أو يرفضهم حسبما يتراءى له عن المرشح وهل هو فى مستوى الوظيفة أو ليس فى مستواها ، وليس ثمة هيرارشية (هرمية) بين الأئمة فهم أئمة المساجد وليس أكثر من ذلك . وللباب العالى عليهم وعلى كل العلماء نوع من السطوة الروحية ، ولكن اذا حدث أن كان ببعض فرمائته ما يتعارض مع بعض ما جاء فى القرآن فانهم لا يلزمون انفسهم بطاعتها عن اعتقاد اذ لا ينبغى عليهم أن يطيعوا الا الله ورسوله .

ويشكل الاشراف فى مصر طبقة منعزلة ، وهم يتمتعون بنفوذ كبير ، وسبب مكانتهم تلك هو اللقب الذى يحملونه ، فشریف معناه متميز ، وهذه الصفة لا تخلع الا على أحفاد محمد من أبنته فاطمة ، ويحق لهم وحدهم لبس العمامة الخضراء ، ويقول بعض العلماء : ويل لمن يدعى لنفسه الشرف دون أن يكون كذلك وويل لمن يهجر الأشراف ! ونحن نجد اشرافا من مختلف الطبقات ، وثمة اشراف لا تعرف ما هى مهنتهم بالضبط ، بل وثمة منهم من يمارسون أعمالا مرذولة ، وينقل النساء هذا اللقب لأولادهن من الجنسين وحيث أن من حقهن أن يتزوجن بلا تمييز ، أى سواء من شريف أو من مسلم ليس من الاشراف فبإمكاننا أن نستنتج كيف يمكن أن يتضاعف عدد أفراد هذه الطائفة .

ويختار الباب العالى واحدا من أبرز هؤلاء الاشراف ليعينه نقيبا للأشراف . وهى وظيفة محترمة ويقيم من يتولاها فى القاهرة ، ويأتى هذا النقيب عادة من القسطنطينية مع القاضى . ويدفع فى مقابل وظيفته تلك حوالى ٤٠٠٠ ر. و مدنى ويحصل على دخل عديد من القرى الصغيرة هى بمثابة اقطاع لوظيفته . ولا يعهد لشخص ما بهذا المنصب الا لمدة عام يثبت فى نهايته النقيب أو يستبدل به غيره حسب مشيئة السلطان .

وبحكم كل الاشراف امام تقييهم على ما ياتون من اخطاء بسيطة ، لكن ليس من سلطته ان يحكم على واحد منهم بالموت ، فالحاقضى وحده هو الذى يختص بمحاكمتهم فى الامور المدنية والجنايية مثل بقية المسلمين، وعندما يحكم على واحد منهم بالاعدام يتولى النقيب تنفيذ الحكم . وللأشراف سجن خاص بهم ويستخدم جزء من دخول القرى الموقوفة على النقيب لاحكام المساجين من الاشراف (١) .

وليس ثمة بلد يتمتع فيه الاشراف بامتياز اكبر مما يتمتعون به فى مكة . اذ لهم الحظوة على سائر المسلمين فى كل الاحتفالات الدينية ، ولهم بخلاف ذلك امتيازات كثيرة ، ومع ذلك فحشريف مكة ليس سوى أمير زمنى وليست له أية قداسة دينية ، بل ان الصلاة لا تقام مطلقا باسمه ، بل تقام الصلاة على الدوام فى الحرم المكى باسم السلطان .

ولقد سبق لنا ان تحدثنا عن العلماء ، وهؤلاء ينقسمون الى ثلاث طبقات كبرى : رجال الدين ، علماء الشريعة ، القضاة . والاولون هم الأئمة ، والآخرين هم رجال الافتاء وهم بمثابة محامين استشاريين يبدون آراءهم فى كافة الامور ، اما الفئة الثالثة فهم قضاة العدل ، ويمنح القضاة من الدرجة الاولى لقب مولاى ومعناه سيد أو شريف . اما شيخ الاسلام — أو مفتى القسطنطينية — والوزير الاكبر (الصدر الأعظم) فهما أهم شخصيتين بعد السلطان فى كل الامبراطورية . وهما يمثلان السلطان : الاول فى الشؤون الروحية والثانى فى الامور الزمنية ، وليس من حق السلطان ان يعدم المفتى بنفس الطريقة التى يعدم بها المذنبون العاديين ، وعندما يدان شخص ما وهو يتقلد هذا المنصب الخطير بجريمة كبيرة فانه يلتقى عقابا خاصا ، ربما كان اكبر بكثير من ذلك العقاب الذى يوقع على المجرمين العاديين .

وتعرض على المفتى المسائل العويصة التى قد تظهر عند تطبيق بعض

(١) يوجد كذلك اختلاف فى طريقة اعدام الاشراف ، اذ لا يمكن ان تفصل رؤوسهم عن ابدانهم ، ويرسل النقيب الى السجن من يقوم بخنق المحكوم عليه بالاعدام ، ولا تعلق اجسادهم كذلك بعد تنفيذ الحكم بل تدفن على النور .

احكام الشريعة ، ويتوجه اليه للحصول على حكم منه باعتباره رجل الشريعة المكلف بابداء الراى فى العقوبات التى تطبق فى بعض الجنايات . وهذا الحكم الذى يصدره عن هذه الامور الجنائية او فى غيرها من المسائل المدنية مثل حقوق اطراف النزاع فى قضية ما يسمى فتوى ، وهى تماثل منطوقا شرعيا تحدد مسار حكم القاضى ، ويحرر هؤلاء فتواهم كتابة ، ولكن عندما يطلب الى المفتى ايضا حات حول نقطة غامضة فى القانون فانه يستدعى كبار العلماء ليناقتش الحالة معهم ، ومن النادر ان يلجأ قاض ضليع فى الفقه الى طلب راى المفتى بل واكثر من ذلك ان يلتزم بقراراته . ولكن عندما لا يكون القاضى ضليعا فى الفقه كما يحدث فى معظم الاحوال ، فانه يلجأ على الدوام لطلب راى المفتى قبل ان ينطق بالحكم .

ولكل من المذاهب الاسلامية الاربعة التى تحدثنا عنها فى الفصل الاول مفت خاص بها فى القاهرة . لكن هذه الوظائف لا تمنح ، بل هى لقب او جدارة تنال بالسمعة ، اما فى المدن الاخرى والتى تحظى ببعض الاهمية فان المفتى يقوم بارسال قاض يمثله فيها ، ولا يمارس هذا « المولى » وظيفته الا لفترة قصيرة من الزمن ، وامثاله فى تركيا يغيرون كل شهر ويدفعون ثمنا لوظائفهم مبلغا يتفاوت بحسب ثراء المدينة التى سيمارسون فيها عملهم ، والمولى بعد الحاكم هو السلطة الاولى فى المدينة .

وثمة فى مصر نظام للخلوات — وهى تماثل الاديرة — وتنتشر الى حد ما فى الولايات التركية الاخرى ، ويسمى المنتسبون اليها دراويش . وهم يعيشون فى جماعة ويرحلون من خلوة الى اخرى وليس محرما عليهم ان يتزوجوا لكن لا يمكن قبول زوجاتهم معهم فى الخلوة ، وعلى هؤلاء ان يقمن فى مساكن خاصة ، ولكل جماعة من الدراويش دخول تأتيا من هبات موصى بها ومن منشآت اوقفها عليهم الخيرون من المسلمين ، ولكل طريقة رؤساؤها ، ولكل خلوة رئيس يسمى شيخا ، فضلا عن ذلك فان هؤلاء الدراويش يتمتعون باحترام عام ، ولكنهم يتهمون بالتفلسف وهذا اتهام خطير عند شعب جاهل يتشبه باخطائه بحكم التعود الطويل . فالشرقيون يسمون فلاسفة كل العقول التى لا يسهل عليها ان تتقبل بسهولة الكثير من الافكار والآراء ، وبخاصة تلك العقول التى ليست على استعداد للاعتقاد فى معجزات النبى . ومع ذلك فمن الصعب ان نقبل اتهامها كهذا بوجه الى

الدراويش ، فهم ليسوا متتورين للحد الذى يتعمقون معه فى موضوعات جادة بل يبدو أن مثل هذه الموضوعات لا تثير اهتمامهم . ومهما يكن الأمر فإنه يظن بكثير منهم الهرطقة وعدم الورع . ويقول خصومهم بأنهم يجملون من إيمانهم بالله نهاية المطاف لعقيدتهم ، فلا يلتزمون بمد ذلك بإقامة الصلاة أو الامتنال للفروض ، ويأثمهم لا يخضعون إلا من حيث الشكل ، ويأن كل ما يتظاهرون به فارغ لا قصد منه سوى الرياء . وثمة طوائف دينية أخرى كثيرة من المسلمين ولكن حيث أن بعض هؤلاء من النسك العاكين وبعضهم الآخر حجاج جوابون فسوف يكون من الصعب علينا أن نقدم تفاصيل موضوعية عنهم ، ولكننا نكتفى هنا بأن نتحدث بعض الشيء عن الأولياء ، وهم بالنسبة للمصريين موضع تقديس خالص .

ليس ثمة شعب لم يخلط بمعتقداته وممارساته الدينية صوراً من صور الامتنال المضحك ، فلقد صور المصريون فى عصورهم القديمة الآلهة فى أشكال بالغة الغرابة والوحشية ، وقدم الاغريق الآلهة الذين اظهروهم فى شكل النهمين الى اللذات الخليفة والمنفرة ، أما الرومان فقد كان لديهم عرفانهم الباحثون عن شكل المستقبل بفحص امعاء وجروح الاضحيات ، وكم من مرة استسلم الشيوخ العظام لأول جمهورية عرفها التاريخ لشبهة الدجاجات المقدسة ، او لنتيجة استجلاء جروح الاضحيات حتى يقرروا مصير الوطن ، اما عبادة الكهنة الفالبيين فهى أكثر الامور المفزعة التى يقدمها لنا التاريخ ، ومع ذلك فقد ظلت لوقت طويل عزيزة على الفالبيين ، وهكذا ، وكان هذا قدر لا يمكن الإفلات منه ، اذ يبدو أنه لصيق بكل أنظمة البشر ، كرس المحدثون شأنهم شأن القدامى أخطاء ومعتقدات بعيدة عن العقل ربما لم يعد من الممكن اغتفارها مع هذا المدى الذى بلغه عقل الإنسان عما كان عليه فى تلك الأزمان الضاربة فى القدم . وفى هذا الصدد لا يقل المصريون المحدثون غرابة عن أسلافهم وان كانوا أقل منهم عمقاً ومهارة ، فهم يقومون بعبادة أمور يمجها العقل مثل الأضرحة والأولياء حيث يعتقد الناس هناك أن الله قد كلف أولياء بخدمتهم وهياهم للأمر بطريقة شاملة أصبحوا معها لا يبالون — أى الأولياء — بكل ما هو أراضى ، بل أنهم جميعاً قد فقدوا الشعور بأحاسيسهم الدنيوية ، وهكذا يلتقى البلهاء فى حياتهم الاحترام والاكبار باعتبارهم أولياء وتقديسين . وثمة بعض من هؤلاء يتمتعون بقدر ضئيل من المواهب الروحية والخلفية ، لكن هؤلاء ينسحبون الى

الاماكن المعزولة ليمشوا كنسك زاهدين وينهمكون فى الصلوات والتأمل، وثمة اولياء من كلا الجنسين ، ويرى هؤلاء على الدوام وهم يسكرون عراة كما ولدتهم امهاتهم ، لكن التقديس او قل هو العمى العام يكون بالنسبة لهم بمثابة الرداء (١) . ويدفن هؤلاء الاشخاص بعد موتهم فى احتفال كبير ، وتصبح مقابرهم بالنسبة للناس اماكن ملئ بالمعجزات ، وفى الارياف ، وكذا فى الاحياء البعيدة عن وسط المدن ، يوجد الكثير من هذه الأضرحة التى تدين بوجودها لهبات المسلمين المتحمسين ، وهى على شكل قباب صغيرة تتفاوت درجة فخامتها ، وثمة رجال مكلنون بالحفاظ عليها وللقيام بوظيفة الامام فى هذه المساجد - المقبرة ، لكن هذا العمل على الدوام ليس مجزيا ، وكثيرا ما تقابل فى الشوارع رجالا تغطيهم الهلالية ، يتموج شعرهم المتهدل ويمسكون بيدهم عصا : هؤلاء هم شيوخ مقابر الاولياء جاءوا يتكفون الناس .

وفى بعض الاحيان يلعب بعض المخاطلين دور الولي حتى ينعموا بالترحيب والاحترام ، وبخاصة كرم الضيافة ، ولكن بعد وقت يطول او يقصر ، يتوصل الناس الى اكتشاف الخدعة ، ويكون الهجر والاحتقار هو نصيب هؤلاء الاولياء المزيفين .

٢

الاعيد الدينية ، المبادئ الرئيسية للمقيدة الاسلامية

سبق لنا ان تحدثنا عن اعياد المصريين اثناء حديثنا عن الاحتفالات وضروب اللهو عند الشعب المصرى ، وعلى الرغم من ان اعياد المصريين كلها تعود الى اصل دينى ، فليس ثمة سوى عيدين من هذه الاعياد يمكن اعتبارهما بحق اعيادا مقدسة ، وهذان العيدان هما عيد رمضان (عيد الفطر) وعيد اضحية ابراهيم (عيد الاضحى) . ويبلغ طول العيد الاول

(١) يروى عن كثير من الاولياء انهم لم يكونوا على الدوام بمنأى عن ملذات الحس ، ويقال ان القداسة التى يتدثرون بها قد سهلت لهم على الدوام وسائل اشباع كل ملذاتهم دون ان تمس قداستهم حيث انهم لم يخذلوا الحياء العام او يخرجوا على مقتضيات اللياقة .

ثلاثة ايام ، وفى هذا العيد يشكر المسلمون ربهم لانه قد مكثهم من أن يمضوا فترة الصيام على خير ، اما العيد الثانى ، العيد الكبير ، فيتم الاحتفال به فى العاشر من ذى الحجة وهو آخر شهور السنة ويستمر اربعة ايام بالنسبة لعامة الشعب ، لكن الأثرياء وكبار الشخصيات يحتفلون به لاسبوع كامل ، ويتفق حلول هذا العيد مع وصول الحجاج الى مكة فيذبحون على الجبل اضحياتهم . وفى يوم العيد تذبح كل أسرة مسلمة فى كل انحاء مصر حملا أو اى حيوان آخر بحسب امكانياتها ، اما الأغنياء فيذبحون ذبائح عدة بحيث يخصص لكل فرد من الأسرة ذبيحة على الأقل ، لكن الفقراء يكتفون بأضحية واحدة .

ومما هو جدير بالذكر ان الأعياد الدينية التى تررها محمد لا تشبه فى شئ اعياد المسيحيين ، اذ هى ليست ايلاما للراحة ، فهى لا تتفرق عن بقية الايام الا فى الصلوات الاضافية والادعية التى تلى فى كل مسجد، وبخلاف ذلك فان المحلات تظل مفتوحة ويستطيع العمال أن يقوموا بأعمالهم المعتادة ، لكن الناس يفضلون أن يرغبوا عن انفسهم ، فيرتدون أجمل ملابسهم ، وتفص الثوارع بأكمل انفسهم فى المرح .

ونذكرى مولد النبى هو الأخرى مناسبة لمباحج كبرى للعملة مفتوحة. الميادين بالمهرجين والحواة والموالم وباعة الحلوى ، ومع ذلك فلا ينتظر لهذه المناسبة باعتبارها عيدا إجباريا اذ يمكن الاحتفال لو عدم الاحتفال به والعادة وحدها هى التى اقرته . وعند حلول المساء يسارع الناس بأضاءة الأنوار ويستمر اللهو حتى وقت متأخر من الليل .

وثمة عادة خاصة بمصر لا تشاركها فيها فيما يبدو بقية الدول الاسلامية ، تلك هى عادة اقامة الأعياد للأولياء ، حيث لكل قرية ولكل حى من مدن مصر الكبرى ولى يحتفل الشعب بيوم مولده ، ويرغم ذلك فلا تقام اية صلوات اضافية فى المساجد وعلى الرغم من الدافع الدينى لهذه الأعياد الا أن رجال الشريعة لا يشاركون فيه على الإطلاق ، ويتركون شئون

الاحتفال للسكان من كافة الطبقات وهؤلاء نهمون على الدوام للبهجة وضروب اللهو (١) .

ومع ذلك فشهر رمضان هو أهم الأوقات التي ينغمس فيها المصريون في المرات ومختلف ضروب اللهو ، فهو في مجموعه شهر صيام وشهر مهرجانات . وقد يبدو من الغريب أن يخاروا مثل هذا الوقت للقيام بممارسات متناقضة : التوبة وتطهير النفس من ناحية ، واللذات من الناحية الأخرى ، ولكن ، فلعل المشرع قد أراد بذلك أن يخفف من وطأة تلك التوبة المهلكة فعلم على أن تصحبها أوقات تخصص للمرات (كذا !) إذ يستطيع الناس بشكل أفضل أن يتحملوا من ضروب الحرمان تلك التي تعقبها المرات واللذات .

ولن يكون بمقدورنا أن نكون فكرة تامة عن شهر رمضان ، شهر صيام المسلمين ، إذ اتخذنا من صيام المسيحيين طرعا للمقارنة ، فلقد منح محمد نفسه كامل الحرية في تقديره لنمط الرجل الفاضل الذي ينشده والذي سيحوز مباحج العالم الآخر ، لدرجة أنه قرر نظاما بهذه القسوة يؤمنه مع أتباعه في هذا الصيام السنوي . فالصوم يستمر لشهر قمرى كامل ، ويأتى في أوقات غير محددة إذ يأتى أحيانا في الصيف وأحيانا في الشتاء ، لكن الشريعة نظل في كلا الفصلين على قسوتها ، فينبغى على المرء أن يحرم نفسه من كل طعام ابتداء من شروق الشمس حتى غروبها ، ولا يستطيع خلال هذه المدة لا أن يشرب ولا أن يدخن ، ومن السهل أن نتخيل قسوة مثل هذا الصيام ، إذا ما تصورنا كيف يكون العطش في منطقة مدارية كحصر ، هو أشد أشكال الحرمان امتنعاء على التحمل . وفي الوقت نفسه ، يكون على العامة الذين لا يستطيعون الاستغناء عن عملهم اليومي الذي يتكسبون منه عيشهم ، الانتظار حتى نهاية اليوم ليرووا غلتهم ، ويرى المرء في فترة هذا الصوم حمالين يسكرون — كما في الأيام العادية — وهم يحملون أحمالا ضخمة أو يعملون بطريقة شاقة أطول وقت من النهار ، دون أن يرطب حلقهم الجاف قطرة من ماء ودون أن يتناولوا وجبتهم الصغيرة

(١) يفضل المصريون الاحتفال بأعيادهم ومراتهم في الليل . وهذه في الغالب عادة كل الشعوب التي تعيش في جو حار . فالليل في المناطق المدارية في الواقع هو الوقت الذي تنشط فيه أجسامهم وملكاتهم .

المجهودة لتنشيط قواهم التي هدها العرق والتعب . ولكن ما ان ياتى المساء حتى يتغير المشهد ، انهم لم يعودوا نفس الرجال ، فالليل بطوله ينقض في الولاثم وضروب اللهو والفجور . في النهار يفعل كل امرئ قدر طاقته كي ينهى اعماله بسرعة ليخصص بضع ساعات للنوم ، فترى الفلاح راقدًا تحت النخلة بعد ان انتهى في فترة الصباح عمله ، وترى التاجر يرقد على بنك دكانه ، والعاملة مكددة في الشوارع بجوار جدران مساكنهم . بينما الغنى راقد بالمثل ، نعلان ينتظر على اريكته الفاخرة الفترة التي تسبق غروب الشمس . واخيرا تاتي تلك الساعة التي طال انتظارها ! فينهضون على عجل ويهرع كل امرئ للحصول على مكان مرتفع . وتتجمع النساء في شرفات منازلهن ليرين حركة اختفاء الشمس ، وبدا الشمس تشحب رويدا رويدا ويتاكل ترصمها ليختفي وراء الافق ، وتنحى — والناس في مشقة الانتظار — اشعتها حتى ان العامة وسكان القصور والقابعات في معاقل الحريم — كل هؤلاء يحيون بصوت جماعي تلك النهاية التي تلكأت طويلا طويلا — وتعلن الاغنيات الجدانة حلول وقت المسرات ووقت الطعام ، وتندوى من كل المساجد اصوات المؤذنين الجادة تنادى الناس للصلاة ، وتحث هممة واضطراب عام ، فيتفرق الناس على النور ، وتنفذ الجماعات ويتبعثر المتجمعون اما الى المقاهى واما الى البيوت والمساجد والميادين العامة ، وياكل كل امرئ بشراة ، ويقوم الاثرياء ماكب باذخة ويقدمون للفقراء فضلات موائدهم . ويقدم الطعام للجميع بلا تمييز ، لكل الحاضرين ، وهذه العادة الحميدة بلا شك ، تطبق في كل ولايات السلطان .

ويعقب الطعام الاحتفالات والاعباب . وتسيطر الخلاعة الجامحة على كل ضروب اللهو في ليلالى الفسق هذه ، وتظل المساجد مضادة حتى بزوغ النهار ، ويقضى افاضل الناس ليلهم في حديث نافع ، لكن الجمهور يذهب الى المقاهى حيث الرواة والمنشدون يقصون بحماسة ملتبة ، مغامرات عجيبة تخلق الالباب بطريقة فريدة ، ويهرع البعض الى الحمامات ، فهناك على وجه الخصوص تزدهر اللذات وتتم لقاءات الغرام ، والماملون بالحمامات ، المعتادون على هذا النوع من الأمور ، هم على الدوام عصب هذه المغامرات العاطفية ، وهكذا ينتقم الجنس من سجنه وطفاته ، ولكن ينبغى ان تحاط مثل هذه المغامرات باكبر قدر من السرية ، والا فان غضب الزوج الطمعون في كرامته لن يعرف لنفسه حدودا ؛

ويمكن القول ان الميادين العامة هي الأماكن التي تعرض فيها اكبر مشاهد الدعارة والفسق مدعاة للخجل . فهناك يقدم بعض الحواة والمشموعين مشاهد شهوانية تنتهى بلوحات يالفة الانحطاط والفظاظة تشكل فسادا مدهشا للتقاليد ، والممثلون الرئيسيون فى هذه اللوحات هم على الدوام شيخ وطفل . ويرغم ذلك ، فلو اننا حكمنا على تقاليد الأمة بأكملها عن طريق الميل الذى يبدىه أبناء الشعب عادة نحو هذه العروض ، لكونا بالتأكيد فكرة خاطئة وظالمة ، فمثل هذه العروض الماجنة لا تجذب الا السوقه والرعاع ، ومثل هؤلاء الناس فى كل مكان ، نهمون لرؤية مشاهد الغلظة والفسق بكل عريها ، لكن ما يدعو الى الأسف حقا هو ان تسمح السلطات بمثل هذه العروض .

بل ان مباحج رمضان تصل الى معاتل الحريم ، ففى رمضان يسمح للسيدات باستدعاء العوالم وبعض الموسيقيين ، ويجلس الزوج باسترخاء ولا ميالة على أريكته ، وببسم نارجيلته فى فمه ، والى جانبه احب زوجاته الى قلبه ، ليستمعا بتمتعة شديدة الى أغنيات العوالم وصوت الموسيقى ، ويحيط الزوجين بعض المبيد ، واثنين من حولهما او جالسين القرفصاء على حصيرة . ولا بد أن يبدى المرء اعجابه بذلك التمثيل الصامت (بانثوميم) للعالمه الشابه وهى تصور فى خلاعة وشهوانية ، الصراع بين الفسق وبين العفة ، ويحيط بقامتها الرشيقه حزام معقود برخاوة ، يبدو كأنه الحاجز الوحيد الذى يصد عنها هجمات الحب . وتعود لتعقده من جديد — برخاوة ايضا — كلما بدأ أنه قد بدا يستجيب بفعل قوة لا تقاوم وهى ترقص على نغمات الآلات ، لكن الحزام تزعزعه حركات الراقصة فينفك من جديد رويدا رويدا . عندئذ تنبّه العفة فجأة بعد أن نومتها الشهوة ، فتعقد الراقصة الحزام من جديد ، وينفس الرخاوة ، ويتخذ الرقص مظهرا أكثر جدية ووقارا . لكن ذلك يخلى مكانه مرة اخرى لحيوية الاخسانات والشهوة التى تبدو العالمه فريسة لها . . وتتجدد نفس الظروف وتضعف المقدرة الرهيفة التى تحول دون الحب ، وتعقدها الراقصة من جديد ، لكن الحب ينتصر ولا يعود أحد يعترض على انتصاره وتستجيب العالمه فى النهاية لمواطنها ، فتبطيء من حركاتها وتبدو غارقة فى هيام لذيق ويصفق الحاضرون لها بحماسة واعجاب ، ويحدث تمثيلها الشهوانى الصامت اثرًا يفوق الوصف على مشاهديها ، وبخاصة على الزوجة ، فنخرج

عن طورها — كما شاهدنا ذلك عدة مرات — متأثرة بتلك الرقصة الشهوانية — فتصل صوتها بصوت المغنين وتقلد حركات العالة .

لن نمضى طويلا فى وصف تقاليد المسلمين أثناء شهر رمضان ، فقد حان الوقت لأن نعود الى موضوعات أكثر جدية . لنلق نظرة سريعة على الدين بشكل عام ، حيث أن من الصحيح أن للدين فى مصر بصفة خاصة — وأكثر من كل البلدان الأخرى — تأثيرا على كل النظم المدنية والمعادن الاجتماعية .

ينبغى على المسلم أن يعتقد بوحداية الله (١) ، فى رسالة محمد ، مع الايمان بكل ما جاء فى القرآن باعتباره كلاما مقدسا (٢) ، وأن يؤدى الصلوات الخمس مع اداء الوضوء الذى لا غنى عنه لممارسة هذه الصلوات ، وأن يحرص على صيام رمضان ، وأن يؤدى للفقراء جزءا من دخوله فى حق لهؤلاء الفقراء (٣) ، وأن يحج الى مكة مرة واحدة فى العمر .

ويعترف المسلمون — شأنهم شأن المسيحيين — بقدرة الله وعدالته ومعرفته بالغيب لكنهم يعتقدون أكثر من المسيحيين بالقضاء والقدر ، وأن كانوا يختلفون فى درجة تمثل هذه الفكرة ، ويتقدم هذا الاعتقاد الى استسلام لا حدود له يميزهم عن سائر الشعوب ، ويعتقدون فى نفس الوقت أن الأعمال الانسانية وأحداث العالم محددة بنظام ثابت ، حتى أنه ليس بمقدور المرء أن يتوقع بما سيكون ضارا به حتى ولو كان مرضيا معديا (٤) . ويفسر استسلامهم الطبيعى على الدوام بأنه خضوع اعمى لمشيئة القدر .

(١) ينبغى الاعتقاد بصورة مطلقة فى وحدانية الله فعلى المسلم الحق بأن يؤمن بأن الله أحد وبأنه لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

(٢) يعتقد المسلمون أن الله أنزل القرآن على محمد عن طريق الملاك جبريل آية آية على مدار ٢٣ عاما .

(٣) من أهم الصدقات الاجبارية التى على المسلم تقديمها ، صدقة عيد الفطر .

(٤) ينقسم المسلمون حول هذه النقطة ، فيذهب الانحطاط والأتراك عموما الى أن الاجراءات الصحية تعتبر مظهرا مبينا لقدرة الله ، لكن بقية المذاهب أقل تمثلا .

ويرى المسلمون أنه لا يمكن تمثيل الله على أية صورة ، كما يرون أنه لا ينبغي التعمق فى البحث فى ذات الله ولكن ينبغي فقط البحث فى صفاته ، ويرى بعضهم ان الروح منبثة فى كل خلايا الجسم ، وانها تجرى مع الدم فى العروق ، ويرى آخرون أنها مثل الشمس تتوزع أشعتها على كل اجزاء الجسم ، وقد قال محمد عن الروح انها من امر الله . وعلى العموم فان المسائل الميتافيزيقية التى مزقت مدارسنا المسيحية طويلا ، لا يميل اليها علماء المسلمين الا قليلا ، فمعتقداتهم أفكار مسبقة ، وهم لا يسمعون لتفسير ذكاء العقل الانسانى وينظرون الى موسى والى المسيح باعتبارهما من الانبياء ، فالمسيح هو روح الله جاء عن طريق نفخة من جبريل فى العذراء ، وعندما قام برسالاته على الارض صعد الى السماء حيث الذات العليا ، وحيث يعيش الآن وان الكفرة الخاطئين فى تواطئهم الاجرامى لم يقتلوا او يعذبوا الا شبيها له .

ويتفق العلماء على ان اليهود والمسيحيين الذين عاشوا قبل رسالة محمد كانوا مؤمنين بحق ، ولكن حيث ان هذه الرسالة الاخيرة قد جاءت لتغير وتصلح من كل الشرائع التى جاء بها الانبياء السابقون ، فان اتباع موسى الحاليين وكذا اتباع عيسى كفار وغير مؤمنين .

ويرى المسلمون ان العالم مخلوق وان الله وحده هو الازلى ، ولا يعود زمن الخلق الا الى الف عام وبضعة قرون ، والفترة التى ينبغي ان يحياها العالم غير مؤكدة ، وينصح محمد اتباعه الا يحاولوا مطلقا البحث فيها ، وقد خلق الله الخلق فى ستة ايام : فخلق الارض فى يوم السبت ، وشكل الجبال فى اليوم التالى ، وفى اليوم الثالث خلق الاشجار والنبات ، وفى الرابع خلق الالام والفتن الاجتماعية (وهو يوم سىء الطلع) وفى اليوم الخامس خلق الظلمات والنور ، وفى السادس خلق الحيوانات . وظهر آدم فى اليوم السابع لاول مرة على ظهر الارض ، وكان قد تشكل منذ أربعين يوما .

ويؤمن المسلمون ايضا بهذا الاعتقاد الباعث على الامل والمواساة : الايمان بخلود الروح ، وهذه الفكرة هى بمثابة المحور لكل معتقداتهم . وعند الموت تصعد روح المسلم الحق الى الجنة ، وهى خضراء على الدوام ، لتنتظر يوم الحساب الاكبر الاخير ، اما روح الميؤ فتبقى أسيرة فى

المناطق المعتمدة والأسنة ، ولكن عندما تقوم الساعة ، وتحل ساعة الحساب ، فإن العالم سوف ينقلب رأسا على عقب ، وتشكل الأرض من جديد . وتفتح في النهاية أبواب الجنة وأبواب النار ، ويتفحص الله محاطا بكل رسالة أعمال البشر ، وتعود الأرواح إلى الأجساد التي ستنهض من تلقاء نفسها بكل حيوياتها ، وعندئذ يدخل العادلون في جنة النعيم لكي لا يخرجوا منها ، أما الآخرون فيذهبون ليكفروا عن جرائمهم ، ولكن ليس ثمة عذاب أبدى إلا لمن لم يصدقوا رسالة وكلمة محمد (١) .

(١) السعادة التي وعد بها محمد أتباعه حسية خالصة ، وهي عبارة عن ملذات شهوانية أبدية ، ويقول المسلمون أن كل إنسان يوم البعث سيكون في قوة وقاية الإنسان الأول ، التي لم تكن تنقل تبعاً لأقوالهم عن خسين قديما ، وسوف تكون النساء على درجة من الجمال تشغل معها قلوب الرجال بعاطفة تتجدد على الدوام ، ويستطيع الرجل إشباعها إلى ما لا نهاية دون نفور أو ملل . أما النساء فلن يحملن مطلقاً ، لأن هذه الملذات ستكون على نحو ما ملذات علوية ولن يترتب عليها شيء من نقائص الطبيعة البشرية . وسيحفظ العقل وكل الأطراف بكل حيوياتها ، كما أن الذين سيعمرون هذه الجنان سيتمتعون بسعادة لا تحول ويكل مباهج الوجود وملذات الحس ، إذ أن أجسادهم ستظل على قوتها أبداً . ويشيع الاعتقاد في أوروبا أن محبداً قد استبعد النساء من جنته(*) ، وهذا خطأ . فقد قال مؤلف كلاسيكي : « أن ما قيل عن الرجال بخصوص الجنة هو نفسه ما قيل عن النساء » وحيث أنهن خاضعات لنفس الفروض الدينية مثل الرجال فينبغي أن يتمتعن بنفس المكافأة . فالصلوات الخمس وصيام رمضان والحج إلى مكة ، كل هذه فروض الزامية على الجنسين . لكن النساء لا يسطنعن لا أداء الصلاة ولا صيام رمضان أثناء فترات الدورة الشهرية ، لأنهن في هذه الفترة لا يتمتعن بالطهارة الواجبة للعبادة . ويؤكد الكثيرون أن النساء كان بمقدورهن أن يتوجهن إلى المساجد في أيام النبي ، لكن الخليفة عمر عندما لاحظ ما يسببه وجودهن من سرحان عند الرجال وما يمكن أن ينتج عن ذلك من فضائح ، أمرهن ، بأن يؤديين الصلاة في بيوتهن .

(*) وهذا ما نجده عند منتسكيو حين يقول : « وحيث أن النساء من طبيعة دون طبيعتنا وحيث أن أنبيائنا قد قالوا أنهن لن يدخلن الجنة ..
Lettres Persanes, Lettre XVII.

بل إلى فولفي Volney نفسه برغم من تجرعه في دراساته الشرقية قد ذهب إلى ذلك حيث يقول في كتابه :
Voyage en Egypte et en Syrie, t. II, P.323.

وليس ثمة طريق للحصول على مكافأة الحياة الأخرى إلا الطهارة والصلوات ، ويستطيع المسلم أن يؤدي صلاته في أى مكان ، فيسيطر على الأرض سجادة أو حصيرة أو حتى شال غمامته ، ويستدير بوجهه جهة مكة ، وصلاته قصيرة لكنها حية ، وإذا لم يكن ثمة ما يمنعه من الذهاب الى المسجد فينبغى أن يؤدي صلواته هناك ، فهذا أفضل ، أن الله خلقنا في كل مكان ، لكن من الأفضل أن نعبد في بيته .

وفى داخل كل مسجد ، ثمة حوض كبير مليء بالمياه ، هناك يفسل المسلمون الأجزاء المستورة من جسيمهم (الاستنجاء) ويظهرون أيضاً لحقيقتهم وفراغيتهم حتى المرفقين . وعندما يجوبون صحراوات لا ماء فيها ، فأنهم لا يعفون من أداء نوع من الوضوء ، يحل فيه الرمل الناعم أو التراب الطاهر محل الماء الذى ينقصهم (التيمم) .

والهدف من صيام رمضان بلا شك ارغام المسلمين على أن يولوا اهتماما اكبر الى واجباتهم الدينية ، حيث أن عليهم في هذا الوقت أن يحرّموا أنفسهم من جزء كبير من اللذات الحسية ، فإن أرواحهم التى تحررت طيلة النهار من الهموم التى تشغلها عادة ، يمكنها أن تنغمس في حماسة اكبر في التأمل والصلاة . وهم لا يأكلون الا في الليل كما قلنا ، والليل هو كذلك الوقت الوحيد الذى يسمح لهم فيه أن يقربوا زوجاتهم . ومن جهة أخرى فمقسوة الصيام لا تمتد لأبعد من ضروب الحرمان هذه ، إذ باستطاعتهم أن يأكلوا كل شيء كما يحدث طيلة العام . ورمضان هو زمن الصوم الإيجابى الوحيد ، وللمسافر الذى يقوم برحلته اثناء الصوم الا يصوم ، لكنه ملزم بأن يعوض بعد ذلك الأيام التى سيفوته ان يصومها .

والحج الى مكة واجب الزامى ينبغى على كل مسلم حق القيام به ، ومع ذلك فحيث ليست هناك سن محددة لأداء الحج ، وحيث أنه ليس ملزما

== « أن محمدا برغم شدة ولعه بالنساء لم يمنحهن شرف معاملتهن كجزء من الجنس البشرى . فهو لم يشر اليهن لا بخصومس الفرائض الدينية ولا بخصومس مكافآت العالم الآخر ، لكن هذا الزعم لم تكذبه كل مؤلفات رجال الدين الاسلامى محسوب ، بل ان القرآن نفسه ليس فيه ما يؤكد صحة هذا الزعم .

بذلك الا عند المفطرة ، فكل مسلم يؤجل هذه الرحلة ، وقد ينتهى به الامر بان يعفى نفسه نهائيا من الحج . ومن هنا يحدث ان كثيرا من المسلمين يموتون تكون آفاتهم للحج .

ويحرم محمد على اتباعه — وهو الذى يحتم عليهم الطهارة الخارجية فوق كل شيء — الاتصال بزوجاتهم اثناء الدورة الشهرية التى تتعرض لها النساء — وكذلك اثناء الاربعةين يوما التى تعقب الولادة ، لكنهم يستطيعون الاتصال بنسائهم اثناء الرضاعة ، ويخول للمرأة التى تحمل اثناء الرضاعة ان تواصل ارضاع طفلها اثناء الاشهر الاولى من الحمل ، على الرغم من ان الأطباء يرون ان لبن الأم فى تلك الظروف لا يكون صحيا .

وتسمح الشريعة الاسلامية بكل لحوم الحيوانات المفترسة ، لكنها تحرم من بين كل الحيوانات ذات الظلفين اكل لحم الخنزير ، ولا يحرم اكل الخيول الا اتباع المذهب الحنفى ، وينبغى على المرء ان يفسل الاتاء الذى شرب منه الكلب سبعة مرات قبل ان يستطيع استخدامه من جديد ، وتختلف المذاهب حول علة هذا المبدأ ، فيرى البعض ان الكلب دنس بطبعه ، ويرى آخرون ان الدنس فيه فقط هو انفه ونفثه . ويرى فريق ثالث ان محمدا لم يقدم هذا النصيح الا خشية ان يكون الكلب قد تناول طعاما او شرابا غير طاهر . ونحن ندخل فى كل هذه التفاصيل ، كى نعطي فكرة عن نوع عقلية المذاهب المختلفة ، فهى لا تختلف مطلقا الا حول مثل هذه الأمور الواهية .

وينظر الى الدم باعتباره غير طاهر ، لذا لا يمكن تناول لحم حيوان نفق بشكل طبيعى ، او قام البعض بخنقه ، فلا بد ان يذبح وان تسبيل دماؤه ، ويخضع لهذه القاعدة ايضا الصيد الذى يقتله طلق نارى ، لذا يسارع المسلمون بقطع رقاب الطيور والارانب او الحيوانات الاخرى التى يصيبنها بطلقاتهم ، والسبك وحده لا يتطلب مثل هذا الامر (١) .

(١) ليست النباتات ولا الحيوانات دنسة ، ومع ذلك يمتنع المسلمون عن اكل لحوم الفرائس لسبب يعود الى نفور طبيعى اكثر مما يعود الى دافع دينى . ويرى المذهبان الشافعى والحنفى تحريم استخدام الزواحف كغذاء ، لكن المالكيين يستثنون من ذلك الثعابين اذا ذبحت .

وقد لاحظنا ان ثمة تماثلا كبيرا بين تعاليم المشرع العربى ومحرمات موسى ، ومن الواضح أن محمدا قد أستعار عن المشرع اليهودى اجراء صحيا أراد ان يجعله غير قابل للنقض من قبل الناس . صحيح أن لحم الخنزير له آثار بالغة الضرر على بنية من يتعمدون عليه فى البلدان شديدة الحرارة مثل أفريقيا وآسيا ، بل أن هناك من يؤكد أن الجذام ليس له من سبب إلا التعمود على أكل لحوم الخنزير . وليس لمحمد من هدف فى الزام اتباعه بالوضوء وطهارة الجسم سوى ضمان صحة أتباعه . والقرآن ملئ بالمبادئ الحكيمة حول طريقة الحياة ، وكلها تهدف بوضوح لنفس الغاية . وختاما نقول ان المسلمين ينفذون بدقة كل ما فرض عليهم ، ونادرون أولئك الذين يسمحون لأنفسهم من بينهم بالخروج على أوامر النبى ومع ذلك فلسوف تكون سعادتهم أكبر لو أفرقوا المغزى الفلسفى المصبق لبعض هذه الأوامر والمعتقدات ، تلك التى تبدو طيبة ومواتية وهى تحشت اثرها المطلوب فى أجسامهم .

٣

الحكومة

كانت حكومة الاقليم تتكون قبل مجيء الجيش الفرنسى من الباشا ورؤساء الأوجاقات السبعة و٢٤ بك . وكان البك الأول يتولى وظيفة شيخ البلد ، وكان يحكم القاهرة ومصر ، أما المنصب الثانى فهو منصب أمير الحج ، على الرغم من أن هذين المنصبين — حسب دراسة عن نظام البلاد الادارى — يمكنهما أن يجتمعا فى منصب واحد . وأمير الحج موكل بحراسة الحمل ، ولا يعنى لقبه شيئا آخر سوى أمير الحج أو أمير الحجاج . والشخصية الثالثة فى الحكومة هو الدفتردار أو المستشار . وبعد هذه المناصب العليا يأتى البكوات حكام الاقاليم ، وتحدد درجتهم بحسب أهمية ولاياتهم ، وعلى هذا كان حاكم جرجا يعد أول هؤلاء البكوات وكان يحمل لقب باشا بذيلين(*) أما البكوات الآخرون فأقل امتيازاً .

(*) يذكر الصديق الأستاذ رينيه جورى فى احدى دراساته المخطوطة — وهو باحث مدقق — أنه كانت هناك ثلاث درجات لرتبة الباشا هى كما يلى : —

وكانت كل السلطة التنفيذية مركزة في يد شيخ البلد ، وهو في الواقع حاكم مطلق ، إلا إذا جاءت ظروف غير عادية لفرغه على اقتسام السلطة . وهكذا كان الأمر وقت نزول الجيش الفرنسي أرض مصر ، فقد كان مراد بك — وهو الذي كان أميراً للحج وشيخاً للبلد والذي لم يكن يحتفظ مع ذلك إلا بجزء من اختصاصات هذين المنصبين — يحكم ثنائية مع إبراهيم بك شيخ البلد الأصلي . وكان يتحتم أن يوقع شيوخ البلد كل الأوامر المتعلقة بالأجراءات الاستثنائية والضرائب الإجبارية الباعطة على الولايات وأهلان حتى تصبح سارية المفعول ، وهكذا يمكن القول بأنه قد ركزت في يده على الدوام قوة وسلطة الحكومة .

وكان حق تحصيل الضريبة المخصصة لمكة من اختصاص أمير الحج . لكن هذه الضريبة أصبحت شيئاً مخالفاً لما كانت عليه في فترات سابقة، حيث ظلت تنكمش شيئاً فشيئاً بفعل سطو البكوات الآخرين حتى لم تعد حصيلتها تبلغ إلا مقداراً ضئيلاً .

وكان شاغلاً هذين المنصبين بدرجة باشا بنزيلين وكذلك كان حاكم ولاية الشرقية واسلام باشي الذي كان مكلفاً بالسير أمام الحمل عندما يعود إلى القاهرة لكي يمد المسافرين بالمؤن والجمال والخيول والبغال . الخ . التي قد يكونون بحاجة إليها بعد سفر بهذا الطول . وفي البداية لم يشأ سليم الذي قسم وظائف الدولة على هذا النحو وحدد كذلك اختصاصاتها ، أن يتم اختيار هؤلاء الموظفين الكبار من بين المالكين أو السناجق ولا من أبناء البلاد لأسباب أكبر إذ كان العثماني على الدوام

-
- = ١ — باشا بنزيل : وهذه الدرجة تعادل رتبة الفريق .
 ٢ — باشا بنزيلين : وهي تعادل ما كان يسمى برتبة الميرميران .
 ٣ — باشا بثلاثة ذبول : وهي تعادل ما يسمى برتبة المشير .
 ولم يكن يحمل الرتبة الأخيرة في كل أنحاء الإمبراطورية العثمانية إلا ثلاثة فقط هم :

الصدر الأعظم ، قبطان باشا ، والي مصر .
 وعند مرور موكب أي باشا كانت تسبقه حربة مرفوعة مثبت بها عدد الذبول التي تحدد درجته كما كانت توضع أمام بيوتهم فوانيس مذهبة أو فضية تنتهي رعوها بريشة واحدة أو اثنتين أو ثلاث بيضاء أو بنية اللون، ويتفق عدد هذه الريشات مع درجة الباشا ساكن البيت .

يكون نوعا من الاحتقار للعرب ، وكان هؤلاء بدورهم برغم ريثامهم للعشائلى
وخداهم لهم يكون لهم نفس الاحتقار . ويعود تعيين الـ ٢٤ سنجقا كذلك
الى عهد سليم . وقد خول هذا الأمير لـ ٢١ منهم بأن يكون - لكل - فرقة
من المستبين تتألف من ٦ طبيلات ، ٦ نقارات (دسوف) ، ٦ مزمارة ،
نفرين ، وصنجة واحدة ، وكانوا يحصلون على عطاء يصل الى ١٠٠٠ را
أردب من القمح فى العام . أما البكوات الثلاثة الآخرون فلم يكن لهم الحق
لا فى الفرقة الموسيقية ولا فى العطاء السنوى . وكان يختار من هيئة الـ
٢١ هؤلاء حكام ولايات : الشرقية ، المنصورة ، البحيرة ، المنوفية ، اطنح ،
الجيزة ، البهنساوية ، الفيوم . وكان بك جرجا يحكم البلاد التى تمتد من المنيا
حتى آخر حدود الصعيد . وكان الدفتردار أيضا يخرج من بينهم .

وكانت الوظائف المشار اليها سنوية ، وفى نهاية العام ينتقل شاغلو
هذه الوظائف الى مراكز أخرى أو يصبحون أفرادا عاديين كما أن بإمكانهم
أن يشتتوا ، وهذا ما كان يحدث عادة وخاصة فى السنوات الأخيرة . أما
الباشا فكان يتغير على الدوام حسبما يتراءى للباب العالى أو بنصيحة من
الماليك . فضلا عن ذلك ، فقلما كانت تسمح الشفقات والنزاعات
المستمرة التى تهز مصر لأصحاب المناصب البقاء فى مناصبهم تلك ، فقد كانت
العصب المتشاحنة على الدوام يقلب بعضها البعض وتتبادل السيطرة
والمناصب ، وذلك هو الذى تقدمه حكومات الماليك منذ حوالى نصف قرن .

وكانت للبكوات الثلاثة الآخرين فى سلطنة الـ ٢٤ سنجقا مهام
ثانوية . فكان أحدهم كخيا أو وكيلًا للباشا ، وكان الثانى شركة - بك ، وهو
يقسم منصبه مع زميل له ولم يكن أى منهما يتمتع بسلطة من أى نوع ، أما
المنصب الثالث فكان يشغله كذلك اثنان من البكوات ، وكان أحدهما يحكم
البلدة المسماة مقران فى ضواحي الجيزة ، أما الآخر فكان يحكم المنطقة
المجاورة للمنصورة .

وقد نظم سليم سبعة أوجاقات أو سبع فرق عسكرية : أولها فرقة
(أوجاق) الانتكارية (ومضاهي الفرقة الجديدة) ويشكل العزبان الأوجاق
الثانى ، والمتفرقة الأوجاق الثالث ، والجاويشية الرابع ، والجاموليان
الخامس ، والتامكجيان السادس ، وأخيرا يأتى أوجاق الشراكمة . وكان

للأوجاقات الأربعة الأولى نظم خاصة بكل منهم ، أما الثلاثة الأخرى فتخضع لقانون عام .

وكانت حراسة القلعة موزعة بين الباشا واولجلى الانتكشارية والعزبان ، وكان الباشا يحتل بابين من الأبواب الأربعة الموجودة فى القلعة: احدهما يؤدى الى الجبل والثانى الى تراميدان . أما البلب الثالث فيسمى باب الانتكشارية ويسمى البلب الأخير بلب العزبان . وكان يحرس بلب الانتكشارية كخيا (متولى) وكان تحت امرته ٦ جاويشية و ٥٠ اودا باشى . وكان لكل من هؤلاء الضباط مساكن بالقرب من البلب ، ولهم أربعة رؤساء يختارون من بينهم هم الذين يصبحون جاويشية ، وكان الأوده باشى او رئيس الحجرة لا يركب الا الحمار . وكان للجاويش الدلامة السوداء ، وخفان احمران وقاووق او عمامة من القطيفة السوداء .

والدلامة ليست الا جلبابا واسما من الجوخ الاسود . وعندما يصبح هذا الشخص سراجا للآغا ، يضيف الى قاووقه قطعة من الموسلين الأبيض.

لكن هذه الفرق العسكرية قد دبت فيها اليوم عوامل الوهن ، فالمليك وحدهم هم الذين يصنعون القانون، وجنودهم هم الذين يحيطون الميليين الهامة ويديرون شئون الفرق الأخرى . ولم نتناول فى حديثنا عن الوظائف الهامة للحكومة اختصاصات القاضى ، ذلك ان اختصاصات القاضى ذات طابع مدنى صرف ، وهو يعين من قبل البلب العالى — مثل الباشا — ويختار القاضى قضاة الأقاليم ، وهو يختارهم جميعا من اهالى البلاد ، ومن خريجى الأزهر ، حيث درسوا الشريعة وكيفية تطبيق القانون . ويفضل خريج الأزهر هذه الوظيفة على كل الوظائف الأخرى ، لأنها تقود بسرعة نحو الثروة وتحظى باحترام الناس .

وقد حدد السلطان سليم القلعة كمقر إقامة للباشا ، ولا يجوز له ان يختار مقرا آخر .

وكان هو الذى يخلع الخلعة على من وقع عليهم الاختيار لشغل

المناسب ويتلقى هدية من كل من يعينهم (١) ، ولكن بعد أن استعاد الماليك سلطتهم تغير كل شيء ، ولم يعد الباشا فى السلطة الا مجرد ظل يعانى كل نزوات الماليك ، بل يمكن القول بأنه كان واقعا تحت رحمتهم ، وهذا هو الحال الذى كانت عليه مصر عندما دخلتها قواتنا .

قلنا ان امير الحج او امير المحمل كان موكلا بوجه خاص بقيادة الحجاج الى مكة ، ويتأمين طريق العودة لهم . وحيث أن سفر المحمل كان حدثا هاما بالنسبة لمدينة القاهرة بل لمصر كلها ، فنسندخل فى بعض التفاصيل عن الحفلات التى كانت تتم بهذه المناسبة .

عندما يقترب الموعد المحدد لسفر المحمل يتجمع فى القاهرة كل المسلمين القادمين من افريقيا ، والذين يريدون الانضمام الى المحمل ، ويصل آخرون من القسطنطينية ، من روميلى ومن الاتاضول ، عن طريق البحر ، وحتى يختصروا الأسفار عليهم أن يقوموا بها إذا ما سلكوا الطريق المعتاد . ويسكر هؤلاء الحجاج خارج المدينة ، ويكون عددهم فى بعض الأحيان كبيرا جدا ، اذ يخرج من مصر وحدها ما بين ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ حاج . وحيث أن هؤلاء الحجاج مضطرون لاجتياز مناطق شاسعة ، تكاد تكون كلها صحراوية ومبتلاة بعشائر العربان ، الذين ليست لهم من حرفة سوى السلب والنهب ، فانهم مرغمون على التزود بالسلاح والذخيرة ، وتهدى لهم حكومة مصر ثوب ذلك ركباً قوامه ٥٠٠ فارس تحت امرة امير الحج ، يضيف اليهم هذا القائد بيته العسكرية (ماليكه) وبعض جنود من البرابرة ، بالإضافة الى الرجال العاملين فى خدمة كبار الشخصيات الموجودة بالمحمل . ومن حق امير الحج أن يرث كل حاج يموت فى الطريق ، وليس من حق احد أن يطالب بشيء من مثل هذه التركات . وتستغرق رحلة الذهاب اربعين يوما ومثلها فى رحلة العودة ، وبذا تمتد فترة المحمل الى حوالى الثلاثة اشهر . وتبدأ مسيرة المحمل فى السابع والعشرين من شوال ،

(١) كانت الخلعة عند الاتراك كما هو معروف ، تقدم الى المحتفى بهم فى حفل تشييبهم ، وهى عبارة عن قفطان وجبة ، ولم يكن يقدم فى المناسبات الثقوية سوى القفطان ، وهو معطف مفتوح من قماش متين ، بطاقته بيضاء بورود صفراء . وقد جرت العادة أن تزدان الجبة بفراء ثمين ، وأحيانا كان يكتفى بترتين حوافها ، وكانت الجبات التى يخلعها السلطان غالية الثمن .

لكن الصعوبة التي نجمت عن مرض اتلوة أصبحت تؤدي منذ عدة سنوات الى تعطيل السفر حتى ٢ أو ٣ من الشهر التالي . ويفتقر كل حاج ان يركب نوع الدابة التي تروقه ، وهم يفضلون على وجه الخصوص البغال والحمير لان هذه الحيوانات اكثر من الحصان تحملا للتعب وضروب الحرمان .

وقبل الرحيل بعدة ايام تعرض الكتوة او السجادة المخصصة لتزيين الكعبة في موكب باذج . وهذا الموكب عيد شعبي كبير، فيذهب كل سكان القاهرة في جماهير غفيرة الى الميدان الكبير الذي تطل عليه القلعة والذي يسمى قراييدان ، وهناك يسلم الباشا — يحيط به عدد كبير من البكوات مع بيوتهم (١) ، ورجال الأوجاقت والأغا وكبار موظفي الحكومة — يسلم السجادة المقدسة الى يدى امير الحج بعظمة وخيلاء ، وتحرر حجة بهذه الوديعة ، وبعد ذلك يكون من واجب كل أئمة المساجد وكل المسلمين بالمدينة ان يصحبوا السجادة ، فتحمل على جبل وترعى بلب النصر ويمضى الموكب الى معسكر الحجاج ، وتوضع السجادة في صندوق مغطى بالقمشة فاخرة مطرزة تطريزا فاخرا — ومنذ هذه اللحظة يقيم البك امير الحج وسط المعسكر ، ويضرب كل المسافرين تجارا كانوا أو حجاجا خيامهم حول خيمته ، ويكون من حق أى منهم ان يشرع في السفر ، لذلك ينتهز كثير من التجار هذه الفرصة الفريدة لكي ينقلوا بضائعهم دون أن يدفعوا رسوم الدخول أو الخروج ، فيحلبون على ظهور الجمال صبغة التيلة والأصواف وبضائع ثينة أخرى وكثيرا من الأموال ، ويجلبون معهم عند العودة شبلان (شال) الكثير والموسلين والأقمشة الفاخرة والبن (٢) .

(١) يقصد بالبيت عند الحديث عن أحد البكوات كل رجاله وماليكه .
(٢) من نافلة القول ان تلفت الانتظار الى أن للحج الى مكة الذي فرضه محمد أغراضا سياسية أكثر منها دينية ، اذ كان يأمل عن طريق الحج أن تزدهر التجارة في شبه الجزيرة العربية لتصبح واحدة من أهم أسواق التجارة في العالم

وتد تحقق هدفه ولو كان جزئيا ، اذ يمكن القول بأن الدافع وراء سفر نصف الحجاج على الأقل ليس سوى مصالحهم التجارية ويلاحظ مؤلف كتاب Tableau de L'Empire ottoman — ونحن نقره على ذلك — أن « محمدا قد حدد لعبد الأضحى وقت قدوم الربيع حتى يجعل السفر على الحجاج أقل مشقة ، ولكى يسهل في نفس الوقت نقل وبيع البضائع ،

ويكون وصول الجبل المقدس (١) ، اشارة ببدا الرحيل ، ويقود هذا الجبل الى المعسكر جمهور غفير . وعندئذ تطوى كل الخيام ويتوغل المسافرون فى الصحراء وبعد اقل من ساعة لا يعود الميدان الواسع الذى كان الحجاج يشغلونه سوى مكان موحش . ويسير أمير الحج فى المقدمة وتصطف فرق الحراسة على جانبي الموكب ، وكذلك عند مؤخرته ، ويظنون على هذه الحال حتى وصول الركب الى مقصده .

ولا نستطيع ان نوفا فخامة هذا الحفل ما يليق بها من وصف على الرغم من انها فى الأزمنة الأخيرة قد فقدت الكثير من روعتها التى كانت لها ، فقد كان على مراد بك فى معظم الأحيان — وهو الموكل اليه منصب أمير الحج — أن يقاتل العربان فى الصحراء ، بعد أن أصبحوا أكثر سطوة بسبب ضعف أسلافه ، ولو كان مجرد تأمين طريق المحمل والتجارة التى كانت تحظى برعايته كفيلا بإعادة ازدهارها السابق ، لربما كان بمقدور هذا الرجل المقدام أن يفعل ذلك ، لكن حوادث السلب ، والانتهاكات ،

ذلك أن الحج ليس له مبدئيا سوى قصد سياسى يتخفى تحت ستار الدين، والغرض الرئيسى منه هو التجارة وإقامة أسواق هائلة « ولقد تفهم المسلمون جيدا أهداف المشرع بحيث جعلوا من هذه الرحلة أمرا مفيدا فى العلاقات التجارية . ويصعب علينا أن نكون فكرة صحيحة عن الثروات التى تكسبت فى مكة أو تلك التى تتكدس فى الكعبة وقت الأضحيان ، وتتم هناك عمليات تجارية كبرى ، وتكون حركة البيع والشراء والتبادل خلال خمسة عشر يوما عظيمة ، لحد أن الذين يشهدونها لا يستطيعون تقدير قيمتها ولو بشكل تقريبي .

(١) يعود ظهور الجبل المقدس فى مواكب الحج بل ووجود هذا الجبل نفسه ، الى خرافات المسلمين وبساطة مفاهيمهم . إذ هم يدعون أن محمدا فى رحلاته قد حمل عرشه (!) على ظهر جبل وقد تناسل هذا الجبل بعد ذلك . وقد حرص السلطان على أن يمتلك اثنين من هذه الجمال التى تعد مطية النبى المفضلة ولكن حيث أن من الخطر أن تتعرض هذه الجمال لملاعب الحج ، فإنه يلجأ الى جمال أخرى يقال أن لها نفس الأصل وترى فى دمشق وفى القاهرة . وهذه الجمال اقل تكلفة وتقوم بالرحلة الى المدينة المقدسة . وتخليدا لذكرى أن محمدا كان يقوم بأسفاره على الدوام من مكة الى جبل عرفات على جملة فان الحجاج يحرصون دائما أن يصحبوا جملا القاهرة المقدس ، وكذا جملا دمشق المقدس ، فى كل الأسفار التى ينبغى عليهم القيام بها فى اليومين اللذين يسبقان ذبح الأضحيان .

بالإضافة الى الحالة المتدهورة للحكومة ... كل ذلك لم يكن يوفر ما يكفى من الأمان للسكان أنفسهم ، وهم الذين لم يعد بإمكانهم القيام بأعمال كهذه، أصبحت تعد ضربا من المضاربات غير مأونة المواعيد .

٤

القضاء

يرتبط القضاء الموكله اليهم مهمة اقامة العدالة فى مصر بالهيئة القضائية الاسلامية التى مقرها القسطنطينية ، ومن بين امتيازات الباب العالى حق اختيار القضاة من الدرجة الاولى ، كما أنه قد احتفظ لنفسه بحق تعيين باشا ، ولكن اذا كانت سلطة الباب العالى فى تعيين الباشا ليست سوى وهم ، واذا كان نفوذ مثله قد تضاعف لحد عدم شبه التام، فان الأمر لم يكن كذلك بخصوص ادارة القضاء ، اذ لم يكن فى هذا الأمر ما يتعارض مع رغبات المالك ، أو ما يضعف من نفوذهم السياسى ، لذا فقد قبلوا عن طيب خاطر أن يرسل اليهم السلطان رجالا موكلين بتلك المهمة الصعبة : مهمة تطبيق الشريعة . بل انها لمشقة وفرها هو عليهم ، وعلى هذا فانه لم يحدث مطلقا أن عارض المالك سلطات القسطنطينية القضائية فى حق تعيين رؤساء المحاكم بمصر . بل انهم باستقبالهم لهؤلاء القضاة الذين لن يؤثروا مطلقا على نفوذهم السياسى ، كانوا يهينون لأنفسهم مزية لا تكلفهم شيئا على الإطلاق ، تلك هى مزية تقديم الدليل على الولاء للسلطان .

ويشكل القضاء فى تركيا على نحو ما طائفة مهنية لها رؤساؤها الخاضعون للإشراف المباشر للمفتى الأكبر (١) ، وكل مناصب هذه الهيئة

(١). المفتى والمصدر الأعظم هما أكبر شخصيات الدولة بعد السلطان ، وتتكون الهيئة القضائية من علماء كبار ، وفى عهد السلاطين الأول كان العلماء ينقسمون الى ثلاث درجات : الأئمة (إمام) وهم الموكلون بالصادات ، المفتى أى فقيه الشريعة ثم القضاة : فقهاء العدل ، وهؤلاء الآخرون هم أكثر الجميع امتيازاً ، وقد منح مراد الأول لأكبر القضاة لقب قاضى العسكر وأنشأ محمد الثانى منصب قاضى عسكر ثان ، وأعلى عليهما سليمان الأول مفتى العاصمة وهو الآن شيخ هيئة العلماء ويحمل

قابلة للتغيير ، فالتغييرات فيها بالغة الشيوع ، ويمكن لنفس الشخص ان يصبح بالقناب شاعلا ووظيفة اعلى او ادى من تلك التي كان يشغلها ، ويقوم احد كبار اعضاء هذه الادارة القضائية بتعيين كل قضاة مصر ، وعددهم ٣٦ قاضيا بما فيهم قاضى العسكر المكلف بادارة شئون القضاء فى القاهرة ، والذي يعتبر القاضى الاول فى الاقليم ، وعلى الرغم من صدارته على كل القضاة الآخرين بسبب علو منصبه وكبر دخله وما له من اعتبار ، فان القضاة الآخرين لم يكونوا تابعين له ، اذ كانوا يتبعون القسطنطينية مباشرة ، ومعظم هؤلاء القضاة مجهلون لغة البلاد ، وكان قاضى العسكر على الدوام يستعين بترجمة كانوا يقرأون النصوص ويترجمونها كما يحلو لهم ، كما كانوا يحصلون اتاوات شتى .

. وقتما كانت مدة ممارسة اى من هذه الوظائف تتجاوز السنتين ، بل كثيرا ما كان يخرج القاضى من وظيفته بعد عام واحد . وكان كل واحد من هؤلاء القضاة يتلقى عند رحيله من القسطنطينية قرارا يحدد الولاية التى سيدبر شئون القضاء فيها ، كما يحدد المدة التى سيقضيها فى وظيفته ، واذا لم يتلق القاضى بعد هذا القرار امرا بتثبيته فانه يوقف مباشرة اعماله القضائية . وقد جرت العادة فى هذه الحال ان يترك مقره المعتاد كشيء انتقالى الى ان يتم تثبيته او وصول بديل له . وفى هذه الفترة يتولى رجل الشرع العمل نيابة عن القاضى ، ويستلزم هذا الامر دفع رسم الى القاضى المساعد بالمحكمة ، وكان قاضى العسكر عادة لا يبقى فى مكانه الا لعام واحد ثم يمضى بعد ذلك الى وظائف اخرى ، وعندما يصل القاضى الجديد من القسطنطينية ، فانه فى غالب الاحيان يبيع الوظائف التى كانت فى حوزته الى سلفه ، ولسنا نعرف مقدار الثمن الذى يمكن ان يبلغه هذا النوع من

لقب شيخ الاسلام ، وصدارة المفتى مقصورة على قضاة العاصمة ، ويشكل قاضى عسكر الاناضول المحكمة الثانية فى الامبراطورية ويحكم باسمه فى كل القضايا المتصلة بالمواريث فى كل اقاليم آسيا ، وهذه واحدة من المهام الاساسية لوظيفته ، ويدفع له كل شهر مبلغ يتفاوت قدره من رؤساء قرى ومقاطعات ولايته ، وقد اصبحت وظيفة القاضى قابلة للتغيير كل عام عند نهاية القرن الاخير ، وكان من النادر ان يشغل الشخص نفسه الوظيفة الواحدة مرتين الا اذا اتخذت ترتيبات معينة مع خلفه ، وكانت وظيفة الصدر الرومى - وهى التى تعلو كثيرا على مركز قاضى عسكر الاناضول - هى وحدها التى تستثنى من هذه القاعدة .

التراخيص ، ولا المبلغ الذى يفرضه صاحب الوظيفة حتى يتنازل عنها ، وكانت هذه الصفقات تتم بالتراضى بين الطرفين ، وبهذه الوسيلة كان القاضى يظل فى عمله لمدة تبلغ أربع او خمس سنوات .

وإذا ما لاحظ الباشا المقيم فى القاهرة بعد انقضاء عمل القاضى ان مساعد هذا القاضى ليس جديرا بأن يخلفه فى عمله ، فان بإمكانه ان يكلف الامام الخاص به بهذا العمل الهام ، وبهذه الطريقة اختار ابراهيم بك منذ عدة سنوات — عندما كان فى منصب قائم مقام — الشيخ العريشى لكى يقوم بصفة انتقالية بمهام القاضى ، بسبب غيبة امام الباشا .

وكان نفوذ قاضى القاهرة يمتد الى مصر القديمة وبولاق ، أما الجيزة فكانت لها محكمة خاصة بها، وكان القاضى يعين ممثلين عنه فى دوائر القاهرة المختلفة : ٩ فى المدينة ، واحدا فى بولاق ، وآخر فى مصر القديمة ، وكان هؤلاء القضاة المرؤوسون ، الذين لهم بدورهم مساعدون ، يفصلون فى القضايا باسم القاضى ، وعندما كان يتغير قاضى العسكر ، كان هؤلاء القضاة يشتركون من خلفه حق التثبيت فى وظائفهم ، وكان من المتبع فى البداية حسب الانظمة السائدة ان يفصل فى كل القضايا المقدمة الى دائرة ما ، ثم حدثت فى الآونة الاخيرة مجموعة من التجديدات فى هذا النوع من فروع الادارة كما فى بقية فروعها ، وترفع القضايا الكبرى عادة الى محكمة القاضى ، الذى يكلف اجد مثليه بالانتقال الى مكان الجنائية ، والبدء فى التحقيق .

ويتسلم القاضى عند دخوله الوظيفة فرماتا من الباب العالى يمهّد اليه بوظيفة قاض ، ويحول له أن يختار العدد الذى يراه مناسباً من المساعدين ، ومع ذلك فقد كان هذا العدد محددا بفعل العادة التى لها فى الولاية الاسلامية قوة القانون .

والحكم فى اية قضية لا نقض له (١) . ومع ذلك فقد وضع الدين شروطا مقيدة تنفى عن هذا الاجراء التشريعى صفة الاطلاق ، فمنحبا

(١) نقرا فى مجموعة فتاوى المفتى بهجت عبد الله افندى أن كل قضية تحمل الى القضاء وتفحص ويفصل فيها لا تحمل الى القضاء مرة اخرى .

تكون القضية خطيرة أو عندما تحظى باهتمام الشخصيات الكبيرة ، فان القاضى يستضىء بنصائح رجال الشرع ، ويستطيع الاطراف أن يحصلوا مقدما على نوع القرار الذى يصدره المفتى ، ويلجأ القضاة عادة الى هؤلاء المفتين ولرايهم سلطة معترف بها ، ويصدر المفتى على الدوام فتواه أو رايه التاطع ، واذا كان حكم القاضى قد صدر فهو عندئذ بمثابة قضاء من عند الله ، ومع ذلك لماذا حدث أن اجمع مفتو المذاهب المختلفة على الانتناص من قرارات القاضى ، فان القاضى يعترف بخطئه وينسحب حكمه الاول .

والقوانين التى يحكم بمقتضاها كلها مكتوبة ، وتستخلص أصولها من القرآن ، وتفسيرات هذا الكتاب السياسى والدينى هى ثمرة عمل جمهور كبير من المفسرين ، نميز من بينها كتب أئمة المذاهب السنية الاربعة وهذه المذاهب هى : الحنفى ، المالكى ، الشافعى ، الحنبلى . وكل علماء مصر تقريبا يتبعون المذهب الثالث ، ومع ذلك فان القضاء فى مصر — ومنذ ثلاثة قرون — يتم وفقا لاحكام المذهب الحنفى السائد فى القسطنطينية .

اما مهام قاضى العسكر المختلفة فهى :

- ١ — الفصل فى القضايا .
- ٢ — اختيار ائمة المساجد .
- ٣ — ادارة الأوقاف الخيرية .
- ٤ — تقسيم التركات .
- ٥ — تحصيل الرسوم المقررة على بيع ونقل الملكيات .

ومصاريف القضاء — كقاعدة عامة — تحصل من موضوع النزاع . أو من الشخص الذى يحكم لصالحه ، ويعتبر المسلمون أن فرض مصاريف على الشخص الذى لم يحكم لصالحه عمل متناقض وبالف القسوة ، ويفصل فى القضايا عادة على الفور ، ومع ذلك فثمة قضايا يستغرق فحصها عدة أيام ، بل يصل الأمر أحيانا الى شهرين أو ثلاثة شهور .

وفى كل قضية نمير أربعة أطراف : القاضى ، المدعى ، المدعى عليه .
موضوع النزاع . ولا يفصل فى أية قضية فى غيبة واحد من هذه الأطراف .
ولا تحدث أية ادانة مطلقة عن الأخطاء . وعندما يرفض المدعى عليه
الحضور فانه يستدعى بالقوة ، وعندما لا يستطيع أحد الأطراف أن ينتقل
الى المكان الذى تنظر فيه القضية ، يقوم القاضى بتعيين شخص مشهود
له بالاستقامة والنزاهة ليمثله ، وكل طرف يدافع عادة عن موقفه ، ويمكنه
أن يمهّد بذلك الى رجل شريعة او الى صديق ، ولا يلقى الشهود مطلقا
اجرا على شهادتهم ، ويمكن دعوتهم الى القسم لكنهم ليسوا ملزمين بذلك ،
لكن المذهب المالكي وحده هو الذى يحتم ضرورة القسم .

ولم تكن مصاريف القضاء قبل مجيء الحملة منظمة ، وكان قاضى العسكر
أو ممثلوه يحصلون حوالى $\frac{1}{2}$ ٢٪ من قيمة الأشياء موضوع النزاع ، لكنهم
فى العادة كانوا يفرضون رسما اكبر ، وكان ذلك امرا بالغ السهولة لدرجة
انهم كانوا يحددون حسبما يترأى لهم رسوم القضايا . ومن هنا كانت
مصاريف الدعوى تصل فى بعض الاحيان الى $\frac{1}{8}$ ٨٪ او $\frac{1}{10}$ ١٠٪ بما فى ذلك اجور
الكتابة والمترجم . وقد وضع الفرنسيون حدا لهذه الانتهابات البربرية كما
سبق أن قلنا ، ومع ذلك ، فاذا كان رافع الدعوى شخصية كبيرة فان القاضى
لا يستطيع أن يفرض رسما اكبر من $\frac{1}{4}$ ٢٥٪ ، وفى نفس الوقت لم
يكن القاضى يتقاضى شيئا من الفقراء ، ونادرا ما كان ينقض ما يعلنه مسلم
امامه من أنه فقير . ومن المبادئ التى تشيع بين القضاة ، أن الفقير طرف
له قداسته .

هكذا وضع العرف والاخلاق حدودا لجشع القضاة . بل لقد لوحظ
أن قاضى العسكر ، وهو رجل ذو طباع حادة وله سطوته واحترامه ، كان
يكتفى بما يقدم له دون أن يفرض بنفسه شيئا ، حتى يحتفظ بتقدير الكبار
وحب العامة . ومنذ أن تغلبت سطوة البكوات فى مصر ، اعتاد القضاة

الا يطلبوا رسوما من أولئك الذين يخلع عليهم البكوات حمايتهم (١) .

وكانت الاحكام التى يصدرها ممثلو القاضى ، بالرغم من كونها مختومة بخاتمه ، تخضع فى حالات كثيرة لنوع من النقص ، وخاصة فيما يختص بالاجراءات التى تتخذ ضد المتنازعين المتخالفين ، او فيما يختص بالاحكام التى تحدد التعويضات التى يقررها الأزواج على انفسهم ، ويمكن لقضايا من هذا النوع ان تحمل من محكمة لآخرى ، وهكذا حتى يأخذ القاضى علما ويصدر فيها حكمه النهائى .

سبق ان قلنا ان قاضى العسكر يشترى وظيفته من القسطنطينية ويدفع التزامها الى رئيس قضاة الأناضول والى شيخ الاسلام ولم نستطع أن نستدل على مقدار ما يدفعه للأول، لكن الثانى كان يتلقى منه عشرة آلاف مدينى فى الشهر (٢). ولتعويض كل ذلك كان قاضى العسكر يفرض على مثليه اتاوة لا تتجاوز فى بعض الاحيان ١٠٠ مدينى فى الشهر ، ويستطيع هؤلاء القضاة المرؤوسون أن يحصلوا فى مقابل ذلك ثروة طيبة فى وقت قصير . وثمة كثيرون منهم يفصلون فى قضايا كثيرة للغاية ، لكنهم لا يدفعون اكثر مما هو مقرر ، ومن الصحيح انه لا يسمح لهم بالفصل فى كل هذه القضايا ، لكنهم يدفعون رسوم التقاضى الى ٨ - ١٠ ٪ ، لذا يسهل عليهم على الدوام أن يكونوا ثروات ضخمة فى وقت قصير .

(١) يحدث عادة الا تسمح طبيعة الشئ المتنازع عليه بتحصيل رسوم ، مثال ذلك عندما تكون الشكاوى مقدمة عن أشخاص وليس عن ممتلكات لكن أمورا من هذا النوع تنتهى عادة عند الشرقيين لأن تقوم بثمن وهكذا أصبح القاضى يحصل رسومه فى مثل هذه القضايا بفرض نوع من الغرامات النقدية .

(٢) يشغل وظائف القضاة السنة والثلاثين فى مصر ، قضاة من الدرجة الرابعة وهم ينقسمون الى ست درجات ، وقد جعل سليم الاول من حق بعض هؤلاء أن يستقروا فى مناصبهم . وهؤلاء القضاة هم مساعدون أو نواب ويشكلون الدرجة الخامسة فى السلم القضائى ، وليس من الضرورى أن يكون منصب هؤلاء قابلا للتغيير ، وهم يشترى وظائفهم من القاضى فى شكل التزام أو فى شكل مخالف ، لذا كانوا يستثمرون فى مراكزهم لاية فترة حسب أهواء رؤسائهم ، وعندما كانت تنقضى مدة القاضى ، كان هؤلاء النواب الذين يرون من صالحهم الاستثمار فى مناصبهم يسارعون بتقديم ولائهم للقاضى الجديد ونادرا ما كان يرفض واحدا منهم الا اذا كان ثمة ضده شكاوى من نوع خطير .

رأينا من قبل أن وظائف القضاة الـ ٣٦ كانت تباع فى القسطنطينية لرجال مشهود لهم بالاستقامة ، وكانت النتيجة الطبيعية لنظام من هذا النوع أن كل قضاة مصر كانوا غريباء على البلاد التى عليهم أن يمارسوا فيها وظائف على مثل هذه الدرجة من الخطورة ، وبالرغم من أن احدا من المواطنين لا يستطيع فى ظل السيطرة العثمانية أن يرنوا الى وظيفة قاض ، فقد رأينا فى السنوات الأخيرة كثيرا من المحاكم يرأسها مصريون ، حيث لم يكن الأجانب الذين يصلون الى مصر ومعهم فرمان تعيينهم فى وظيفة قاض ، يلزمون انفسهم على الدوم بالعمل فى سلك القضاء ، بل كانوا يبيعون وظائفهم ، اما الى سلفهم كما سبق لنا القول ، واما الى رجل آخر من رجال الشرع يستطيع ان يدفع الثمن ، وسعر هذه الوظائف غير معروف لنا على وجه التحديد ، ومع ذلك فيبدو انه لم يكن بجاوز ٤٠ ألف مدينى فى العام لوظيفة تدر دخلا متوسطا .

وفى أثناء احتلال القاهرة من قبل الفرنسيين ، اغلقت لبعض الوقت كثير من المحاكم الخاصة فى المدينة ، وتوقفت العلاقات المدنية الصرف بين السكان ، وحيث أن المصرى بطبعه شكاك وخجول فى نفس الوقت ، فقد كتم المصريون شكوكهم ، وبدأوا وكأنهم قد انهمكوا فى أعمالهم مراعين نفس الدرجة من الأمن التى كانت سائدة فى الماضى ، ولم نعرف نحن الفرنسيين الا بعد وقت طويل حقيقة التأثير الذى أحدثه فى النفوس مثل هذا الاجراء الشاذ ، لكن الاعتدال الذى سيطر بعد الغزو قد طامن بشكل (لاشعورى) من روع هذا الشعب المتباعد عن الأخطاء ، وهو الذى ما يزال يتذكر غطائع حسن باشا أثناء حملة ١٧٨٦ .

وعندما بدأت الادارة الفرنسية تحظى بنوع من الاستقرار ، اى بعد الاحتلال بعام ، افتتحت كل الغرف القضائية التى كانت قد اغلقت بصفة مؤقتة فى البداية ، وأعطى القائد العام للجيش أوامره فى هذا الخصوص بعد اطلاع على تقرير قدم اليه ، وكلف قوميسبرالحكومة لدى ديوان القاهرة بالتأكد من تنفيذ ذلك ، وعندئذ نظمت رسوم التقاضى وتحديث بنسبة ٢٪ من قيمة الشيء موضوع النزاع ، وتوزع حصيلة هذا الرسم بين القاضى والكتابة ، ولم تحدث أية تعديلات أخرى فى ادارة القضاء ، وسارت الامور على نفس نظمها فى الماضى ، وبدأت ثقة الناس التى كانت قد تزعزعت

لحين تمود منذ الآن ، ومنذ هذه اللحظة بدأ المنتصرون يجنون ثمار انتصارهم .

ومع ذلك فان نظام التعيين فى الوظائف القضائية لم يعد هو نفسه ما كان فى الماضى ، واتخذت لذلك الإجراءات اللازمة ، فثبت كل رجال القضاء الذين كانوا قائمين بالعمل فى مناصبهم ، وعزل قاضى المسكر الذى كان من انصار أمير الحج ، وخلفه فى منصبه الشيخ العريشى ، وهو الذى ظل فى هذا المنصب حتى نهاية الاحتلال .

وإذا ما تأملنا لحظة نبط الانظمة القضائية العثمانية وطريقة اختيار رجال القضاء ، فاننا سنجد فى هذه الوثائق نفسها منبع المساوىء التى كان ينبغى أن تنجم عن هذه الوثائق بالضرورة ، وفى الواقع ، فان رجال القضاء الغريباء ، بجهلهم لغة البلاد التى ذهبوا اليها ليرسموا قدر وكرامة ونمط حياة مواطنيها ، لم تكن تحركهم أية عواطف من تلك التى تفرض نزاهة القضاء ، كما أن اعتبارات المواطنة واعتبارات القربى التى لها على الدوام تأثير كبير على القلوب لم يكن لها على الإطلاق وجود عندهم ، وحيث أنهم قدموا قبضات من الذهب حتى يتولوا أمر محكمة ما ، فمن الطبيعى الا يكون سيف العدالة الذى يضعه القانون فى يدهم سوى أداة للأثراء ، فكانوا يستخدمونه وسيلة لتعويض الأموال التى أنفقوها ، بل ولتكوين ثرواتهم الخاصة ، ووجهت الوسائل الكبرى التى فى حوزتهم نحو نفس الغرض ، فرض تكديس الأموال ، لذلك فانهم لم يدعوا أية فرصة تفلت دون أن يستغلوها لتنمية ثرواتهم ، أما أولئك الذين يخفف حب العدل والانسانية عندهم من جروح ذلك التعطش الى المال ، فقد كانوا أكثر ميلا للعدالة ، بينما لم يكن يكبح جماح الآخرين الا الخوف من تدهور سمعتهم ، وفضلا عن ذلك فان العادة التى سادت فى مصر ، عادة بيع أو تاجير وظائف بمثل هذه الدرجة من الخطورة من شخص لآخر ، هى واحدة من تلك المساوىء الشيطانية التى لا يمكن لأية حكومة عاتلة أن تتساهل فيها ، اذ هى نوع من الحث أو الخيانة لا يسمح بقيامها الا البرابرة .

ولنعد الى ممارسة الوظائف القضائية ، يحوز حكم القاضى فى معظم الأحوال قبول كل الناس المتورين ، وقد يكون من الظلم أن نوجه الى رجال القضاء هؤلاء ، ذلك الاتهام القاسى بالمحاباة أو الفساد ، وهو الاتهام

الذى يوجهه كثيرون الى القضاة المسلمين علمية ، اذ لا يمكن لقاض أن يتجاسر ويصدر حكما قليل التطابق مع روح الشرع ، او منحازا بشكل ما لمصالح الطرف الذى يريد أن يعمل لصالحه ، الا فى حالة واحدة ، هى تلك الحالة التى تكون نصوص القانون فيها غامضة وتحتل التفسير على وجوه عدة مختلفة او متعارضة ، لكن المساوىء تنجم بشكل اكبر عن ذلك التقدير العشوائى والجائر لتقدير رسوم التقاضى ، وبتهامس الناس حول تحصيل هذه الرسوم بشكل غير معتاد . وفى القاهرة تنهض الصفات الشخصية لقاضى المسكر وكذا الرقابة التى يمارسها العلماء — بل وحكومة المالك — بحماية شعب على نحو ما ضد جشع القضاة والكتبة ، لكن الامر لا يسير على هذا النحو فى الاقاليم ، حيث يستطيع القاضى هناك أن يستوثق من صداقة وحماية البك حاكم الاقليم عن طريق تقديم الهدايا او اية وسيلة اخرى ، وبذلك يكون حرا من كافة القيود وهو يقوم بتقدير رسم يفوق بكثير ذلك الرسم القانونى ، ومع ذلك فمن الصحيح ايضا انه حتى فى هذه المناسبات ، كان القضاة يستطيعون كبج جماح جشمهم ، وكانوا فى بعض الاحيان يتظاهرون بفرض رسوم لصالح كتابهم ومرؤوسيههم ، على الرغم من أن هؤلاء لم يكونوا يحصلون مطلقا الا على قدر ضئيل من هذه الرسوم ، ولكن هؤلاء يلجأون فى معظم الاحيان الى وسائل مشابهة .

سبق لنا القول بأن احكام القاضى تصدر بلا نقض ، وأن الدين يعالج جزئيا تلك المساوىء الناتجة عن مثل هذا التفويض الواسع الممنوح للقاضى بفعل العادة ، حيث العادة فى مصر كما فى كل اجزاء الامبراطورية العثمانية هى كل شئ ، بل يمكن القول بأنها هى التى تصنع القانون ، لذا فان العادة التى يعتادها امير او رجل او قضاء او حتى ضابط صغير وهو يتعامل مع من هم دونه تصبح الزامية لكل من يقومون بنفس هذه الاعمال ، وتبرهن مثل هذه المساوىء على ضرورة ارساء النظام القضائى على اساس ثابتة ومستقرة ، وهذه الحاجة التى تتضح اهميتها يوما بعد يوم لا تجد الاستجابة الواعية من جانب الحكام ، او قل انها بالاحرى تقع تحت رحمة روتين غير قابل للهزيمة ، لحد يفضل معه الحكام أن يتحملوا مساوئه تلك عن أن يبتعدوا عنها .

وتنهض العدالة فى مصر على اساس المذهب الحنفى ، ولا يمكن أن يحدث الامر على نحو آخر حيث أن كل رجال القضاء الذين ترسلهم

القسطنطينية يتبعون هذا المذهب ، وهو نفس مذهب السلطان نفسه وكذا شريف مكة ، وقد بدا هذا الأمر منذ بداية القرن السادس عشر ، ومن المحتم أن يكون سليم غازى مصر هو الذى وضع أساس ذلك ، حيث أنه هو الذى اقام حكومته على نفس الأسس التى تنهض عليها اليوم ، ومع ذلك فحيث أن المذهب الشافعى هو السائد فى مصر ، وحيث أن كل شيوخ الأزهر يتبعون هذا المذهب فربما كان من الأفضل الامتنال لاحكام هذا المذهب ، وتلك مسألة تتطلب دراسة عميقة أولى بها أولئك الذين يعينهم الأمر .

وطيلة فترة الاحتلال الفرنسى لم تحصل أية رسوم عن التعيين فى الوظائف القضائية ، ويبرر ذلك تواضع الدخول التى يمكن تحصيلها من مثل هذا الأمر ، أن من الممكن إلغاء هذه المساومة على وظائف بهذه الخطورة دونما تأثير كبير على خزانة الدولة ، ومن المعروف أن هذه المساوىء لم تكن تحدث مطلقا فى عهود الخلفاء ، وانها بدأت مع بداية الحكم المملوكى ثم دعمتها العادة ودعمها كذلك وبدرجة اكبر ، ذلك النموذج التركى الذى تسوده مثل هذه العادات .

٥

عن الحقوق المدنية الملكية

لا شك أن النظام الذى يساهم فى ربط المواطنين بمسقط رأسهم ، هو واحد من أهم النظم الوطنية ، ونحن هنا نتحدث عن نظام الملكية ، هذا الحق الطبيعى الذى كرسه كل المشرعين ولا يخرقه أو ينكره سوى البرابرة ، لكن طغاة مصر ، عندها القوا تحت اقدامهم بكل مبدا حكيم وعادل ، لم يحترموا هذا الامتياز المقدس الذى هو فى جملته اساس لضمان السعادة الاجتماعية ، فثمة كثير من المزارعين الأحرار على ضفاف النيل قد أصبحوا مجرد فلاحين أجراء ، أو عبيدا مطحونين تحت وطأة تلك الضرائب الباهظة ، يفلحون هناك وفى حلوقةم غصة ، اراضى خصبة ، لكنهم لا يستطيعون أن يجنوا لها ثمارا ، فهذا الوادى الخصيب فى الفيوم ، وتلك السهول الخصبة فى الدلتا ، التى كانت غزيرة الانتاج تحت حكم الفراعنة والبطالمة بل وتحت السيطرة العثمانية ، لا تنتج الآن بالكاد ربع ما كانت تنتجه فى

الماضي ، ومن السهل أن نلتبس أسباب ذلك التغيير الحزن ، لكننا لا ينبغي أن نبحث عن التفسير عند الطبيعة أو عند تقلبات الطقس مهما كانت عنيفة ، فالنهر على الدوام هو نفس النهر ، وفيضانه السنوى - شأنه شأن الماضي - يأتي كل عام ليروى الوادى ، فقط اختفى الأمل ، فما عاد يلهم حماسه الفلاح ولا عاد يستثير همته ، اذ هو يعلم الآن أن ثمة أجنبيا بغيضا هو الذى سيحصل على ثمن عرقه هو ؛ نعم ، ماذا سيعود على الفلاح لو أنه عمل على انماء محاصيل جديدة ما دامت لن تعود عليه ولا على اولاده خيراتها ؟ انه يبذر البنور وهو حائق ، ويبنى محصوله وهو خائف ، ويصل جهده ليخفى من نظرات طفاته الجشعين قدرا ضئيلا من الحبوب يمكنه أن يحصل بها على بعض احتياجات أسرته المعيدة ، فالفلاح فى هذه البلاد البائسة ليس بمالك للأرض ، وليس بمقصود أن يكون ذلك ، انه ليس بصاحب للأرض ، ولكنه من لها منذ ولادته ؛ يعمل لحساب تلك العصبة التى تهرت وطنه واستولته ، انه رقيق الدولة فى اسيرطة القديمة ، وعبد المستعمرات الامريكية القمص ! .

يرتبط توزيع الأرض فى مصر بعدد قراها ، اذ تمتلك كل قرية مساحة من الاراضى القابلة للزراعة تتفاوت مساحتها ، وتنقسم اراضى كل قرية الى ٢٤ قيراطا ويبلغ عدد القرى فى كل الوادى ما بين ٢٥٠٠ - ٣٠٠٠ قرية كبيرة او صغيرة منها ٤٠٠ من أسوان الى المنيا ، ٥٠٠ من المنيا الى القاهرة بما فى ذلك الفيوم ، ٦٦٠ فى الدلتا ، ١٠٠٠ فى بقية المناطق (١) .

وهناك بعض الافراد يتسمون باسم الملتزمين (ملتزم) ، وهؤلاء هم الذين يمتلكون اراضى هذه القرى امتلاكاً فعلياً ، ويعنى الفلاحون باقتسام هذه الأرض بينهم وبين هؤلاء الملتزمين ، ولكن انظر الى اى حد تضاعفت حقوق الفلاحين ، والى اى حد كذلك وصلت سطوة الآخرين ! .

(١) لعل التقدير الاخير مبالغ فيه ولعل تقدير عدد قرى الدلتا اقل من الواقع . لمزيد من التفاصيل انظر دراسة جاكوتان Jacotin عن مساحة ارض مصر وكذلك دراسة جومار Jomard عن المقارنة بين سكان مصر فى الزمن القديم وسكانها الحاليين .

أن مالك عدد معين من القراريط يحصل من الفلاح الذى يفلحها ضريبة ثابتة كانت قيمتها فى الماضى محدودة ، وتسجل هذه الضريبة باسم المال الحر ، وبخلاف ضريبة المال الحر التى تلزم القوانين الفلاح بها ، قام الملتزمون بتحميل الفلاح بعدد هائل من الضرائب والأتاوات لم تكن موجودة قط من قبل ، أو كان ينظر الى بعضها فى البداية على انه — على الأكثر — مجرد هدايا ، لكنها بمرور الزمن أصبحت ضرائب اجبارية واجبة الدفع ، ومسجلة ، وتحصل بقسوة بالغة ، وتسمى حصيلة كل هذه الرسوم التى ينظر اليها السكان باعتبارها نتيجة لقهر وطنهم : البرانى ، وتحمل هذه الضرائب أحيانا اسم : مضاف كما لو كان للإشارة الى انها مستقلة عن بقية الضرائب ، وانها أضيفت أو زيدت على الضرائب المشروعة ، ويحصل الملتزم مجموع هذه الضرائب : المال الحر والبرانى ، ومن هذه الحصيلة يدفع الميرى وهو الضريبة الثابتة والمقررة بموجب قانون ادارى قديم (١) . وهو يحصل باسم السلطان بواسطة الموظف الذى يمثله ، ويتحمل المصريون هذه الضريبة أكثر مما يتحملون الضرائب الأخرى ، اذ هى فى نظرهم اعتراف بسيادة السلطان ولأن لها طابعا مشروعا .

وبشكل ما يتبقى من المال الحر بعد سداد الميرى ما يسمى بالفايظ (الفائض) ويكون بالاضافة الى البرانى مجموع ما يحصل عليه الملتزم من فوائد ، لكن عليه فى نفس الوقت أن يدفع خصما من هذه الفوائد مصاريف ادارية كبيرة ، وفاء لمسئوليات تقع على عاتقه ليس من بينها أية مبالغ مخصصة للفلاح ، لا تعويضا عن فلاحته للأرض ، ولا كمقابل لجهوده أيام الحصاد .

ويورث الفلاح لابنائه حق زراعة الأرض التى هى حوزته ، وعلى هؤلاء أولا أن يدفعوا للملتزم نوعا من رسوم التقلد ، وينظر لهذا الرسم باعتباره هدية اكتنتها العادة ، ومع ذلك فننادرا ما يسدها الفلاحون بالرغم من أن الملتزم حق تحصيلها ، وتبلغ هذه الضريبة ثلاثة أمثال عائد الأرض المزروعة ، ويمكن للملتزم حسب تساهله أن يتنازل عن جزء منها أو يتنازل عنها كلية اذا كانت الأرض ضعيفة ، ولكن اذا رفض الفلاح المورث أن

(١) يدفع الميرى عينا أو نقدا ، ويدفع جزء منه فى الصميد عينا .

يسدد هذه الضريبة بالرغم من أوامر وتشبيهاات الملك الملتزم ، فان الأخير يستطيع أن يرغمه على ذلك بمنحه من استغلال الأرض التي كانت فى حوزة ابيه ، فانظر اذن بأية طريقة وبأى ثمن يستطيع الفلاح المصرى أن يورث ابناؤه ارثه القمى .

ومن نافلة القول ان نلفت النظر الى ان الفلاح لا يستطيع ان يبيع الأرض التى يزرعها حيث أن ملكيتها الحقيقية ليست فى يده ، ومع ذلك فقد كان له الحق فى أن يؤجرها لبعض الوقت ويظل يحتفظ لنفسه بحق الرجوع اليها ، وعندما يكون الفلاح معسرا غير قادر على سداد ما عليه ، فان الملتزم يستدعيه أمام القاضى ويثبت عن طريق شهود انه لا يستطيع تحصيل شئ منه ، اى من الفلاح ، وعندئذ يعزل المسكين من الأرض ويصبح لسيد الحق فى احوال فلاح آخر محله ، ويرشح الفلاح الجديد عادة عن طريق شيخ أول القرية ، ويقبل الملتزم هذا الاختيار لكن ذلك لا يعنى أن الفلاح القديم قد انتزع من أرضه بغير عودة ، فيكفى أن يستطيع دفع القساط المتراكمة عليه لى يحصل من جديد على أرضه ، ومن جهة أخرى لماذا حدث أن وقع ضرر بين وبالف القسوة على الفلاح على يد الملتزم ، فان بمقدور الفلاح أن يهجر حقله ويحل محله فى هذه الحالة شيخ الفلاحين والملتزم .

ولا ينبغى أن ننسى انه ليستلقوانين الوضعية — لا فى هذا المجال ولا فى أى مجال آخر بمصر — لا الدقة ولا الفاعلية التى للمؤسسات والأنظمة الأوربية ، ويمكن القول بانه ليست للقانون المكتوب — على ضفاف النيل — الا أهمية ثانوية ، بينما يرسم العرف وأوامر واحكام رجال القضاء ، كما انه هو الذى يبرر تلك الابتزازات الاجرامية للرجال القادرين من كل الطبقات ، ونتيجة لهذه السوء البربرية فان الفلاحين يعيشون فى شكل عبودية اكبر بكثير مما ينبغى ، فاقدارهم تحت رحمة نزوات الملتزم الذى يستطيع حسبما يترأى له أن يودى بهم الى حالة من البؤس المفزع او ان يهينهم لهم عيشا رغدا ، ان هذه الأوضاع الشيطانية فى مجموعها ليست

اقل سوا من بقية الامور التى ستوجب نظاما تشريعيا جديدا فى مصر (١) .

وللملتزم الحق ان يبيع التزامه ، وعندما يحدث ذلك يقوم الملتزم الجديد بدفع الميرى بدلا منه ، وبخلاف الأرض التى يزرعها الفلاحون فى القرية ، ثمة جزء من أرض هذه القرية لا يخضع لنفس النظام ، حيث يمكن القول بأن هذه القطعة مقسمة بين الملاك (الملتزمين) بنسبة عدد القراريط التى يملكونها من أرض القرية . وتسمى هذه الأرض : الوسية (٢) . ولا يقوم الفلاحون بزراعة هذه الأرض بنفس الطريقة التى تنظم زراعتهم للأرض الأخرى ، بل ان الملتزم يستخدم فيها من يشاء بالشروط التى تترأى له . ومع ذلك فعندما يبيع التزامه فى أرض الفلاحين فإنه يبيع كذلك الجزء الذى فى حوزته والمقابل لتلك فى أرض الوسية ، اذ لا يمكن أن تنفصل هاتان الملكتان .

ويرث أبناء الملتزم الالتزام عن والدهم ، لكنهم لا يخلفونه الا بعد موافقة الباشا ، وفى هذه الحالة يحصل هذا الضابط باعتباره ممثلا للسلطان ، على جعل يصل الى ثلاثة أمثال قيمة الفايط السنوى غير مشتمل على البرانى ، ويؤكد الباشوات هذه الضريبة بأن يدفعوا الى بلاد القسطنطينية جزءا من عائد عقودهم هذه ، ويعمل الباشوات فى معظم الحالات من المبلغ المفروض كضريبة ارث ، ويمارسون فى هذا الخصوص نحو الملتزمين ما يمارسه هؤلاء نحو الفلاحين فى نفس الظروف، وينظر المصريون الى ضرائب الارث هذه باعتبارها استردادا للأرض ، وهكذا يصبح أبناء الملتزم اصحاب حق فى الحصول على ممتلكات أبائهم بعد دفع الضريبة المفروضة .

(١) يمكن القول بأن الأراضى — فى المنطقة المحيطة بحلب — مقسمة بين السلطان الذى يحصل الميرى من الملاك ، والملاك الذى يقدر لنفسه دخلا سنويا عينا ونقدا والمزارع الذى يحتفظ لنفسه بجزء من ثمرات جهده . وثمة سكان من القسطنطينية يمتلكون أراضى فى هذه المنطقة .

(٢) لا توجد وسية فى الصعيد ابتداء من المنيا .

(وقد بين الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم فى كتابه الريف المصرى فى القرن الثامن عشر أن هذا خطأ وقع فيه علماء الحملة الفرنسية) المترجم .

وفيما مضى كانت مصر مملوكة لجمهرة من كبار الملاك ، لكن المالكين تخلصوا من هؤلاء حتى يقتسموا فيما بينهم أسلابهم ، وقد نتج من هذا السلب أن أصبح أعضاء الحكومات المملوكية ، يمتلكون كل أرض مصر على وجه التقريب ، فكانوا يمتلكون على الأقل ثلثي الأراضي القابلة للزراعة ، ولا يمنع هذا من أن هناك بعض الأمراء كانوا يحوزون بعض الأملاك الهامة ، يذكر من بين هؤلاء الشيخ همام الذي كان حائزا على أراضي عدد كبير من قرى الصعيد .

وبرغم كل ذلك فسوف ننع في خطأ بين إذا ما استنتجنا مما تقدم أنه ليست لدى المصريين فكرة صحيحة عن الملكية الحقة ، أنهم يعرفون معنى هذه الملكية الحقة بلا ريب ، ولكن كيف يمكنهم أن يتمتعوا بها ، بينما كل شيء هناك يعترض سبيل سعادتهم ؟ فالمعادن وطفانيات الحكومات وجشع الملتزمين ، كل ذلك عقبات لا يمكن التغلب عليها . لا مفر من إصلاح تام ، بل يمكن القول بأنه لا بد من توزيع جديد للأرض ، ولو كان الفرنسيون قد استطاعوا أن يثبتوا أقدامهم في البلاد فليس من شك في أنهم كانوا سيصلحون من مساوئ هذا النظام ، وإذا ما حدث ووجد أبناء ريف مصر أنفسهم يعيشون في ظل حماية القوانين فانهم سيحصلون في وقت مما على الأمل والهمة ، وعندئذ فكم من الثروات سوف تغل هذه الأرض الخصبة المعطاء ، التي استحققت ذات يوم اسم : زرعة روما (١) .

(١) لكي نقدم فكرة تقريبية عن بؤس الفلاحين فسوف نعتمد على شهادة المعلم يعقوب ، المباشر القبطي الذي أكد لنا أن ١٠ فدادين من الأرض في الصعيد تنتج خمسين أردبا من القمح من بذور خمسة أراذب ، كما أكد لنا بالمثل أن الاقساط التي يدفعها الفلاحون للملتزم عينا لا تقل مطلقا عن ٢ — ٣ أردب من الحبوب عن الفدان ، فإذا قمنا بخمس مصاريف الحرث والبذر ، نجد أنه لا يتبقى شيء على وجه التقريب لهؤلاء الفلاحين التصماء .

عن الرق وعن العتق

تحتفظ الشعوب الشرقية بتلك العادة القديمة ، عادة استخدام العبيد ، ونحن لن نمسك في هذا الخصوص عن ابداء أى رأى مهما بدا قاسيا ، ومهما كانت انتقاداتنا وملاحظاتنا مشروعة ، فانها تقع جميعها على أوربا ، كما أن كل واحدة من هذه الانتقادات والملاحظات ليست سوى نقد حر لتلك التجارة المخزية التى تساحت فيها أوربا حتى اليوم ، فمستعمرات العالم الجديد ، وجزر البحر الأفرىقى — مسارح هيجية الشعوب المتحضرة — تقدم أكثر مشاهد العبودية بشاعة ، بل وربما أكبرها اهدارا للحقوق المقدسة للانسان اذ ينبغى أن نعترف هنا — وهذا امر مخز للحضارة والمدنية — أن قدر العبيد في مصر كما في كل بلاد الشرق ، اقل حائزا على الشكوى من قدرهم هناك في أمريكا ، حيث يروون بعرقهم ودمائهم حقول سوق لا رحمة فيه ، أما رقيق مصر — على العكس من ذلك — فيمكن القول بأنهم يقبلون في العائلات كأفراد فيها ، وليس ثمة ما يقومون به من عمل يهوى خدمة المنزل ، كما أن حالتهم ليست على الدوام بائسة ، بل أن الرق عندما يكون السيد واحدا من البكوات ، يكون في معظم الأحوال بمثابة الخطوة الأولى نحو الثروة أو نحو السلطة .

وفي مصر نوعان من الرقيق : السود من وسط افريقيا ويأتون الى مصر والى المدن الكبرى عن طريق قوافل ، والبيض ويأتون من اقاليم آسيا المجاورة للبحر الأسود ، وثمة فرق هائل بين ثمن هؤلاء وثن أولئك ، فثمنها يبلغ ثمن الأسود ٤٠ — ٨٠ قرشا اسبانيا ، بينما يعتبر الناس أن من الطبيعي أن يدفعوا في شراء شاب شركسى ٦٠٠ — ٨٠٠ سكين Sequin وهو عملة ذهبية ايطالية تقدر القطعة منها بـ ١٢٠ بارة) — أى حوالى ٣٠٠٠ فرنك ، وقد كان ثمن الالفى بك الف سكين ومن هنا جاء اسمه : الالفى .

ويعتبر العبد جزءا مكملًا لثروة سيده الذى يستطيع أن يبيعه أو يبادل أو يعتقه ، وذلك حسبما يترأى له ، وليس للعبد أن يمتلك شيئا خاصا به ، فكل ما يمكن أن يحصل عليه يكون من حق سيده ، ولا يتمتع العبد

بأى حق مدنى ، ويعتمد فى كل أموره على إرادة سيده ، ومع ذلك فلذا قام الأخير باللجوء الى العنف او لاية وسيلة أخرى — بفعل مخالف للقوانين او الطبيعة — فان العبد يستطيع أن يشكوه أمام القاضى الذى يرغب سيده — حسب الحالة المعروضة عليه — على بيعه للآخرين ، ومع ذلك فنادرًا ما ينتهم العبد سيده بالطغيان ، فكل ما يفرض عليه من واجبات ينطلق فقط بالخدمات المنزلية ، فهو يعنى بمنزل سيده ويخدم على المائدة أو يقوم بأية أعمال أخرى تقتصل بشخص سيده ، لكنه بعيد عن الزراعة وعن كل الأعمال الشاقة ، ولعل أشق عمل يكلف به العبيد ، هو أن يعمد اليهم سادتهم بالعناية بخيولهم ، وهم عامة يعاملون بلطف تام ، ونادرًا ما لا ينتهى بهم الأمر الى المعتق خلال بضعة سنوات أو عند موت سيدهم .

ويمكن القول بأن العبد الأبيض يعتبر عضوا من أعضاء الأسرة ، وعندما يرضى تاجر عن عبده فإنه يشركه فى تجارته ويزوجه من ابنته ويهيىء له حياة طيبة ، أما أولئك الرقيق الذين يكونون فى خدمة البكوات الكشف أو كبار ضباط حكومة المالك فان حظهم أكثر برقا ، فحيث أن سادتهم أنفسهم قد بدأوا حياتهم عبيدا ، فانهم بدورهم يولون عبيدهم جل عنايتهم ، ويهيئون لهم نوعا من التدريب العسكرى ليشكلوا فيما بعد جيش المالك ، وتتجلى قوة كل بك فى عدد رجاله وفى شجاعته ، لذا فهو يعنى بتقدمهم وثروتهم كما لو كانوا أبناءه ، وفضلا عن ذلك فقد كان المالك يدعمون حزبهم عن طريق نفوذ رجالهم ، وهو النفوذ الذى هياته لرجالهم هذه المناصب التى ولوهم — هم أنفسهم — فيها .

لكن الشجاعة والمميزات الشخصية لعبدا ما — ليست على الدوام هى الأسباب الوحيدة التى تحدد بشريف مملوك ، أن يهيىء لعبده هذا التقدم السريع ، ويؤكد البعض أن الجمال والصفات الجسمانية تلعب دورا كبيرا فى اقدار هؤلاء العبيد ، ويشكل هؤلاء الرجال ذوا الأصل الفاضل ، والذين نجعل بلاد معظمهم ، طائفة النبلاء الحقيقيين برغم كل ما قيل ، فهم وحدهم يحوزون المناصب ويمرون بيوت وعائلات سادتهم ، التى كانت ستخبو فيها بدونهم أضواء الحياة منذ الجيل الثانى ، ومن نافلة القول أن نذكر أن الأماء البيضاءات القاذبات من نفس بلدان هؤلاء البكوات والكشف والمالك الآخرين ، يتمتعن هن أيضا باعتبار خاص ، ذلك أنهن — عادة — يصبحن زوجات هؤلاء أو أماءهم المفضلات .

وبالرغم من الامتيازات التى يهيئها للمعبد المالك وجودهم بالقرب من البكوات ، فان من الواجب ان نلفت النظر الى أن العرف قد وضع حدا لتقدمهم ، ويمكن القول بأن المالك ، ولو أنهم كانوا يعدون جزءا من أسرة سيدهم ، لم يكونوا ليتمتعوا بأى حق محنى فى ميراثهم ، فان العلاقة التى نشأت بينهم لم تكن تساوى علاقة التبني ، فليس للمعبد حتى اذا اعتق أى حق فى تركه سيده التى توزع على أبنائه الشرعيين ، صحيح أن بيدور السيد أن يخصم جزءا من ثروته لصالح المعبد ، لكن هذه الهبة لم تكن لتبلغ مطلقا أكثر من ثلث الثروة ، حتى ولو لم يكن للمتوفى أى أبناء ، وعلى العكس من ذلك فإذا مات المعتوق دون ذرية فان ثروته كلها تنول الى سيده القديم .

وتباع الاماء من كلا اللونين بثمن أغلى من ثمن المعبد الذكور ، وإذا ما نشأت علاقة بين السيد وبين واحدة من امائه وأصبحت هذه أمة ، فانه لا يستطيع أن يبيعها ، اذ تصبح فى حكم الزوجة الحرة حتى يموت سيدها ، وعندما تموت هى يصبح ابنها شرعيا ويرث شأنه شأن أبناء الزوجة الحرة ، ولكن اذا أراد السيد أن يتخذ من احدى امائه زوجة شرعية فعليه أولا أن يعتقها .

ويمكن للمسلم ان يماثر احدى امائه دون ان تخرج من أجل ذلك من خدمته ، فهو يحتفظ لنفسه عليها بكل حقوق الملكية ، فيستطيع أن يستردها وأن يجعلها تقوم بخدمته ، بل وان يبيعها من جديد ولكنه فقط لا يستطيع الاتجار بها ، وثمة امثلة على زواج من هذا النوع ، وان كان المعتاد أن يقوم الزوج بعق تلك التى يختارها زوجة له .

ويدرك العبد انه مملوك كلية لسيده ، وهو يقف امامه ويداه مضمومتان الى صدره ، وعيناه مثبتتان على عينيه ليدرس اقل رغبات سيده حتى ينفذها قبل أن يعبر سيده عنها ، وحالته فى نظر نفسه طبيعية وهو لا يستشعر مطلقا لا الرغبة ولا الحاجة فى قطع قيوده ، بل ان المعتوق نفسه يظل يحتفظ لسيده القديم بالاحترام والولاء مما يصعب على أى رجل حر قبوله ، لكن العرفان هو الذى يفسره ، وقد رفع على بك الشهير — (بالكبير) كثيرا من ممالكه الى مراتب البكوات والكشاف ، ومع ذلك فقد كانوا — عندما يأتون لزيارته — يظلون واقفين فى مظهر خانع ، ولا يجلسون مطلقا امامه

الا اذا دعاهم لذلك ، كما كانوا يحرصون على الا يجلسوا على نفس الاريكة التى يجلس عليها سيدهم القديم ، ويلاحظ نفس التحفظ والمراعاة من جانب المعتوقات نحو السيدات اللاتي كن مملوكات لهن .

ومن المألوف لدى الشرقيين ان يروا العبيد المعتوقين يصلون الى ذروة المجد ، ولا يمكن ان يحقر الرجل مطلقا من قبل الراى العام لانه كان من قبل عبدا ، ودائما ما يسمى الناس لصداقته ومودته ، وهكذا فان الامر الذى يعد عند الشعوب الأخرى شيئا جديرا بالتحقير ، يصبح هنا وكأته امر مرغوب ، بل ثمة من يؤكد ان نقيب الاشراف لمى مكة قد زوج ابنته من معتوق .

سبق لنا ان قلنا ان الرجل الحر الذى يريد ان يتزوج من امته عليه ان يعتقها ، ونفس الامر بخصوص اولاده ، فانه لا بد ان يسمح لابنه بالارتباط باحدى امائه — اى اماء الاب — والا فلن يتمتع الاطفال الذين يأتون من طريق هذا الاتصال باى حق مدنى ، بل سيظلون عبيدا حتى موت امهم الا اذا اعترف الاب بهم ، الامر الذى يعنى عتق الأم .

وصيغة العتق باللغة السهلة ، فهى عبارة عن كلمة من السيد تقال لمى اى مكان ، لمى المنزل او الشارع او اى مكان آخر ، ولكن اذا خشى العبد من تقلب مزاج سيده فانه يطلب تحرير وثيقة بالعتق تبرهن على صحة عتقه ، ونادرا ما يرفض طلب كهذا ، وليس لحق السيد على عبده من حد الا الحق الطبيعى ، وعلى سبيل المثال فان الامة التى من واجبها الاستجابة لكل رغبات سيدها تستطيع ان ترفض اى فعل يهين طبيعتها ، وعندما يرتكب عبد ما جريمة قتل فانه يمثل امام القاضى مع سيده ويقدم كلاهما للمحاكمة ، وان كان لاسرة القتل ان تعفو او تكتفى بتمويض نقدى ، وقد سبق لنا القول بأن المعتوق لا يرث من سيده القديم ، ومع ذلك فان سيده ، اذا ما مات دون ذرية فان السلطان والقاضى — وهما الورثة لمى هذه الحال — ، فالاول يرث ثروة المتوفى والثانى يرث وظائفه — يعطيان كل شيء او جزءا منه الى معتوقه . وليس هذا حقا مقتررا له ، ولكن العرف هو الذى جعل منه نوعا من الالزام ، ومبما مضى ، فعندما كان التبنى شائعا ، لم يكن الامر يصل لهذا الحد ، ويمكن الان للرجل ان يتبنى عبده ، او هو على الاقل يستطيع ذلك ، على نفس النحو الذى كان يتم فى الماضى

والمعنى هو مكافأة على اخلاص وحماسة وتضحية العبيد ، وهذا الفعل شائع لحد أنك لا تستطيع أن ترى الا عدداً بالغ الضلالة من الرقيق وهم يموتون فى ظل حالة الرق ، فجميع العبيد رجالاً ونساءً ، بيضا وملونين ، يعتقون على قسم المساواة . وثمة طواشيون عند المالك ، وكان عددهم عند مراد بك يبلغ العشرين ، ولكن لم تجر العادة مطلقاً فى القاهرة على اللجوء لخدمات هؤلاء التمساء ، ويدين الدين هذه العادة ولا يمارسها بخلاف المالك الا عدد بالغ الضلالة من السكان ، فتدمير معين الحياة عند رجل جريمة كبرى فى نظر المسلمين ذوى الحمية الدينية ، ويمكن للطواشى أن يعنى شأنه شأن أى عبد ، وهو ما يحدث فى معظم الأحوال ، ولا يحتقر الطواشى الا اذا كان الاحتقار من نصيب سيده ، ولا تجلب عليه حالته كطواشى أى تحقير خاص ، بل كان يرى طواشيو الرجل القوى يحصلون لانفسهم على شئ من التقدير الذى يحظى به سيدهم .

وبعد موت أحد الأثرياء يقتسم الورثة تركته ، ويدخل العبيد ضمن هذه التركة شأنهم شأن بقية اجزائها ، ولا يستثنى من هؤلاء الا من اعتقهم سيدهم عند موته ، أو أولئك الذين كان سيدهم قد وعدهم بذلك من قبل ، وفى هذه الحالة فان الأمة التى كانت قد صارت أما بفعل سيدها تأخذ كل حقوق الزوجة الحرة ، وهو الأمر الذى لم تكن قد تمتعت به حتى هذه اللحظة .

- ٧ -

الوصاية ، التركة ، الشهود

عندما يموت رجل تاركاً أبناء صفار السن ، فان جدهم لأبيهم يصبح هو الوصى الشرعى عليهم ، أما اذا لم يكن هذا الجد على قيد الحياة فان القاضى يختار بمعرفته وصياً على هؤلاء اليتامى ، لكن الوصى ليس له حق التصرف فى ثروة القصر ، وتخضع نفقات هؤلاء وكذا مصاريف تعليمهم من ثروتهم ، واذا ما أراد الوصى بدافع من العاطفة أن يستثمر أموالهم ، فانه يقوم بذلك مخاطرة من جانبه يتحمل هو كامل مسؤوليتها ، وهو ملزم على الدوام بأن يقدم الى القاضى حساب المبالغ التى فى يديه .

أما التربية فهى مستقلة عن الثروة ، حيث يعهد بها الى الأم حتى سن السابعة بالنسبة للأولاد ، وحتى سن الزواج بالنسبة للبنات ، ولا يفوت

الوصى أن يعلم الأولاد القراءة والكتابة ، وأن يهيئهم لنوع من الحياة حسب درجة ثرائهم ، ولا يحق إلا للاب أو الجد أن يعقد زواجا لأبناء دون سن البلوغ ، أما الأقارب الآخرون فغير مخولين في ذلك ، وعندما يبلغ الأولاد سن الرشد فانهم يستطيعون أن يرفضوا الامتثال للقرار الذي اتخذه الاب أو الجد ، وقد سبق لنا أن قلنا ان سن البلوغ للولد محدد بخمسة عشر عاما ، وفي هذه الحالة يقدم الوصى الحساب الى القاضى عن ثروات هذا الولد الذى سيصبح الآن تيماء على نفسه ، ومع ذلك فينبغى حسب المذهب الحنفى أن يعين على هذا الولد وصيا حتى يبلغ سن الخامسة والعشرين ، لكن القضاة لا يمثلون لهذا الراى ، ويمكن للابن عند بلوغه سن البلوغ أن يترك منزل الاب ولا تمود أسرته ملزمة باطعمه .

وللابن - فى التركات - ضعف حق البنت ، فعندما يكون لرجل بنتان وولد واحد على سبيل المثال فلن الزوجة تأخذ لنفسها $\frac{2}{3}$ من التركة ويأخذ الابن $\frac{1}{3}$ وكل من البننتين $\frac{1}{4}$ ، وعندما يكون للمتوفى وريث ذكر ، فانه لا يكون لآخوة المتوفى أو أخواته حق فى الميراث .

وانسبة الأخوة الذكور متساوية فيما بينهم ، واذا لم يكن ثمة ذرية فلا ينول لزوجة المتوفى الا $\frac{1}{4}$ تركته وينول الباقى لأبيه ، ولا يحق لآخواته ارثه الا اذا كان الاب متوفيا ، اما اذا ترك المتوفى ابنة فلن نصيب الزوجة على الدوام $\frac{2}{3}$ والبنت فى هذه الحالة $\frac{1}{3}$ واذا كان له أكثر من ابنة واحدة فانهن يقتسمن $\frac{2}{3}$ ثروة والدهن . وعندما تموت الزوجة يحصل الزوج من ميراثها على ضعف ما كانت ستحصل عليه فى الحالة الماثلة .

وقبل الشروع فى تقسيم التركات تجنب مصاريف الجنائز ثم ديون المتوفى ، ثم يتم الوفاء بشروط الوصية التى تركها المتوفى بحيث لا تتجاوز الهبات باى حال $\frac{1}{4}$ صافي التركة ، اما اذا لم يخلف وريثا ممن حقه أن يهب كل شئ لأحد أصبغائه ، ويسمى أن نستنتج أنه فى بلد تتشعب فيها العلاقات الأسرية لهذا الحد ، فلن حالة كهذه تبدو بالغة الندرة .

وليس للأبناء الطبيعيين (غير الشرعيين) اى حق فى الميراث ، حتى ولو كان الاب قد تزوج من أمهم ، اذا لم يكن هو قد اعترف ببنوتهم ، بل

انه في هذه الحالة — حالة الاعتراف — يصبح حتى أبناء الأمة أبناء شرعيين ، ويستطيعون الارث كما بينا من قبل .

ونعتقد حتى تكتمل دراستنا عن المواريث ، ان من الواجب ان تقدم هنا من القرآن النصوص التي تتصل بالمواريث لئرى كيف عبر محمد عن كل الحالات المحتملة : « يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك ، وان كانت واحدة فلها النصف ، ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد ، فان لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فان كان له أخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين ، آبائكم وأبنائكم لاتدرون ايهم اقرب لكم نفعا فريضة من الله ان الله كان عليماً حكيماً . ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد فان كان لهن ولد فلكن الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين ، وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فان كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حلیم» (*) .

ويمكن لرب الأسرة ان يخصص ¼ تركته لصالح من يريد ، ولا تعارض القوانين في ذلك ، وتؤكد هذه الهبة كتابة أو عن طريق شهود ، بل ان الكتابة تفترض وجود شاهدين ، واذا انكر الأبناء ان والدهم قد خصص المبلغ المطلوب كهبه ، فائهم يرغبون على القسم ، وينبغى ان نلاحظ ان الشريعة تحتم القسم على من ينكر .

وحيث انه لا يسمح مطلقاً بأن يوهب ما هو اكثر من ثلث ما يمكن ان يتركه المورث ، فان ثمة وسيلة للتخلص من هذا التشريع لاعطاء كل الثروة كهبه ، ولا يحدث هذا الا عندما يموت رجل دون ذرية . اذ يمكن في هذه الحالة ان يوقف تركته على أحد المساجد ، مع تخصيص حق الانتفاع للشخص أو الأشخاص الذين يفضلهم ، بل حتى لذريتهم وماليكهم ، ولا يمكن ان يوصى بشيء للمبد حيث لا اهلية له حتى يمتلك ، اذ ان تميصه نفسه ليس ملكاً له .

(*) القرآن الكريم ، الآيتان (١ ، ١٢) من سورة النساء . المترجم .

ويمكن القول بأن الشهادة لازمة في كل الأمور الهامة ، وإذا ما حدث على سبيل المثال أن وقع اتصال من جانب المدين وشاهدين ، ثم مات هذان الشاهدان ، فإن للمدين الحق في أن يرفض السداد ، لكن هذا لا يحدث في الواقع إلا إذا كان الدين كبيرا ، واليكم كيف يفصل في الأمر : يستدعى المدين ودائنه إلى القضاء وعليهما أن يقسما ، ولكن إذا افترضنا أن المدين قد يقسم اليمين باطلا فإن الآخر (الدائن) لا يقسم ، لأن القسم دائما على من ينكر . ويفترض القاتون أن الكتلة يمكن أن تزيف أكثر مما يفترض أنه يمكن للمسلم أن يخفى في قسمه .

ولا تقبل شهادة المسيحيين أو أي رجل ليس دينه الإسلام أمام المحاكم الإسلامية ضد المسلمين ، لذا لا يستدعى الكفار مطلقا عند الفصل في الأمور المدنية أو الجنائية عند الأتراك ، ومع ذلك فيمكن لقائد الشرطة أن يستعلم من كافر عن أمور تدخل في اختصاصه ، وثمة امر آخر يبحث على الدهشة فعندما يدعى على سبيل المثال شخص أن ثمة شخصا آخر قد طلب منه مائة خردة ، وشهد على صحة هذا الدين اثنان ، فإن هذه المائة خردة تستوجب الدفع حتى ولو لم يكن قد تم الدين في واقع الأمر ، ولكن إذا ما علا هذان الشاهدان بعد أن فلبهما النعم ليطنا ألام القاضي اتهما قد حنفا في قسمهما ، فإن القاضي يلزمهما أنفسهما بدفع هذه المائة خردة إلى الشخص الذي دفعهما ظلما ، ويحتفظ المدعى التهام بالمبلغ الذي حصل عليه ولا يلزمه القاضي بأى التزام ، ذلك بأن هذا المبلغ غير مستحق قد جاء فقط من جانب الشاهدين سيئى الذمة ، ولذا يقع العقاب عليهما وحدهما ، أما إذا لم يرجع في شهادته سوى شاهد واحد ، فمات يقوم بدفع نصف المبلغ المستلب .

ويمكن لرجل ما في غيبة الشهود أن ينكر ديننا مؤكدا ، فالشهود وحدهم هم الذين يبرهنون على صحة الدين ، ويعفيه القاتون لذلك من سداد هذا الدين ، وإذا ما ظهر شهود على هذا الدين ، فإن المدين يلزم بالدفع ويكون الحكم في هذه المرة بمثابة إيقاع للحكم الأول . وفي الحالة التي يطلب فيها شخص ما بدين لا ينكره المدين ، وإنما يدعى أنه قد قام بتسديده ، فإن القاضي يطلب من الطرفين أن يقسما ، ولكن إذا أنكر الدائن أنه حصل دينه مهما كانت حقيقة ما حدث ، فإن المدين يلزم بالسداد مرة أخرى ، لأن القاتون كما سبق أن قلنا ، يتف في صف الشخص الذي ينكر إذا ما أقسم على ذلك .

عن الدين ، وعن الافتراض بالربا

تعتبر شريعة محمد أن الربا جريمة ، وقد حرم هذا المشرع الربا لأنه يطمح الى أن يعتبر كل اتباعه انفسهم اخوة وأن يتعاونوا فيما بينهم ، ومع ذلك ، بحيث أن اغراء الكسب أقوى من الخوف من رقابة الدين ، فان المسلمين قد استطاموا على نحو ما أن يتحايلوا على هذا المبدأ الذي لا يمكن أن يتبعه شعب من المضاربين والتجار : واليكم كيف أن محمدا يجعل من وسيلة التعاقد الزاما شرعيا : « يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبغض منه شيئا فان كان الذي عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليمل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احدهما فتذكر احدهما الاخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ولا تساموا أن تكتبوه صفيرا أو كبيرا الى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها واشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد(*) » « وان كنتم على سفر ولم تجدوا كتابا فمرهان مقبوضة فان أمن بعضكم بعضا فليؤد التي اؤتمن أماته(**) » . وبما لذلك فان المسلم الذي يفترض مبلغا من المال ، أو الذي يعتقد دينما ، عليه أن يحرر ورقة الى مدينه في حضور شاهدين ، ولا يستطيع أن يعنى نفسه من هذا الاجراء ، الا اذا كان الدائن يوليه ثقة كبيرة لدرجة يكفى معها بكلمة من مدينه . ولا تكفى الكتابة وحدها بدون حضور الشهود لادانة رجل خرب الذمة ، يستطيع أن يحلف أمام القاضى بأنه غير مدين بالمبلغ المطلوب ، وهكذا فمن المهم لتفادى مثل هذا النوع من الإنكار التاكيد من الشهود ، ويكفى الشاهدان وحدهما في غيبة الكتابة لتأكيد الدين على الدين ، وقد سبق أن تعرضنا لذلك من قبل .

(*) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الآية ٢٨٢ (المترجم)

(**) القرآن الكريم ، سورة البقرة ، الآية ٢٨٣ (المترجم)

ويلزم الشاب البالغ بدفع الدين الذى حرره على نفسه ، وتنتظر الشريعة لذلك باعتباره أمرا مشروعا ، حيث انها تعتبر أن الشاب يتصرف عندئذ ، وهو على دراية تامة بالأمور .

ويسمح القانون بالارغام الجسدى لسداد الدين ، فالمدين ملزم ببيع كافة ما يمتلك ، فيما عدا الملابس التى يرتديها ، اذا أرغمه الدائن على ذلك ، وعندما يشك الدائن أن المدين قد أخفى فى بيت احد اصدقائه نقودا او اشياء ليفلت بها من الدائن ، فانه يساق الى السجن ، ويظل هناك حتى يثبت بشهادة شاهدين مشهود لهما بالنزاهة انه لا يمتلك فى الواقع شيئا ، عندئذ يأمر القاضى باطلاق سراحه حتى يستطيع أن يحصل عن طريق عمله على ما يستطيع به سداد دينه . وما أن يجنى المدين بعض المال ، وما أن يبرهن الدائن على ذلك أمام القاضى ، حتى يتعرض المدين لارغام جديد ، ولكن لا يسمح للدائن مطلقا باستخدام القوة من جانبه ضد مدينه ، ولا أن يفتشه دون تخويل صريح من المحكمة .

ويخضع الفلاح المزارع لكل صرامة القانون ، فيمكن ارغامه على بيع كل شيء ، حتى ثيرانه ومحراثه ، ولكن حيث أن المشرع يطلب من الدائن قدرا اكبر من الاعتدال نحو مدينه ، فان المدين يتمكن على الدوام تقريبا من الحصول على مهلة للوفاء بالتزاماته ، أو يرتب ذلك مع الدائن بطريق ودى .

والشخص الذى يودع لديه مبلغ من المال أو أى شيء آخر ايا كان ، لا يعد مسئولا اذا ما برهن امام القاضى بشهادة شاهدين ، أن الوديعة قد سلبت منه عن طريق قوة تاهرة ، وفى هذه الحالة نفسها فان قسمه وحده يكفى — اذا لم يكن ثمة شهود — لتحريره من كل التزام .

ومع ذلك فان المسلمين فى مصر يبدون الكثير من النزاهة والامانة فى معاملاتهم ، فيصرفون شئون تجارتهم بضمه طيبة حتى عندما تكون تجارتهم هذه مع تجار من ديانة اخرى ، ويفضل الاوربيون التعامل معهم اكثر مما يفضلون التعامل مع المسيحيين ، سواء كانوا من اهل البلاد أو كانوا من السوريين ، الذين هم أبعد ما يكونون عن التباهى بنفس الطيبة ، والذين يتحتم على المرء أن يتخذ أكبر قدر من الحيلة عند التعامل معهم ، ولا نستطيع

ان نعطي صورة عن نزاهة المسلمين في مصر عامة أفضل من ان نذكر على سبيل المثال امانة اناس الطبقات الدنيا ، فنقل الاموال والمجوهرات الثمينة يتم عادة عن طريق قوارب تسبح فوق النيل ، ومن النادر ان تتخذ احتياطات للتأكد من امانة البحارة ، ولم نكد نسمع مطلقا ان احدا منهم قد اساء استخدام الثقة التي وضعت فيه .

وللتحايل على الاجراءات القانونية التي تحرم الربا ، يمكننا ان نقصور ما يلي .

يقترض رجل مبلغا من النقود يريد ان يستغلها ، فيعتبر الدائن نفسه شريكا له في المشروع ، وعندئذ يحصل على نصيب شرعى من الربح الذى يدره هذا المشروع ، ويسمح القانون احيانا ان يقدم المقترض الى الشخص الذى يقترض منه هدية سنوية او شهرية طيلة المدة التى يحتفظ خلالها بالمبلغ ، ويمكنه ان يحصل على هديته هذه بقسم منه ، ونحن نرى ان هذا الاجراء يساوى الربا بشكل تام ، بل انه يفوقه في انه غير محصور داخل نفس الحدود .

والشخص الذى يستغل مبلغا من المال ، او الذى يحصل على ايجار منزل او على دخل من ملكية ايا كانت ، يلتزم بان يقدم كل عام للقراء $\frac{1}{3}$ من ربح رأس المال ، وللحاكم الحق في ان يرغمه على ذلك ، اما كل الممتلكات التى تستخدم في الاستعمال الشخصى كالبيت الذى يقيم فيه المرء او الارض التى يطعم أسرته من نتاجها ... الخ فهى لا تخضع لهذا النوع من الضرائب ، اذ يمكن القول بان هذه الضرائب ليست الا امرا يفود الى ضمير المرء ، ولا تفرض المحاكم ضرورة دفعها ، لذا فان المسلمين ذوى الحمية الدينية ، هم وحدهم تقريبا الذين يؤدونها .

قلنا ان الدائن يرتب اموره مع مدينه ، ونتيجة لذلك فتتبادر الى حالات الافلاس بالتدليس في مصر ، لكن حوادث المصادرة معروفة وشائعة ، وكثيرا ما توضع الاختام على المحلات التجارية وببوت اولئك الذين تريد الحكومة ان تصادر ممتلكاتهم . وتوضع هذه الاختام بطريقتين : اما بواسطة مسمار يضعه موظفو القضاء في قفل الباب ، وعندئذ لا يستطيع احد ان يخالف هذا المنع دون ان يعرض نفسه لقطع يده . واما بوضع قليل من الطين على القفل مع ترك علامة ما . وعند مرورنا في الرميطة مع

فرقة عسكرية من فرقنا مررنا بسبل يحتوى على كمية هائلة من القمح ومختوم بعلامة الطين ، وكان من المستحيل علينا وقتها ان نترك حامية في الحديقة حيث اتنا كنا ما زلنا نحارب المالك . وحيث ان هذا القمح قد آل اليها بيننا نحن لم نصبح بعد في وضع يجعل الآخرين يحترمون قوتنا ، لقد كان من المحتمل ان يقوم العامة بدافع من الرغبة في السلب ، اكثر منه بفعل الحقد الذي كانوا يكتونه لنا ، كأمر طبيعي في الأيام الأولى لقدمنا - باقتحام هذا المحل وسلبه ، ومع ذلك فان شيئاً من ذلك لم يحدث ، فعندما عدنا إلى المدينة من جديد أى بعد حوالى شهر - وجدنا المخزن سليماً لم تمسه يد .

- ٩ -

عن الزنا - وعن الانفصال

يبدو أن نبي الاسلام كان ينظر الى الزنا باعقلاره امرا يبعث على اضطراب الأسرة ، وانه ينبغي لذلك الا يفتضح أمره لا للعامة ولا أمام المحاكم . صحيح انه امر بان يجرم أى متزوج بدان بهذه الجريمة ، ولكنه أرغم الرجل الذى ينتهك عرضه ، والذي يريد اتهام زوجته بمثل هذه الذممة ، أرغمه على الصمت حين حتم عليه احضار أربعة شهود عيان ، وجلد من لا يستطيع تقديم الدليل على هذا الاتهام ٤٠٠ (*) جلدة . وقد حانت الفرصة ذات مرة لى يقوم هو بنفسه بتطبيق هذا المبدأ ، حين جاءه ذات يوم رجل ناجاً زوجته وهى ترتكب جريمة الزنا ليطلب اليه تطبيق العقاب على زوجته الآثمة ، فسأله محمد ان كان له على ذلك أربعة شهود ، فلجأ الزوج الذى أدين فى شره بالنفى . فندد قال له محمد انه سيعاقبه بتهمة القذف فى حق زوجته .

ولم يرد الا ذكر امرأة واحدة رجعت لأنها اتهمت بالزنا ، وقد تم ذلك لأنها هى نفسها التى اعترفت بجريمتها ، وعند تنفيذ حكم من هذا النوع تعلل الحاكم أو الوالى الذى يمثل ان يلقى بأول حجر .

وتتغنى الشريعة بجلد العزب الذى يتهم بالزنا مائة جلدة ، ويجلد العبد الذى يدان بنفس الجريمة والذي يعيش فى كنف سيده خمسين جلدة فقط . (*) ومن المعلوم أن يجلد ثمانين جلدة . كما ورد فى سورة النور آية ٤ . (المترجم) .

ويدان الزوج الذى ينجىء زوجته وهى تزنى ثم قتلها ، بالقتل ، ويلقى عقاب الموت ، فليس له فى هذه الحالة الا أن يطلقها أو أن يلجأ الى القاضى .
وعندما لا يتوافر له الشهود فانه يقسم أربع مرات بانه صادق فى اتهامه ، وفى القسم الخامس يدعو على نفسه باللعنة أن كان كاذبا ، وعندما لا ترد المرأة بشئ على هذا الاتهام ، فانها تدان بسبب صمتها ، وعقابها فى هذه الحال عبارة من جلدها مائة جلدة وحبسها بقية عمرها ، أما اذا برهنت على براعتها بنفس طريقة القسم ، فان القاضى يطلق سراحها . ويكون انفصالها عن زوجها أمرا لا محيص عنه ولا رجعة فيه (١) .

وقد يحدث أن يجد رجل ما عبده فى أحضان زوجته ، ومع ذلك فلن يكون له الا حق عقابه أو بيعه ، أما اذا قتله أو حرمه من أعضائه التناسلية فانه سيكون قد ارتكب جريمة كبرى ، لكن مثل هذه الأعمال العنيفة ستبقى دون شك بغير عقاب ، فى بلد تسيطر فيه السعادة والعواطف الجامحة أكثر مما يسيطر القانون ، ومضلا عن ذلك فسيكون من السهل على فرد ما أن يخفى جريمة قتل يمكن أن يقتربها داخل منزله ، أو يستطيع على الأقل أن يجعل هذه الجريمة تمضى باعتبار أن الموت قد حدث بشكل طبيعى .

ويعاقب على الاغتصاب بمائة جلدة ويلزم لإثباته أربعة شهود .

وبالرغم من أن البغاء جريمة ، فان الشريعة لم تفرض عقابا زمنيا على تلك اللاتى يمارسنه . أما الاضطراب الذى تحدثه النسوة اللاتى يعشن هذه العيشة الدنسة ، فهو من اختصاص الشرطة . وعدد هؤلاء التحيصات فى القاهرة وكذا فى كثير من مدن مصر كبير جدا ، والمقيمات منهن بالقاهرة يخضعن ضريبة للوالى . ولم يفرض محمد على الرجال الذين يتصلون بالبغايا عقوبات زمنية ، لكنه أنذرهم بعذاب النار بعد الموت .

(١) يقول القرآن عن الزوجة التى تتهم بالزنا : «واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » .

ويقول عن الأمة المتزوجة التى تزنى : «فاذا أحصن فان اتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » .
سورة النساء

والفتاة التى تحترف البغاء ثم تصبح أما تنفد نجاة احترام العيلة ، ومع ذلك مهي لا تحتقر لدرجة لا تجد معها لنفسها بعد ذلك زوجا ، والشخص الذى يتزوجها يقوم بفعل خير فى نظر الله ، لأنه ينتشلها من الضياع الذى ستنتهى اليه لا محالة ، لكن الرجل الحساس والذى يحرص على تقدير أصحابه يتفادى ارتباطا كهذا ، لكن أمثال هذا الرجل قليلون .

١٠

عن السرقة والقتل — وعن القصاص

تعاقب السرقة بقسوة ، وبرغم ذلك فلا يعاقب المذنب مطلقا بالموت ، إلا اذا كانت السرقة قد اقترنت بالقتل ، والشخص الذى يدان بالسرقة مع استخدام العنف داخل محل تجارى أو داخل بيت أو داخل نطاق ما ، تقطع يده ، ولكنه اذا ارتكب هذه السرقة من شخص أو من معروضات ، وباختصار اذا سرق خارج مكان مسور ، فان القاتلون يحكم فقط بضربه بالعصا وبإعادة المسمقات . انن فافتحام المسكن وانتهاك حرمة هي التى تشكل خطورة في هذه الجريمة . ولا تصادر حرية المذنب في كل الحالات ، ويتركه القضاء لحال سبيله بعد تنفيذ الحكم عليه .

وليس ثمة عقوبات أخرى للخادم أو المبد الذى يسرق سيده . وكذلك لا ينظر للشخص الذى يسرق مسجدا باعتباره اكبر جرما من الشخص الذى يرتكب السرقة في أى مكان آخر .

ولا تضيف العودة الى السرقة شيئا الى الجريمة . فالمرجى يلتقى في جريمته الثانية نفس العقاب الذى تلقاه على جريمته الأولى ، اذا ما تمت السرقة في ظروف مشابهة . فاذا كان قد فقد يده اليمنى تقطع له اليسرى ، ويلزم وجود شاهدى عيان لاثبات السرقة ، ولا تقبل شهادة النساء مطلقا . وعندما لا يستطيع المدعى أن يحضر شهودا ، فان القاضي يلزمه بأداء اليمين فاذا رفض يدان ، أما اذا اقسم لمعنى عنه .

واذا تخلص اللص من الأشياء المسروقة ولم يستطع أن يردها ، فانه لا يودع السجن من أجل ذلك وإنما يدخل ضمن طائفة المدينين المعسرين ويمنحه القاتلون نفس التساهل ، ويحكم على من يقوم باخفاء المسمقات بإعادة الأشياء التي تسلبها الى صاحبها ، لكن الشرطة تستطيع عقابه

بطريقة أخرى . فإذا كانت هذه المبررات قد بيعت وتعرف عليها صاحبها واثبت أنها تخصه في الواقع ، فإنه يستعيدها دون أن يكون ملزما بتمويض مشتريها .

وكانت حوادث السرقة منتشرة قبل مجيء الفرنسيين ، وكان عدد كبير منها يرتكب داخل البيوت بالرغم من بشاعة العقاب ، ولكن لما أن أصبح على رأس السلطة موظفون فرنسيون حتى أصبحت هذه الجرائم نادرة تماما .

ولا شك أن أكبر وأبشع الجرائم التي على المجتمع أن يهتمها وأن يعاقب عليها ، هي جرائم القتل . ويتفق محمد في الرأي حول هذه النقطة مع كل المشرعين القدامى والمحدثين وحكم على القاتل بالموت ، لكنه مع ذلك يتميز من أسلافه ، إذ هو أكثر منهم حنكة في ذلك الفن الصعب ، فن سياسة الأمم ، ويتجلى ذلك في تلك النصوص التي جاء بها حول هذه الجريمة ، ليخفف من وقعها وليغير من أثرها ، فقد أباح لاهل القتل أن يكتفوا بتمويض مالي وذلك عندما ترك لهم الخيار بين هذا الاجراء ، وبين انزال القصاص بالذنب فنحن من جهة نقرأ في الجزء الأول (**) من القرآن : « يا ايها الذين آمنوا كتب عليكم التماس في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والانثى بالانثى فمن عفى له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء اليه باحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب اليم » . ومن جهة أخرى نقرأ في الجزئين الثالث والرابع (***) : « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين » وفي الجزء الخامس (***): « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » .

وتبعا لهذه النصوص المختلفة نأثنا نرى أن محمدا مع اعترافه بضخامة الجريمة ، ومع تشريعه بعقابها ، يميل نحو التخفيف ويحبذ التسامح . ومع ذلك فإن مشاعر اللياقة هذه من جانب المشرع ، ليست بذات سطوة كبيرة

(*) صحتها في الجزء الثاني ، الآية ١٧٨ البقرة .

(**) صحتها في الجزء الخامس ، الآية ٩٢ النساء .

(***) صحتها في الجزء السادس ، الآية ٣٢ المائدة .

على عقل وروح الشرقيين ، فهذه الشعوب تنضل الانتقام أكثر مما تحبسه
هذا التعويض البسيط (١) فليس المال هو الذى يرضيهم وإنما يرضيهم رأس
القتل ، لذلك محاولات القتل نادرة في بلادهم . وينظر اليه رجال الدين
باعتباره تمديدا على الله وعلى أهل البيت وعلى الحكومة . ولكن إذا هسا
الورثة بقبول مبلغ على سبيل التعويض ، فإن الله بدوره سيجلو لآله غفور
رحيم ، وستعمل الحكومة أيضا لأنها لا يمكن أن تكون أكثر تشددا من الطرف
الذى يهيم الأمر . من هنا يأتى قانون حق الدم (الدية) وهو نوع من الاتلو
يفرض على القاتل فى مقابل رأسه ، وينظر اليه كإرث حقيقى ، وينتج عن
ذلك أن كل من لهم الحق فى ارث القتل يمكن لهم أن يوقفوا تنفيذ القصاص
فى قاتله ، وإذا كانت زوجة القتل حاملا فاتهم ينتظرون الى اليوم الذى
يستطيع فيه الوليد أن يعقل ليفصل فى مصير القاتل .

ويكفى أن يطالب أحد الورثة ، مهما كان نصيبه فى الارث ضئيلا بحق
الدم ، لكى لا ينفذ حكم القصاص حتى ولو كان الآخرون قد أجمعوا على
مقابله . وإذا كان أحد الورثة غائبا فإن القاضى يؤجل تنفيذ القصاص ،
وإذا كان القاتل معروفا ومن السهل العثور عليه ، يطلق سراحه ، أما إذا
كان يخشى من هروبه فانه يسجن أو على الأقل يفرض عليه أن يقدم كفيلا ،
ويتعاضد القاتلون على الدوام ويقدر الإمكان اصدار حكم بالسوت ، ولكن
إذا لم يرد أهل القتل قبول أى تعويض ، فإن القاضى يصدر فى النهاية ذلك
الحكم على القاتل ويسلمه للأسرة ويسأل ما إن كان أحد من أفرادها يريد

(١) الانتقام هو العاطفة المسيطرة على المصريين . وبينما كنا فى قرية
شنديا (مركز إيتاى البارود) كان بعضنا يتنزه ذات يوم مع القائد فى حديقة
منزله ، عندما جاء شاب يبلغ من العمر ١٤ أو ١٥ سنة ليرتدى تحت قدمى
القائد راجيا مستمعنا ويداه مضمومتان الى صدره وهو يصيح فيه : الانتقام !
فانتهض القائد وسأله عن سبب صراخه فقال : كان والدى شيخا لششت
الاعمال فنجحه شيخ البلد الحالى منذ أربع سنوات ليتولى منصبه ، واتى
أطلب منك الانتقام لذلك « فأجاب القائد وقد أخذ ثبات الشاب وحزمه :
« هل لديك شهود ؟ » فصاح الشاب : « أما شهودى فهؤلاء هم ! » وفى
اللحظة أخرج من صدره قميصا مصبوغا بالدم بعث منظره بالفزع الى قلوبنا :
« هذا قميص أبى وقد اخترقته الطلقات التى تلقاها وهو مغطى بدمائه ،
أننى أحمله فوق قلبى وسيظل فى مكانه هذا حتى انتقم له » .

وتوصلنا الى تهمة هذا الابن البائس واعدن اياه بأننا سندرس الأمر
وتركنا وهو نصف راض لأنه كان يظن قبل مجيئه أنه يرى بيمينه يوم الانتقام .

تنفيذ الحكم بنفسه . فإذا لم يتقدم أحد ، وإذا لم ترشح الأسرة جلاداً من عندها ، يكلف الوالى الاغا بتطبيق العقوبة .

وتستطيع الأسرة أن تتقدم بعفوها في أى وقت حتى وقت التنفيذ ، وحيث أن الحكم لم يصدر الا برجائها هي فهي حرة في أن تعفو عن القاتل في الوقت الذى يترأى لها . ويبرهن كل هذا بوضوح على أن القانون لا ينظر الى القتل باعتباره جريمة اجتماعية بقدر ما ينظر اليه باعتباره جريمة في حق الأسرة ، حيث أن القاتل لا يطارد الا بطلب من أهل القتل . بل إن الاغا نفسه — وهو يمارس واجباته — لا يستطيع أن يأمر ببوت رجل مهما كانت جريمته دون موافقة الحاكم ، وينبغى لكى يسمح لنفسه بالتصرف على نحو مخالف أن يكون المذنب متشردا وليس له أهل ولا نفوذ . وهكذا لم تكن اختصاصات الشرطة في الأزمان الأخيرة تصل لحد الاعدام ، الا اذا كان الأمر يمس رجلاً مجهولين لا أهمية لهم .

ولا يصدر القاضي مطلقاً حكماً بالاعدام على قاتل الا اذا قدمت البراهين التامة على الواقعة ، والا اذا عرفت الظروف كلها وسمعت شهادة الشهود ، ويلزم وجود شاهدين على الأقل يشهدان بأنهما رايا ارتكاب الجريمة ، ولا تقبل شهادة واحد بمفرده مهما كان مركزه أو نفوذه ، ولا يمكن للنساء أن يشهدن في قضايا الاجرام ولا يلقى بال لشهادتهن الا في الأمور المدنية .

وتعتبر شهادة اثنين من دين مخالف ضد مسلم صالحة ومقبولة . وفي الحالة التى لا تكفى فيها الأدلة لادانة المتهم ، فإنه يستطيع بتقديم مبلغ من المال لعائلة القاتل أن يحو عن نفسه هذه الوصمة التى يلطخه بها عادة مثل هذا الاتهام الخطير .

ويمعاقب قتل المرأة بنفس الطريقة التى يعاقب بها على قتل الرجل ، ولا يضع المذهب الحنفى اية تفرقة كذلك بالنسبة لقتل العبد .

واذا ما قتل غريب ولم يطلب أحد ثمناً لدمه فإن وارثه — أى الحاكم — يرفع القضية الجنائية عن طريق ممثليه ، وكما يلاحق السيد الذى يقتل عبده كذلك باسم الحاكم ، الحافظ لحقوق المجتمع حسب رأى المذهب الحنفى أما المذاهب الأخرى فترى أن السيد قد عوقب بما فيه الكفاية بفقد عبده .

وموت الفلاح المدين تحت ضربات عصا الملك ، يعرض الأخير لنتائج

العمل الإجرامى ، ولكن النفوذ و سطوة الثروة الكبيرة او سطوة اصحاء لهم نفوذ ، تجعله فى معظم الاحوال فوق القانون .

واذا كانت الشريعة لم تقرر الا عقابا بسيطا للمسلم الذى يقتل كافرا ، نال الحكومة — وهى يعنىها ان تحمى كل الناس بما فيهم الاجانب شأنهم فى ذلك شأن رعاياها انفسهم — تحكم بالاعدام على قاتل المسيحى او اليهودى . وفى عام ١٧٧٠ او ١٧٧٢ اغتيل احد الفرنسيين بيد قواس أحد الكشكش فأمر اغا الانتكشارية بقطع رأس القواس ونفى الكاشكش .

واعدام القاتل لا يحقر من شأن اولاده ، فالجريمة عند المصريين وعند كل المسلمين شخصية ، بينما تبدو مصادرة الثروات باعتبارها شيئا بشعا وظالما لورثته ، لكن هذا الاجراء كان يحدث فى بعض الاحيان اثناء حكم البكوات ، لكن ذلك كان احدى السنوات التى ادخلوها مع ما ادخلوه من سوءات .

وتحكم الشريعة بالقصاص على الشخص الذى يجرح قريبه « النفس بالنفس والعين بالعين والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص » (١) .

والشخص الذى يدان بارتكاب هذا الفعل العنيف ، يستطيع ان يفتخر فعملته بأن يدفع الى المجروح نصف المبلغ الذى كان سيضطر لدفعه لو انه قتله .

ولا يمكن ان يحكم بالموت على القاتل الخطا ، ولكنه يدين لأسرة القاتل بثمن حق الدم ، باعتباره قد حرما من احد افرادها .

وحسبما يرى العلماء فان الشريعة فوق الحاكم لذا فانه لا حق لاحد فى ان يحكم على انسان مثله بالقتل ، الا اذا كان القاضى هو الذى اصدر هذا الحكم . وفى عهد السلاطين الاول ، كان لاهلى الشخص الذى امر رئيس الشرطة بقتله ، الحق فى استدعاء هذا الضابط امام القاضى ليطلبوا القصاص منه ، بل ان السلطان نفسه لا يستطيع ان يحكم بالموت كما يتراءى له على مذنب فاجاه هو بنفسه وهو يرتكب جريمته . فقد رأى الفورى

(١) القرآن الكريم ، الآية ٤٥ ، المائدة . المترجم .

سلطان مصر بعينه واحدا يرتكب جريمة زنا ، فجمع القاضى والمذنبين وأمر الاول بأن يقتل الآخرين فأجابته القاضى « اعرف أنك شاهدت هؤلاء الذين تتهمهم ، وكان فى يدك السيف لكى تضرب أعناقهم ، لكننى ليس لى الحق فى ان ادينهم بلا أدلة ، احضر لى اذن شهودا حقيقين افحص لك القضية » ويقدم لنا التاريخ مثالا آخر أكثر دلالة على سطوة الشريعة على كبار الامراء فى ازمة الاسلام الاولى ، فقد استدعى الخليفة هارون الرشيد فى قضية وعندما حضر الى المحكمة استقبله القاضى جالسا ، وفحص القضية وانهاها بشكل ودى ثم نهض القاضى — الذى لم ينهض عند حضور الامير اذ كان من المحتمل ان يكون مذنباً — بعد الحكم ، وصحبه الى حصانه وساعده على الركوب .

ومع ذلك فتحت الادعاء بأن الصالح العام يحتم على الدوام اتخاذ اجراءات عاجلة ، فقد كان الوالى او رئيس الشرطة الليلية يقطع راس الشخص الذى يجده متلبسا بارتكاب جريمة ، دون بحث او تحريات قضائية ، ولم يحدث مطلقا منذ ان استقر الاتراك بمصر ان تجاسرت اسرة رجل مات بهذه الطريقة ان تتقدم بشكوى الى القاضى ، مسيف الوالى صريح وخارج القانون كما يقول العامة ، ولكن سلطة رؤساء السلطة كما سبق ان نوهنا قد أصبحت فى الآونة الاخيرة اقل استبدادا ، فلم يعد الشرطة يقتلون أى شخص الا اذا حصلوا مقدما على تفويض بذلك من شيخ البلد .

وليس ثمة مأوى له حرمة لقاتل ، فهو يلاحق فى كل مكان حتى فى المساجد وحجرات الحرم ، ومع ذلك فان الرجل الكريم الذى يخفيه من غضب الاسرة المكلومة يمدح بأنه قد قام بفعل خير سوف تكافئه عليه السماء ذات يوم ، خاصة اذا لم يكن قد آوى القاتل الا لكى يلتبس من ملاحقيه توضيح العقاب الذى يطلبونه ، اما اذا امر اهل القتل على طلب رأس القاتل فان حاميه يضطر لتسليمه طواعية ، والا يرغم على ذلك بقوة السلطة .

وحوادث القتل نادرة للغاية فى المدن الكبرى وبخاصة فى القاهرة ، وربما لا يعود الامر الى قوة القانون بقدر ما يعود الى الطابع الخجول للسكان ، والى يقظة الشرطة المتحفزة على الدوام والتي تنقض كالصاعقة، ولكن فى الأقاليم حيث لا توجد شرطة عمومية ، وحيث ترين البلادة والخمول

والجهل على الفلاحين وتبائل العربان التى تعمّر الريف ، فان حوادث القتل
اكثر انتشارا .

وقد دخلت فى عهد محمد بك عادة هجية سببت عددا لا يحصى من
الجرائم ، ففى موسم البرسيم كان سياس (جمع سايس) الممالك يذهبون
الى حقول البرسيم لرعاية الماشية وجمع الكلا ، وقد تسببت هذه الانتهابات
فى كثير من حوادث القتل ، وكثرت الشكوى من ذلك لدرجة ان الحكومة
تساهلت فى الأمر حتى توفر على نفسها مشقة قمع هذه الامور الجاحية ،
وحتى لا يعود الأمر يسبب لها من الضيق ما هى فى غنى عنه ، خولت
الفلاحين على نحو ما قتل السياس النهابين ، كما خولت هؤلاء كذلك حق
الدفاع عن حياتهم . شريطة الا يستخدم اى طرف من الاثنين الاسلحة
النارية ، ولم يكن القاتل من اى من الطرفين يلقى اى نوع من العقاب .

الفصل السادس

عَنِ التِّجَارَةِ وَالصَّنَاعَةِ وَالزَّرْعَةِ

١

تجارة مصر منذ العصور القديمة وحتى اليوم

كانت مصر على الدوام مركزا لتجارة هامة، وهي تدين بذلك لموقعها الجغرافى بقدر ما تدين به كذلك لكثرة وتنوع منتجاتها الزراعية، فهي تقع على بحرين، ويمكن القول بأنها تشكل نقطة التقاء بين ثلاث قارات كبرى من العالم القديم، وعلى هذا فقد كانت سوتا كبيرا لمختلف الأمم، حيث سهلت لها سبل الاتصال الملاحية فى نهر النيل وفى ترعه وفروعه التى لا يحصىها عد. لذلك يخبرنا الكتاب المقدس نبأ أولئك التجار الاسماعيليين الذين جذبتهم التجارة الى مصر، فساروا اليها ومعهم اشهر ابناء يعقوب الذى اشتروه. ويرهن هذا النص الهام — بالاضافة الى الحكاية التى تليها — وبطريقة لا تقبل الجدل، على ان بلاد الفراعنة كانت منذ الأزمنة البعيدة مزدهرة ازدهارا كبيرا بفضل التجارة والصناعة. ومع ذلك فان الضرائب والروحانيات تد وضعت لذلك حدودا. اذ اتخذت شعوب مصر — حسبما يقول هيرودوت ومؤرخون آخرون جديرون بالثقة — من البحر عدوا. ونظروا للاسفار التى تتم عن طريقه باعتبارها أفعالا تدنس مقدساتهم. هل من الممكن تفسير هذه الفكرة العجيبة بنفور المصريين الطبيعى من بقية الأمم او بالرجوع الى البحث فى انسلب آلهتهم؟ لكن بحنا من هذا النوع سوف ينأى بنا كثيرا عن موضوعنا. ويكفى هنا أن نقول بأن مصر اذا كانت قد ظلت برغم هذا التحريم — تحتفظ بأهميتها فى مجال التجارة، فان هذه التجارة تدين برواجها لخصوبة أرض مصر، ولاحتياجات الشعوب المجاورة التى كانت تجد فى مصر، ليس فقط كل ما تحتاج اليه من مواد غذائية، بل كانت تجد كذلك مختلف المنتجات التى تساهم فى اصفاء طابع الفخامة على مدنها الكبرى.

ولعل أول تجارة شهيرة يذكرها التاريخ هى تجارة الفينيقيين مع المصريين، وتجارة المصريين مع الأحباش والجزيرة العربية فى موانئ البحر الأحمر. وكان الفرس والهنود يجلبون الى الجزيرة العربية اقطانهم وعطورهم واحجارهم الكريمة وبضائع أخرى، وكانوا يحملون معهم عند

عودتهم المنتجات الصناعية الفينيقية المصرية . فضلا عن ذلك كانت توجد في هذه الفترة وسائل للتبادل التجارى ، لم تنتقل تقاليدھا اليأسا على الاطلاق . أما بخصوص اليونانيين ، فعلى الرغم من انهم يدينون بأصلهم جزئيا الى المستعمرات المصرية ، الا انهم لم يبدوا الا جدم تأخرين فى ممارسة علاقاتهم التجارية مع مصر . وقد سمح لهم فى عصر امازيس بأن يتخذوا من نكراتيس(*) مستودعا لتجارتهم ، وهو امتياز لم يكونوا قد حظوا به حتى ذلك الوقت . وقبل هذه الفترة ، كانت المستعمرات اليونانية فى آسيا تستطيع الاتصال بمصر ، وبخاصة منذ الدعم الذى قدمه الايونيون والكاريون Cariens لأبساتيك على منافسيه ، لكن العلاقات بين مصر واليونان لم تصبح طليقة من القيود الا فى عهد امازيس .

ومن بين كل الشعوب كان أبناء قرطاجة — بعد الفينيقين — هم الشعب الذى اثرى ثراء كبيرا عن طريق التجارة ، بل ويتفق مؤرخو الأزمنة القديمة على وضمهم فى الصف الاول . وكانت الاساطيل التجارية لهذه الجمهورية القوية تجوب كل انحاء البحر المتوسط وموانئ اسبانيا والشواطئ الغربية من أفريقيا .

ويقول العلامة Huet فى زمن فتوحات الاسكندر : كانت سفن القرطاجيين والفينيقين التى كانت فى ذلك الوقت تحت سيطرة الفرس — تغطى البحار من الهند والجيشة حتى المحيط الغربى « لكن تخريب مدينة Tyr (حاليا : صور) وانتصارات البطل المقدونى وتأسيس مدينة الاسكندرية قد احدث ثورة كبيرة فى مسار التجارة البحرية ، فقد أصبحت هذه المدينة الجديدة المقر الرئيسى لتجارة الهند فى عصر (فيلادلفوس بطليموس الثانى) ، وصارت فى ذلك الوقت من اغنى دول العالم ، فكانت هى التى تمون كل موانئ البحر الأبيض ، اذ كانت اليونان وايطاليا وآسيا وأفريقيا تأتى الى أسواق الاسكندرية للحصول على تموينها . وقد بنى بطليموس الثانى مدينة بيرنيس على البحر الأحمر ، وقد سهل ذلك نقل البضائع التى كانت تصل الى مصر من الهند ، فكانت تفرغ فى بيرنيس ومن هناك تنقلها القوافل الى قفط Coptos على النيل ، ومن هناك تنزل الى النهر

(*) حاليا : كوم جيف (المترجم) .

حتى المكان الذى تبدأ منه ترعة الاسكندرية . وقد اهتم هذا الحاكم كذلك
بتقشاء محطلات مريحة فى الصحراء للقوافل مما جعل هذا السفر الطويل
اقل مشقة مما يبدو لاهيننا الآن ، ولم يهجر طريق بيرنيس الا فى اواخر
عهد البطالة .

وكلفت كورنثة — فى اليونان — مزدهرة فى الوقت الذى كلفت
الاسكندرية فيه فى قمة مجدها تحت حكم البطالة ، ولقد استطاع اهالى
كورنثة الذين اثروا من عملياتهم التجارية ، ان يجعلوا من مدينتهم السوق
الرئيسية فى الغرب ، لكن الوقت لم يطل بها حتى عانت من الآثار البغيضة
لخبرة روما ، فسلب منها الغنصل مومبيوس Mummius (*) مجدها
التجارى بنفس الطريقة التى تدهورت بها مدينة صور فى الماضى بفعل
انشاء الاسكندرية ، وفى هذه الفترة أصبحت جزيرة ديلوس Délos (***)
— التى كانت لا تعرف حتى ذلك الوقت الا بمعبدها وآلهتها — المركز الرئيسى
لتجارة البحر الأبيض .

وفى العام ٧٢٥ من تأسيس روما تضاعفت مصر لتصبح مجرد اقليم
رومانى ، ومنذ ذلك الوقت استغل الرومان — وكانوا قد أصبحوا سادة
مطلقين للبحار — تجارة الهند لحسابهم ، ومع ذلك فلم تكن اساطيلهم تبحر
الى ما وراء الهند حسب شهادة مؤرخى ذلك العصر ، وكان اليهود والرومان
كما يذكر بلين Plinio يرحلون من الاسكندرية فى منتصف الصيف ، أى
فى الأيام الاولى لفيضان النيل بلا شك ، وكانوا يصلون الى برينيس بعد
٢٤ يوما ، ويستغرقون ٧٠ يوما ليمضوا الى الهند ، ولم يكن يلزمهم اقل من
عام فى رحلة الذهاب والعودة ، واستمرت هذه الحال حتى الغزو العربى
اى منذ أغسطس حتى قسطنطين ، ذلك لان انشاء القسطنطينية على يد
هذا الحاكم قد اضر كثيرا بازدهار تجارة مصر ، وفيما بعد ، عندما حمل
الخليفة عمر على انشاء البصرة على نهر الفرات ، أصبحت تجارة الهند
وقفا على هذه المدينة الجديدة ، ويمكن القول بان التجارة قد أصبحت

(*) قنصل الرومان عام ١٠٦ قبل الميلاد ، وقد استولى على كورنثة
واخضع اليونان . (المترجم) .

(**) من جزر الأرخبيل . (المترجم) .

محصورة بحدود الخليج الفارسي ، لكن مصر لم تكن قد فقدت بعد ازدهارها القديم . اذ كانت القاهرة التي بناها بعد ذلك الخليفة الفاطمي المعز لدين الله عام ٩٨٤ قد أصبحت مدينة هامة ، وفي القرن الثاني عشر استمرت الاسكندرية جزءا من امتيازها واصبحت تنهال عليها بضائع الهند من كل جانب ، لكن اكتشاف البرتغاليين لطريق يؤدي الى الهند عن طريق المحيط الاطلسي ورأس الرجاء الصالح ، كان هو القشة الأخيرة التي قصمت ظهر مصر ، ويمكن القول بأن ذلك قد قلص مكائنها التجارية لدرجة لم تمتد تنشغل معها الا بتجاريتها المحلية . وقد تأثر بذلك وبفلس القدر أهالي البندقية وجنوة الذين كانوا قد اثروا لفترة طويلة عن طريق تجارتهم مع القسطنطينية والبحر الاسود وآسيا الصغرى ، ثم أضرروا بسبب النتائج التي أدت اليها في آسيا الاكتشافات البحرية البرتغالية . فقد كان تجار البندقية وحدهم على وجه التقريب هم الذين يستحوذون على كل تجارة مصر فقد كانوا يأتون الى الاسكندرية للحصول على كل المواد الغذائية اللازمة لأوروبا ، ويحملون الى مصر أخشاب البناء والمعادن والاصواف والسلاح والزجاج . الخ . وفي القرن الرابع عشر ، عندما استطاع أهالي فلورنسا الارتفاع بمستوى صناعة الحرير والزجاج لحد كبير ، فانهم توسعوا في علاقاتهم ومبادلاتهم ، فكانوا يأتون الى الاسكندرية ويقسمون التجارة مع أهالي البندقية ، وقد كان هؤلاء من قبل لا يلقون أية منافسة ، وأنشأ أهالي فلورنسا البنوك ، واحتلوا مركزا بارزا بين الأمم التجارية في ذلك العصر .

هذه هي كل عصور التجارة المصرية منذ العصور الضاربة في القدم حتى العصور القريبة من عصرنا . فلنر الآن ماذا أصبحت عليه التجارة تحت الادارة المخزية للمماليك ، وتحت تأثير العثمانيين وهو لا يقل من تأثير المماليك دمارا .

مما لا جدال فيه انه لو كانت حالة التجارة لبلاد ما تعتمد على الحكومة التي تحكمه ، لكانت مصر قد أوقفت منذ زمان طويل كل انواع التبادل مع الشعوب المجاورة . ومع ذلك فقد كان ثمة تجارة شائها شأن كل فروع الأعمال التي يحترفها شعب من الشعوب ، لقد كان هذا الضرب من ضروب النشاط يسير نفسه بنفسه ، لأن كل انسان يشعر بحاجته اليه . ان من الممكن اعاققتها ولكن يستحيل القضاء كلية على أثرها النافع . وهذا هو ما

حدث تحت استبداد المالك ، فكانت المبادلات التجارية تتم على الدوام ، وبالرغم من أن عدد البيوتات الأوربية التى استقرت فى القاهرة أو الاسكندرية قد أصبح ضئيلا ، الا انه كان ما يزال كافيا للقيام بنشاط كبير فى مجال المعاملات التجارية بين مصر وأوربا . وبخلاف هذه التجارة كان ثمة تجارة أخرى — لا تقل أهمية — بين مصر والقسطنطينية ، تلك هى تجارة الرقيق الأبيض من كلا الجنسين والذين يبدلون بصيد سود قادمين من أعماق أفريقيا . وكانت القوافل تجلب الى مصر من سوريا وفلسطين المواد الغذائية والبضائع المختلفة ، لتحمل معها بضائع أخرى عند عودتها .

ولكن أهم فرع من فروع التجارة المصرية كان هو استيراد وتصدير البن القادم من الجزيرة العربية ، فكانت السفن تقوم برحلة سنوية من السويس ، لتتجه الى جدة ، لتحمل من هناك البن الذى كان عرب اليمن قد جلبوه اليها ، كما كانت تحمل الأمتشة والتوابل والبخور القادمة من الهند أما عن طريق الانجليز من البنغال وسورات ومدراس وأما بواسطة الهنود انفسهم ، وكانت السفن المصرية تبحر من السويس فى الفصل الذى تهب فيه رياح الشمال ، وكان يلزمها ١٧ — ٢٠ يوما للوصول الى جدة . ولم تكن ترفع شراعها الا اثناء النهار ، وكانت تلقى مراسيها فى الليل ، وكانت تحرص على التزام الشاطئ ، ونادرا ما كانت تتوغل فى عرض البحر . وكانت رحلة العودة تستغرق شهرين .

وكانت القوافل القادمة من دارفور وسنار ، وكذلك القادمة من بلاد النوبة ، تجلب الى مصر بخلاف المبيد السود من كلا الجنسين ، أصنافا عديدة من المواد الثمينة مثل تراب الذهب والعاج والمسك والأبنوس والعنبر وريش النعام والصمغ من مختلف الأنواع . ويفترض مايبه Maillet أن مصر تحصل من فرنسا وإيطاليا فى العام الواحد على ٤٠٠ — ٥٠٠ ألف قرش ، وأنها تحصل من أعماق أفريقيا على ١٠٠٠ — ١٢٠٠ قنطار من تراب الذهب ، وعلى أكثر من مليون ريال فرنسى (écus) من القسطنطينية وآسيا ، ثمنا لأمبشتها وبنها وأرزها ومختلف الأنواع من البقول .

وتشتمل تجارة التصدير المصرية أساسا على الارز والبن وجلود الماعز والأمتشة والقطن والسكر والقمح والعقاقير الطبية والخضروات الجافة . وكانت الحنة ، وهى نبات يستخدم فى صبغ الأظافر والأقدام والأيدي باللون

الاحمر البرتقالى ، مرغوبة بكثرة فى كل البلاد ، لانه كل من عاده المسلمات بصفة عامة استخدامها .

وكان جزء من مالية مصر يذهب الى تركيا لتسديد الجزية التى يدفعها الباشا للسلطان ، مع ما يرسل من هدايا كان يقدمها للوزراء والمقربين من السلطان ، حتى يثبت فى مكانه . وكان جزء كبير من مال مصر كذلك يفتى من طريق ابنائها الذين يخشون على الدوام من السلب ، وقد انتهت هذه العادة المحزنة — وهى شائعة عن كل الشرقيين — بتسرب كثير من الأموال الى خارج مصر ، وبهذه الطريقة ضاعت على مصر مبالغ طائلة ، والى الأبد .

وكان ميزان العلاقات التجارية بين مصر وأوروبا لصالح مصر بشكل كبير ، اذ لم تكن مصر تدفع أموالا على الإطلاق ، وكان المقابل يتم دائما فى صورة بضائع ، بينما كانت أوروبا مضطرة فى معظم الأحيان الى دفع الأموال . وكانت فرنسا ترسل الأصواف وصبغة النيلة والأسلحة ومختلف المواد اللازمة لصناعة الحديد والنحاس ، أما البندقية فكانت تصدر لمصر العملات الذهبية الإيطالية (Séquins سكين) والخرز والمراما ، أما ألمانيا فكانت ترسل البورسلين والأواني الزجاجية والمواد اللازمة لصناعة الحديد والنحاس .

وكانت مصر ترسل فى مقابل ذلك السنامكى والصمغ ، وكثيرا من المنسوجات القطنية الخشنة ، وغزل القطن والسكر الخام والبن الى مرسيليا . وكانت ترسل الى البندقية كميات كبيرة من البن والعقاقير الطبية ، وكانت ترسل الى ألمانيا العاج والأبنوس والصمغ .

وكان من المفيد فى السنوات الأخيرة ارسال النقود الى مصر ، لأن قيمتها الاسمية كانت فى ارتفاع ، ويرجع السبب فى ذلك الى ندرة النقود ، والى أن قيمة العملات الوطنية كانت فى تدهور مستمر . أما البضائع الضرورية كالأصواف ونحوها ، فكان يفضل الحصول فى مقابلها ، على بضائع ، حيث كان سعر هذه الأصواف قد ارتفع .

أما تجارة الهند وجدة ، فكانت على العكس من ذلك مكلفة لمصر ، لأنها لم تكن تصدر فى مقابلها الى هناك الا أصوانا رديئة ، ولأن تجارة البن

كانت تقتضى منها أن تدفع $\frac{1}{3}$ منه نقدا . أما تجارة قوافل أفريقيا فلم تكن تتطلب قطعة واحدة من النقد ، وكانت هذه القوافل تجلب كما سبق القول الصبيد والصمغ وسن الفيل وريش النعام وتراب الذهب ، وتحصل في مقابل ذلك على الأصواف الفاخرة والمجوهرات والأسلحة النارية المصنوعة في أوروبا .

ولكى نعطي للقارئ فكرة موضوعية عن تجارة مصر ، نضع تحت يده جداول مختلفة نوضح فيها بالتفصيل كل مواد الاستيراد والتصدير التي تغذى هذه التجارة ، وتمود هذه الارتام الى عام ١٧٧٥ .

تفاصيل البضائع المستوردة

من لندن • مارسيليا • ليفورنو • البندقية • تريستا • القسطنطينية

وأزمير ومدن تركية أخرى • الى القاهرة للاستهلاك السنوي بمصر عام ١٧٧٥

أنواع البضائع	الوحدة	السكة النقود	نوع النقود	العملة	ديوانى	الوزن والمقاييس
جوخ انجليزى - سورفابن (فاخر)	طرد	٥٠	قطعة ذهبية	٢	٢١/٤ -	أفراح مقاس القسطنطينية
» فرسى »	»	٥٠	»	١	١١/٤ -	»
» هولندى »	»	٢٠	»	٢	٢١/٢ -	»
» فرسى خشن وعريض	»	٢٥٠	ديوانى	٧٥	٩٠ -	»
» انجليزى »	»	٢٥٠	»	٦٠	٧٥ -	»
» فرسى عريض	»	١٥٠	»	٥٥	٧٠ -	»
» منقوش الأرائك والمخدات	»	١٠	»	٦٠	٩٠ -	»
أقمشة صوف انجليزى	»	٢٠٠	»	٣٢	٣٥ -	»
فلقل	»	٣٠٠	—	٣	٣٥ -	قنطار ١٠٠ رطل
زحمة القرقل	»	١٠	ديوانى	١٦٠	١٨٠ -	رطل ١٤٤ درهم
الحشيشة المغربية	بالة	١٠	»	٤٦٠٠ -	٤٧٠٠ -	قنطار ١١٠ رطل
ورق ثلاث علامات واردرنا أوجنب	»	١٠٠٠	—	١٧	١٣ -	بالة ٢٤ رزمة
صوف فاخر من انجلترا يسمى باشماوت	»	٥٠	قطعة ذهبية	٢	٢٢/٤ -	وزنة القسطنطينية
» من لندن موديل فرنساوى	»	١٥٠	ديوانى	٧٢	٩٠ -	»
» ألماني	»	٦٠	قطعة ذهبية	٢٤	٣ -	»
ورد القس وسرويات روحية	»	١٠٠٠	ديوانى	٤٣	٤٨ -	أفة ٤٠٠ درهم
أخرى وارد ألمانيا والبندقية	»	١٠٠٠	»	٢٥	٢٨ -	»
نحاس مستعمل	»	٥٠٠٠	قندقل	٦	١٢ -	أفة
ورق تبغ وارد سالويكا ومولة	»	٢٠٠	ديوانى	٣٤٠	٣٦٠ -	القطنية
القطنية وارد بورصة	»	١٠	»	٦٠	١٠٠ -	الوحدة
متاديل من المرساين	»	٥٠	قرش	١٧	٥٠ -	»
سجاجيد متنوعة من القطيفة	»	»	»	»	»	»
وسجاجيد سادة	»	»	»	»	»	»
قطيفة منقطة مطعمة بالذهب أو الفضة	»	١٠٠٠	بوطة	٣	١٢ -	الزوج
أو سادة	»	»	»	»	»	»
أقمشة قطنية وحريرية من دمشق	»	١٠٠	ديوانى	٤٥٠	٥٠٠ -	القطنية
وحلب	»	»	»	»	»	»
صابون سورى درجة ١	»	١٠٠٠	»	٣٠	٣٢ -	أفة ٤٠٠ درهم
» نظى من كريت	»	٢٠٠٠	بوطة	١٠	١٢ -	قنطار ١٢٠ أفة
تبغ سورى	»	٤٠٠٠	قندقل	١٥	١٦ -	قنطار ٤٠ أفة
تبغ مجفف من سفاغنيو وروندوس	»	١٠٠٠	ديوانى	٥	٧ -	أفة ٤٠٠ درهم

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	نوع النقود	المر	ديوانى	الوزن والقياس
حرير خام من بورصة	المة	١٠٠	بوطة للملاب	٥	٦ —	أقة دراهم
» » » زاجورة	»	٢٠	»	٥	٦ —	أقة ٤٠٠ درهم
» ابيض وأصفر من قبرص	»	٥٠٠	»	٥	١٤ —	أقة ٤٥٤ درهم
» » » بيروت	»	٥٠٠	»	٤	٤٩/٢ —	رطل ٥٠٩ درهم
» » » طرابلس	»	٥٠٠	»	—	—	—
قطن من عسكا أو من قبرص	»	٦٠٠	قرشا	٤٥	٦٠ —	قطار ١٠٠ رطل
وسالونيك	»	٣٠٠	فندقى	١٠	١٢ —	أقة ٤٠٠ درهم
فنج ورق من منجارجا	»	١٠٠٠	مدى	٩٠	١٠٠ —	الرزمة
ورق رفيع ثلاث ملالات	»	٥٠٠	»	٦٠	٧٥ —	»
ورق خش	»	٧٠٠	»	٥٠	٦٥ —	»
» أصناف أخرى	»	١٠٠	»	٨٠	١٠٠ —	»
» من ألمانيا	الطرد	٥٠٠	—	١٠	١٢ —	قطار ٢٢٣ رطل
حديد من ألمانيا	سندوق	٢٠٠٠	—	—	—	—
زفت من ستاجيو ررودس	الطن	١٠	ديوانى	١٢٠٠ — ١٢٥٠	٩٠	قطار ١٥٠ رطل
زنجبلا	»	٢٠٠	—	١٠	١٢ —	» ١٢٠ »
حبوب للسابع والدة — عادى	»	١٠٠	قطعة فضية	١٠	١٢ —	» بالأرطال
» » »	»	١٠	»	١٨	٢١ —	—
» » » وارد هولندا	»	١٠٠	ديوانى	٥٥	٦٠ —	البابكو
وألمانيا	»	٦٠	زرعجوب	١٠	١١ —	قطار ١١٠ رطل
أوراق معدنية رقيقة	»	١٠	ديوانى	٤٠٠ — ٤٥٠	٩٠	لسك مائة
لوفدة فرنسية	البرميل	١٠٠٠	»	٢٢ — ٢٤	٩٠	أقة بالدرهم
علب كبيرة	الطن	١٠	مدى	٧٥ — ٨٠	٩٠	»
زيت من كريت	ط صغير	١٠	بالذهب	٢٦ — ٢٦	٩٠	القطار ١٥٠ رطل
كسرولات فاخرة	»	٥	فندقى	١٨ — ٢٠	١٤٦	» بالأرطال
أسلاك حديدية متنوعة	»	٢	»	١٦ — ١٨	١٤٦	» »
» نحاس أصفر متنوعة	»	٥٠	مدى	٦٠٠ — ٦٤٠٠	٨٥	» ١٢٠ رطل
» نحاسية	سندوق	٦	ديوانى	٥٠ — ٦٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
زئبق	»	—	—	—	—	المر حسب الصنف
سلال من مختلف الأنواع	»	—	—	—	—	—
أقراط — سكاكين من أحجام مختلفة — علب للشقوق —	»	—	—	—	—	—
زهور صناعية	»	—	—	—	—	—
حيات مسبعة بياضوية ألوان مختلفة	»	١٠	ديوانى	٩ — ١١	٩٠	المسبعة
نمرة ٢ ، نمرة ٣	»	١٠	»	٤ — ٥	٩٠	»
حيات مسبعة بياضوية نمرة ٤	»	—	—	—	—	—
» مسبعة بياضوية زرقاء وخضراء	»	١٠	»	١٩٠ — ٢٠٠	٩٠	الألف

أنواع البضائع	الوحدة	السكنية السنوية	نوع التلود	السعر	ديوانى	الوزن والمقياس
حبات سبعة ببضوية منفطة	صندوق	٥	ديوانى	٨٠ — ٩٠	٩٠	بالألف
ألوان مختلفة	»	٥	»	٩ — ١١	٩٠	بالمسعة
من القطن الصناعى	»	١٠	»	١٩٠ — ٢٠٠	٩٠	بالمسعة ١٢-١٤٠ ح
الياقات نمرة ٢،	»	١٠	»	١٠ — ١٢	٩٠	»
نمرة ٣	»	١٠٠	—	٢٤ — ٢٦	٦٠	بالصندوق
أوراق فضية رقيقة	»	١٠	قطع ذهبية	٩٠ — ٩٥	٩٠	البالكو ٥ حزمات
ورقات نحاسية	»	٥	ديوانى	١٢ — ١٤	٩٠	بالبالكو
مبارد نمرة ١، نمرة ٢	»	١٠	»	٨٥ — ٨٥	٩٠	لكل
سيوف عريضة ذات حدين	»	١٠	»	٩٠ — ١٠٠	٩٠	»
مواشير بنادق	»	٢٠٠	»	٦٥ — ٦٥	٩٠	أقة بالدرام
نحاس جديد مصنع	»	١٠	»	٣٦٠ — ٣٨٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
كلور الزئبق	»	١٥	»	٢٠٠ — ٢٢٠	٩٠	بالبالكو
معدن مضروب لى رقائق خفيفة	»	٣٠٠	نقد ألمانى	١٧ — ١٨	٩٠	بالقطعة
هيلان من قماش الأنهورا	»	٢٠	ديوانى	٤٣ — ٥٠	٩٠	الأقة ١١٠ درهم
كر كرم فى حلب صغيرة	»	١٠	»	٨٠ — ٩٠	٩٠	بالبوام
غير نمسا	»	١٠٠	»	٦٠ — ٨٠	٩٠	الروج
أحذية بدون كموب (بابوش)	»	٤٠٠	مدنى	١٦٥ — ١٢٠	٩٠	الأقة ٤٠٠ درهم
وارد القسطنطينية وأزمير	»	١٠٠٠	»	٣٠٠ — ٣٤٠	٩٠	القنطار ١٠٥ رطل
مسكة وارد خيوس	»	٥٠٠	»	٣٠٠ — ٣٤٠	٦٠	قنطار بالأرطال
سلب عادى	»	٥٠٠	»	٨ — ٩	٩٠	الصندوق
صنف أجود	»	٢٠	»	٨٤٠٠ — ٨٦٠٠	—	القنطار ١٠٢ رطل
أكسيد الرصاص وارد فينسيا	»	١٠	—	—	٩٠	السعر حسب الصنف
كبريتات الزئبق	»	١٠	مدنى	٤٠ — ٤٣	٩٠	الحزمة
سكاكين ذات مقابض وارد سوريا	»	٥	»	١٣ — ١٩	٩٠	الدسقة
سكاكين بدون مقابض	»	١٠	»	٢٠ — ٢٥	—	—
مقاصد ضخمة	»	٥٠	ريال ألمانى	٣ — ٥	—	كل حسب حجمه
أمواس ممتازة وعادية وارد ألمانيا	»	٢٠	»	٦ — ٤٠	—	»
أكواب زجاجية ومرايا متنوعة	»	١٠	—	—	—	السعر حسب الصنف
وارد فينسيا	»	٥٠	مدنى	٢٤ — ٣٠	٩٠	الصندوق
مرايا وارد ألمانيا	»	٢٠٠	قندلى	٦١/٢ — ٨	١٤٦	»
أكواب زجاجية ومرايا وارد	»	٢٠٠٠	ديوانى	٤٧٠ — ٤٩٠	٩٠	القنطار ١٤٠ رطل
بوهيميا	»	٢٠٠	»	٥٠٠ — ٥٦٠	٩٠	» ١٢٥
مشروبات روحية وارد أسبانيا	»	٢٠	»	٧٠ — ٧٥	٩٠	الأقة ٤٠٠ درهم
زجاج مرايا بدون إطار	»	٢٠٠٠	»	—	—	—
رصاص على شكل سبائك	»	٢٠٠	»	—	—	—
زربخ أصفر وأبيض	»	٢٠	»	—	—	—
أكسيد النحاس على شكل قطع	»	٢٠	»	—	—	—

أنواع البضائع	الوحدة	السكة العملة	نوع القود	السعر	ديوانى	الوزن والمقاييس
لبر نعمة ١، ٢، ٣، ٤	١٠٠٠٠٠	ديوانى	٣٥٠ — ٣٨٠	٩٠	بالألف
دبابيس	—	١٠٠٠٠٠	د	٣٥٠ — ٣٠٠	٩٠	د
ستارات أنواع مختلفة	—	١٠٠٠٠٠	د	٣٠ — ٢٠	—	د
دقائق نحاسية وأسباخ حديد	—	٢٠	مدنى	٢٢٠ — ٢٣٠	٩٠	الفنطار ١٥٠ رطل
ألواح زحاجة من البندقية ساحة	—	—	—	—	—	—
ومنفوش	—	—	—	—	—	—
الصنوبر (لصاغة باللون الأحمر)	صناديق ١٠	ديوانى	ديوانى	٨١٠ — ٨٦٠	٩٠	فنطار ١٢٠ رطل
حلوى من فرما وجنف	الملة ٢٠٠	د	د	٨ — ٣٠	٩٠	الطبة
بن مخف من أرمير	د ٨٠٠٠	د	د	٨ — ١٢	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
قطران (زفت) من ستاخبوس	مقربة ٥٠٠	—	—	—	—	—
وودوس	البرميل ١٠٠	قطعة ذهبية	قطعة ذهبية	١ — ١٦	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
صبة النبة	د ١٠	ديوانى	ديوانى	١٦٠ — ١٧٠	٩٠	رطل ١٤٤ درهم
جوزة الطيب	د ٣٠٠	د	د	١٢٠ — ١٣٠	٩٠	فنطار ١٠٢ رطل
سلح بالفة	د ٢٠٠	د	د	٤٧٠ — ٤٩٠	٩٠	فنطار ١٥ رطل برميل
عقاقير لعلاج الميون	د ٢٠٠	د	د	١٤٠ — ١٤٦٠	٩٠	د ١٠٢ د
حلاطين لتطيف الأسنان	د ١٠٠	—	—	٣٦ — ٤٠	٦٠	فنطار البرميل ٤٥٠ لوح
ألواح زئبق	د ٢٠	ديوانى	ديوانى	٥٧٠ — ٥٤٠	٩٠	فنطار ١٣٠ رطل
أكسيد الرصاص الأحمر	د ٤٠	قطعة ذهبية	قطعة ذهبية	١٠ — ١٣	٩٠	د ١٠٠ د
سكر من لنبوة	د ٢٠٠	ديوانى	ديوانى	١٠٠ — ١٠٥	٩٠	د ١٥٠ د
شع من أجيلرا	د ٤٠	د	د	١٦٤ — ١٧٥	٩٠	د ١٥٠ د
كبرجات	د ١٠٠	قطعة ذهبية	قطعة ذهبية	١٩ — ٢٤	٩٠	أقة ٤٠٠ درهم
مسامير كبيرة الحبيب	د ٢٠	مدنى	مدنى	٢٧ — ٢٥	٩٠	د د د
آنيه حديدية	د ١٠	د	د	٧٠ — ٧٥	٩٠	د دراهم
د نحاسية	الجرة ٤٠٠٠	ديوانى	ديوانى	٧٤ — ٧٨	٩٠	د ٤٠٠ درهم
زيت من اللرب وتونس	د ٥٠٠	د	د	٧٢ — ٧٤	٩٠	د دراهم
صابون رخو من المغرب	د ١٠٠	مدنى	مدنى	٥٠ — ٦٠	٩٠	د د
تمغ بودرة	الواحدة ٢٠	قطعة ذهبية	قطعة ذهبية	٣٠ — ٤٠	—	الواحدة
ساعات حائط	د ٥٠	د	د	١٥ — ١٠٠	—	د
د كبيرة	القطع ٢٠٠	د	د	٣ ١/٤ — ٣ ٣/٤	٩٠	فراخ القطنطبية
أقمشة من البندقية أرجوانية اللون	د ٥٠	د	د	١ ١/٢ — ٥	٩٠	د
لسمي ساي	د ٢٠٠	د	د	٢ — ٢ ١/٢	٩٠	د
أقمشة أرجوانية اللون	د ١٠٠٠	تقود ألمانية ٩	تقود ألمانية ٩	٧ — ٧	٩٠	القطعة
د تسمى بدوايل لصف فاخرة	د ١٠٠٠	د	د	٧ — ٧	٩٠	القطعة
د حريرية وكثافية سادة	د ١٠٠٠	د	د	٧ — ٧	٩٠	القطعة
للنصان	د ١٠٠٠	د	د	٧ — ٧	٩٠	القطعة

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية المتوسطة	نوع النقود	السعر	ديوانى	الوزن والمقاييس
أقمشة قطنية خفيفة من القسطنطينية	القطع	١٠٠٠	ديوانى	٨٠٠ — ٨٥٠	٩٠	القطعة
فانلات منقوشة من ألمانيا	»	٥٠٠	مدنى	٣٠ — ٣٥	٤٠	ذراع القسطنطينية
جوخ خشن وارد ألمانيا	»	٢٠٠	»	٥٨٠ —	—	—
مقاديل منقوشة وارد ألمانيا	»	١٠٠	ريال ألماني	٨ —	١٠	القطعة
» كعالية »	»	١٠٠	»	٢٣/٤ —	٣	»
قماش أبيض ومنقوش	»	١٠٠٠	—	—	—	حسب الصنف
» مشمع سادة ومنقوش	»	١٠٠٠	ريال ألماني	٨ —	٦	القطعة
ساعات ذهبية وفضية	الدسته	٢٠	قطعة ذهبية	٢٠ —	٢٠٠	الواحدة
عقيق صناعى	»	٢٠٠٠	ديوانى	٢٤ —	٣٠	—
مخاديل أنواع مختلفة	»	٢٠٠	مدنى	٥٨٠ —	٦٠٠	الدسته
ورق مذهب	الرزمة	١٠٠	ديوانى	٢٩٠ —	٣٢٠	الرزمة
»	»	١٠٠	»	٤٩٠ —	٥٢٠	»
»	»	١٠٠	»	٨٠ —	١٠٠	»
مفضض	الذراع	١٠٠٠	»	٩٥ —	١٠٠	ذراع القسطنطينية
ساعات من فلورنسا مزودة أولى	»	٦٠٠٠	قطعة ذهبية	٣ —	١٠	»
ألفه مذهب ومفضض من فرنسا	»	١٠٠٠	ديوانى	٦٠ —	١٠٠	»
وفلورنسا	»	١٥٠٠	»	٤٥ —	٦٠	»
ساعات عريضة وسبيك	»	٥٠٠	»	١٢٠ —	١٥٠	»
» خفيف وغر عريض	»	٤٠٠	»	٩٥ —	١٠٠	»
» عريضة ومين من ألمانيا	»	٥٠٠	»	١٠٠ —	١٢٠	»
» تقطار أسود وأبيض من	»	٥٠٠	»	١٠٠ —	٩٥	»
البندقية	»	٥٠٠	»	١٠٠ —	١٢٠	»
ساعات من فرنسا ١ وعرة ٢	»	٢٠٠	قطعة ذهبية	١٩/٢ —	٢	»
قلطيه مضطمة وسادة	»	٦٠٠٠	مدنى	٦٠ —	٨٥	»
ساعات مضام وساده وارد خوبس	»	٤٠٠٠	»	١٥٠ —	٣٦٠	»
» مذهب ومفضض وارد خوبس	»	٢٠٠٠	ريال الماء	٣ —	١٢	»
أقمشة ملهمة ومفضض من البندقية	قططار	٢٠٠٠	ديوانى	٢٠٠ —	٢٥٠	قططار ١٥٠ رطل
كبرت عابود	الأقة	١٠٠٠	»	٥٥٠ —	٥٦٠	رطل ١٤٤ درهم
عتر أبيض عمرة ١	الرطل	٢٠٠٠	»	٧٢٠ —	٣٤٠٠	رطل ١٥١ درهم
مرحان وارد فرنسا وراجوزة	الأقة	٤٠٠٠	»	١٨٠٠ —	٢٠٠٠	أقة ٤٠٠ درهم
وليفورنو	المقال	٦٠٠٠	»	٣٠ —	٣٥	ذراع القسطنطينية
عتر أصفر عمرة ١	»	٢٠٠٠	»	٢٨ —	٣٢	منقال
شرايط من القصب أو الحرير مذهب	القططار	٢٠٠٠	مدنى	١٠٠ —	١٦٠	قططار ١٥٠ رطل
ومفضض	»	»	»	»	»	»
وقائق ذهب وفضة	»	»	»	»	»	»
كبرت	»	»	»	»	»	»

مجوهرات القسطنطينية مجهزة او غير مجهزة

المس ، زمرد ، لآلىء من كل الاصناف .

١٠٠ قيراط من الالمس الاحمر من حلب تفقد من ١٠ — ٣٠ خردة
القيراط حسب الصنف ، وتفقد اللآلىء من ٢ — ٨ خردة فى المقتال الواحد
اما اللآلىء الكبرى فحسب النوع .

الجلود : جلد الجبة وتأتى من روسيا وتشمل جلود الفئب الابيض
والاصفر والسمور وتساوى الواحدة من ١٠ — ٢٠٠ خردة .

الخور من قبرص وجزر اخرى من الارخبيل .

موازين البضائع المختلفة بشكل عام فى القاهرة

الآقة فى القاهرة = ٤٠٠ درهم وهى تساوى آقة القسطنطينية الا
بخصوص الحرير الوارد من بورصة Bursa وراجوزة وقبرص حيث
تساوى الآقة ٤٠٤ درهم .

الرطل = ١٤٤ درهم .

رطل الحرير السورى = $٢٢٩ \frac{١}{٢}$ درهم .

وعند وزن مختلف الأنواع يخصم الوزن العيار العديل (وزن الوعاء)
عن كل الطرود والبراميل ... الخ .

ومع ذلك فانه يوجد على الدوام فضلات اكبر مما يفترض فى الواقع
حيث يصل القنطار الى ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٠ ، ١٣٠ رطلا من كل ١٠٠ .
وينبغى ان نلاحظ ان هناك بضائع يبلغ القنطار فيها بعد خصم العيار
البديل الى ١٥٠ او $١٣٣ \frac{١}{٢}$ بدلا من ١٠٠ .

١٠٠ رطل فى القاهرة تساوى بالضبط لبرة فى لندن .

و = $١١٢ \frac{١}{٢}$ لبرة (Livra) فى مارسيليا .

و = ١٣٠ لبرة (Livra) فى ليفورنيو ، = ١٥٠ لبرة صغيرة فى

البندقية و ١٠٠ لبرة كبيرة فى البندقية أيضا ، وفى تريستا نفس الشيء .

١٠٠ فوندى فى تريستا أو البندقية = $117 \frac{1}{2}$ لبره كبيرة فى البندقية.
١٨٥ لبرة كبيرة فى تريستا .

١٠٠ رطل فى القاهرة = ٢٦ أنة فى القسطنطينية وازمير .

التقود التى يفضل استخدامها فى عمليات الشراء

قطعة ذات ٧٣ مدينى أو ديوانى
قطعة ذات ٧٠ مدينى أو ديوانى
قطعة ذات ٦٠ مدينى أو ديوانى
قطعة ذات ٢٢ مدينى أو ديوانى
قطعة ذات ٣٠ مدينى أو ديوانى
الفندقلى ويساوى ١٤٦ ديوانى .

المجوهرات الذهبية والفضية

١ قيراط = ٤ حبات
١ درهم = ١٦ قيراط
١ مثقال = ٢٤ قيراط
١ أوقية = $81 \frac{1}{2}$ درهم
١٠٠ قيراط بنغالى = ١١٢ درهم .

وتباع المجوهرات المجهزة دون وزن . وتباع الاحجار الكريمة
بالقيراط دون خصم العيار المعدل وتباع اللآلىء بدون خيط وبدون خصم
العيار المعدل أما اذا كانت ملصومة فنوزن ١٠٥ فى مقابل ١٠٠ ويوزن
المرجان مع احبال حريرية صغيرة والعيار المعدل هو ١٥١ درهم مقابل
١٤٤ . ويباع بالرطل أو الدرهم .

١٠٠ درهم من وزن القسطنطينية من المجوهرات الذهبية أو الفضية
= ١٣٣ درهم فى القاهرة أما جواهر البندقية التى تزن فى اوريا ١٨ قيراط
فلا بد أن تقل فى القاهرة $18 \frac{1}{2}$ قيراط .

١٠٠ قيراط بوزن البندقية لا بد أن تساوى فى القاهرة ١٠٢ قيراط.

والقطعة الذهبية من المجر تزن نفس وزنها الاصلى ، اما الدينار الذهبى الاسبائى (دويلون) فيزن فى القاهرة ٩ دراهم ، ويزن الفندقلى ١٨ قيراط ، ويزن الواحد من الزر محبوب $13 \frac{1}{4}$ قيراط . وتزن قطعة الخردة ٩ دراهم .

اما المقاييس المستخدمة فى القاهرة بالنسبة للامثلة نهى ذراع القسطنطينية اما ذراع القاهرة فهو اقصر ، ويستخدمه التجار لبيع القطاعى .

قيمة العملات الاجنبية التى تصل القاهرة

عن طريق التجارة

السكين Séquin البندقى = ٢ خردة و ١٣ - ١٨ مدينى حسب المنطقة ، القطعة الالمانية = ٢ قطعة ذهبية وه - ١٠ مدينى ، ويبلغ سعر الدويلون الاسبائى والسكين البربرى والمراكشى والجزائرى والتسونسى والطرابلسى ١٣٠ - ١٤٠ مدينى ، اما الدولار الاسبائى ذو العمودين او القرشين فيساوى ١ خردة (بوظاقة) و ٣-١٥ مدينى ويستخدم بخاصة فى الفكة . وهذا بخلاف كميات كبيرة من انواع اخرى من النقود ومن ترابالذهب والسبائك التى تجلبها القوافل ، وتراب الذهب عادة رخيص الثمن ، لكنه منذ فترة قصيرة بدأ يستخدم بكميات كبيرة فى صنع قطع النقود الصغيرة فى القاهرة .

المقاييس الاجنبية مقارنة بمقاييس القاهرة

الذراع الانجليزى $1 \frac{2}{4}$ من ذراع القسطنطينية وهو المقياس المستخدم فى القاهرة .

ذراع مرسليليا = $1 \frac{2}{4}$ من ذراع القسطنطينية ، ذراع البندقية = ذراع القسطنطينية بالنسبة للامثلة الصوفية ، اما بالنسبة للامثلة الحريرية فان ١٠٠ ذراع بندقى = ٩٣ من ذراع القسطنطينية ، و ١٠٠ ذراع تريستى = $1.04 \frac{2}{4}$ من ذراع القسطنطينية .

البضائع التي تصدرها مصر

الى لندن ومارسيليا وليفونيو والبندقية وترينستا والقسطنطينية

وازمير وسالونيك وبلاد اخرى في تركيا

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	العملة التي تباع بها	السعر	ديوانى	الأوزان والمقاييس
تمر حنه	قنطار	٢٠٠٠	القطع الذهبية	١٩ — ٢٢	٦٠	قنطار
ملح النشادر لإنتاج الجيزة نمرة ١	د	٢٠٠٠	دولار توسكان	٥٠ — ٥٥	٨٥	٧٢ أقة أو ٢٠٠ رطل
ملح النشادر لأجياج المنصورة ورشيد نمرة ١	د	٨٠٠٠	د	٤٠ — ٤٨	٨٥	د
البلح	د	٣٠٠٠	د	٢ ١/٢ — ٤	٨٥	قنطار ١٢٠ رطل
السلكة	د	١٠٠٠٠	القطع الذهبية	٣٠	٦٠	د ١١٠
الجراب	د	٢٠٠٠	د	٣٥	٦٠	قنطار بالرطل
بودرة السلكة	د	٢٠٠٠	د	٥	٦٠	د
قطن مغزول	د	٦٠٠٠	زر محبوس	١٠ — ١٤	١٢٠	د
القننة	د	٣٠٠٠	دولار توسكان	٣ ١/٢ — ٤	٨٥	قنطار ١٢٠ رطل
صوف بصله	د	٤٥٠٠	—	—	—	—
كتان أصناف متعددة	د	٣٠٠٠٠	—	—	—	—
لونه هندی من الهند	—	—	ديوانى	١٩٠ — ٢١٠	٩٠	أقة بالدرام
كرم	—	—	د	١٨ — ٢٢	٩٠	د
حبان كبير	—	—	د	١٤٠ — ١٦٠	٩٠	أقة ٤٠٠ درم
حبان صغير	—	—	د	٣٥ — ٤٥	—	أقة بالدرام
دم التين	—	—	مدينى	١٠٠ — ١١٥	٩٠	أقة ٤٠٠ درم
دم التين ناعم وارد الهند	—	—	د	١٢٠ — ١٣٠	٩٠	د
شمع جديد	قنطار	٢٠٠٠	د	٥٠ — ٦٠	٩٠	د
أفيون نمرة ١ ، ٢	—	—	د	٣٦٠ — ٤٠٠	٩٠	د
حنة الصباغة بالأحمر	زكية	٨٠٠٠	د	١٤٠ — ١٥٠	٨٥	الزكية ٣٥ أقة
حنة الصباغة بالأصفر	د	—	د	١١٠ — ١٢٠	٨٥	د
حب الير	—	—	فندقلى	١٩ — ٢١	١٤٦	—
أرز دباطى	الأردب	٣٠٠٠٠	بالقطع الذهبية	٣٨ — ٤٠	٣٠	الأردب ٢٢٥ أقة
أرز رشيدى	د	٢٥٠٠٠	د	٢٣ — ٥٠	٣٣	الأردب ١٥٣ أقة
كيات كبيرة من الأقدة الكدانية والاطنية	—	—	—	—	—	—
من الصعيد وامبابة ورشيد ودمياط	—	—	—	—	—	—

أنواع البضائع	الوحدة	الكمية السنوية	العملة التي تباع بها	السعر	ديوان	الأوزان والمقاييس
بن وارد اليمن	بالة	٣٠٠٠٠	دولار توسكار	٢٣ — ٢٨	٨٥	قنطار ١٠٥ رطل
خشب السنت	—	—	د	٢٠	٦٠	قنطار ١١٠ رطل
خشب السنت وخشب زغرنا	—	—	د	٢٨ — ٣٢	٦٠	قنطار ١٠٠ رطل
جوز النى	—	—	د	١٩ — ٢١	٦٠	د
المر بأنواع مختلفة	—	—	د	٤٣ — ٣٤٦	٦٠	د
مر فقط	—	—	د	٧٨ — ٨٢	٦٠	د
الحلتيت [صمغ لتسكين التقلصات]	—	—	د	٢٨ — ٣٣	٦٠	د
جذور الزعفران	—	—	د	٢٨ — ٣١	٦٠	د
قرقة	—	—	د	٢٨ — ٣٣	٦٠	د
قرقة شرقية	—	—	د	١٨ — ٢٢	٦٠	د
كتان مغزول	—	—	د	٤٠ — ٤٥	—	بالة ٢٠٠٠٠ كيس
فلفل طويل	—	—	ديوانى	٧٥ — ٨٥	٩	أفة بالدرهم
جلود ايران بأحجام مختلفة	—	٤٠٠٠	مدينى	٢٢٠ — ٣٠٠	—	للجلد الواحد
د د د د	—	٦٠٠٠	د	١١٠ — ١١٠	—	د
جلود بقر	—	٣٠٠٠	د	٩٥ — ١١٠	—	د
قاش خشن أزرق يسمى منون	بالقطع	٤٠٠٠	د	٩٠ — ١٠٠	—	للقطعة
قاش خشن أبيض	د	٤٠٠٠	د	٦٥ — ٨٠	—	د
لالى	—	—	ديوانى	١٥٠ — ١٦٥	٩٠	قنطار ١٣٢ رطل
صمغ عربى من سنار	—	—	دولار توسكار	١٦ — ٧٣	٧٣	د
صمغ عربى من جدة	—	—	فندقى	٥ — ٦١	١٤٦	د
د د د د	—	—	دولار توسكار	١٣ — ١٥	٨٥	قنطار بالرطل
د د	—	—	د	١٠ — ١٣	٨٥	د
غاز الامليلج [للأفران الطيبة]	—	—	قطع ذهبية	١١ — ١٣	٦٠	—
بخور	—	—	د	١٣ — ١٨	٦٠	قنطار ١١٠ رطل
بخور من مختلف الأنواع	—	—	د	٨ — ١٠	٦٠	قنطار
سن الفيل	—	—	د	٦٠ — ٦٥	٦٠	قنطار ١١٠ رطل
زهرة الزعفران قطعة أولى وثانية	—	—	د	١٨ — ٢٢	٦٠	قنطار رطل
زهرة الزعفران زراعة الصعيد	القنطار	٢٠٠٠٠	د	١٨ — ٢٢	٦٠	قنطار رطل

العملات المتداولة فى القاهرة

يستخدم المدينى والديوانى فى الفكة ، اما الزر محبوب فيساوى ١٢٠ مدينى ويساوى القرش ٤٠ — ٦٠ مدينى .

وثمة عملة اخرى من راجوزة تقيم بـ ٦٠ مدينى وهى عملة مطلوبة فى آسيا وترسل منها كميات كبيرة الى سوريا. حيث تلقى اقبالا كبيرا .

اما البوطاوة او الخردة فان سعر استبدالها العادى يبلغ فى رشيد والاسكندرية ودمياط ٨٦ مدينى ، ويصل فى القاهرة الى ٨٥ مدينى وبسبب ندرتها ارتفع سعرها الآن الى ٩٢ مدينى ، اما فى تجارة المواد الغذائية الغالية فهى تساوى ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٢ مدينى . اما الدولارات التوسكانية التى تعرف باسم البوطاوة فتتداول بسعر ٨٠ ، ٨٢ مدينى وهى تساوى قطعة الخردة ، وتفضل فى آسيا .

وتصل قيمة فندقلى التسطنطينية ١٦٠ مدينى ولكنه نادر .

ويتفاوت مقدار الرسوم المفروضة على البضائع المستوردة من اوربا وآسيا بحسب ائمانها ، فهى تبلغ ٨٪ على المجوهرات ، وبالنسبة لصبغة النيلة وبضائع اخرى ثينة ٩٪ ، الجوخ والورق ... الخ ١٣٪ ، الرصاص وبضائع اخرى رخيصة القيمة ١٥ — ١٦٪ ، البضائع الواردة من تركيا ٢٠٪ ، وتبلغ الرسوم الجبركية ٨ — ١٥٪ ، اما الاخشاب وورق التبغ والصابون والفواكه فتدفع رسومها نقدا .

اما البضائع المصدرة من مصر الى اوربا فتبلغ الرسوم المفروضة عليها من ١٥ — ٢٠٪ وينبى على هذه البضائع ان تدفع رسوما الى القناصل والى اشخاص آخرين حتى تحصل على تصريح بالخروج ، وكان تصدير البن والارز والحبوب ممنوعا فى معظم الاحيان ، وتحصل البضائع المصدرة الى تركيا على بعض التسهيلات حسب الظروف ، وكاتت حسابات البن والارز والصمغ العربى واريسنار والبخور والفتنة وملح النشادر الجيد واخشاب السنط الممتازة وبضائع اخرى — كانت تسوى نقدا ، وفى بعض الاحيان كانت تقايض ببضائع اخرى ، ويمكن شراء البضائع الاخرى عن طريق المقايضة مع تقدير سعرها بحسب سعر السوق .

وتختلف تجارة مصر اختلافا بينا عن تجارة أوروبا ، بسبب الاضطرابات الكبيرة التى تتعرض لها الحكومات ، وبسبب أحداث أخرى تتعرض لها التجارة ، فتتخفّض حركتها بشدة اثناء بعض هذه الأحداث ، أو تزدهر خلال أحداث أخرى ، لذلك ينبغى أن يكون التاجر يقظا وعليه على الدوام اقتناص الفرص المواتية .

وشهر رمضان هو الشهر الملائم لبيع المنسوجات الصوفية والحريرية ، ففى هذا الوقت يشتري العامة وكذا أبناء الطبقة العليا ملابس جديدة لأنفسهم ولزوجاتهم وخدمهم .

وتجلب سفن وقوافل جدة البن والبخور والصمغ وبضائع أخرى من الهند والجزيرة العربية والحبشة ، عندما تعد الى جدة ، تحمل معها النيلة والرصاص والحديد والحلى الزجاجية وبضائع أخرى تستورد من البندقية ، خاصة باليمن والحبشة والهند .

وكانت بضائع الهند تأتى دوما مع محمل الحج ، وهذا ما يعينها من دفع الرسوم فى القاهرة ، اذ كان للمحمل امتياز عدم دفع اية رسوم على الاطلاق .

وكانت قوافل النوبة تجلب الصمغ العربى من سنار ، وسن الفيل وبضائع أخرى من هذا البلد أيضا ، وتأخذ عند عودتها الجوخ الفرنسى المسمى لوندان والجوخ الانجليزى والورق والقرنفل والمرجان . الخ وانشاءا مختلفا من خزف المحلة وطنطا الذى تقوم عليه تجارة كبيرة . وتجلب هذه القوافل أيضا كمية كبيرة من تراب الذهب الذى يباع عادة بـ ٢٠٠ — ٢٠٨ دولار توسكاني لكل ١٣٥ درهم ، ولكن منذ عهد محمد بك استخدم تراب الذهب بكميات كبيرة فى ضرب النقود ، مما جعل سعر هذه الوزنة يرتفع الى ٢١٢ — ٢١٦ حسب الجودة .

وشهر اغسطس هو وقت الزعفران والحناء والبلح ، أما سبتمبر واكتوبر فهما شهرا الارز والكتان ، وديسمبر ويناير للسنامكى والفقنة ، وفى هذه الفترة ينبغى على المرء أن يختزن بضائع جيدة سيبيعها بربح مضمون ومجز لحد كبير .

وسوف يكون الأمر مجحفا بالنسبة للذين يرسلون بضائعهم من أوروبا،

أن يتمجلوا بيعها فى الحال ، ذلك أن التجار المصريين المتفهمين للأمور سييخسون هذه البضائع حقها ، كما أنهم سيحاولون فى نفس الوقت أن يبيعوا بأعلى سعر يستطيعون الوصول اليه تلك البضائع التى يراد إرسالها فى مقابل البضائع التى اشتروها بهذه الطريقة .

ولقد كانت هذه عادة الفرنسيين فيما مضى ، ولكنهم عندما تبينوا العاقبة السيئة لذلك ، انشأوا لأنفسهم محلات واتخذوا لهم وكلاء ، ووصلت بذلك تجارتهم لدرجة مزدهرة ، لحد أنهم استطاعوا أن يكتسحوا على وجه التقريب كل الأجناس الأخرى .

٢

عن حالة الصناعة

لا يمكن للمكات شعب من الشعوب — ذهنية كانت أم روحية — أن تنمو ، وأن يجنى هو بالتالى ثمرات ذلك ، الا فى ظل أنظمة ترعاها ، وينطبق هذا القول نفسه على الصناعة ، والا فانها ستظل راكدة حيث لا اختراع ولا تحسن ، وهكذا ، فان الحرف والمنتجات الصناعية فى وادى النيل تشى بحضارة لا تزال فى طور الطفولة ، او تشى بالآخرى بتقاعس العمال وأصحاب الأعمال ، فليس ثمة شئ دقيق ، او معتنى به يخرج من المصانع المصرية اذا ما استثنينا التطريز ، فالتنسوجات القطنية والصوفية وبقية الاشياء ذات الاستعمال الطويل ، تظهر بشكل خشن وغير دقيق ، لحد سوف يذهلنا اذا نحن لم نلق بالا لتلك الظروف التى يحياها الشعب الذى انتجها ، فلقد ظل المصريون المحدثون — برغم كل العناصر التى كان يمكنها أن تؤدى للنماء والازدهار — متخلخين ، لأن سطوة الطفيلان قد حصرت عقولهم ، بل يمكن القول بأنها شلت قدرتهم على التفكير ، وليست مصر هى الدولة الوحيدة فى كل دول الشرق التى تحيا فى مثل هذه الحالة المحزنة ، بل اننا نرى للأسف الشديد ، فى كل مكان من الشرق ، نفس التدهور ونفس الجمود ، ونفس النتائج .

ومع ذلك ، وبالرغم من تلك الحياة المنحطة التى تدر عليهم أن يحيوها فى ظل حكومة المالك ، فانه لم يفت المصريين حتى الآن أن يستغلوا شيئا من المصادر الهائلة التى تهيئها منتجات أرضهم للصناعة ، فصناعة الأقمشة الخشنة من القطن والكتان ، تتيح فرص العمل لآلاف الأيدي ، وتقوم المحلة

الكبرة — وهى مدينة يبلغ تعدادها حوالى ثمانية آلاف نفس — بصنع اقمشة حريرية وشيلان من الحرير تعرف باسم شيت وحرير ، وبمض المنسوجات القطنية الخشنة ، ونوع من التفاز الاسود تستخدمه زوجات البكوات كُتّاب يخفين به ، ويعمل فى هذه المصانع ٨٠٠ — ١٠٠٠ عامل من كلا الجنسين ، ومن مختلف الأعمار .

وتصنع سمود — وهى مدينة لا يبلغ تعدادها بالكاد ٢٠٠٠ — ٣٠٠٠ نسمة — بعض المنسوجات الشعبية من الكتان ، وتصنع منوف كثيرا من هذه المنسوجات نفسها كما تصنع أجمل حصر البلاد ، أما مدينة طنطا الشهيرة بأسواقها وبضريح السيد البدوى فتصنع كثيرا من المنسوجات الكتانية ، لكنها منسوجات بالغة الدقة والاتقان وتعرف باسم : تماش (١) .

وبخلاف هذه المنسوجات — بالإضافة الى التطريز الذى يبرع فيه المصريون كما سبق القول — يصنع المصريون كذلك كثيرا من الآنية الفخارية الشعبية والقلل (وهى آنية مرطبة) والآنية الزجاجية وهى خشنة ومنقره ، كما يصنعون السجاجيد وأحجار النارجيلة من الطين المحروق ، ويصدر الى كل دول الشرق ، ويصنعون فى نفس الوقت أجواخا شعبية ، ونوعا من اللباد المخلوط بالصوف ، يستخدم فى صناعة الخيام ، أما كل التركيبات التى لها صلة بالكيمياء مثل صناعة ملح النوشادر وتقطير الخمر والعطور ، هى صناعات ما تزال بعد فى طور الأمنيات ، أما أجهزتهم فهى منقره بقدر ما هى عاجزة ، وكثيرا ما يستخدمون البوص المثقوب بدلا من الانابيب الزجاجية ، أما الآلات المائية التى يستخدمونها للرى ، ففيها شئ من الدقة ، والميكانيكا عندهم ماهرة فى بعض الأحيان ، ولكنها تستطيع لولا معوقات الروتين اختراع ماكينات تستطيع أن تعطى نفس ^{هى} نتائج فى وقت اقل وباستخدام عدد اقل من الرجال ، وباختصار ، فنحن نلاحظ فى كافة ضروب الاعمال بساطة كبيرة سواء فى الأدوات أو فى التنفيذ ، ويستخدم العمال اقدامهم بنفس الماهرة التى يستخدمون بها أيديهم ، وهذا مما يزيد فى سرعة انجاز العمل ، وهذه العادة شائعة عند النجارين والنحاسين والنساجين وصناع القياطين ، وعند كل الحرفيين عموما ، ومن الطريف أن نلفت النظر برغم ذلك ، الى أن اقدامهم عارية وتغطى فقط بأحذية واسعة للغاية يتركونها

(١) هذه الكلمة باللغة العربية تعنى كافة أنواع المنسوجات .

عند دخول الورشة ، وتعمل الغالبية منهم وهم جالسون ، وهذا مما يسهل استخدام اقدامهم .

ويستخدم الخراطون توسا بحركونه بيد بينما هم باليد الاخرى يشكلون الالة القاطعة على الشيء الذى يريدون تشكيله ، وهم يديرون هذه الالة بلبهاً القدم اليمنى التى يستخدمونها بالمثل كنقطة ارتكاز ، وبهذه الطريقة يصنعون اجزاء وقضباناً حديدية وتقفيصات تستخدم فى صنع اشكال اكبر .

وليس ثمة شيء غير عادى فى اعدادهم للجبس ، فقد ينبغى ان نلاحظ اننا فى بلاد نصف بربرية كهذه ، كنا نتوقع ان يكون الناس فى هذا المجال شأنهم فى ذلك مثل شأنهم فى بقية المجالات أكثر تخلفاً واقل حذقاً فى الوسائل التى يستخدمونها لسحق هذا المعدن عما نحن عليه ، فالانسان عفننا فى اوربا هو الذى يتحمل عبء هذا العمل الشاق ، برغم انه من المؤكد ان سحق الجبس يضر بصحة العمال الذين يقومون به ، لكن المصريين استطاعوا تفادى هذا الخطر ، اذ يقومون بسحق المحروق بواسطة طاحونة يحركها حصان . وهذه الاداة بالغة البساطة لكنها فعالة وهى مخروطية الشكل وذات ثقل هائل .

ويلزم الكثير بالنسبة للطواحين المخصصة لطحن القمح حتى تصبح فى دقة وفعالية طاحونات اوربا ، فرحاها صغيرة لا يزيد قطرها عن ٢ — ٢ ١/٢ قدم ، وطحينها غير ناعم ولا تقوم بفصل الردة عن الدقيق ، لذا فيكاد يكون مستحيلاً ان تأكل فى مصر خبزاً يماثل خبز باريس أو بروفانس فى جماله وخفته .

ويستخدم البيطاربيون اداة خاصة لقطع حافر الخيل ، وهذه الاداة التى لا تشبه فى شيء تلك التى نستخدمها فى اوربا لنفس الغرض . تعمل كذلك بشكل مخالف وتتطلب طريقة فى العمل تتعارض مع طريقتنا .

وحرفة الحدادة قليلة الانتشار فى هذه البلاد . حيث ان الفحم نفسه نادر ، وهم لا يستخدمون عادة الا اقمالا خشبية صنعت بعناية ، وعدد الصاغة وتجار المجوهرات قليل . وهم لا يصنعون الا حلياً متواضعة ، ومن السهل ان نلاحظ ان المصرى الحديث يستطيع بفضل الاستعداد الطبيعى للعمل ، وبفضل المهارة والذكاء اللذين زودته بهما الطبيعة ، ان يرتفع الى

مصاف الشهرة التى تمتع بها أسلافه ، لولا تلك العقبات التى لا يحلو للتعصب والطفيان الا ان يكسبهما فى طريقه .

وعما قليل ستحدث عن الفلاح ، وستكون الزراعة موضوعا لفقرة مستقلة ، أما بخصوص الحرف الأخرى التى لم نتعرض لها مطلقا فى هذا الفصل ، فقد وصفت فى شرح لوحات الحرف والفنون
Explication des Planches d'arts et de métiers

لدراسات خاصة مثل معامل التفرخ ، صناعة ملح النوشادر .. الخ ونحن نحيل القارىء اليها ، وسيجدها مشروحة بكل تفاصيلها .

طريقة صنع جلد السختيان الأحمر (الفاسى) فى القاهرة

لصناعة جلد السختيان (الجلد الفاسى او المراكشى) لا تستخدم الا جلود الماعز ، ولكى يتم ذلك يبسط العامل على السطح الداخلى لهذه الجلود ، طبقة من معجون الجير ، ويتركه هكذا لمدة اربعة ايام ، ثم يضع الجلود بعد ذلك فى ماء الجير ، حيث تبقى لمدة عشرة ايام فى الصيف أو ١٥ يوما فى الشتاء ، وبعد هذه التجهيزات ينزع الشعر ، وتجرد الجلود بسكين مقوسة لها مقبضان ، وتسمى داس ثم توضع الجلود فى حوض ، وعلى كل جلد منها طبقة من زبل الحمام ، وتبقى على هذه الحال لمدة ٢٤ ساعة ، ثم تغسل بعد ذلك بعناية فائقة مع دوسها بالأتدام ، ومع تغيير ماء الحوض عدة مرات ، وعندما تنظف جيدا توضع فى حوض آخر مملوء بمياه مخلوطة بالردة ، وتترك هناك حتى تختبر ، وعندئذ تسحب وتغسل من جديد بالمياه العذبة ، لتوضع مرة أخرى فى ماء العسل المخلوط بالردة لمدة خمسة ايام فى الصيف أو عشرة فى الشتاء ، وعند سحبها تكون منتفخة تماما ، ثم تبسط ويرش فوقها الملح ، وبعد دوسها بالأتدام حتى تعود الى سمكها الطبيعى ، تجرد من جديد وبخاصة من سطحها وقد كان اقل نعومة من سطحها الآخر فى العملية الاولى ، ثم تبسط الجلود واحدا فوق الآخر على حصيرة نظيفة بعد ان ترش الجلود مرة أخرى بالملح ، وتنقل بعد ان تجهز بهذه الطريقة الى يد الصباغ .

ويغمرها الصباغ فى دن من الخشب صب فيه السائل الملون ، ثم ينتشلها ويغمرها عدة مرات فى هذه الصبغة ثم يعلقها لتساقط منها نقاط الصبغة ، ويكرر نفس العملية حتى تأخذ الجلود اللون الأحمر ، وعندما

تحصل على درجة اللون المناسبة ، يعلقونها لتساقط منها نقاط الصبغة من جديد ، ثم تغمس في دن به ماء بارد وحبوب القرض المسحون ، وتبقى الجلود لمدة يوم كامل في هذا الدن شتاء ، ثم يجرد بعد ذلك سطحها الداخلى لثالث مرة ثم يغمس الجلد مرة أخرى في نفس الدن ثلاث أو أربع مرات ، ولا تتطلب هذه العملية الأخيرة الا يوما واحدا في الصيف ، وأخيرا ، وبعد أن يمر الجلد بكل هذه العمليات ، يفصل بالماء العذب وهو لا يزال رطبا ، ويدهن السطح الداخلى بزيت الكتان ، ويلقى في الهواء الطلق ، حتى يجف تماما ، ويلمع بين استوائتين من الخشب .

أما عن الصباغة فاليكم كيف يعدونها ، وبأية عناصر يكونونها : توضع حوالى عشر قرب من الماء في دن من النحاس وينقع فيها على البارد لمدة ليلة كاملة كمية معينة من عشب القرض الذى يجمع في ضواحي الاسكندرية ، وبعد ذلك تسخن المياه حتى تبلغ درجة الغليان فيسحب العشب ليوضع في الدن حفنة من قشر الرمان واوقيتان من الشبة ثم ٥٠٠ درهم من مسحوق دودة القرمز ، وبعد ذلك يغمس الصباغ جلدا في الدن ليتأكد من سلامة الخلطة فاذا لم تثبت المادة الملونة بشكل جيد يضيف مرة أخرى اوقية من الشبة او اكثر او اقل فاذا كانت الخلطة فاتحة أكثر مما ينبغي تزود كمية مسحوق الدودة القرمزية قليلا وعند استعمال الصبغة ينبغي ان تكون حرارة البسائل معتدلة لدرجة تتحملها اليد .

والجلد الذى يستخدم في صنع نعال الاحذية هو عادة من جلد الجاموس ويصل هذا الجلد عادة الى المذبغة وهو مملح ويوضع في احواض مليئة بماء الجير ، ويمكث هناك لمدة حوالى عشرة أيام وبعد ذلك ينزع شعره ويوضع من جديد لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، ويجرده العامل بسكين ذات مقبضين ويفسله بالماء العذب عدة مرات وبعد ذلك يضعه في احواض حجرية مع نوع من الحب المسحون ، ويبدو أن هذه الحبوب هى والجير المجفان الوحيدان اللذان يستخدمان ، وتبقى الجلود لمدة ١٥ يوما في الحوض الآخر ثم تسحب لتفصل بعناية ثم يرش ببذر الكتان وبعد أن يمر الجلد بهذه العملية وبعد أن يجف يباع لصناعات الاحذية .

ومن نافلة القول ان نلفت النظر الى ان احذية المصريين ليست لها نفس المتانة التى لأحذيتنا فهى مجرد « شباشب » أو أخفاف من السخيتان متعدد الألوان ، أما نعل جلد الجاموس فهى تسمح بتسرب الماء على

الدوام كما لو كانت من الاسفنج ، لكن هذا العيب الذى ينظر اليه فى اوربا حيث الأمطار تهطل على الدوام على انه عيب خطير ليس كذلك فى مصر فالأرض جافة باستمرار وحيث أن جلد الجاموس.مرن بطبعه فانه يناسب الأرض المنبسطة الرملية والخالية من الأحجار ، وتختلف احذية شعوب الشرق قليلا عن احذية المصريين .

وقد وصل فن الصباغة الى ارقى درجة عند قدماء المصريين بالنسبة لتنوعها وبريقها وبخاصة فى طول مدة ثبات الالوان ، لكن الصباغة فى مصر اليوم شأنها شأن الصباغة فى كل مكان ، ولم يحتفظ الذين يمارسونها هناك اليوم الا بالقليل النادر من فن اسلافهم فهم يكتفون بغمس المنسوجات او غزل القطن الذى يراد صباغته فى المادة الملونة وهى تغلى ، كما ان ورشهم غاية فى البساطة ، كما ان الالوان التى يستخدمونها تعد بشكل مجاف للذوق ، واكثر المواد الصباغة استعمالا هى الذيلة ، وهم يصبغون كذلك بالالوان : الأحمر ، الأصفر ، الأخضر ويستخدمون على وجه الخصوص الوانا يستخرجونها من الحبوب والحشائش .

٣

عن الزراعة ، وعن الفلاحين

كانت الزراعة هى السبب الرئيسى فى ازدهار مصر ، وهى تشكل حتى اليوم العنصر الأساسى لتجارتها وصناعتها ، ولولا تلك المصادر الهائلة التى يستمدها المصريون من خصوبة تربتهم لكانوا أبأس شعوب الدنيا خصوصا فى ظل حكومة القاهرة مثل حكومة المالك . ومع ذلك فينبغى أن تلقى الزراعة كما سبق القول العناية التى تليق بها لى تصبح زراعة بمعنى الكلمة ، فينبغى الاستفادة من كل الأراضى التى يمكن استصلاحها . ان هذا الأهمال الحزن لهو النتيجة الطبيعية لهذا اللون من العبودية الذى تضاعف فى ظله قدر المصريين وسوف نرى عما قليل بشاعة ظروفهم ، وسنستنتج بسهولة أن مثل هذا السلوك. المجاف لأصول الحكم والسياسة من جانب الملاك والسلطات الحاكمة ، لا يمكن أن تكون له نتائج أخرى .

لا تنتج الأراضى المخصصة لزراعة القمح عادة الا محصولا واحدا ، وباستطاعتها أن تعطى محصولين فهناك فى جزيرة الفنتين على سبيل المثال

تحصد الأرض ثلاث مرات في العام بانتظام ، وتنتج الأرض مثل الكمية المبثورة ١٤ مرة ويلزم لبذر الفدان ١/٢ أردب من الحبوب .

ويكفي ثمن الأردب الواحد لسداد مصاريف الزراعة والحصاد ويبقى بعد ذلك خمسة أردب هي بمثابة عائد الفدان الواحد ، أما في فرنسا فإن فدان القمح ينتج من خمسة إلى ٨ أردب ، وبخلاف ذلك فإن أحدا لا يجهل أن كمية كبيرة من البذور التي تبذر في الأراضي الفرنسية لا تثبت مطلقا ، فالحكم هنا إذن في صالح خصوبة أرض مصر حيث يحصل الفلاح هناك ويدون أن يكلف نفسه ذلك القدر من العناء الذي يتكلفه فلاحنا كل عام على هذه النتيجة المزدهرة . وينبغي أن نضيف كذلك أن غلة الأرض تقل أو تزيد حسب طبيعة المحصول ، إذ تنتج الفرة على سبيل المثال ٢٠ مرة من مثل الكمية المبثورة .

ولا يمكن أن نحصى في مصر أكثر من ١٠٠٠ فرسخ من الأرض المزروعة ويوجد في الفرسخ المربع ٣٣٠٠ فدان ، وهكذا فإن فرسخا واحدا من الأرض المزروعة يحايفل أكثر من ١٦٠٠٠ أردب من القمح كمعقد صف ، وإذا افترضنا أن الأردب يساوي ثمانية فرنكات فإن العائد يبلغ ١٢٣ ، ويمكن مضاعفة العائد إذا ما استبدلنا بزراعة القمح مزروعات أخرى أكثر ربحا مثل السكر والنيلة ، فالمحصول الأول يعطى عائدا أكبر من القمح ، ١٥ مرة ولكنه يتطلب رأس مال أكبر بكثير ، وبمقارنة الربح في الحالين نجد أن ربح السكر أقل نسبيا من ربح القمح أي أن ربح الأموال المستغلة في زراعة السكر أقل بكثير من ربح نفس المبلغ إذا ما استغل في زراعة القمح والفائدة الوحيدة التي تحسب لصالح السكر ، بل التعويض الوحيد الذي يمكن أن تقدمه هذه الزراعة هي أن محصول السكر يحتاج لمساحة صغيرة من الأرض بينما يحتاج القمح إلى مساحة كبيرة .

وقد يكون من السهل كذلك زيادة مساحة الأرض القابلة للزراعة ، ولكن نبرغم أن ذلك أمر ميسور إلا أننا لا نظن أن مصر في قبضة ملاكها الحاليين ستدر أكثر من ١٥٠ مليون فرنك ، وينبغي أن نخضع من هذا المبلغ ٤٠ مليونا كمصاريف بذار وحصاد فيصل صافي الربح إلى ١٠٠ مليون فقط ، ونحن على يقين من أن الصناعة الأوروبية كلها قد تتوصل بصعوبة بالغة إلى

انتاج ثلاثة أمثال بل حتى ضعف هذا الانتاج الذى تدره ارض مصر ، ولكن فى نفس الوقت لمضى مصر إن تفعل الكثير ، اذا ما افترضنا انها ستكون تادرة على ذلك ذات يوم ، لكى تقترب من ثروة فرنسا الزراعية ، بالرغم من خصوبة ارض مصر الهائلة ، حيث ان الضريبة على الاراضى وحدها فى فرنسا تصل لأكثر من ٣٠٠ مليون فرنك .

والمنشآت الخيرية التى يقرها الباشا ممثل السلطان تعفى من دفع الميرى ، بينما تخضع كل الملكيات العقارية لهذه الضريبة التى سبق ان تحدثنا عنها بالتفصيل فى الفصل السابق .

ويبذر الكتان والقمح فى نوفمبر بمجرد أن تنحسر مياه الفيضان . ويتم البذار مبكرا عن ذلك فى الصعيد ، حيث تكون مياه الفيضان على جانبي النهر أقل كثافة ، ويزرع القطن فى نهاية شهر مارس وبداية شهر ابريل ، ويحصد فى يولية وأغسطس ، اما المحصولات الأخرى فتتفج بعد خمسة أشهر .

ويستخدم المصريون المحدثون ، وعلى منوال أسلافهم ، الرى فى زراعة الاراضى ، ولكن هذه الطريقة الماهرة التى مضى بها الاتممون الى أعلى درجة من الرقى ، قد فقدت الكثير عند استخدام المحدثين لها . ومغلا عن ذلك فالمحراث تقريبا هو نفس المحراث الذى وجدناه مرسوما فى الكهوف ، او على الأقل ثمة تشابه كبير بينه وبين المحراث الذى يستخدمه المزارعون فى مصر اليوم ، وهو بالغ البساطة ، حيث ان الاراضى فى كل مكان لا تبدى الا مقاومة ضعيفة ، ويلاحظ أيضا ذلك التشابه الكبير بين الطرق القديمة والطرق الحديثة فى درس القمح ، ومع ذلك فانهم يستخدمون اليوم عبدا أقل من الابتار فى درس القمح ، وهى تقوم بفصل الحب فى الوقت الذى تجر فيه النورج .

ومن المفيد بعد ان تحدثنا عن الارض وعن زراعتها أن نقول شيئا عن هؤلاء الذين يفلحونها ، وهؤلاء هم الفلاحون البؤساء الذين تكرر اسمهم كثيرا على صفحات هذا المؤلف ، وهم لا يشبهون فى شيء فلاحى او مزارعى البلدان الأخرى ، ولم يول الرحالة الذين عبروا مصر خلال القرن الأخير اى اهتمام بهذه الطبقة العاملة المضطهدة ، وسوف تكون التفاصيل التى نقدمها هنا جديدة على أكبر عدد من القراء .

والفلاح المصرى هو اكثر الناس حياء ، وطبيعته الخوافة هى بلا جدال نتيجة طبيعية لحالة القهر التى حصره فى داخلها سيدان لا سبيل الى قهرهما ، اذ أن متاعبه من ملاحقة البكوات والضباط لا تنتهى الا لتبدأ مع العريان ، وعندما يحصل هؤلاء على كفايتهم ، يتعرض الفلاح لانتهاكات وابتزازات جديدة من جانب البكوات والكشاف ، تاتى لتسلبه ما قد يكون قد تبقى له ، وهكذا يظل الفلاح المسكين بلا اى دعم او سند ، غريسة لنزوات كل هؤلاء الناس من راكبي الخيل ، والمسليحين على الدوام بسلاح الحرب ولو كانوا فى نزهة صغيرة ، ويقدم الفلاح لهؤلاء الكثير من الابتكار والخراف ومكايل الحبوب التى يجنيها ، ثم يذهب ليعول ويثن من وطاة الجوع مع زوجته واولاده ، ومع ذلك فان تعقل الفلاح واعتداله يسبحان له بتدبير ما هو لازم لمعيشته ومعيشة أسرته ، وهو يستغل وقته ، ويتلقى كأجر عددا متفقا عليه من مكاييل الذرة والحبوب ، وفى كل مساء يجهز لنفسه خبزه ، وهو يطحن الحبوب بواسطة رضى ، وينضج الخبز على رمد ساخن ، لانه لا يمتلك فرنا على الاطلاق . ولكى يحصل على البلح والبصل والزبد والبيض واللبن ، فانه يستبدل ذلك مع فلاح آخر يبيع القمح والفول اللذين يلقاهما من الملك . وهو قانع بهذا النمط من الحياة ، حيث أن الشقاء الذى اعتاده جعله يعيش فى طور الفطرة ، وهو يتناسى الماشية التى يسرقها منه البدو ، كما ينسى الاتاوات المتزايدة التى يفرضها عليه طفاوته . وعندما يدر العمل عائدا كبيرا ويحصل بالتالى على أجر افضل يستطيع ان يوفر منه شيئا ، فانه يشتري من جديد حمارا وبعض الخراف وادوات زراعية ويعود الى مسكنه الاول ، ويرد الشيخ اليه الاراضى التى كان يفلحها من قبل .

وملابس الفلاحين عبارة عن قميص بسيط ، وهذا الملبس مشقوق من الرقبة حتى أسفل البطن ، وليست له اكمام ، وينزل حتى الركبتين ، ويثبت بالجسم بواسطة حزام من الجلد ، وهو من القطن ولونه ازرق ، وبخلاف ذلك يغطون راسهم بغطاء من اللباد الأحمر يسمى طربوشا ، اما الفلاح الميسور بعض الشيء ، فيغطي رأسه بعملة تتكون من شال من قماش قطنى مخطط يلف حول الطربوش ، وما عدا ذلك فان اندرع الفلاحين وسبقانهم واقدامهم عارية تماما ، بل ان كثيرين منهم لا يمتلكون حتى القميص الذى تحدثنا عنه ، ويكتفى هؤلاء بان يثبتوا بحزامهم قطعة من القماش تلف حول وسطهم ، ويرتدى الاغنياء منهم طربوشا وسروالا ومعطفا اسود اللون من الصوف فوق القميص ، ويطلق على هذا المعطف اسم : بشت .

وعندما نعرف بؤس وهوان وتدهور حال الفلاحين ، فاننا نستطيع ان نكون فكرة عما ستكون عليه ملامح وجوههم ، فهل يمكن ان يكون لاناس كهؤلاء حكم عليهم بهذا التحقير وتلك العبودية ، وبأن يظلوا على الدوام لعبة في ايدى عدد كبير من السادة — هل يمكن ان يكون لهم نظرة صريحة جريئة ، ووجه صاف بشوش ، ولقاء حر مفتوح ؟ ان مظهر هؤلاء البؤساء ليعلم عن حيرتهم ، والخوف يقرأ في عيونهم ، وهم يمشون بقلق ، ورعوسهم محتبة الى الامام ، واذا ما ظن الفلاح عند لقائه شخصا ما ، ان هذا الشخص يحوز ولو قدرا ضئيلا من الجاه أو الثروة ، فانه يقترب منه ويده مبسوطة كما لو كان ليستجدي حماية أو يطلب احسانا .

يا نه من تناقض يبعث على الاثارة بين وضعهم الذليل والمستجدي ، وبين ملامح الخشونة والجد التي ترسم على وجوههم ، التي تعطى لها لحيثهم الطويلة قدرا كبيرا من النبل ! وشكلهم في عومه جميل ، وتتميز جباههم — برغم ان جزءا منها تغطيه العمامة — بالانتساع ، ولوجنات خدودهم نتوء شديد الوضوح ، وخط الأنف واضح بشدة أما الذقن فممشوقة ، ويبدو الامر وكأن ثمة رجالا قد منحتهم الطبيعة هذا الملمح الوقور ، لكن عليهم ان يعانون من كل عوامل القهر والجبن والاذلال ، فكل ما فيهم يشهد ببؤس حالهم ، فلست تراهم الا باسطة الأيدى مكررين عبارة : فضة . فضة — أى اعطنى بارة . بارة واحدة ، وقد لا يدرك الغريب الذى لا يعرف عادات البلاد ، ان هؤلاء الذين يتسولون بهذا الالاح ، يدفعون ايجار اراضى عديدة يفلحونها ، وانهم يمتلكون ماشية وحمرا وخبولا ، وانهم يعملون عائلة كبيرة العدد ، عن طريق زراعتهم الفاكهة والخضار ، التى يعرفون كيف يعمدون منها بالنفع عليهم وعلى أسرهم وقت الحصاد .

وهكذا فسوف نقع فى خطأ بين اذا ما حكمنا على الحالة الحقيقية للفلاح استنادا الى مظهره الخارجى ، فهو لا يلجأ لهذا التسول المظهرى الا ليخضع مضطهده ، فمن المهم بالنسبة له ان يظنه الناس بلا مورد رزق وبلا وسيلة للعيش ، فذلك انه يرتجف على الدوام فرقا من ان يرى نفسه وقد انتزع منه القليل الذى يملكه ، لهذا فانه يشهد العالم كله على فقره وعوزه ، ويرندى من الملابس ما ينسجم مع الانطباع الذى يريد ان يحدثه فى مشاهدته ، فهو داخل تميمه هذا عار كما ولدته أمه ، ويقبل بنهم على أى طعام يقدم له ، ويجمع قطع المدينى التى يحصل عليها بمنايا فائقة فى طرف منديله ، ويقاسى

الأميرين حتى لا ينفق قطعة واحدة من نقوده الا عند الضرورة الملحة ، وباختصار فانه لا يفوته شيء مطلقا يمكن ان يساهم في اقناع الناس ببؤسه الشديد .

وعندما لا يكون الفلاح في حقله ، فانه يجلس القرمصاء امام منزله . وحول كل القرى المصرية تشاهد آلاف الاكوام الطينية الناتجة من الخرائب والهدم ، وهذه الأطلال كثيرة في هذه البلدان أكثر منها في أى مكان آخر بسبب رداة بناء الاكواح ، وكذلك رداة الخامات المستخدمة في ذلك ، غمى على الدوام من الطين المعجون أو من الطوب النئى . وعندما يكون الفلاح بلا عمل ، فانه يصعد هذه الاكوام ويظل جالسا أكبر فترة من النهار ، ويخن النارجيلة وينظر الى الخلاء ، وفي بعض الاحيان يقوم بغزل القطن أو الكتان بينما تعجن زوجته روث الماشية ، لتشكل منها نوعا من الاقراص تجففها بلسقها على جدران كوخها ، وبهذه القاذورات يحصل الفلاح على نقوده وينضج خبزه وطعامه .

وقد يظن المرء وهو يلاحظ بلادة وخمول هؤلاء البؤساء الذين يمشون وسط خطوط لا تنتهى ، أنهم شبه محرومين من موهبة الفكر ، ولكن ؛ لعل من الأصوب ان نقول ، بأنه يبدو أن العناية الالهية ، بينما هى تهيم للانسان ملكاته الروحية والذهنية التى تنسجم مع الظروف التى وضعت فيها ، فانها قد شاعت ان تترن البلادة بالفقر ، كما لو كان بفرص ان تخفى منه الشتاء الذى قدر عليه ان يحيا فيه .

٤ عن الحرف

ينقسم العمال في مصر حسب حرفهم وليس ثمة قواعد لاحتراف الحرف ، فالأب الذى يريد ان يعلم حرمة لولده يسلمه لحل أو عند معلم ، ويحمل الصبى معه وجبات ليمضى اليوم ثم يعود في المساء الى بيت والده . وبمجرد ان يتعلم فانه يحصل على أجر يزيد بزيادة مهارته .

وتنقسم الحرف المختلفة الى طوائف لها رؤساء ، ويشرف على معظمها وكيل الانتكشارية (الكخبيا المتولى) وهو رئيس الشرطة في القاهرة ، وتخضع بعض هذه الطوائف لاشراف أغا العزبان والمحاسب ، وللآخر حق الاشراف الخاص على المواد الغذائية . وثمة حرف لا ترتبط بأى من هؤلاء الرؤساء ،

وتشكل طوائف هامشية مثل الراقصات والراقصين على سبيل المثال وعازقي المزمار وباعة الحدايد وعموما كل تجار الخردة .

ويرأس شيخ الحمامات تحت امرته ٢٤ شيخا من مختلف المهن ، مثل صناع الخيام والجمالين ولاعبى العصا والمغنين ومنشدى الشوارع والحمارين ، وهو يحكم فى الخلافات الصغيرة التى تنشأ بين هذه الطبقة من الناس فى موضوع حرفتهم ، ويتوجه الناس اليه عند طلب عدد كبير من دواب النقل لغرض ما . ويحصل من أتباعه عددا من الضرائب الصغيرة ، بعضها ثابت وبعضها طارئ ، ولكى يحصل على هذا الامتياز فانه يلزم يدفع اتاوات ثابتة لمختلف ضباط الاوجاقات ، نقدا او فى شكل أشياء تدخل فى تشكيل اثاث البيوت . ولا ينبغي ان ننسى ان هذه الرسوم التى يحصلها الملتزمون او مساعدهم ، انما هى فى الغالب رسوم استبدادية مثل كل ما يحدث تبعا للعادات الاسلامية ، ولكن شيخ الطائفة بالرغم من اتساع سلطته فى زياده الضرائب التى يفرضها ، يلتزم مع ذلك بحدود الاعتدال حتى لا يفقد الاحترام العام ، فيفقد بالتالى عمله وامله فى ان يشغل وظائف اخرى .

واذا لم يكن لدى الصناع ما يشكون منه من شيخهم . واذا رغبوا فى الاحتفاظ به ، فان الكخيا المتولى لا يستطيع فى نهاية العام ان يبدله ، كما انه ليس فى مقدور هذا الأخير زيادة مبلغ الالتزام الذى يحدد بشكل لا يقبل التغيير . وعندما لا يكون الصناع راضين عن شيخهم ، يضطر الكخيا لتعيين شيخ آخر ، ويطلب الى الطائفة ان تحدد له شخصا بعينه ، ويتم ذلك بطريق النداء وبدون اية صيغة اخرى وبدون اللجوء الى طريقة الاقتراع ، على الرغم من معرفة الاثراك لهذه الطريقة . وعندما يريد الكخيا ان يرغم الصناع على اختيار شيخ معين ، يجتمع كل مديرى الحمامات ليعترضوا على هذا العنف غير المشروع .

وفى الفصل الاول من مؤلفنا هذا قدرنا عدد عمال اليومية بـ ١٥ الفا فى مدينة القاهرة ، ويمكن تقسيم هذه الكتلة من الناس الى ثلاث طبقات :

الاولى : وهى اكثرهم بؤسا وتضم ١٠ آلاف شخص ، وهؤلاء يستخدمون فى اعمال ثانوية ولا يحصلون الا على اجر بالغ التواضع ينفى

بالكاد لمعيشتهم ، وهم يرتدون قميصا بسيطا أزرق اللون ، من الصوف ويحزم بحبل عند وسط الجسم وتغطي رؤوسهم بلبدة بيضاء ، اما مسكنهم عبارة عن كوخ يكلنهم ايجاره الشهري ١٠ بارات ، وكل اناتهم عبارة عن مزقة من الحصر ينامون عليها مع زوجاتهم واولادهم ، ويمكن للمعامل من هذه الطبقة ان يكسب حوالى ١٥ بارة فى اليوم وتشتغل زوجته (اذ ليست له الا زوجة واحدة) بأعمال اخرى اقل كسبا ، تدر عليها على الاكثر ٤ - ٥ بارات ، ولا ياكل هؤلاء البؤساء اللحم على الاطلاق ، وهم يشترون الخبز وشيئا من الحبوب المطبوخة والبيض . وينفق الرجل بعض نقوده فى المنهى ويدخن تبغا بالعمالة الرداءة ، ويحذر نفسه باكل القنب الأخضر المعد ، فقد أصبح الخدر بالنسبة له شبه ضرورى . وترتدى المرأة كذلك قميصا أزرق اللون ، ويسير الأطفال عراة او بتغطيتهم بعض الهلهيل .

وتضم الطبقة الثانية حوالى ٣ آلاف عامل يومية ، ظروفهم ليست اقل من ظروف الاولين مدعاة للشكوى ، برغم انهم ليسوا على نفس الدرجة من البؤس - وأجرهم ليس اكبر من أجر الاولين مع انهم يعتبرون نوعا من وكلاء الاعمال ، لكنهم يحصلون على بعض المكاسب البسيطة لا يحصل عليها الاولون ، ومسكنهم أكثر راحة واحسن تائثا ، ويتكون رداؤهم الطويل من تميصين او ثلاثة يرتدونها فى بعض الاحيان فوق القميص ويخالف ذلك فان طريقتهم فى الحياة هى نفس طريقة الاولين .

ويمكننا ان نضع فى صفوف الطبقة الثالثة ٢٠٠٠ من العمال ، وهم فى حالة أكثر يسرا من الاولين بقليل ، ويعمل هؤلاء كرؤساء ورش ، ويسكنون فى مبنى كبير به دهاليز عديدة تؤدى الى مساكنهم ، وهذه المباني تشبه الأديرة ، ويقطن كل عامل فى حجرة ، ويعمد طعامه فى مسكنه ، وزوجته هى التى تقوم بهذا العمل ، ويدفع ٣٠ مدينى كإيجار شهري ، ويمتلك حصيرة خشنة من ألياف الكتان ، وبعض المخدات التى لها غطاء ردىء ، بالإضافة الى اناء للطبخ او اناجين ، مع آتية اخرى رخيصة الثمن . لكن ما يميزهم على وجه الخصوص انهم يرتدون ملابس أكثر وأقمم : شال من الموشلين او الصوف حول طربوش ليشكل عمامة ، وملابسهم الداخلية من التيل ، ويمتلك الواحد منهم دفية زيادة على الجلباب الطويل ، وهذه الدفية عبارة عن معطف من الصوف الاسود ، كما يرتدى ملاية وهى قطعة طويلة من قماش قطنى بها مربعات بيضاء وزرقاء ، وكل هذه الاشياء التى

بمضى بتجديدها عندما تبلى يمكن أن تكلف العامل من ٩ - ٢٠ بوطاقة (خردة) ، ومع ذلك فأجر هؤلاء العمال ليس أكبر بكثير من أجر الأولين ، لكن ما يجعلهم يعيشون في بحبوحة أكثر ، هو أنهم يعملون طيلة العام باعتبارهم أكثر شهرة وأكثر دراية . وترتدى زوجاتهم قميصا أسود للزينة وقيمصين أو ثلاثة لبقية الأيام . وهن يعملن في غسل ونسج القطن ويعود عليهن هذا العمل بأجر متواضع .

ويبلغ عدد الخدم العاملين بالقاهرة ، كما سبق أن قلنا في الفترة الخاصة بسكان هذه المدينة في الفصل الأول ، ثلاثة آلاف ، ويمكن أن ننظر إليهم باعتبارهم يشكلون ثلاث طبقات متميزة فيما بينها بسبب طبيعة أعمالهم وهم : لسياس (السياس) ، الفراشون (الفراش) ، القواسون (القواس) .

وينام السياس بالقرب من الخيول التي يوكل إليه أمر العناية بها ، ويكاد السياس لا يتقاضى اجرا ، إذ لا يعطى الا ١ - ٢ بارة في اليوم ، وكمية من الخبز تبلغ ١١/٢ رطل ، لكنه يحصل على عدد لا يحصى من المكاسب الصغيرة المحظورة ، ويحصل في معظم الأحيان على هدايا بمناسبة الأعياد (عديدة) ، وباختصار فهو يعيش في بحبوحة . وبمعظم هؤلاء الخدم لا يتزوجون ، وهم نظفاء ، وملابسهم حسنة ، ويتميزون بمهارتهم في معاملة الجياد ، وهم متكبرون وقحون بطبعهم ، وعنيدون ، لكنهم لا ينساقون لغضبهم الا فيما بينهم ، هم يبدون الكثير من الخضوع نحو أسيادهم .

ويمكن أن نشبه الفراش بالـ Valet de chambre عندنا ، فهو الذى يعنى بالأتاث ، وهو الذى يسهر على نظافة البيوت وعلى الإضاءة ، وهو يقيم عند سيده ولا يترك مسكنه الا عند زواجه ، ولكى يحصل على هذه المرتبة غانه ينتظر حتى يصبح رئيسا للفراشين ، وهو على الدوام حسن الملبس ، وهذه الطبقة هى التى تساهم في اعداد ملذات سادتهم المنحطة ، وهم يندفعون في القيام بهذه الخدمات لأبعد مما كان السادة يرغبون ، وأجرهم ليس محددًا ، وانما يتوقف على مشيئة السادة .

وعندما يصبح هؤلاء الخدم رؤساء ، يصبح لهم منزل وأحيانا منزلان قليلا الاتساع تقيم في كل واحد منهما زوجة ، واثاثهم فاخر لحد ما ، وتمتلك زوجاتهم بعض الحلى .

ويسمى الشرقيون من نوى المكاة أمهم خدما ، يسبحونهم سائرين على الأقدام وحاملين عصا لإبعاد الجمهور ، وليهينوا لسلطانهم مكانا . ويسمى الخادم من هذا النوع : القواس ، وهم ينقلون أوامر سيدهم في داخل المدينة وإلى القرى المجاورة ، ويختار لهذا العمل فلاحون ورجال من أبناء الريف لأن مظهرهم وقامتهم أكثر مهلبة من مظهر وقامة سكان المدن . ولا يدفع للقواس أجر ، ولا يحصل هو الا على الخبز ، لكنه يعوض هذا الغرم الى حد كبير ، على حساب الذين يحمل اليهم أوامر او رسائل من طرف سيده وبخاصة اذا ما كان لسيده نفوذ كبير . وليس ثمة اى نوع من المغارم أو الاتاوات الا ويحصلها لحسابه . والقواس عند الكبار هو الذى يقوم لحسابهم بارتكاب أحداث السلب والانتقام ، وهو الذى يهوى بعصاه على من يريد سيده ان يعاقبه او يهينه . كما انه الذى ينزل الشخص الذى يخضع لهذه الاهانة من فوق ظهر حصانه . وكل هؤلاء الخدم على وجه التقريب متزوجون وترتدى زوجاتهم مثلما ترتدى زوجة حرقى ميسور ، وملابسهم على الدوام من تماش خشن من الصوف الأسود ، وهم يرتدون شالا من الصوف او ملاية تتدلى على كتفهم ، ويغطون رءوسهم بلبدة بيضاء ، ثم بطربوش أحمر ، وهم يحرصون على أن يضعوا بينها كثيرا من الورق وقطعا من اقمشة ريشة لتمنع ضربات العصا التى تنال عليهم عادة من ساداتهم ، ويسمى رئيس هذه الطائفة من الخدم . مقدم ، ويفرض هؤلاء الرؤساء عددا كبيرا من الاتاوات ويفتنون بسرعة .

أما السقاؤون فهم على نحو ما رسل الحريم ، وينتهى بهم الأمر بأن يكونوا ثروات كبيرة ، والنساء هن اللاتى يخترنهم ويتبادلنهم فيما بينهم . ويتمتع هؤلاء الخدم عامة بحظ أوفر من الآخرين ، ويوليهما أرطب البيوت اكبر قدر من الرعاية وتبسط النساء عليهم حميلتين ، ويحرصن على راحتهم ، ويمكن أن يكون لهذا التكريم ، اسباب عديدة ، فالنساء : وهن بطبعهن رقيقات وشفوقات — لا يمكن أن يسلكن هذا المسلك الا ربما بدافع من شفقة حميدة ، وربما بسبب من تصنع الدافع الإنستلى ، ومع ذلك فيحتمل أن تكون ثمة نواحي ضئف خفية هى التى تحذبهن الى اكرام رجال يكن لهم قدرا من الصاطفة .

وفيما عدا ذلك ، فإن الخدم في مصر يلقون معاملة طيبة على وجه العموم واذا ما تحينا بغض الحن البسيطة ، وبعض العقوبات التى قد تكون

تناسية بعض الشيء في بعض الأحيان ، والتي يوقعها عليهم السادة بسبب تقلب أهوائهم ، أو بسبب نقاد صبرهم ، فليس ثمة في حياة هؤلاء الخدم ما يمكنهم أن يشكوا منه ، فالسادة يولونهم الكثير من العطف ، بل ويرى السادة في معظم الأحيان يتخذون جانب خدمهم بحاسة فريدة ، سواء كانوا مخطئين أو كانوا على صواب ، وسواء كان الأمر بدافع من العطف عليهم أو بدافع من كبريائهم وكرامتهم هم . وتذكر كثير من الأمثلة على بكوات تشاجروا بغضب فيما بينهم بسبب مشاحنات خدمهم .

وطابع هؤلاء الخدم عادة سيئ مرذول ، والذين يتوصلون منهم الى الحصول على نوع من الثراء يصبحون وتحين متعاطفين ، وهم وشاة غدارون ومخاتلون ماكرون ، وويل لمن لا حماية لهم أو جاه حين يتعاملون معهم ! انهم أكثر غلظة وقسوة من الممالك الذين يخدمونهم ، والفراش والسائس والمقص والسقاء مرتبطون بسادتهم ، وهم راضون عن حظوظهم ولا يكادون يغيرون سيدهم . وهؤلاء السادة يعاملون خدمهم برقة في غالب الأحيان كما سبق القول ، وهم يعنون بأبناء هؤلاء الذين يولدون في كنفهم ، لأن المصريين جميعا مولعون بالغلطان ويتبادلونهم فيما بينهم ، وتستقبل هذه الهدايا بسرور بالغ ، فلماذا إذن والأمر كذلك ، لا تكون بقية الأمور متسقة مع هذه الميل الطبيعية ، والملذات البريئة الظاهرة ؟

الملاحق

١

نبذة عن الحفل الذى يقام عند مولد الاطفال

سنقدم هنا مذكرة طبعت بالفعل فى القاهرة ، وتعطى فكرة دقيقة عن العادات التى تتم عند مولد الاطفال الفكور . ويمجيب المرء من ان الاب لا يدخل مطلقا وبأية طريقة ضمن اطار هذا الحفل الشيق .

فى اليوم السابع لمولد الطفل تجتمع الوالدة صديقاتها وتمضى اليوم كله فى لهو معهن .

وتنقضى الفترة بين الوجبتين فى غناء ورقص تقوم بهما العوالم . وبعد الغداء يتم حفل تعميد الطفل الجديد ، ويطلق على هذا الحفل اسم : السبوع ، وهو عبارة عن نزهة فى كل حجرات مسكن الحريم ، وتمشى واحدة من الخاضعات الرئيسيات على راس الاحتفال حليلة صينية من النحاس وضع فوقها وبشكل دائرى عدد من الشموع يعادل عدد النساء اللاتى يشاركن فى هذا الاحتفال . وهذه الشموع مضادة والوانها متعددة ، وتسير بعدها القابلة الموكلة بالطفل وعلى جانيها خادمتان ، تحمل صفراهما موقدا من النحاس الأصفر ، وتحمل الأخرى طبقا يحتوى على حبوب شمير وقمح وعفس وفول وأرز وملح بحرئ ويخور . أى سبعة أصناف بعدد الأيالم التى انتقضت منذ مولد الطفل .

وتمشى الأم بعد ذلك تحيط بها العوالم وأقرب صديقاتها اليها ، وتشكل الزوجات الأخريات آخر مجموعة فى الموكب . وفى أثناء السير تعزف موسيقى صاخبة للغاية ، وفى كل مرة يدخل فيها الموكب حجرة من حجرات الحريم ، تأخذ القابلة حفنة من الحبوب والبخور بيمنها وترمى بجزء منه فى الحجرة ، ويرد عليها بزغاريد طويلة جدا ، ويصيح ايقاع الموسيقى أسرع وأكثر صخباً ، وتحاول النساء السير فوق الحب المنتشر فى كل مكان .

وعند العودة الى حجرة الحريم الرئيسية ، توضع صينية الشموع على كرسي بدون مسند ، موضوع وسط الحجرة ، وتلقى كل واحدة من المشتركات

لتضع تبضة من البارات ، وترتدى الفتيات المسخيرات والخادلات على الشوارع ليتنازعن عليها . وبعد ذلك تحمل القابلة الصينية ، وتحصى دخلها من النقود التي تجدها عليها ، والتي القيت هناك من أجلها .

ويينهى الحفل بزيارة للطفل ، وتزين رأسه بقطع من النقود الذهبية التي تقدم له كهدية ، أو توضع في مناديل غالية تحت رأسه .

٢

جهل المصريين والقويين بخصوص رسم الصور الانسانية

سبق أن تحدثنا من قلة معرفة المصريين المحدثين بكل ما يتصل بالفنون الجميلة ، ولكن يتبقى علينا أن نقول كلمة عن أى حد يبلغ عمق هذا الجهل في موضوع الرسم والتصوير نتيجة للمعتقدات التي تصاحب الدين الاسلامي ، اذ سوف يوضح ذلك كثير من الاحداث التي وقعت امام أعيننا ، أكثر مما نوضحه الامتكار أو الآراء التي يمكن أن نقدمها .

كان الأستاذ ريجو Rigo الرسام وعضو المجمع العلمي المصري ، قد بدأ سلسلة من الدراسات حول ملامح السكان . وقد كان وصول قافلة النوبة الى القاهرة عام ١٧٩٩ فرصة طيبة بالنسبة له ، يبغي الامساك بها ، وكان قائد القافلة عبد الكريم على وجه الخصوص يلفت النظر بقوة الملامح النوبية المرتسمة على وجهه . ونجح الأستاذ ريجو في أن يجذبه اليه باغراء النقود . وبعد مغلفات طويلة — كثيرا ما انقطعت — جاء عبد الكريم الى الرسم في حراسة ١٠ — ١٢ شخصا من مواطنيه ، مع كل الاحتياطات التي يمكن أن يقوم بها رجل مقتنع بأنه مستدرج الى كمين . ومع ذلك فلتقد امكن طباتته في النهاية واقفاهه بصرف حراسه ، وبدأ الأستاذ ريجو في عمل صورة له بالحجم الطبيعي ، وبدأ النوبي في أول الأمر مسرورا بالخطوط الأولية في الرسم ، وكان يشير بإصبعه الى أجزاء الرسم ، وإلى الأجزاء التي تقابلها في وجهه وهو يقول : طيب . طيب . ولكن عندما بدأ الفنان يضع الألوان على الصورة ، كان التأثير مخفيا تماما ، فلم يكد عبد الكريم يلقى عليها نظرة حتى تراجع وهو يصرخ صرخات مرعبة ، وكان من المستحيل تهدئته ، وما أن فتح باب الرسم ، حتى أطلق لسانيه الغضبان ، وصاح في الشارع بأنه قادم من بيت نزعوا فيه رأسه ونصف جسده .

وبعد ذلك بمدة أيام . جاء ريجو الى الرسم بنوبى آخر ، يعمل بوابا لأحد بيوت المعهد ، فلم يكن اقل من مواطنه شمعورا بالرعب عند رؤيته للرسم ، وجرى يقص على كل جيرانه ، بأنه شاهد عند رجل فرنسى عددا هائلا من الرعوس والاطراف المقطوعة ، فسخر اخوانه منه ، وتجمع عشرة منهم ليتأكدوا من صحة الواقعة ، ولكن لم يكن ثمة واحد من بينهم لم يملكه الفزع عند دخول الرسم ، ولم يشأ واحد منهم ان يبقى في الرسم لحظة واحدة .

وقد رسم الأستاذ ريجو سيدة من نفس هذه البلاد جاءت الى القاهرة مع عبد الكريم . وكان على الرسام ان يرغمها حتى تقتنع بان تدع نفسها ترسم ، وما ان انتهى الفنان من رسم الرأس والذراعين حتى قالت له : « لماذا تأخذ راسى ؟ ولماذا تنزع عنى ذراعى ؟ » . وبدأ انها مقتنعة بان كل أجزاء جسمها التى انتقلت صورتها الى اللوحة ، سوف تفيل .

ويعتقد المسيحيون من اهل البلاد ان كل الرسوم تمثل قديسين ، وكان يوجد فى هذا الرسم لوحة لفرنسى ، كان الاقباط يخرون امامها ساجدين عند دخولهم الرسم ، كما كانوا يقبلونها فى خشوع شديد (١) .

٣

فن الأماعى او سحرة التملين

اعتقد ان علينا قبل ان ننهى هذا المؤلف ، ان نتحدث عن هؤلاء الرجال غير العاديين الذين يحترفون اكتشاف الثعابين وتطهير المنزل منها . وعلى الرغم مما هو واضح فى عملهم هذا من دجل وشعوذة ، وعلى الرغم من أننا نقر مقدما ان قليلا من القراء فقط هم الذين سيولون الثقة بهذه المعجزات المزعومة ، فانه مما لا مندوحة لنا عنه ان ندخل فى تفاصيل حول هذا الموضوع . ونحن نعترف — دون ان يعنى ذلك بسلطة مفاهيمنا ، او أننا من بين أولئك الذين يسهل اقتناعهم — باننا كنا بأنفسنا شهودا على بعض الوقائع بالغة الغرابة لدرجة أننا لا نستطيع ان ندخل فن الأماعى ضمن اطار الأمور المثوومة والخيالية ، بل ان واحدا مثل بروسبير الباز Prosperè Alpin ذلك الطبيب ذائع الصيت — ولا يمكن ان نصفه بأنه واحد ممن يعتقدون

في الخرافات — قد نقل البنا انه رأى رجالا يتعاملون دون ان يصيبهم أدنى اذى ، مع الزواحف السامة والمقارب .

وقبله عرف سترابون Strabon الحواة الذين كان المصريون القدماء ينظرون اليهم ، على اعتبار أن لديهم موهبة سحر الثعابين ، وكل ما نقله البنا المؤلف بخصوص هؤلاء الحواة يتجدد هذه الابهام

انشاء وجود الجيش الفرنسى في مصر ، اراد عديد من الاطباء المهرة ان يتأكدوا بانفسهم من حقيقة تلك الثقة التى يوليها الرحالة لهؤلاء السحرة . وكان من السهل عليهم في البداية ان يعترفوا بشعوذة البعض ، على الأقل فيما يتعلق بتلك الممارسات الغريبة التى يستغلون بها بساطة مفهوم جمهور جاهل أبشع استغلال ، فلكى يدخل هؤلاء المشعوذون شخصا ما فى رفقتهم ، ولكى يجعلوه فى مأمن من لدغات الثعابين ، فانهم يقومون بصب بعض الماء فى اناء ، ثم يضيفون اليه الزيت والسكر ، ويحاولون عمل مزيج من هذا الخليط ، وبعد تلاوة بعض الادعية يمسكون فى الاناء ، ويأمرونه بشرب هذه الحرة المنفرة ، وبعد ذلك يطلقون فى اذنيه ثعبانين كبيرين من اسناتهما ، وبظل الثعبانان متدليين هكذا لمدة ربع ساعة ، وبعد انتهاء العملية ، يخرج هذا « المأذون » من كبسه ثمن الخدمة الجليلة التى اسديت اليه ، وينسحب ، وهو شديد الاقتناع بأن ليس عليه ان يخشى بعد اليوم من لدغات الثعابين .

ولعل هذا الاقتناع الذى حصل عليه هذا « المأذون » ، والذى جعل من المشعوذون اقناعا تاما بمثل هذه العملية الشائعة ، هو الفائدة الوحيدة التى جناها هذا الرجل ، اذ اثنا فى الواقع نستطيع بسهولة ان نتجاسر على الاشياء التى تقل خشيتنا لها ، وهذه الثعابين تشبه نوعا من الحيوانات لا يصعب ضلها ، الا عندما نظن أن من يقترب منها — بسبب اضطرابه غير الوائق وتردده — يريد اذاءها . اننا مضطرون للتفكير على هذا النحو ، على الأقل حتى يمكننا ان نفسر النتائج الغريبة لهذا التلقين الغريب لهؤلاء السحرة ، اذ كيف يستطيع هؤلاء الناس ان يحملوا فى ملابسهم ، بل وعلى صدورهم ، زواحف من كل نوع يلتصقونها بالصدفة ، دون ان تقع لهم أحداث مؤلة ؟ كيف يمكنهم ان يضمنوا ، دون ان يصيبهم أدنى اذى ، عقارب حية تحت ملامحتهم الحمراء التى تغطي رءوسهم الحليقة ؟ لقد ظننا فى البداية انهم كانوا ينزحون اسفل الثعابين أو لكى العقارب ، لكن واحدا من زملائنا مر بتجربة

ثبتت العكس . فقد أراد ذات يوم أن يتأكد من الحقيقة ، ونقل شكوكه هذه الى واحد من هؤلاء الرفاعية ، فما كان من الآخر الا ان تناول اصبعه على الفور ، ودسها في فم الثعبان الذى يمسك به بين اصابعه ، واخذ زميلنا بفعل المفاجأة ، وشعر بأسنان الثعبان الدقيقة والناعمة للغاية . صحيح ان كل هذا يمكن تفسيره ، اذا ما تبيننا رأى بوكوك Pocoko : فهذا العالم الرحالة كان يزعم ان ليس ثمة ثعابين سامة في مصر . ولكن هل تكدت صحة مثل هذا الزعم ؟ وهل الأفعى المسائية ، او الأفعى ذات القرون ، وهى المعروفة بخطورتها في أوربا ، تكون أقل خطورة منها في إفريقيا ؟ وهكذا فلا يمكن أن يكون زعمه صحيحا ، فضلا عن ذلك ، فقد حدثت تحت ناظرنا أمور برهنت على عكس هذا الرأى .

يبقى علينا ان نتحدث عن فن استدعاء الثعبان من شقه ، وهو أمر أكثر مثارا للدهشة ، بل انه يشبه المعجزة . وقد واثقنا هذه الفرصة لنرى هذا المشهود الفريد لأول مرة في طهطا بالصعيد عند آباء الدعوة . كان ثمة رجل يمر بأشارع وثمة سلة تتدلى من ذراعه ، وبعطن بصوت عال انه يطهر البيوت من الثعابين التى يمكن ان تحتويها . واثقنا ان نضع نداء الرجل موضع الاختبار ، في الدير نفسه ، بالرغم من تعليمات رجال الدين ، الذين يطمون تلاميذهم الا يكونوا على استعداد مطلقا لتقبل مثل هذه الأفكار . ومع ذلك فقد كان ثمة واحد من الآباء أقل تشددا من اخوانه ، وحيد فكرتنا ، واستدعى الرجل الذى نحن بصدد الحديث عنه الى فناء صغير من افنية الدير وكانت سلته تحتوى على ثعابين كبيرة ومن انواع مختلفة ، قال انه اخرجها من البيوت المجاورة التى دعى اليها . وسألناه ما ان كان ثمة زواحف بالدير ، وما ان كان بمقدوره ان يخرجها ، عندئذ شكل قسمايت وجهه ، وجهد لكى يفسى على وجهه مسحة من الغموض ، وجل ببصره في كل الاماكن المحيطة به ، وكانت كل اشاراته توحى بالجدية والخطورة ، وكان يتخذ هيئة الرجل الملم ، ثم اوقف بصره في النهاية على حجرة معتمة للغاية وهو يتشمم الهواء ، كما لو كان بإمكانه ان يستدل على وجود الثعابين عن طريق الشم ، ثم اجاب بأنه لا توجد زواحف الا في هذه الحجرة . وفتح باب الحجرة وتقدم بخطى بطيئة ، حاملا في يده عصى صغيرة ، وكان يفهم بكلمات بفهمة خلسة وبصوت خفيض ، ولم يفهم رجال الدين من كلماته الا كلمة : السلام عليكم ، وبعد هذا النوع من « التعزيم » الذى استغرق خمس دقائق على الأكثر ، وضع

أحدى قدميه في الحجرة ، ويمسك على الأرض ، وانحنى ، ثم نهض على الفور ، وقدم اليها ثعباناً يبلغ طوله أربعة أقدام ، وكان يمسك به من ذيله ، وسننه بعضاه . ولم يكن هذا كل شيء فقد قام بهذه الطقوس مرتين واحضر ثعبانين آخرين من حجم صفر ، وضمهما مع الثعبان الكبير في المسلة . وصرفنا الرجل ، ودفعا له ثمن المشهد الذى قدمه لنا . ونحن نعترف برغم قلة ميلنا الى تصديق ما حدث ، بأن الخداع كان كاملاً ، وانما منذ ذلك الوقت ، أصبحنا أكثر ميلاً للاعتقاد في وجود السحرة الذين عقدوا صلات مع الشيطان ، حسب افكار الأتباط الدينية .

ولعل من الممكن للاعتقاد بأن هذه العملية ليست سوى حيلة من حيل السحرة أو الحواة — وهو ما اعتقده كثيرون — لكننا كما قد اتخذنا كل الاحتياطات الممكنة ، التى لا يمكن معها خداعنا ، بل ويمكننا ان نؤكد بأن الحلو لا يخفىء مطلقاً ثعلبين في ملابسهم . وفضلاً عن ذلك فقد أرغم البعض منا — كى نبعد كل شك — هؤلاء الرجال على أن يتجردوا من ملابسهم ، ومع ذلك فقد حازوا نفس النجاح في عملهم . ونستطيع ان نقدم على ذلك الكثير من الأدلة ، لدرجة لا يمكن معها ان نتهم بعدم الكفاءة ، لكن ذلك يضى أن نتوقف طويلاً حول هذا الامر ، ومع ذلك ، فلكى نفس بطريقة صحيحة وموضوعية وقائع خارجة عن المألوف مثل تلك الوقائع ، فنحن نعتقد ان بالامكان الافتراض بأن الحواة المصريين لديهم القدرة على ان يعطوا لاصواتهم نغمة قلادة على جذب الثعلبين ، بنفس الطريقة التى يستطيع بها الصيد ان ينغم صوته لكى يخدع فريسته التى يجذبها الى شبابه . ويؤكد الأستاذ دى لاسبيد de Lacépède في كتابه Histoire naturelle ان الثعلبين علمة ، تفرز رائحة قوية ، وان بعض الناس يفرزون بالمثل رائحة مسكية . ويذكر واقعة تؤيد ماذهب اليه ، يمكن ان نستنتج منها ان الرائحة تخدم الرماعية عند اكتشاف الزواحف ، بنفس القدر الذى يخدمهم صوته .

ويبدو ان هؤلاء الناس قد عرفوا تأثير اللعاب على هذه الحيوانات الخطرة ، وكل العمليات التى يتبعونها توضح ذلك بجلاء ، وتتفق كثيراً مع رأى جالين Galien ، الذى يدعى ان اللعاب سام بالنسبة للعقارب والثعابين وقد شاهدنا كثيراً من العلامات التى تدعم ما ذهب اليه هذا الطبيب العالم . فالواحد من هؤلاء الحواة ، يعرض امام الناس ثعباناً ضخماً ، ويظل يهيج

حتى يوشك الحيوان أن يعضه ، وعندئذ ييمىق في فيه فيتوقف غضب الثعبان على الفور ، بل يظل بلا حراك تقريبا . وهذه التجارب التى تتكرر مرات كثيرة ، وينفس النجاح ، لا تسمح مطلقا بإثارة الشك حول مفعول اللعاب ، أن لم يكن كسم للثعبان ، فعلى الأمل كمخدر ، وقد اتبع بعض أطباء الجيش نفس هذه الطرق مع المقارب ، فحصلوا على نفس النتائج .

وأشهر الثعابين المصرية على الإطلاق هو بلا جدال ثعبان الصعيد ، الذى يعرف باسم الشيخ هريدى . وقد تحدث كل من نوردين Norden وبروس Bruce وسانارى Savary عن هذا الثعبان الشهير ، الذى رفعته سذاجة العامة واحتيال المشايخ المسلمين الى مرتبة ولى من الدرجة الثانية . ويمكن أن نرجع هذا التقديس غير المألوف ، الى أزمنة ضاربة في القدم ، حيث كانت شعوب مصر كما يقول هيرودوت واليان Elien ، تولى للثعبان بشكل خاص ، قدرا كبيرا من التقديس ، فكانوا يتخذون منه رمزا للخصوبة . وقد تحدث دويوى Dupuis عن تلك العبادة العالمية التى اتخذت الثعبان موضوعا لها ، وعن الدور الذى لعبته الثعابين في كل الرموز العالمية التى أدت الى نشأة العبادات المختلفة . لكن ما سوف يدهش عددا كبيرا من القراء بلا جدال . هو أن يظل الثعبان هريدى ، يلتقى في مصر ، وتحت سيادة المبادئ الإسلامية ، نفس المكانة التى كانت له في الماضي عند عبدة إيزيس وأزوريس ، رمز الخصوبة ، وأنه لا يختلف في شيء ، لا في الشكل ولا في الطبيعة ، عما وصفه اليان . وقد أخطأ هيرودت عندما خلط بين هذا الثعبان وبين الحية ذات القرون . وتأتى النساء العقيمات لزيارة الأماكن التى كانت مخصصة له ، لكى يحصلن بفعل القرابين والأضحيات على نهاية لعتمهن كما تذهب اليه الفتيات ليسرن اليه برغباتهن في أن يصبحن عما قريب زوجات وأمهات . وسوف نلزم الصمت عن كل الأحليل المقززة للمشرعين على مزار هذا الثعبان — الإله ، وكذلك عن المشاهد الشهوانية ، التى هى نتيجة طبيعية لعبادة غريبة ، بعيدة عن العقل لهذه الدرجة ، ويكفي أن نقول بأن النساء بعد أن يذبحن أضحية عند باب المزار ، يصعدن عند دخول الليل الى قمة سلم يبلغ عدد سلطاته ١٠ — ١٢ سلمة ، وما أن يحل الظلام ، حتى ينزلتن بطريقة غامضة الى داخل المزار ليتضمن بقية الليل مع شيخ . ومن نافلة القول ، أن نذكر أن هؤلاء السيدات ينجحن في معظم الأحيان في تحقيق الهدف الذى قمن بهذه الزيارة من أجله .

ويحكى عن أصل اسم الشيخ هريدى ، ان شيخا بهذا الاسم كان معروفا
بفضائله ، قد ظهر من جديد — بعد موته — فى صورة شعبان ، وهذه
الخرافة التى يجد شيوخ البلاد مصطلحتهم فى نشرها وتدعيمها ، أصبحت طعما
يسهل بلعه ، وتلك هى نشأة كل الخرافات (١) .

(١) فى نهاية هذا المؤلف علينا ان نبدى عرفانا الى الأستاذ فوريه
Fourier السكرتير الدائم للمعهد العلمى المصرى ، للمجاملة التى
أبداها نحونا ، عندما أمدنا بمذكراته عن مصر ، والتى كانت مصدرا لكثير
من أدق الأفكار . وكان مركز القومسيير الفرنسى عند ديوان القاهرة — وهو
المنصب الذى يشغله اثناء الحملة — قد جعله على صلة يومية بكبار المشايخ
ورجال الشريعة ، واكثر اهل البلاد تنورا ونفوذاً . كما ان المخطوطات التى
تركها المرحوم الأستاذ جلوتيه Gloutier ، عضو المعهد المصرى — قسم
الاقتصاد السياسى — لم تكن بأقل نفعا لنا ، فقد استطاع جلوتيه . بوصفه
مديرا للمالية ، ان يحصل على كل المعلومات الدقيقة . كما لا ينبغى ان نلزم
الصمت ازاء الافضال التى ندين بها للأستاذ جومار Jomard ، عضو
المعهد ، بخصوص كل المعلومات القيمة التى تقدمها لنا ، وللعناية الخاصة
التي أبداها بمراجعته هذا المؤلف .

كما اننى فى النهاية ، اتقدم بخالص شكرى ، الى السادة باريسفال
جرانيزون Parseval Granmaison ، وروويه Rouyer ، وبوديه
Boudet ودالماس Dalmas ، الذين زودونى ، بالمثل ،
بالمعلومات الهامة التى جمعوها فى ظروف موالية .

كما ان الرحالة المدقق نيبور Niebuhr ، قد قدم ملاحظة بالغة الاثارة
عن الرياضة والالعاب عند المصريين ، وعن ملابسهم ، وعندما حانت لنا
فرصة مراجعة دقة هذه الملاحظات ، أخذنا عنه الكثير وأدخلناه فى دراستنا
هذه .

الكتاب الثاني

دراسات تكميلية

مذكرة مقدمة من المسير بفكره

الى سيمون وزير الداخلية بخصوص اعادة

طبع كتاب « وصف مصر » (١)

كانت مصر موضوعا لعدد ضخم من المؤلفات ، كما وصلت من قبل مرات كثيرة ، لكن احدا لم يتمكن ، حتى وقت قريب ، من الحصول على معرفة تامة ودقيقة عن هذه المنطقة من العالم . كان ذلك في الحقيقة يتطلب حدثا غير عادى ، وظروفا مواتية لا يستطيع ان يبيتها الا جئش، مقتصر ، حتى تنهيا الوسائل اللازمة لدراسة مصر بالعناية التى تليق بها . نددت كانت هذه البلاد ، التى زارها اشهر فلاسفة الزمن القديم ، هى النبع الذى اغترف منه الاغريق ، بل الرومان كذلك ، مبادئ القوانين والعلوم والفنون ، ولم يك مسموحا للاجانب فى عهد الاغريق والرومان ان يتوغلوا فى هذه البلاد حتى ييلفوا معابدها ، ولم تعد هذه المنشآت فيما بعد — بعد ان حقق بها الاهمال بفعل الثورات الدينية والسياسية المتوالية — اكثر منالا بالنسبة للرحالة الاوربيين منذ ان استقرت الديانة المحمدية هناك .

اما ان توصف وترسم المروج التى يمكن القول بانها كانت تغطى ارض مصر القديمة ، وان تجمع وتنفص كل منتجاتها الطبيعية ، وان توضع خرائط دقيقة ومنفصلة عن هذه البلاد ، وان تجمع الشظايا القديمة (من آثارها) . وان تدرس الارض والطقس والجغرافية الطبيعية ، واخيرا ان يلم الناس بكل ما يتصل بتاريخ المجتمع ، وتاريخ العلوم والفنون ، فلقد كانت تلك هى غاية هذه المهمة التى تطلبت اسهام عدد كبير من الدارسين ، ككتبت تحركهم جميعا نفس الغايات ، وهذا العمل الذى ننشر منه اليوم طبعته الثانية هو الثمرة المشتركة لجهودهم .

(١) نشرت هذه المذكرة بدون اى عنوان .

وما ان عاد الى ارض الوطن هؤلاء العلماء والرياضيون والفلكيون
والمهندسون وعلماء الطبيعة والمستشرقون ورجال الادب ، والمعماريون
والرسامون ، بعد ان تعرضوا لكل اخطار هذه الحملة العسكرية الخالدة ،
وهم السادة : برتوليه Berthollet ، مونج Monge ، كونتيه
Conté ، كوستاز Costaz ، ديليل Delile ، ديجينيت
Desgenettes ، ديفيليه Devilliers ، فوريه Fourier ،
جيرار Girard ، جولوا Jollois ، لانكريه Lancret ،
جومار (١) Jomard ، اندريوسى Andréossy ، بلزاك Balzac
بليتست Belleteste ، بيرتر Bertre ، بوديه Boudet ،
دى شابربول de Chabrol ، كورابوف Coraboeuf ، دى كورانسيه
de Corancez ، كوردييه Cordier ، كوتل Coutelle ،
دى لابورت de Laporte ، ديكوتيل Descotils ، دى بوا ايميه
Dubois-Aymé ، دوشانوى Duchanoy ، دوترتر Dutertre ،
فافييه Favier ، فاي Faye ، فيف Fève ، جراتيان لوبير
Gratien Lepère ، جيوفروى Geoffroy ، جاكوتان Jacotin
جوبير Jaubert ، لارى Larry ، ليسيسن Lecesne ، لوجنتى Legentil ،
لوبير الاكبر Lepère aîné ، لوبير المهندس المعماري Lepère architecte
مالو Malus ، مارسيل Marcel ، مارتان Martin ، نوري
Norry ، نويه Nouet ، بروتان Protain ، رافينو
Raffeneau ، ريج Raige ، روييه Rouyet ، سان جيني
Saint-Genis ، سامويل برنارد Samuel Bervard ،
سافييني Savigny ، فيار Viard ، فيوتو Villoteau ،
فانسان Vincint . ما ان عاد هؤلاء الى ارض الوطن حتى أنفقوا

(١) كل هؤلاء اعضاء فى اللجنة التنفيذية التى كان يرأسها المسيو
برتوليه والتى يتولى سكرتاريتها جولوا ، أما المسيو جومار توميسير
الحكومة ، فقد تولى ادارة وتنسيق العمل منذ وفاة المسيو لانكريه . وقد
توفى عشرة من الباقين منذ عودتهم (من مصر حتى الان) .

سبعة عشر علما في اعداد وتصنيف المواد التى كانت قد جمعت لديهم . .
واننا لنأسف لاننا لم نتمكن من أن نذكر هنا أسماء كل أولئك الذين سقطوا
ضحية لحبهم للتضحية أو سقطوا بفعل الحرب أو الطمس .

لقد حشدت فرنسا كل جهودها لفتح هذه البلاد ، ولقد وظفت كذلك
كل جهود الفنون من أجل وصفها ، ولقد اكب عدد كبير من الخطاطين
والرسامين ورجال الطباعة المهرة والميكانيكيين ، وما يقرب من اربعمائة من
الحفارين . . عملوا جميعا بمثابة تدعو للاعجاب في اقامة هذا الصرح
(وصف مصر) ، الذى يجمع ما بين مجد فرنسا الحديثة وما بين كل فكريات
مصر القديمة . ان هذا العمل المخصص لوصف الكثير من روائع المنجزات
المعلقة ، هو نفسه انجاز عملاق في مجالات الآداب والفنون والمعلوم ،
ولقد خرج هذا الانجاز العظيم عن الحدود المألوفة حتى الان للمجموعات
المحفورة (اللوحات) ، فقد كان يلزم الورق قوالب واشكال (نورملت) لم
يسبق استعمالها ، بل لقد تطلب الأمر أن نغمر لها حتى على اسم جديد .
ان مصانع أوربا لم تصنع حتى اليوم أوراقا بهذا الحجم أو على هذه الدرجة
من الجمال ، بل لقد اصطنعت وسائل ثينة لتطوير فن النحت اسرعت
بتقدمه ، كما اثرى فن الطباعة بطرق مستحدثة طورته .

وفى النهاية ، وبعد الكثير من المعناء والمثابرة ، وبعد مجهودات من كل
نوع شغلت أو نالت عناية أكثر من ألفى شخص كل علم في فرنسا ، وبعد
ان أسهمت العديد من الفنون الهامة بالكثير ، وبعد أن نفذت — بعناية
ومثابرة — خطة لم يتناولها أى تغيير ، بعد ذلك كله اتمت لجنة مصر
Commission d'Egypte هذا المؤلف الضخم ، الذى لا يمكن أن نجد
ما يضارعه في حوليات العلوم .

لقد كان بوسعنا أن نطلق عليه اسم « موسوعة مصر » ، فهو يعرف
بها تاريخا ومنشآت ومنتجات ، وليس ثمة بلد يحوز وصفا بهذه الدرجة من
التمام والكمال في كل مناحقه ، وليس هناك من سبيل في أن نأمل أن تتوفر
على الاطلاق مثل هذه الظروف المتألفة والارادة القادرة على انتاج سلسلة
مماثلة من الانجازات أو أن تقيم مثل هذا الصرح ، ان فرنسا لتستحق — دون
جدال — أن تكون موضوعا لوصف يتم بنفس هذا النسق .

ولقد اثار هذا العمل اعجاب كل أوربا ، لكن هذا الاعجاب كان بالأحرى

ناتجا عن عواطف ود ارتبطت به ، أكثر منه ناتجا عن معرفة حقيقية بمحتوياته ، فلقد ظل شأنه شأن آلهة مصر ، حبيسا داخل محراب الفنون ، ولقد كان هذا العمل جديرا بالآمة التي أنجبت المقاتلين والعلماء والفنانين الذين ندين لهم بهذا العمل ، كما كان جديرا بالحكومة التي أمرت باتمامه ، لكنه مع ذلك ظل شبه مجهول من الفرنسيين أنفسهم ، وكم تمنى الرسامون والمعماريون والعلماء ورجال الأدب أن يستمتعوا بهذا العمل الذى لا يمكن لاية امكانيات فردية أن تحصل عليه ، لكن الطلب يشدد عليه ، وكان ينبغي له أن يحمل منذ زمن طويل الى الأجنى امارات لا حصر لها على المجد الذى حازه الفرنسيون .

وحين نفى الطرف عن المبالغ الضخمة التى انفتحت على وضع هذا السفر ، ونقتصر على حساب المصاريف الجديدة التى يتطلبها إعادة طبع تسعمائة لوحة ، الى جانب النصوص التى تكون هذا السفر ، واذا ما نشرناه فى شكل أجزاء صغيرة ، مقدمين بذلك تسهيلات طيبة للكثيرين من ذوى القدرة المحدودة ، فلا بد أن نكون على ثقة من امكانية انتشار هذا المؤلف ورواجه فى كل أوربا .

كانت تلك هى الدوافع التى عرضها المسيو س. ل. ف بانكوك
C.L.F Panckoucke على صاحب السعادة وزير الداخلية الكونت سيميون
Siméon .

ونرفق فيما يلى اجابته ، وكذلك الامر الملكى الذى أجاز نشر هذه الطبعة الثانية .

.. سيدى

لقد وضعت تحت تصرف الملك اقتراحاتكم المتعلقة بإعادة طبع المؤلف الكبير الذى وضع عن مصر ، وقد وقفت فى صف هذه الاقتراحات ، وقد شاء جلالته أن يوافق عليها ، وارسل لكم هذه النسخة من المرسوم الصادر فى هذا الخصوص ، وعليكم أن تتخذوا فيما يخصكم كل اجراءات التنفيذ . انها لمهمة نبيلة ، ولست أشك فى أنكم ستقومون بها ، بطريقة تحقق اللذة التى وضعت فيكم .

سيميون

(توقيع)

مرسوم ملكي

لويس ، بحمد الله ، ملك فرنسا وناغار

الى كل من سيطلع على هذه الاوراق .

حول تقرير وزيرنا سكرتير الدولة للشئون الداخلية ، ومستشار دولتنا المختص .

امرنا ونأمر بما يلي :

مادة اولى : يقبل الاقتراح المقدم من المسيو س. ل. ف. باتكوك باعادة طبع « وصف مصر » ، والمرفوع اليها من قبل وزير داخليتنا ، ويلحق هذا الاقتراح بهذا المرسوم .

مادة ثمانية : بالنسبة للحصيلة التي ستمود على الحكومة من عائد هذا العمل : توزع حصة (يحددها وزير الداخلية) على الذين ساهموا في الطبعة الكبيرة والتي تمت على نفقة الخزينة ، ويخصص الباقى لتشجيع العلوم والفنون الجميلة وبخاصة فن الحفر .

مادة ثالثة : يكلف وزيرنا سكرتير الدولة للشئون الداخلية بتنفيذ هذا المرسوم .

صدر بقصر التويليرى في ٢٢ يونية من عام الشكر ١٨٢٠ المالم السادس والعشرين من عهدنا .

لويس

(توقيع)

المقدمة الأولى :

دراسات موجزة حول البنية الجسدية للمصريين البارون لارغ

العنوان الأصلي للدراسة « دراسة موجزة حول البنية الجسدية
للمصريين واختلف الاجناس التي تقطن مصر ، وتليها بعض أفكار حول تصنيف
الأمم » تأليف المسيو البيرون لاري دكتوراه في الجراحة من باريس ..
ودكتوراه الطب من جامعة بينا ، وعضو المجمع الطبي المصري ، وعضو
العديد من الأكاديميات ، والجراح الأول في حرس صاحب الجلالة الإمبراطور
الملك ، والمختص العام بصحة الجيوش ، واحد القادة الحاصلين على
وسام الشرف ، والفارس من طبقة النجاء الحديدى .

كان من الضروري ، فيما بدا لى ، حتى أستطيع ان أميز الملاح الجسدية للمصريين الحقيقيين ، عن ملاح بقية سكان مصر ، ان أبدأ بفحص مختلف هؤلاء السكان ، فى صلاتهم الأساسية . ولكى أسترشد فى فحصى هذا بشىء من المنهج ، فسوف أميز هؤلاء السكان ، كما فعل رحالة فرنسى من قبل ، فى أربع طبقات (أو اجناس) تشتمل على : المالك ، الأتراك أو التركمان ، العرب ، وأخيرا الأتباط .

لقد استقر المالك فى مصر ، وهم حكامها اليوم ، عند حوالى القرن العاشر ، وتنحدر سلالة هؤلاء من جبل القوتاز ، وقد وصلوا الى هذه البلاد بعد جولات قاموا بها فى سوريا . ويمكن لنا تمييز هؤلاء ، الذين أشار اليهم مقاتلون الصليبيون بالاسم الذى لا يزالون يحملونه حتى اليوم ، من بقية السكان الآخرين فى مصر بميزاتهم الجنسية وبطابعهم المسمى العذوائى ، وهم جميعا ذوو قامة مديدة وبنية شديدة ، وتقاطيع خلقتهم جميلة متناسقة ، ويتمتعون بوجه ببيضوى وجبهة ضخمة ، وجبهة عريضة ، وعيون واسعة نجلاء ، وأنف مستقيم ، أو أقنى بعض الشئ ، وغم متوسط ، وفنن ناعنة على نحو خفيف : أما شعرهم وجفونهم ورموشهم فسمراء داكنة أو كستنائية اللون كما أن بشرتهم بيضاء فى غير لمعان ، ولنسائهم ، وهن قادمات من نفس البلاد ، نفس الملاح ، مع تغيرات كبيرة ، ونجد من بينهن نسوة بارعات الجمال .

وتلفت رعوس المسنين من هؤلاء الشرطين النظر ، اذا يضىفتوؤها عليها روعة ، يزيد منها جمال ملاح الوجه ، وبياض لحيتهم الأخاذ ، والتي يدعونها تنمو حتى تلامس أسفل الصدر : وبعد مراد بك النموذج الأمثل لهذه البنية الجسدية الجميلة ، أما طبع هؤلاء المالك ففخور ، جسور فى غير غلظة ، وهم يشتهرون بالكرم ، وحسن وفادة الضيف ، ولا يتزوج الواحد منهم الا اذا بلغ مرتبة عالية ، وفى النهاية ، فانهم جميعا متمرسون بفنون القتال ، واعتقد من جانبى أن الناس محقون حين ينظرون الى هؤلاء باعتبارهم الفرسان الأول فى العالم .

ويتكون الجنس التالى (من سكان مصر) من الأتراك أو التركمان ، القادمين من تركيا أو من بلاد التركستان ، وتقترب بنية هؤلاء من بنية الجورجيين أو الشراكسة الممالك الذين كنت اتحدث للتو عنهم ، وإن كان لون بشرتهم يميل الى سمرة برنزية ، كما أن وجههم أكثر تسطيحا ، وجسمتهم محدبة على نحو أكبر ، وهى كذلك أكثر كروية ، وعيونهم أكثر صفرا ، ونظراتهم غامضة معتمة ، وحاجبهم اسود حالك سواده ، كما أن لحيتهم بالمثل سوداء . وطابع هؤلاء الترك أو التركمان أقل حيوية مع شئ من غلظة : ورجال هذا الجنس كثيرون بعض الشئ فى القاهرة ، وهم يأترون بأوامر الباشا مباشرة .

وتتكون الطبقة (الجنس) الثالثة من العرب ، وهؤلاء يمكن لنا أن نقسمهم الى ثلاثة فروع مختلفة : فرع العرب الشرقيين القادمين من حواف البحر الأحمر أو من الجزيرة العربية ، والعرب الغربيين أو الأمازيق ، وينتمى هؤلاء فى الأصل الى موريتانيا أو سواحل أفريقيا ، ثم أخيرا العربان البدو أو الـ Scénites القادمين من الصحراوات .

وللأفراد من الفرع الأول ، وهم الذين تحوروا الى الأبد فى طبقة الفلاحين والصناع أو الحرفيين فى كل مصر السفلى ، قامة فوق المتوسطة بقليل ، وهم متينو البنية ، جميلو الخلقة على نحو كاف ، وبشرتهم جافة حائلة ، تكاد تكون سوداء ، ولهم وجه نحاسى بيضوى وجبهة عريضة ومحدوبة وجفنان متباعدان أسودان ، وعيون لها نفس اللون ، صفيرة ولامعة وغائرة ، وأنف مستقيم متوسط الحجم ، وفم مخروط فى شئ من الحسن ، وأسنان منتظمة ، حسنة القطع ، بيضاء كالعاج . ونلاحظ عند نسائهم اختلافات طيبة ، ويعجب المرء فيهن بصفة خاصة بمحيط أطرافهن الرشيقة والتناسب المنتظم لأيديهن وأقدامهن ، كما يعجب بها فى مشيتهن ووقفتهن من اعتداد .

ويشارك العرب الأفريقيون سابقيهم فى مجمل شكل البنية الجسدية وكذلك فى لون العيون وحيويتها ، لكن صلتهم بأبناء ساحل أفريقيا تتضح فى شكل الأنف والفك والشفاة ، ويتمثل طبع هؤلاء مع طبع الأجناس الأخرى من العرب . وينتشر هذا النوع من العرب فى مصر العليا ، وهم هناك يزرعون الأرض ويمارسون الحرف كالاولين .

وعادة ما ينقسم البدو أو العريان الرعاة الى قبائل متناثرة على مشارف الأرض الخصبة عند مداخل الصحراوات ، وهم يقيمون تحت خيام يحملونها من مكان لآخر حسب الحاجة . ولهم بعض صلات شبه بالآخرين . وان كانت عيونهم اقل بريقا في العادة كما أن ملامح الوجه اقل وضوحا ، وهيشتهم اكثر جمالا في حين ان قامتهم اقل حجما ، وهم اكثر خفة واشد نحولا ، ومع ذلك فهم أشداء متينو البنية ، ذوو روح متوثبة ، وطبع مخور ، لكنهم حذرون جفولون ، كما انهم نفعيون كتمون هائمون يضربون على غير هدى ، وفضلا عن ذلك فسرعان ما يصبح الواحد منهم فارسا ماهرا ، تمتدح مهارته في استخدام السهام والحرايب . وتقاليد وعادات هؤلاء العرب هي على وجه التقريب . وهم يربون قطعان الضأن والجمال والخيول من صنف ثمين للغاية .

اما الطبقة الرابعة من سكان مصر ، والتي كانت الموضوع الرئيسي لأبحاثى . فمبتكون من الاقباط الذين يوجدون بأعداد كبيرة فى القاهرة ومصر العليا . وهؤلاء — دون شك — هم انسال المصريين الحقيقيين والقدماء ولقد احتفظوا من هؤلاء بخلقتهم الجسدية . ولهجتهم (كذا) وتقاليدهم وعاداتهم . ويبدو أن أصولهم قد ضاعت فى عصور باللغة القدم . وقد كانوا يقطنون مصر العليا من قبل عصر نكديانوس بزمان طويل ، ويؤكد هيرودت أن المصريين من سلالة الأباش والاثيوبيين . ويتفق كل المؤرخين فى هذه النقطة مع هيرودت ، وتدعونى الأبحاث التى قمت بها فى هذا المجال الى تبني هذا الراى .

وتضرب بشرة الاقباط الى الصفرة والى العتمة مثل الأباش ، ووجهم ممتلئ فى غير انتفاخ ، وعيونهم جميلة ، لوزية الشكل ، ذات نظرات ذابطة واهنة ، أما الوجنات ففاتنة . ويكاد يكون الأنف مستقيما . مستديرا عند قمته ، لكن المنخارين واسعان ، والفم متوسط ، والشفاه غليظة والاسنان بيضاء ، منتظمة وان تكن ناتئة بعض الشيء ، ولحيتهم وشعر راسهم اسود جعد ، وللنسوة نفس الملامح مع اختلافات تأتى لصالحهن ، ويبرهن كل ذلك ، وهو عكس ما رآه فولنى Volney ، على أن هؤلاء القوم لا ينحدرون مطلقا من جنس الزوج فى اواسط افريقيا ، اذ ليس ثمة أى نوع من التشابه بين هؤلاء الآخرين وبين الاقباط ، وفى الواقع فان للزوج الأمريقيين اسناتا

أكبر حجما وأكثر بروزا ، كما أن تجويفهم الصدرى أكثر اتساعا وأكثر تحديدا ، وشفاهم ، المدلاة ، أكثر غلظة ، كما أن خدودهم أصغر وعيونهم كابية على نحو أكبر ، كما أنها أكثر استدارة ، ولشعرهم شكل الزغب أو الصوف . أما الحبشى فعلى العكس من ذلك عيناها واسعتان ، ونظرته مريحة ، وزاوية صدره تنحنى نحوه ، ووجنتاه أكثر نتوءا ، وتشكل خدوده مع الزوايا المحددة للفك والجمجمة مثلثا أكثر انتظاما والشفا غليظة حقا لكنها غير مدلاة مثلها عند الزنوج ، وكما سبق لى القول فإن الأسنان جبيلة وأقل نتوءا ، أما تجويف الصدر فأقل اتساعا . وفى النهاية فإن بشرة الأحباش نحاسية اللون .

وكل هذه الملامح تلاحظ مع فروق لا تكاد تحس بها لدى الأقباط ، أو المحريين الحقيقيين ، ونجد نفس هذه الملامح مرة أخرى فى رعوس التماثيل القديمة وبخاصة تماثيل أبى الهول . ولكى اتحقق من هذه الظواهر قمت بتجميع عدد محدود من الجمامج من مقابر عديدة للأقباط . كان لا مفر من إزالتها لمقتضيات المصلحة العامة ، ثم تارنتها بغيرها من جمامج الأجناس الأخرى ، التى جمعت منها بالمثل مجموعات كبيرة (١) ، وبخاصة جمامج لأقباش وأثيوبيين حصلت عليها بنفس الطريقة ، وقد اقتنعت بأن هذين النوعين من الجمامج يمثلان نفس الخلقة على وجه التقريب .

ولقد مكنتنى الزيارة التى قمت بها الى أهرام سقارة فى وضع سمح لى بأن انتقب عن عدد كبير لحد كاف من المومياءات ، قدمت لى جمامجها نفس الملامح التى قدمتها الجمامج الأولى . مثل نتوءات الوجنات ، واتواسها ، والشكل المميز للفتحات الأنفية ، والبروز القليل لاقواس الصدر .

وتبدو مختلف الموازنات التى انتهت من إقامتها ، وكذا العلاقات التى وجدت على الدوام ، والتى لا تزال موجودة حتى اليوم ، بين الأحباش وبين

(١) حيث أتى الطاعون على الأشخاص الذين تركتهم بمنزلى فى القاهرة أثناء سفرنا الى الإسكندرية . وحيث غادر الجيش هذه المدينة ليعود راسا الى فرنسا ، فأننى لم أستطع انقاذ هذه المجموعات كما لم أتمكن من انقاذ أبجائى .

الأقباط ، والتوافق بين تقاليد وعادات هؤلاء وأولئك . بل وديانتهم ، كل ذلك يبدو كانيا لكى يبرهن على أن المصريين انما ينحدرون حقيقة من الأقباط والاثيوبيين ، وزيادة على ذلك ، فمن الطبيعى ان نتخيل ان الاثيوبيين قد اتبعوا مجرى النيل منذ الأزمنة الاولى . وانهم كانوا يتوقفون أولا بأول فى البلاد التى يخصبها هذا النهر ، لكن هذه الاقامة كانت على التوالى ، وهكذا فقد انتشر هذا الشعب بالتتابع من الفاتنين الى طيبة الى ممفيس الى هليوبوليس ، اما المدن الأخرى شمال هذه المدن . فلم تتكون الا بعد ذلك بوقت طويل .

وقد لاحظت كذلك ثلاثة أنواع من الموميאות ، تنتمى — فيما بدا لى الى ثلاث طبقات من المواطنين . بل ربما الى ثلاثة أجيال مختلفة ، فموميאות مصر العليا فى العادة أكثر جمالا . وتلقى عناية أكبر من موميאות مصر السفلى ، أما الموميאות التى أضعها فى الصف الأول فمتناسكة متينة ، مطلية بالثقل ، ومحفوظة بنفس المادة . وتحاط بأشرطة من قماش الكتان ، مشكلة عددا من ضمادات الجراحة والتشريح بعدد المناطق المجوفة فى جسم الانسان . وهى مغلفة بغلاف كرتونى ، تنتشر عليه الكتابات الهيروغليفية . ويضم كل هذه الأجزاء صندوق من خشب الجميز ، رسمت على غطائه صورة الشخص (المتوفى) .

وكما قال هيردوت . فيبدو انه بعد ان كانت تفرغ الجاويف الثلاثة الرئيسية للجسم ، كانت هذه الجاويف تملأ بالقلل ، كذلك كانت تحقق به الأطراف . وكل الأجزاء الخارجية . وحين تكون هذه المادة فى كامل انصهارها فانها تنفذ داخل هذه الأجزاء بعمق ، لحد تشربها معه عظام هذه الأجساد . حتى انها استطاعت . ولا تزال تستطيع البقاء بالمثل لوقت اطول ، ما دامت توجد فى طقس تندر فيه الأمطار . وحيث تظل الأماكن التى اودعت بها شديدة الجفاف ، محرومة من التهوية . وبعد انتزاع أغلفة الموميאות ، نجدنا نتعرف أولا على جنس صاحب المومياء وملامحه الرئيسية فنجد ان وجهه وايدى واقدام بعضها مغطاة بأوراق من الذهب ثبتت فوقها بشكل فنى دافق ، وتحت ذراعى أو فى داخل جسم هذه الموميאות وجدنا هذه الكتابات النادرة التى عرفت باسم البرديات والتى لا تزال حروفها مجهولة بالنسبة لنا حتى اليوم . وتحمل كل واحدة من هذه الموميאות ، بالإضافة الى ذلك ، كل شواهد الحرفة أو المهنة التى كان يمارسها صاحبها فى حياته ، وتحفظ

آتيته معه في التابوت . ويخصص هذا النوع من التخنيط لكبار المواطنين في الدولة ، وكان يتطلب استعدادات طويلة وشاقة . كما كان يتطلب توفير الكثير من العناصر المقيمة . كانت تجعله ولا بد بالغ التكلفة .

وكانت الطبقة الثانية من المومياوات اقل جمالا واقل تماما ، وكانت ضماداتها من قماش اقل نعومة ، ومثبتة بدرجة اقل من الفن ، ولم تكن لهذه المومياوات اغلفة كرتونية . اما التابوت المصنوع من خشب الجبيز ، والذي كان يحويها ، فكان مصنوعا بشيء من الخشونة ، كما لم يكن مزدانا بالرسوم شأنه شأن النوع الاول .

وكان افراد الطبقة الثالثة يحنطون بمصاريف اقل ، وتختلف اساليب تخنيط هؤلاء لغير ما حد ، وقد اعدت كل المومياوات من هذه الطبقة بالحقن بمواد ملحية ، تتفاوت درجة قابليتها للذوبان ، وكانت توضع داخل تجاويف الجسم . مثل محلول النطرون أو الملح البحري . وبعد ان كانت تملح الأجساد جيدا على هذا النحو ، كانت تترك لتجف في الشمس ، او كانت تعرض لتأثير النار حتى تبلغ درجة اليبوسة التامة ، ثم توضع بعد ذلك في صناديق من خشب الجبيز ، خرطت بشكل خشن .

وكانت كل هذه العمليات تتم دون جدال تحت اشراف رجال متبحرين في علم التشريح .



لكي تكتمل هذه المذكرة الموجزة ، سوف نضيف اليها ملخصا مركزا حول الطريقة التي حفظنا بواسطتها في اوربا اجساد بعض مقاتلينا الذين ماتوا في ميدان الشرف .

اذا كان الشخص (الحالة) الذي ينبغي ان يحنط جسمه قد مات نتيجة مرض مزمن ، مع هزال ، شريطة الا يشك مطلقا في وجود ترسبات تيجية في الاحشاء ، والا يكون الانحلال او التمعن قد بدا ، وان يكون الجسم سليما من الظاهر ، فان من الممكن حفظ الاحشاء في تجاويفها الخاصة . (بالجسم) فيها عدا المخ الذي ينبغي على الدوام اخراجه .

وفى هذه الحالة نبدا بغسل كل اجزاء الجسم بالمياه النقية والطازجة ، ونمرر بالامعاء الغليظة غسول من نفس السائل . ونبتص بحقنة خالية الأشياء الذائبة . التى لن يكون بالامكان خروجها اما بسبب ثقلها الخاص ، واما بسبب الضغط الذى نمارسه أسفل البطن ، كذلك فاننا نمتص المواد التى تحويها المعدة بنفس الوسيلة ، وقد يكفى أن نعد مسبارا بلموميا عند شجاج (مشعب) الحقنة التى ندخلها الى هذه الاجزاء الداخلية عن طريق الفم او عن طريق فتحة نحدثها فى البطن من انبلموم من انجته اليسرى للرتبة . وبعد ذلك نملأ المعدة والاحشاء بمادة قارية توضع منصهرة . وتطلق الفتحات ، ثم نفعل نفس الشئ عند حقن العروق ، ومن اجل ذلك تمزق شريحة من الجزء الداخلى والجانبى على يسار الصدر . تجاه اخمص الاورطى ، ويقطع واحد او اثنان من الغضاريف التى تغطيه ، ويوضع بداخل هذا الشريان ثجاجا ذا صنبور ، ندفع عن طريقه حقنا دقيقا ملونا بالاحمر ، لملء الاوعية الشعرية لكل النظام الغشائى . وبعد ذلك مباشرة . وبنفس الطريقة ، نقوم بحقن ثان . وبدفعة اكبر . لكى نملأ الشرايين والعروق التى نرفد عنها ، ثم بحقن ثالث بالنسبة للأوردة ، وينبغى أن يمرر هذا الحقن عن طريق واحدة من اوردة الفخذ ، ثم تترك الجثة لتبرد ولتتخثر مادة الحقن . ولكى تخلقى الجمجمة . يثبت بها تاج واسع بواسطة مقبب للعظام عند زاوية اتحاد الدرز(*) السهمى بالدرز القذالى (أى درز القنا) ، بعد أن نكون قد صنعنا حزا طويلا بالجلد دون مساس بالشعر . الذى نعنى بالاحتفاظ به ، شأنه فى ذلك شأن زغب وشعر بقية الجسم . وعندما تتم هذه الفتحة ، نقوم بقطع التحامات وطوايا الأم الجافية(**) بواسطة مبضع طويل وضيق ، ذى قاطعين . وتنزع مزق هذا العرق بواسطة خطاف مثلم (غير حاد ولا قاطع) . ثم نخرج كل كتلة المخ والمخيخ بنفس هذه الاداة ، وعن طريق حقنات بالماء البارد ، نذيب على وجه السرعة كل ما تبقى من المادة المخية ، وبعد ذلك تضم حداث فتحة الاعشوية مع بعض نقاط الدرز .

اما اذا كان الشخص (الحالة) سمينا فى كثير او قليل ، واذا كان قد

(*) الدرز هو خياطة حافى الجرح ، وهو كذلك خط الالتحام او الانفصال .

(**) الأم الجافية هى الغشاء المغلف للدماغ والحبل الشوكى .

مات بمرض عفن أو خبيث ، وخلال فصل حار ، فقد يكون من المستحيل حماية الأحشاء من التعفن . وفي هذه الحالة ، نسنخرجها بواسطة حز هلالى ، يتم فى الجنب الأيمن عند المنطقة القطنية (الحقوية) ، وتفصل أولا الأمعاء والمعدة والتبد والطحال والكليتان ، ثم يقطع الحجاب الحاجز بشكل دائرى . ثم المنصف(*) والقصبه الهوائية والبلعوم عند دخوله الى الصدر ، وبعد ذلك تنزع الرئتان والقلب دون اتلاف العضو الأخير ، الذى ينبغى أن يجهز بشكل منفصل وأن يحفظ بعناية ، ولابد أن يجفف هذان التجويفان بالاسفنج ، ثم نضع كمية معينة من موريات الزئبق المشبع بالأوكسجين المحولة الى مسحوق ، على المناطق اللحمية من جدرانها ، وبعد ذلك يملأ هذان التجويفان بالوبر المغسول والجفف ، ثم يعاد شكل البطن الى حالته الطبيعية ، وتثبت حافتا الحز عن طريق خياطة ذات نقاط حددت سلفا . وبعد اعداد الجسم على هذا النحو ، ينمس فى كمية كافية من محلول موريات الزئبق المشبع بالأوكسجين على أقوى درجة من التركيز يمكن الحصول عليها . وتترك الجثة مغمورة داخل هذا السائل لمدة تسعين أو مائة يوم ، وبعد أن تتشبع جيدا بهذا المحلول ، توضع فوق غريال ، وتعرض لتأثير متزايد لفرن تصدر عنه حرارة ومقام فى مكان جاف ومعرض للهواء . وبمجرد أن تجف هذه الأجزاء تدريجيا ، يثبت من جديد الشكل الطبيعى للمامح الوجه وكذلك الوضع الطبيعى للأطراف وتأخذ الهيئة المناسبة ، وتثبت عينان من الميناء بين بؤبؤ العين التى سحبت الى الداخل وبين الجفون ، ويعطى للشعر صبغة تتناسب مع لونه الطبيعى اذا ما وجدنا ذلك ضروريا ، ثم نمر على كل الجسم ببرنيق (طلاء لامع) ، خفيف اللون ، كى يعطى حيوية لصبغة الجاد ، وكى يحفظ له مظهرا من الطراجة ، وأخيرا يوضع الجسد داخل صندوق زجاجى ليعرض على الجمهور ، أو يدفن داخل تابوت .

وهكذا نستطيع أن نخلد لآلاف السنين ، أجساد الأبطال أو رجال الدولة العظماء .

(*) المنصف هو الحيز الذى يشتمل على القلب وكل ما فى الصدر عدا الرئتين .

الدواصه الثانيه :

مصر .. والحمله الفرنسيه

مقدمه تاريخيه
بقلم السيوفورييه

تشغل مصر ، بموقعها بين أوربا وآسيا ، وباتصالها الميسور بأوربا ، قلب العالم القديم ، لكن هذه البلاد اليوم لا تقدم سوى ذكريات مجيدة ، فهي وطن الفنون ، وهي التي ما فتئت تحتفظ لهذه الفنون بصروح لا تحصى ولا تزال قائمة حتى اليوم أهم مآبدها ، وكذا القصور التي سكنها ملوكها ، على الرغم من أن أحدث هذه الصروح قد شيد قبل حزب طروادة . ولقد ذهب إلى مصر كل من هوميروس وليكوج . ودرس فيها سولون وفيثاغورث وأفلاطون العلوم والدين والقانون ، وأسس الإسكندر هناك مدينة بالغة الثراء حظيت لوقت طويل بالسيطرة على عالم التجارة ، وشاهدت بومبي وقيصر ومارك انطونيو وأغسطس يقررون فيها بينهم قدر روما وإقدار العالم بأسره . ومن خادمة هذه البلاد أنها تسرعى انتباه كل المبادئ الباهرة والمتألقة التي تنظم أقدار الأمم .

لم تنشأ في الشرق أو في آسيا أية قوة كبرى لم ترن ببصرها نحو مصر ، أو لم تنظر إليها باعتبارها ، على نحو ما ، اقطاعية طبيعية بالنسبة لها ، كما أن كل الأحداث الكبرى التي كان لها تأثيرها على تقاليد وتجارة وسياسة الإمبراطوريات قد صحبت معها الحروب إلى ضفاف النيل ، ويمكننا أن نلاحظ أن الفرس والمقدونيين والرومان والعرب والعثمانيين قد استقروا بمصر بمجرد أن تفوقوا على الشعوب التي كانت معاصرة لهم .

وفيما مضى ، أوصى الدين إلى ملوكنا بالرغبة في الاستيلاء على مصر . وقد بذل العديد من الأمراء الصليبيين ، وكذلك البابا انوسان الثالث(*) Innocent وهو الرجل الذي حكمت مواهبه كل أوربا ، كل جهودهم لتحقيق هذا المشروع . وقد جدد هذا المشروع واحد من الوزراء الذين يعرفون أكثر من غيرهم المصالح المختلفة للدول المسيحية ، هو الكاردينال هيمينيس Himenès (**) وتحالف لهذا الغرض مع كل من فرديناند

(*) تولى البابوية من ١١٩٨ إلى ١٢١٦ ، وقد خاض صراعا ضد فيليب أغسطس واتخذ المبادرة في قيام الحرب الصليبية الرابعة ، كما حارب مذهب الـ Cotharés الذي انتشر في جنوب فرنسا حتى قضى عليه عام ١٢٠٩ . (المترجم) .

(**) كاردينال أسباني ولد عام ١٤٣٦ ومات ١٥١٧ وكان رجل دولة كبير ، لكنه أسال الكثير من الدماء (المترجم) .

الكاثوليكي ، وايمانيول ، وهنرى السليبع . وهم الذين تميزت جهودهم بالحكمة ونبوغ الصيت ، اما لينتز Leibnitz الشهير ، والذي لم يخلق الا من اجل المهلم الكبرى ، فقد شغله هذا المشروع لزمان طويل ، وقد وجه الى لويس الرابع عشر مؤلفا ضلليا ، ظل مخطوطا ، عرض فيه المكاسب التي تحقق من وراء هذا الغزو(*) .

وتد كتب بوسويه Boussuet في نفس الفترة عن التواريخ الطبيعي ، ويمد ان اعاد الى الاذعان عظمة مصر ، وروعة الانظمة والمؤسسات التي نشأت بها ، اضاف هذه العبارة اللامعة للنظر « والان ، حيث يقتحم اسم الملك اشد مناطق العالم غموضا ، وحيث يبسط هذا الحاكم الى نفس المدى البعيد تلك الأبحاث التي أمر بإجرائها عن المؤلفات الرائعة التي تدور حول طبيعة الفن ، ان يكون امرا جديرا بهذا الفضول النبيل ان نكتشف ضروب الجمال التي يضمها المصيد في صحراواته ، وان نثرى من الممارسة عندهما بما سبق ان اتجزته في هذا المضمار مصر ؟ » . ولقد تحققت أمنية هذا الرجل اللامع خلال فترة من حرب خالدة ، اصبحت مصر على الفور مسرحا لها .

ان الناس - ولا بد - يتذكرون ذلك الانطباع الذي أحدثه في أوروبا هذا الخبر المدهش عن قيام حملة فرنسية تتجه الى الشرق ، فلقد أعد هذا المشروع الذي اتهم فيه الفرنسيون النظر طويلا وفي صمت ، بكثير من العنلية والسرية حتى ان بقطة اعدائنا التي لا تغفو قد خدعت ، لقد عرف هؤلاء في وقت واحد تقريبا انه قد ووفق على هذا المشروع ، وانه قد أعد ونفذ . ولقد بررته ضرورة تأمين تجارتنا من المظالم التي لم يكن يكف البكوات (المالك) عن ممارستها ضدها ، ولقد خامرنا الأمل في تصالح يتم مع البلاط العثماني،

(*) هكذا ينصح السيد المؤلف عن روحه ونواياه منذ البداية ، ولا بد ان نضع هذا في اعتبارنا على الدوام ونحن نقرا باهتمام هذه المقدمة بوصف مصر بما يقوله الان يفسر الكثير من آرائه الغريبة . ويبرر الكثير من التناقضات الصارخة التي وقع فيها وبخاصة عندما يتحدث عن العرب والاسلام ، والتي تبلغ احيانا حد الاستهانة بالعقول ، ولدرجة نشر من السخرية والاشفاق أكثر مما تثير من جدل جاد لا تستحقه في الواقع ، في الوقت الذي تظل فيه تفسر لنا الكثير من النوايا ، مما لا يزال موجودا ربما حتى اليوم (المترجم) .

عندما نقدم له ، نتيجة لحملتنا هذه نفسها ، زيادة في الدخل وتعاطفا في النفوذ . ومهما تكن الصعوبات التي بدت في هذه المفاوضات ، فقد كان من الممكن أن نأمل في مخرج سار ما دام نجاحنا هناك كان مواتيا للغاية للصالح المشترك للدولتين الحليفتين (تركيا وفرنسا) ، وفي الواقع فقد كان معاونة قوة أوربية (فرنسا) عندما تستقر في مصر أن يعاون على تغيير الحالة في مصر بطريقة شبه فجائية(*) .

ان هذه البلاد التي نقلت معارفها الى كثير من الأمم ، هي اليوم غارقة في المهجية ، ويقدر ما تنال هذه البلاد اهتمامنا المتزايد بفضل موتها الجغرافي ، وبفضل خصوصية أرضها البالغة ، بقدر ما تكون ماسة بالنسبة لها المكاسب التي تحققها لها القوانين والفنون والصناعات . وحين كانت تنود عنها فيما مضى قوى عسكرية عديدة ، تتكون من محاربيها الخاصين بها ، كانت مصر منيعة ، مهيبة من الأمم المجاورة ، لكنها فقدت منذ زمان طويل ، مع فقدتها لأنظمتها ومؤسساتها ، استقلالها ومعارفها ، بل انها لم تعد بقادرة على أن تذكر بعظمتها الأولى ، ولقد ظلت على الدوام منذ هذه الفترة خاضعة لقوة أجنبية ، واخذت كل الثورات التي هزت أوروبا وآسيا تزودها بسادة جدد ، وتنتقل بشعبها الى اقصى درجات المذلة والشقاء .

كانت مصر ، في عهد بلوكها الأول ، تطيع وتستجيب لمبادئ ، وأخلاقيات ثابتة لا تحول ، وكان ثمة حكومة مثابرة تسهر على رعاية القوانين والعادات والتقاليد ، كان كل شيء يوحى بالحرص على المستقبل ويدعو الى الشروع في اعمال يكتب لها الخلود ، وهذه هي اليوم تن تحت اشد السلطات استبدادا في العالم ، بل واكثر القوى الموجودة على ظهر الارض انعداما للبصيرة ، كما لو كان قد قدر على هذه البلاد ان تمر بأشد الأحوال التي عرفها المجتمع الانساني تناقضا ، لقد نقلت الحضارة الى كولشييد القديمة(**) اذا لم يكن تاريخ العصور القديمة يخدعنا ، لكن نفس هذه المنطقة تبعت اليها اليوم بحكام بشعيين نسوا عائلاتهم وأوطانهم ، ويلفظون

(*) يقصد ان فرنسا لو أنها كانت قد استقرت في مصر لمعاونت على دعم سلطة الباب العالي هناك لأنها كانت ستحطم نفوذ المماليك وتضع حدا لخروجهم على السلطان (المترجم) .
 (**) مدينة تقع الى جنوب القوقاز ذهب اليها أبطال أرجوس للحصول على جزات من الذهب . (المترجم) .

نرياتهم ، ويعيشون وسط عبيد (ممالك) جاحدين متمردين لا يمكن لهم احتواؤهم ، وحيث أنهم عارون عن الحيطة وعن نور المعرفة ، فلن يقدر لهم مطلقا أن يعرفوا كيف يثبتون سلطتهم وكيف يسارعون الى التمتع بها ، فهم يقومون كل صناعة ، ويهملون أو يخربون الترع والمنشآت العلمية ، وها هي الرمال تغزو الاراضى الصالحة للزراعة ، كما أن القرى تعيش تحت وطأة تهديد عصابات السلب القادمة من الصحراوات . لقد حكم على الانسان في ريف مصر أن يقوم بعمل جاحد لا يمكن أن يجنى منه - هو - ثماره ، كما أن الانسان في كل مكان من أرض مصر ، انما هو فريسة للظلم والمهلة والجاعة والأمراض المعدية .

وقد يكون من المستطاع اصلاح حال هذا الشعب ، لو أن سلطة حكمه أصبحت ثابتة ووراثية ، لكن السياسة العشوائية تتفادى مثل هذا الإصلاح ، إذ هي تثير في هؤلاء الأجانب عداوات وخصومات تضعف من قدرتهم هم ، وتجعلهم شتى متفرقين ، لا يحوزون الوسائل التي تجعلهم يلحون في الحصول على استقلال تام : كما أنها في نفس الوقت تقف ضد القوة العسكرية الطموح ، التي للبشوات . ووسط هذه القلاقل تظل غلبة على الدوام سلطة الحاكم (السلطان) أو أنها لا تثبت وجودها الا في شق صفوف مفتصبى حكم مصر ، فلا هي قادرة على تأمين ارسال الضرائب ، ولا على حماية الشعوب ، ولا على ضمان تنفيذ المعاهدات التي تبرمها مع القوى المتحالفة معها . وهذه الظروف الأخيرة بوجه خاص هي التي جطت هذه الحملة الخالدة من قبل الفرنسيين أمرا لا بد منه ، ومع ذلك ، فإن ذلك الذي قاد هذه الحملة لم يقصر أغراضه فقط على عقاب الذين اعتقوا تجرئوا ، بل أنه أعطى لمشروع هذا الغزو سموا وعظمة جديعتين ، كما طبعه بطابع عبقريته الخاصة ، لقد قدر منذ البداية ما سيكون لهذا الحدث بالضرورة من سطوة على علاقات أوربا مع الشرق ومع أواسط افريقيا ، وعلى الملاحسة في البحر المتوسط . بل وبكذلك على اقدار آسيا . ولقد اتخذت الحملة لنفسها هدفا ، هو تذيب الممالك والحد من طغيانهم ، والتوسع في مشروعات الري والزراعة ، وأن تحقق اتصالا دائما بين البحر الأبيض والخليج العربي (البحر الأحمر) ، وأن تقيم مؤسسات تجارية وأن تقدم الى الشرق المثل الفافع الذي للصناعة الأوروبية ، وأخيرا أن تجعل ظروف وحياة السكان احسن حالا ، وأن تدهم بكل المزايا التي أنتجتها حضارة متطورة .

ولم يكن من المستطاع بلوغ هذه الغاية دون تطبيق مستمر ودائم للعلوم والفنون ، وقرر قائد هذه الحملة الفرنسية - سعيا وراء تحقيق ذلك - ان ينشئ في مصر مؤسسة تسعى الى نهوض وتقدم كل المعارف النافعة ، وحدد ، وهو لا يزال بعد في عاصمة فرنسا ، كل أولئك الذين ينبغي عليهم الاسهام في تحقيق اغراضه ، ودعم عن طريق ما أبداه من امارات الرعاية والترحيب ، هذا الحلف غير المعتاد بين الأسلحة وبين العلم ، وقد عهد بانشاء هذه المؤسسة الجديدة الى عضوين شهيرين(*) من الاكاديمية السابقة للعلوم ، وكانا منذ وقت طويل قد شرفا وخدموا وطنهما باكتشافاتهما الدوية ، كما كانت اعمالهما وعبقريتهما قد ساهمت في اعطاء الأمة الفرنسية تفوقا مجيدا في علوم الهندسة والطبيعات .

ولقد أخذت اكااديمية القاهرة (اى المجمع العلمى) على عاتقها ، مثلها مثل اكااديميات اوربا ، ان تستزرع العلوم والفنون وان تطورها وان تبحث في كل تطبيقاتها النافعة ، وكان عليها بصفة اساسية ان تسعى للتعرف على احتياجات ومصالح مصر وكذا الوسائل الكفيلة بالحصول عليها ، لذلك فقد كان من الضرورى بالنسبة لها ان تتفحص بكثير من العناية تلك البلاد التى ستصبح خاضعة لادارة جديدة : تلك كانت الدوافع التى حملت على القيام بالابحاث التى ننشر اليوم نتائجها .

ومع ذلك فقد كان الحرص على الفنون الجميلة والأدب يقتضى منا كذلك وصفا مخلصا وتاما للصروح التى تزدان بها ، منذ قرون ، ضفاف وادي النيل ، تلك التى تجعل من هذه البلاد أغنى متاحف الدنيا ، ولقد قام علماءنا بأخذ مقاسات كل اجزاء هذه المنشآت بدقة صارمة ، والحقوا بالتصنيفات المعمارية خرائط للاماكن التى كانت تقوم عليها المدن القديمة ، كما قدموا فى رسوم خاصة النقوش الدينية والفلكية والتاريخية التى تزين جدران هذه الصروح ، وبالإضافة الى الدراسات والرسوم التى من شأنها ان تعرفنا بالحالة القديمة لمصر ، فلقد جمع أولئك الذين كان عليهم ان يقدموا لوحة عن حالتها الراهنة وانشئ عدد كبير من الخرائط الجغرافية التى تحدد ، بطريقة دقيقة ومنصلة ، مواقع السواحل والموانئ ، ومواقع المدن الحالية

والمدن القديمة والقرى والكفور ، وكذلك مواعع النقاط الهامة الأخرى ، ومجرى النيل ابتداء من شلال أسوان حتى البحر المتوسط ، وقد تأسس هذا العمل على ملاحظات فلكية . وأخيرا فقد أكتب العلماء على فحص كل المنتجات الطبيعية أو على الأقل ، على فحص الظواهر بالغة الأهمية أو غير المعروفة لنا من الحيوان والنبات والمعادن .

وقد ضمت نتائج هذه الأبحاث المختلفة حول التاريخ الطبيعي وجغرافية مصر ، وحول عصورها القديمة ، وحالتها الراهنة ، في مؤلف واحد ، أنى فلقد كان الهدف من هذه الموسوعة التى سيعمل سخاء حكومة فرنسا على امتاع أوربا بها هو أن تقدم معرفة دقيقة ومتعمقة عن مصر ، فتضع بذلك العناصر الحقيقية التى تنهض عليها دراسة طبيعية وأدبية وسياسية لواحدة من أهم مناطق المعبورة وأكثرها جذبا للانتباه .

لقد تمتعت مصر ، خلال سلسلة طويلة من القرون ، بحكومات قوية ومتنوعة ، وكانت كل القوانين والعادات العامة والتقاليد الأسرية والأخلاقية تسهم كلها في نفس الغاية ، كما تأسست على معرفة بتقاليد الإنسان ، وعلى مبادئ راسخة للنظام والعدالة ، نقشت في كل القلوب .

أما الدين ، الذى كان متوحدا مع دراسة الظواهر الطبيعية ، فقد كان عقليا وطبيعيا في وقت معا ، وفي حين كان يكشف لبعض العقول الحكيمة عن المبادئ المجردة للأخلاق ، فقد كان يقدم هذه المبادئ الى الجميع في أشكالها المحسوسة ، لقد كان ينظم الأحداث والأفكار ، ويحتوى الناس في حزم ، ويعير المؤسسات المدنية دعما من سلطة مستقرة .

كانت الحكومة ملكية ، وتنهض على قوانين عريقة ومقدسة ، ولقد حول القوم الأمثلة التى تقدمها المبادئ بالغة الحكمة الى عادات لا سبيل الى تغييرها .

وكان المصريون يقدسون بصفة خاصة فضيلة العرفان باعتبارها منبع كل الفضائل العامة والخاصة ، وباعتبارها كذلك أكثر الميول الطبيعية عدالة ونفعا ، وكانوا يجاهدون في تخليد ذكرى أجدادهم عن طريق إقامة صروح رائعة تقاوم الفناء ، أما الروح الأسرية فقد مضت الى أبعد حد ، ويمكن القول بأنها قد جعلت من كل الأجيال أجيالا معاصرة . وكانت تنقى

مخاطر البطالة والفراغ عن طريق إقامة الاحتفالات والأعياد ، وكذلك عن طريق القيام بأعمال ضخام تستهدف الصالح العام . وكانت الزراعة مزدهرة ، كما كانت الفنون المتطورة تحبذ جهود الصناعة ، وكان العدد الأكبر من الناس يراعون ، بدافع ديني ، مبادئ الصحة العامة ، التي اهتموا اليها بفعل خبرة طويلة .

أما عبقرية الفنون الجميلة فقد خطت خطوات أوسع من ذلك بكثير ، لكنها كانت تخضع لقواعد ثابتة ، وكان للعمارة طابعها الثور والمتسامي ، كما كان الشعر والتاريخ والموسيقى والنحت والفلك ، يطبع الخوف من الآلهة في النفوس ، ويوحى بالورع والاعجاب . وكان يحتفظ داخل المعابد بتمائيل الملوك وكبار القوم ، كما كان يحتفظ هناك بالحواليات المسماة واستقراءات السماء ، وكان يفتش فوق هذه المنشآت المشهد المتتابع لدورات النجوم . ولا زالت هذه النقوش باقية حتى اليوم ، وسوف تستخدم — هذه — عند دراسة تاريخ مصر في الاستدلال على الفترات التي لا زالت مجهولة حتى اليوم ، من هذا التاريخ .

وكان يسكن آسيا في نفس ذلك الوقت ، أمم قوية مضت أمجادها القديمة الى زوايا النسيان ، وكان العقل البشري قد ارتقى لحد توصل معه الى الامتداد في وحدانية الله والى مبادئ الأخلاق السامية ، وكان يراقب سماء الكلدانيين رهبان تكونوا في مدرسة المصريين ، وكانت الحقائق الأساسية للهندسة والفلك قد اكتشفت ، وأوشك الناس أن يعرفوا النظام الحقيقي للكون ، كما كانوا قد اقاموا خرائط جغرافية ، وتمهّدوا قياس حجم الكوكب ، كما كانت المدن المرسرة تزدان بما انتجته عبقرية الفنون الطبيعية التي كانت تتخذ من المعادن والألوان وكل المواد الطبيعية خامات لها . وكانت هناك علاقات بين مختلف شعوب الشرق وبخاصة بين شعوب الهند وفارس ومصر ، وكان موضوع هذه العلاقات هو الدين ، والعلوم ، والحكومة ، والتجارة .

وفي ذلك الوقت كانت تنقص أوروبا ، وهي اليوم بالغة الرقى ، القوانين والتقاليد الراسخة ، وان كانت أضواء الفنون قد بدأت تنتشر في الغرب . كانت المدن الأتروية(*) قد تأسست ، وقامت المستعمرات المصرية

(*) نسبة الى أترويا التي كانت تقع قديما غرب إيطاليا .

والفينيقية الى الافريق فكرة مؤسسات وانظمة جديدة ، وحصلت المصاراة والنحت على مبادئها وانماطها من طيبة ومفيس . ثم قامت بعد ذلك بقفزات تثير الاعجاب ، وتشكل الدين من مبادئ غامضة ومختلطة في نفس الوقت بالنيولوجيا المصرية ، وبعد ان قام خيال المؤرخين والشعراء بتجميل هذه الافكار المقدسة ، لم يعد بمقدور المرء ان يكشف فيها مضمنا واحدا يعز على الفهم ، وفي اليونان احتفى الشعر ، معلم البشرية الاول ، بالفضائل والابطال والالهة ، وجلبت عبقرية هوميروس الشهرة الى ايونيا ، غبرت بوميض خالد ، واصبحت مطما للحكام والشعوب .

لقد جاء الوقت الذى لم يعد ينبى على مصر فيه ان تقلوم الامم المنافسة والتي تزايدت قوتها سريعا ، وبدأت مصر تقاسى من ولوج العداات الأجنبية اليها ، كما بدأت تعطل عن المبادئ الأساسية السائدة في المملكة ، فهذ وقت طويل واطار الخرافة تحيط بالدين وبالعلوم ، واصبح الفرس ، وهم اكثر عددا واكثر مهارة في فن الحرب ، والذين تمرسوا بثورات عسكرية كبيرة ، سادة لهذه البلاد قبل العصر المسيحى بنحو ستة قرون ، ونهبت المدن الرئيسية ، وتركت نهبا للفران ، وسقطت أسر الملوك في السبي ، وخربت او بخرت الحوليات وصروح الادب ، وعبثا يحاول المصريون ان يخلصوا من سيطرة بشعة ، لكن مجهوداتهم الطويلة هذه قد زادتهم شقاء على شقاء .

وفي نفس هذا الوقت ، كانت روما تبذر بذور عظمتها ، وتتهيأ للسيطرة على العالم ، كانت قد استعارت دينها وتقاليدها من الاثوريين والافريق ، وقد دافع الاخرون دفاعا مجيدا عن استقلالهم ضد جيوش لا تعد ولا تحصى ، وكانت لهم عندئذ صلات عديدة مع مصر ، وزار العديد من فلاسفتهم هذه البلاد ، وان لم يفتروا منها الا تعليما منقوصا ، لان الدين والقوانين والعلوم قد خربت ربما بشكل تام .

ومنذ هذا الغزو الأخير ، ظلت مصر تعاني على الدوام من السيطرة الأجنبية ، فدانت على التوالي للوك الفرس ، والبطالمة ، وللخلفاء الاول لاغسطس ، ثم لباطرة بيزنطة ، وللخلفاء (المسلمين) الاول ثم لظفراء القاهرة ولسلاطين الممالك وللولاطين العثمانيين . وهكذا نجد تاريخ مصر ، بدءا من الفرس وحتى الحملة الفرنسية ينقسم الى ثماني فترات ، طول كل واحدة منها يبلغ نحو ثلاثة قرون .

وبعد أن استطاعت اليونان الحرة أن تصد محاولات الفرس ، قاد الإسكندر بعض محاربيه لفتح آسيا ، وتمهد الإسكندر ، وهو الذى لم تكن مواهبه السياسية أقل شهرة من نجاحاته العسكرية أن يقدم امتيازات للأمم البعيدة (فى امبراطوريته المترامية) وأن يؤسس مدنا حتى اقاصى العالم . ويمكننا القول بأنه قد اكتشف المحيط الهندى ، وأدرك ما للبلاحة والتجارة من أهمية ، كما اختار الاسكندرية لتكون مركزا للاتصالات التى أراد لها أن تقوم بين الشعوب .

وبعد موت هذا الرجل العظيم ، ظلت مصر خاضعة للمقدونيين ، وظلت موانئها تتلقى ثمن منتجات الجزيرة العربية والهند واكثرها غلوا ، كما امتدت بعلاقاتها الى أعماق أفريقيا ، وأمنت ، عن طريق تجارة بالغة الاتساع ، شراء باذخا للوكها ، وجاءت المتاحف اليونانية لتزين العاصمة الجديدة ، وظهرت الفنون من جديد فى وطنها القديم ، وان كانت تعد على نحو ما علما جديدا ، ذلك انه لم يعد باقيا من المذهب المصرى (فى الفن) الا ذكرى باعنة ، ومع ذلك فقد بقيت الحفلات والأضحيات ، كما ظل استخدام اللغفساريا ، وان كان استخداما ناقصا ، لكن الجهل والخرافات المنفرة كانت قد انحطت بذوق الفلسفة المصرية ، وبالكاد يعثر المرء منها على بعض آثار منسية فى سراديب المعابد ، لقد انقطعت الى الأبد سلسلة العلوم والتاريخ .

ولم يكن بمقدور مصر أن تغلت من المرامى الطموح لروما ، وهكذا عانى آخر سلالة البطالمة من نفس القدر المشترك الذى كتب على كثير من الملوك ، ولقد أدبرت هذه البلاد بحكمة ، وقفزت الى الامام قفزات موفقة كل من الزراعة والملاحة والصناعة . كان كل شئ يساهم فى دعم مكانة هذا الاقليم الجديد (من اقاليم الامبراطورية الرومانية) ، خصوبة أرضها ، وتجارة الهند ، وبقايا الازدهار القديم ، والعلاقات مع الجزيرة العربية والحبشة ، وظل الناس ينظرون الى الاسكندرية لوقت طويل باعتبارها العاصمة الثانية للامبراطورية .

ومن بين كل فنون الاغريق ، كانت العمارة هى اكثر الفنون ملائمة لسادة العالم (الجدد) ، ولقد استثمرها الرومان فى الأغراض المتصلة

بالصالح. العام ، وكذلك لتخليد فكرى انتصاراتهم ، ولكى يضاعفوا فى انتظار الأمم من الشهادات (المحسوسة) الدائمة التى تذكر بالقوة التى اخضعتهم . أما المسرح المصرى فقد سما بأفكارهم ، وحملهم على ان يتعهدوا منشآت أكثر رحابة ، وحين استوحوا هذه الطرز القديمة ، فقد حرصوا على ان يجمعوا الى نبل التصميمات ورحابتها ، تلك الرقة التى كانت تميز الأعمال الإغريقية .

وكان لالغاء الوثنية اثره الهائل فى مصر ، فحرمت الأضحيان ، وهجرت المعابد أو حطمت ، وأوشك أن يمحو خليط الروحانيات والاساطير الوافدة فكرى ابدا المقدس ، فلم تبقى منه سوى ظلال باهتة جاهدت سلطة الإباطرة فى محوها مع كل عناصر الديانة القديمة . ومنذ أصبح هذا البلد اقليما رومانيا ، أخذ يفقد عددا هائلا من المنشآت المنحوتة ، فنقلت الى اوربا تماثيل وأحجار منقوشة ، ومسلات ثمينة نحتت من حجر واحد كانت تنسب الى مدن طيبة ومميس والاسكندرية ، وارتفعت فى ميادين روما والتسطنطينية مسلات كان الفراغة فيما مضى قد أتموها تجيدا لآلهتهم ، وأعمال كهذه ، فريدة وغير قابلة للتقليد ، لجديرة حقا بلن تزين عواصم الصلالم .

ثم انتقلت مصر ، التى لم يعرف الإباطرة الروم لا أن يسوسوها ولا أن يدافعوا عنها ، الى سيطرة المسلمين ، قبل ذلك كانت السلطة الرومية (*) قد أخذت تلفظ أنفاسها فى كل مكان ، وهكذا كانت قد تهيات بالفعل تلك الأسباب التى عجلت بالضرورة بانتهاء هذه الإمبراطورية ، وهكذا امكن لبعض من القبائل العربية نصف المتحضرة أن تستولى على أجمل اقاليم الشرق .

و مع ذلك فان الانتصارات السريعة للمسلمين الاول لا ينبى لها ان تقارن مطلقا بالحملات العسكرية والسياسية لروما ، كما انها تختلف عن الغزوات المتبادلة بين الأمم الشمالية . ان الرومان لم ينتصروا فقط بفصل

(*) استخدمت كلمة رومى ورومية ترجمة لكلمة Romain, Romaine عندما يتناول السياق الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، واستخدمت ترجمة لنفس الكلمة رومانى ورومانية عندما يتناول السياق الإمبراطورية الرومانية بشكلاها القديم . (المترجم) .

قوة السلاح ، اذ هم يدينون بجزء كبير من نجاحاتهم لمبادئ في الحكم كانوا يتبعونها بشبات جدير بالاعجاب ، انهم لم يكتفوا باخضاع الشعوب ، فقد يمنحونهم الادارة العامة ، كما كانوا يجعلون هذه الشعوب — على نحو ما — تنسب اصولها بفعل التغيير المتتابع للدين والعادات واللغة والقوانين .

اما البرابرة الذين دمروا اوربا ، تاركين اوطانهم الثلجية سميا وراء اجواء اكثر لطفا ، ومدن ثرية زاهرة ، فقد تعاقبوا دون نظام ، وبدون غرض آخر سوى سلب المغلوبين ، وحيث لم يكن لدى هؤلاء على الاطلاق مؤسسات راسخة ، فانهم لم يحتفظوا الا ببعض عاداتهم وانماط سلوكهم ، وانتهى بهم الامر ان تمثلوا الثقافة والتقاليد والفنون التي وجدوها مستقرة في مناطق اقامتهم الجديدة ، وعلى العكس من ذلك كانت للعرب عادات وافكار اكثر رسوخا ، وكانت معهم رواسب مشوشة مختلطة وخرافية من ديانات الشرق القديمة ، وحيث انهم كانوا على اقتناع تام بأن ما يعرفونه هو الصحيح والنافع ، فقد لفظوا في البداية عادات وفنون الشعوب المغلوبة ، ولم تكن لدى محمد لا النية في تأسيس امبراطورية ولا المرامي السياسية التي نسبها اليه كتاب كثيرون(*) ، ولانه لم يحدد مطلقا تلك الانتصارات الهائلة التي سيحوزها خلفاؤه فانه لم يترك لهم اى شكل او اى مذهب للحكم (كذا !) ، وكان شاغله في كل جهاده ان يتصدر قبيلته (!) وان يعلى من شأنها فوق شأن القبائل المنافسة لها (! !) ، وحين اكسبته نجاحاته الاولى شجاعة فقد بدا يثرى رجاله بسلب القرى المجاورة ، لم تكن له مطلقا معرفة الأمم المتحضرة ، وكان ينظر اليها باعتبارها أمما من المشركين او الملحدين ، ولقد ربط بين مواطنيه عن طريق تكفيرهم بمعتقدات كانت مقدسة فيما مضى ، ثم مضى من الحماسة الى الفجائية(**) ، ومع ذلك فقد استخدم كتابه (القرآن !) ، وهو يضم عددا من المبادئ النافعة وعددا اكبر بكثير من افكار تستعصى على الفهم (كذا !) وعارية من اى معنى (! !) وتفتقد

(*) بدءا من هنا نجد الكاتب يعبر بوضوح عن افكار لا تستحق النقاش مطلقا ، فهي ليست سوى اصدقاء للروح التي تتف وراءها والتي بدرت منه في بداية مقاله والتي لفتنا اليها النظر في حينها . (المترجم) .

(**) هذه ترجمة مخففة للفظ المستعمل ، ولم نجد من اللائق بتقديم الترجمة الصحيحة للفظ ، وواضح للقارئ مدى جهول الكاتب بالاسلام ومدى تحامله كذلك أيضا عن غير معرفة عميقة او حتى كافية . (المترجم) .

الى الترابط فيما بينها (!) ، استخدمه قاعدة يتجمع حولها اتباعه ، ومنهم بذلك أسما ، وهذا وصالحا مشتركين .

وحيث لم تعد تدعم السلطة الرومانية لا بأس القوة ولا حكمة المستشارين ولا فضائل الجنود ولا ثبات العادات أو ثبات السياسة والدين ، فقد كان من الميسور أن تغزو كل اقليةها عشائر شبه متوحشة ، أو شكت منذ قرون عديدة أن تستاصل عند حدود الامبراطورية ، وجاء العرب الذين يمكن أن نطلق عليهم اسم Les Scythes (*) القادمين من الجنوب ، جاءوا للاسهام في اقتسام هذه الغنية الواسعة ، ولقد فمل هؤلاء الرجال الجهلاء ، وان كانوا مقاتلين اولى بأس ، ومتمرسين على مواجهة الصعاب ، والذين هم كذلك فقراء نهيمون للسلب ، فعلوا ما كان يمكن أن يفعله الجرمان لو كانوا في نفس موضعهم بل ولربما على نحو أسرع من ذلك (***) . ولم يكن اقل من ذلك سهولة على هؤلاء العرب ، ان يتوغلوا في بلدان آسييا الأخرى ، ذلك ان الفرس ، الذين زعزعتهم انشققاتهم الخاصة ، وحروبهم الخارجية لم يعد بمقدورهم أن يدافعوا عن انفسهم ضد اشد أعدائهم ضعفا (***) . ومع ذلك فان هذا الكتاب المقدس نفسه (القرآن) ، على مر الزمن ، هو الذي سيحد من ازدهار عبقريتهم (!) في حين كان هو السبب الاول في اتحادهم ومن ثم نجاحهم . ولو ان كان لدى العرب ، مظلما كان

(*) من الشعوب البربرية القديمة ، وكانوا في معظمهم رعاة تدموا من شمال أوربا وآسيا .

(**) يشير المؤلف هنا الى ثلاثة من الشعوب الجرمانية هي على الترتيب الغوط Goths وقد احتل فريق منهم جنوب شرق أوربا اما الجزء الذي بقى منهم في غرب أوربا فقد غزوا الامبراطورية الرومانية علم ٤١٠ ، ثم الـ Gépides وكانوا مستقرين في دلماشيا حيث استاصلهم اللومبارديون في القرن السادس ، ثم اللومبارديون Lombards ، وكانوا يقيمون فيما بين الالب ونور الأودر ، ثم غزوا ايطاليا في القرن السادس واسسوا فيها دولة قوية انتصر آخر ملوكها Didier على شرلمان عام ١٧٧٤ . (المترجم) .

(***) سرف يظل المؤلف يقوم من المغالطات التاريخية ما يستخف حقا بالمعقول ، فالنصر الذي احرزه العرب ، ثم المسلمون بعد ذلك ايام الحروب الصليبية ، يعود الى سلبيات في صفوف الخصم وليس الى ايجابيات فيهم ، ولكن حتى هذه الفكرة المغلوطة نفسها لا تلبث أن تقع في تناقضات من صنع المؤلف (المترجم) .

لشعوب أوربا ، تلك الميزة التى لا تقدر بثمن ، ميزة الحصول على ديانة محبذة للفنون والمعارف النافعة (كذا !) لكانوا قد اثروا وطوروا كل فروع الفلسفة ، فلتد ظهوروا فى البداية حاذقين مهذبين ، وقفزوا قفزات واسعة فى مجالات الشعر والعمارة والطب والهندسة والطبيعيات والفلك ، ولقد حفظوا ونقلوا البنا عددا كبيرا من المؤلفات الخالدة كان من شأنها أن تجلب أضواء المعرفة الى أوربا ، لكن الديانة الاسلامية لا تهيء مطلقا مثل هذا التطور الروحي والعقلى (!!) . وهكذا أصبح محتما على العرب اما أن ينكسوا عن ديانتهم واما أن يعودوا الى جهالة اجدادهم (كذا ويكل وضوح !) فهم يجهلون بشكل خاص من الحكم ، وكل ما يستخدم فى تأسيس ودعم الامبراطوريات ، فحتى البربر الذين اتحدوا معهم وعانوا من سوء استخدامهم للسلطة لم يستطيعوا بعد اعتنائهم الاسلام الا أن يزدروا هم أيضا الفنون والعلوم والصناعة وكل اختراعات الغرب (!) .

لقد قدمت مصر المسيحية نفسها بنفسها . بعد أن كانت قد مزقتها الانشقاقات الدينية لوقت طويل ، لتدخل تحت سطوة الخلفاء الاول ، واقتسمت بذلك نفس المصير الذى جرى على كل الولايات الاسلامية . هكذا تخلص الأتباط من الروم حين استدعوا الغازى ، لكنهم سقطوا بعد ذلك فى الهوان والاذلال ، وتناقصت أعدادهم الى حد كبير ، ولقد حدث فى بداية هذا التطور أن دمرت حماسة المسلمين القدر الضئيل من الثروات الأدبية التى كان لا يزال باقيا بالاسكندرية ، فالكتب التى كان البطالة قد جمعوها فى هذه المدينة أو جلبوها من كتب ملوك برجام Bergame (*) كانت قد هلكت فى الجزء الأكبر منها أثناء حملات تيمر وخلفائه ، كما أن ضروب العنف من كل صنف والتى كانت تتجدد طيلة ستة قرون ، وسط حروب مستمرة أو اضطرابات يفضى اليها الجدل الثيوقراطى ، كان كل ذلك قد اتى على مستودعات معارف العصور القديمة ، ومستودعات أخطائها كذلك (**).

(*) مدينة فى آسيا الصغرى وكانت بها مكتبة شهيرة .

(**) بينا فى الجزء الثالث من الترجمة العربية ، فى الدراسة الخاصة بمدينة الاسكندرية كيف أن الكثير من الأوربيين أنفسهم لا يقرون فكرة حرق العرب لمكتبة الاسكندرية (المترجم) .

ولقد استثمرت مصر اثر الاسبيلب التى تقسم امبراطورية العرب منذ نشأتها ، فلم تتردد مطلقا فى ان تصبح ولاية مستقلة . وابسس الخلفاء المسمون بالفاطميين عاصمة لهم فى مدينة القاهرة التى كانوا قد بنوها وزينوها ببعض المنشآت العامة ، لكن دولتهم قد دالت على يد صلاح الدين الشهير الذى كانت اعماله الباهرة بمثابة نذير لأوريا ، والذى حكم مصر وسوريا لمدة طويلة ، وقد تسبب هذا التطور فى حدوث حركات تمرد وفى انتقامات ، وتلقته تغييرات هائلة فى الممارسات الدينية وفى نظام الحكم ، لكن قيام دولة المماليك وضع نهاية لهذه الاسرة الحاكمة (الايوبيين) ، فمنذ وقت طويل كان الخلفاء والحكام يعهدون ب مهمة الدفاع عن دولهم ، وب مهمة حملية اشخاصهم الى رجال وجنود اغراب ، تنتمى اصولهم الى غرب آسيا ، ولقد اساء رؤساء هذه الفرق العسكرية ، الذين دفعوا بلا روية لاحتلال المراكز العليا فى الدولة ، وتحت تعلات مختلفة ، استخدام سلطة سادتهم ، واصبحوا (فى النهاية) مستقلين ، ان احداثا من هذا النوع هى التى اصبحت احد الملامح المميزة لتاريخ الشعوب الاسيوية ، كما ان التمرد الذى اودى بحياة آخر خلفاء صلاح الدين كان له دويه فى اوريا ، فقد كان الامراء الصليبيون شهودا عليه ، ومع ذلك فقد كانت هناك ، فى مصر ، أحداث مماثلة طيلة اربعة قرون خلت ، وظلت هذه البلاد الجميلة ، بعد انتهاء الايوبيين ، خاضعة لعبيد عسكريين ، ولدوا فيما بين بحر قزوين والبحر الاسود . ويمكننا القول بأن حكومة الامراء المماليك لم تكن لا وراثية ولا انتخابية ، ففى بعض الاحيان ، كان المولد يضع انسانا ما فى مركز الصدارة ، ومع ذلك فقد كان قاتل الأمير هو فى معظم الاحيان خليفته ، وكان هناك عدد من الثورات او أحداث التمرد تعادل عدد العهود (التى تعاقبت على مصر) ، وكان هناك كثيرون يتصارعون على السلطة ، فى نفس الوقت ويدعونها لأنفسهم فى سوريا وفى القاهرة او فى الصعيد ، ولقد حكم بعض زعماء هذه الفوضى بتألق ، وحين استولوا على سوريا اذلوا كبراء المغول ، ودفعوا الاوربيين ، وحملوا اسلحتهم الظافرة الى اليمن وجزيرة قبرص وارمينيا ، لكننا لا نلاحظ فى كل هذه الاحداث سوى ملامح الجراة ، والرغبة فى الثار ، والمخاتلة والجهالة والطنوح المتوشب ، ومع ذلك فليس باستطاعتنا ان ننكر ان الدين الاسلامى ، ان لم يكن قد خفف من آلام واحزان هذه الايام ، فقد ولد فى نفوسهم الضعيفة بعض المشاعر الانسانية ، واوحى لكل من الحاكم والزعية باعمال مشرفة .

ومن بين كل الأسباب التي عكرت صفو فلسطين ومصر ، لا نجد سببا أكثر تأثيرا من حملات الأوربيين ضد هذه البلاد ، ومع ذلك فإن هذه الحملات ذائعة الصيت ، والتي هزت طوال قرنين كل أهم الغرب ، لم تحقق أيا من النتائج التي كانت هذه الأمم ترغب فيها ، ولقد سببت الكثير من الاضطرابات التي استمرت لزمان طويل ، وأن كانت في نفس الوقت قد شحذت عبقرية التجارة ، ووسعت آفاق الرؤية وضاعفت من عمليات الصناعة والملاحة ، وادت في دول عديدة الى سقوط النظم والحكومات الاقطاعية حين دعمت من سلطة الملك ومن الحريات المدنية ، في نفس الوقت الذي اعلنت فيه من المكانة السياسية لروما الى درجة لم تستطع ان تتوازن عندها .

ولقد حدث أن استولى مائة ألف فارس — دون جدوى — على دمياط ، وعندما واصلوا زحفهم في وقت غير موات ، فقد حصرهم المسلمون بين ترع رافدة عن النيل ، وحيث قد اضطروا للتسليم فقد تخلوا عن انتصارهم ، وبعد ثلاثين عاما من ذلك ادت نفس الأخطاء الى نفس النتائج مسببة آلاما أكبر ، فلقد قاد لويس التاسع ، شرف عصره ، والذي مارس على رعاياه ، بل وعلى اعدائه ، السلطة الطبيعية التي تمنحها الفضائل الكبرى ، قاد ستين ألف مقاتل الى ضفاف النيل . كان قد اجتاز المتوسط مع ١٨٠٠ سفينة ، وكان تحت امرته صفوة أبناء فرنسا ، وبعد أن استولى على دمياط بوقت طويل ، بدأ يتوغل الى اعماق الدلتا ، فحاصره المماليك في معسكره حيث انتشرت الأمراض المهلكة ، وقطعوا اتصالاته مع السواحل ، وعندما فقد الملك كل أمل فقد أمر بالانسحاب ، لكنه لم يستطع تنفيذه ، وكان بقية الفرنسيين على وشك أن يهلكوا والسلاح في أيديهم ، حين أعلن أحد الأبطال وسط المنبحة ، أما من تلقاء نفسه ، وأما لأنه قد تلقى أمرا بذلك ، أنه لم يعد بالإمكان انقاذ حياة الملك الا بالاستسلام للأسر ، ثم سقط في الأسر الملك نفسه ، وهو الذي لم يشأ مطلقا أن يدع مؤخرة جيشه غريسة في يد اعدائه ، ويعرف الجميع بأية عظمة عسكرية شرف هذا الملك أسره (١) ، وبعد ذلك انتدى رجاله ، وتقدم دمياط فدية لنفسه ثم أبحر الى عكا بفلسطين .

في هذه الأوقات كانت الأمم الأوربية تتساوى بالكاد مع الأمم الآسيوية ولم تكن قد اكتسبت بعد مطلقا هذا التفوق في القوة الذي يميزها اليوم ، والذي نتج عن تقدم كل الفنون ، أما عادات وسلوكات الحرب فكادت تكون هي نفسها ، وهي هنا وهناك غير تامة ، وهكذا كانت الشعوب التي وهبتها

الطبيعة شجاعة تميز على الاخضاع ، والتي كانت تتمتع بميزة الحياة في ظل نظام افضل ، قادرة بالضرورة أن تزود عن نفسها بنجاح فوق ارضها هي (!) ، ولذلك ابادوا جيوشا لا حصر لها ، وان كانت مضطربة ، كان الغرب يجددها بلا انقطاع على الرغم من فقدته ملايين عديدة من أبنائه ، لكن الأحوال الخاصة بالأمم قد تغيرت منذ القرن السادس عشر ، فطور البعض منها نظام الحكم المدني ، والتاكتيك العسكري ، وتقدموا في فن استخدام المدفعية وتكوين وصيانة وقيادة الجيوش ، لكن الشرقيين ، على العكس من ذلك ، قد أهملوا كل الاختراعات التي تسهم في نجاح الحروب أو هي لم تتقدم في هذا المضمار الا لمدى بالغ الضيق : هكذا كانت سطوة المعارف ونفوذ وقوة العادات العسكرية والفنون ، لحد أن نفس هذه البلدان التي صدت شعوبها لمدة قرنين من الزمان جهود كل أوروبا مجتمعة ، لم يعد بمقدورها اليوم أن يدافع حكامها الحاليون ضد جيش واحد من جيوشنا ، ولحد أن ممتلكات هؤلاء الحكام في هذه البلدان نفسها لم يعد لها من ضمان سوى المعاهدات وسوى التناقضات القائمة والمتبادلة بين امم الغرب الكبرى .

لم يعد يحكم مصر منذ بداية القرن السادس عشر ملوك مستقلون ، فقد استولى عليها العثمانيون بعد أربعة وستين عاما من استيلائهم على القسطنطينية .

كان سليم الاول ، والد السلطان ذائع الصيت سليمان الثاني ، قد اعتلى العرش بواسطة الانتشاريين ، كان تهردهم هو الذي منحه العرش، وحافظ عليه بقتله لوالده ، وبعد ذلك أمر باعدام اخوته قبل أن يتصدي لمشاريعه الواسعة في آسيا ، ولم يتردد مطلقا في تهديد فارس ومصر وسوريا ، وسرعان ما استولى على القطرين الآخرين اللذين كانا خاضعين لحكم سلاطين المماليك ، ولم يكن هؤلاء يتمتعون الا بسلطة غير اكيدة ، كما كانوا بالكاد يستطيعون الدفاع عن انفسهم ضد خيانات صفار ضباطهم . خاض سليم معهم معركةين اولاهما في حلب ، حيث فقد السلطان قنصوة الفوري حياته ، أما في المعركة الثانية فكان خليفته طومان باى هو الذى فقد حياته على مسافة قريبة من القاهرة . لم تكن القوات العثمانية كبيرة العدد لحد كبير ، وكذلك لم يكن المماليك قد تبنوا بعد استخدام البنادق وسلم آخر سلاطينهم الى الغازى وشنق تحت احد ابواب المدينة . وجمع عدد كبير من المماليك وذبخوا أو القى بهم فى النهر ، ولم تلبث الاسكندرية أن استسلمت،

وامتلات الشعوب المجاورة رعبا ، وجاء شريف مكة ليقدم الهدايا الى سليم الذى أعلن نفسه حاميا ورئيسا وراثيا للإسلام ، مؤكدا بذلك ارادته فى ان يجمع الى القوة العسكرية السلطة الدينية ، كما أرسل الشاه اسماعيل الصفوى الى القاهرة سفارة بانخة سعيا وراء السلام .

لكن موت سليم أوقف مسار انتصاراته ، وساهم سليمان ، ابنه ، كثيرا ، سواء بحروبه أو بسياساته ، فى ازدياد نفوذ العثمانيين ، وخصص سنوات عديدة لتنظيم الحكم الداخلى فى ولاياته ، وتبعيا لأوامر صادرة منه ، وضعت الأنظمة الخاصة بمصر والتي لا تزال حتى اليوم تستخدم فى الإدارة الإقليمية لهذه البلاد . ومع ذلك فإن هذه الأنظمة تنسب فى بعض الأحيان الى سليم ، الذى يصح القول بأنه لم يساهم فيها على الإطلاق ، ذلك ان سليما قد أنفق وقتا قصيرا فى مصر خصصه كله للحرب هناك ، وعندما عاد الى القسطنطينية لم تكن تشغله الا استعداداته ضد فازس ووسط أوروبا ، كان يفكر فى تدمير بغداد ، ولم يتوقف مطلقا عند وضع الأنظمة وتنظيم الميرى فى مصر ، ولقد نشرت وثيقة التسليم الذى أبرمها المالك معه ، لكن قصاصة الورق هذه لا يمكن أن تحوز أى قدر من الثقة ، فكل ما هو جدير بالملاحظة فى سلوكه السياسى هو تفاوضه مع شريف مكة ، وكذا الحرص الذى أبداه فى أن يصحب معه الى القسطنطينية خليفة العباسيين .

ان سليم الذى حصل على الاسم اللائق بكل من هو بشع وفظ ، والذى أرسل وزراءه الى الهلاك لأنهم لم يحدسوا الى اية جهة من العالم ينبغى عليه ان يبعث بجيوشه ، والذى ظل يأمر طيلة سنوات عهده ، باعدام اصدقائه واعدائه دون تمييز ، والذى كان قاتلا لوالده ولاخوته ولثمانية من أبناء اخوته ، كان يربط الروحانيات بالقسوة ، فليس هناك أى امبراطور عثمانى آخر قد ذهب به الحقد ضد الأديان الأجنبية الى المدى الذى ذهب هو اليه ، كان على وشك أن يرغم رعاياه المسيحيين على اعتناق الإسلام ، لكن امبراطورية التقاليد سرعان ما عادت من جديد الى التسامح مع الديانات الأخرى ، وهو المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه الدول الإسلامية والذى لولاه لربما ما كانت قد تكونت اطلاقا . وقد أعطى سليم لمصر ، كما أعطى لكل الولايات التى هزمها حكومة تنهض على دعائم من حاميات تركية ، لكن العسكر بداوا يتمردون ، ويطالبون بزيادة رواتبهم ، وينبجون رؤسائهم ، وسمى الباشوات الى الحصول على استقلال تام ، أما المالك ، فعلى

الرغم من أنهم قد بقوا بأعداد ضئيلة ، فقد حصلوا على ميزة كبرى استمدوها من فكري سلطتهم وسلطوتهم ومن صلاتهم بالعربان وبالقوى المحلية . هذا هو أصل حالة الفوضى التي تكونت عقب الغزو ، ولقد استمرت هذه الحالة حتى انتصرت شجاعة البكوات وجراتهم على الابتكاريين الذين اغضببتهم رخاوة الجنود ، ودعة حراس القلاع القاعدين .

وفي الوقت الذي كانت مصر وسوريا تخضعان فيه لسلادة جدد ، كانت الحالة السياسية ، وكانت تجارة الدول تتعرض لقلقل واسعة وغير متوقعة ، وليست هناك فترة أخرى من التاريخ ذاخرة لهذا الحد بالأحداث الكبرى . كانت القوة العثمانية تنشر الفرع في أوربا وآسيا ، وكف الكثير من الدول الأوروبية عن الاعتراف بسلطة الحبر الأعظم في روما ، وكان الاسلام يستثمر حاجة الى ثورة مماثلة ، وكان هناك مذهب جديد ، رحب به المسفويون ، يشق البلدان الاسلامية ، وكانت فرنسا تستجلب الفنون الجميلة التي أضاعت سماء إيطاليا ، وكانت أسماء فرانسوا الأول وسليمان وشارل تيلا العالم أجمع . وطورت أوربا ، مارسة في النهاية عبقريتها الخاصة ، انظمتها المدنية ، وجعلت ممالكها قوية عن طريق اقامة جيوش ثابتة ، وقطع فن الطباعة وكذا المعارف البحرية والعادات العسكرية اشواطاً غير عادية من التقدم ، وتعلقت كل العقول بالحملات التي قام بها كولومب وفاسكو دي جاما ولقد دهش البرتغاليون والاسبان عندما تلاقوا عند الطرف الأقصى لآسيا بعد ان كانوا قد خرجوا من موانئهم متبعين اتجاهين متضادين . كانت الرغبة في الاستيلاء على تجارة الشرق هي التي بعثت على هذه الاكتشافات ، وفي الواقع فقد كانت منتجات الهند الثينة تتبع حتى ذلك الوقت طريقاً غير معروف . وفقدت مصر ، وهي التي كانت تتجمع فيها هذه المنتجات ثم تنقلها الى مختلف بلدان أوربا وأفريقيا ، تلك الميزات التي آلت اليها من مؤسس الاسكندرية ، كما اضرت حملات البرتغاليين بالبندقية على وجه الخصوص ، اولئك الذين لم يستطع مطلقاً حلف قوى من امم عديدة ان يحطمهم ، والذين كانوا موجودين عند كل منافذ التجارة ، لقد وجد هؤلاء عظمتهم تضمحل وتفرب دونها رجعة ، واخيراً فسرعان ما تقطعت العلاقات التي كانت تربط ما بين عدد كبير من الدول والمدن .

وفي الوقت نفسه كانت العبقرية القلقة والطموح للأوروبيين تؤسس علاقات جديدة بين اشد مناطق العالم تباعداً ، واستخدموا — وهم جد

مشغوفون باستعمال أدوات قوتهم الجديدة - البوصلة للتوجه فوق أراض مجهولة كما استخدموا الأسلحة النارية لترويض شعوب هذه الأراضى ، وعثروا فى مناجم أمريكا على المعادن النفيسة التى كانت لازمة لمضاعفة المبادلات التجارية مع الشرق ، كما جلبوا من أفريقيا سكانا لزراعة الممتلكات الجديدة .

أما البنادقة ، فقد بذلوا . متحالفين فى ذلك أولا مع الممالك ، وبعد ذلك مع الحكام العثمانيين ، جهودا بائسة لتدمير المنشآت البرتغالية فى البحار الشرقية ، وشرع الأولون فى نقل الأخشاب من دلماشيا الى ضفاف النيل ، ثم من هناك الى السويس لبناء أسطول ، وفى البداية أمكنهم أن يحصلوا على بعض الفوائد من جراء استخدام ضروب القوة هذه ، لكن حملات السلاطين الغورى وسليم وسليمان لم تتمكن من إيقاف تقدم غزاة الهند ، وإذا ما القينا بالا لما جاء بتقارير بعض الرحالة ، فقد كانت مصر نفسها فى هذه الفترة مهددة بتطور أكثر دمارا بحيث لا يمكن أن يتلوه تطور آخر ، إذ يؤكد هؤلاء الرحالة أن حكام الحبشة المتحالفين مع بلاط لشبونة ، قد عزموا على تحويل مجرى النيل نحو البحر الأحمر ليجعلوا قاحلة الى الأبد تلك الأراضى التى يغطيها النيل كل عام بفيضه السنوى . لقد كان فى الواقع أمرا لا جدوى من ورائه أن يلجأ فاتح جوا وملقا وهرمز الى هذا المشروع الخيالى ، فلقد خدم بلاده بطريقة أفضل عندما حطم كل الأساطيل المعادية . ولقد توغلت سفن الملك ايمانويل تحت قيادة البورك وخلفائه فى البحر الأحمر حتى طرف الخليج ، بحيث لم تعد هناك نقطة واحدة على شواطئ المحيط الآسيوى الواسعة لا تعترف بالسيطرة البرتغالية .

ولقد اقتضى الأمر أن يكون ظهور هذه القوة المتعاضمة لفترة قصيرة ، ومع ذلك فقد كان لظهورها هذا أثره الهائل على أقدار الغرب . وفى واقع الأمر ، فقد كان بمقدور العثمانيين - وقد أصبحوا سادة لمصر - أن يستحوذوا على ثروات الهند . وكان بوسع هذه التجارة أن تمنحهم أسطولا بحريا هائلا بالإضافة الى كل المصادر التى تتطلبها صيانة الجيوش العديدة ، وفى ذلك الوقت ، كان يحكمهم حكام طموحون ، مقاتلون وسياسيون ، كانت أوروبا المتقسمة على نفسها تواجههم بمقاومة غير مؤكدة ، ولو أن اكتشافات دى جاما لم تكن قد حرمتهم من مصادر زيادة القوة هذه ، لربما كانوا قد غزو الجزء الأكبر من الأقطار المسيحية ، ولكانت هذه الدول ، باللغة الازدهار

وبالغة التمدن ، تثن اليوم تحت سطوة أجنبية معادية للمعارف النافعة ،
وللفنون الجميلة على حد سواء .

وهكذا فان بداية القرن السادس عشر تحدد بداية فترة مشئومة فى
تاريخ مصر ، فلم تعد هذه البلاد ، بعد ان هزمت ونهبت وعزلت عن سوريا،
تشكل دولة مستقلة ، لقد تركت لشح الباشوات الطموح ثم سقطت بعد
ذلك فى اتعس انواع الفوضى . كان يساهم فى مهام الحكم هناك مجلس
اعلى يتكون من اهم رؤساء الفرق العسكرية ويرأسه نائب الملك (الباشا) ،
وعهد بادارة وحكم الاقاليم الى كثير من البكوات المالكين التابعين لهذا
المجلس (الديوان) والذين لم يكن يحق لهم ان يمارسوا سوى سلطة
محدودة . وقد حملت نوبات العصيان والتمرد التي قام بها باشوات
عديدون ، ديوان القسطنطينية على تحييد نفوذ رؤساء الفرق العسكرية ،
وكان هؤلاء الاخيريون يكونون بيوتهم من العبيد الاجانب، الذين يعدون منذ
شبابهم الباكر على استعمال السلاح ، والذين كانوا فى معظم الاحيان
يرتقون سلم الوظائف بالفة الاهمية .. وعند نحو منتصف القرن الاخير
(الثامن عشر) ، دفع ابراهيم ورضوان رئيسا الانتكشارية والعزب عددا
كبيرا من ممالكهما الى وظائف الصدارة ، وبعد ان وحدا مصالحيهما ،
استوليا على الحكم ، ولم يدعا للباشا الا سلطة شكلية ، لكنهما فى واقع
الامر قد سلباه ممارسة السلطة الفعلية .

ومارس على بك ، الذى خرج من بيت ابراهيم ، سلطة السيادة باسم
حاكم العاصمة، ويعد أن عمل على قتل أعدائه ومنافسيه، ويعد أن دعم
قوته بالصعيد ، عمل على احتلال مدينة مكة ، ونصب عليها من جديد شريفها
السابق عبد الله ، وسعى (على بك) لى يحصل على اعتراف منه بأنه
سلطان مصر ، وشرع فى ان يقيم فى ميناء هذه المدينة منشأة ثابتة تتولى
تجارة الهند ، وسهلت مشروعات على بك ، تلك الحرب التي كان على
الباب العالي ان يخوضها ضد روسيا ،بالاضافة الى التمرد الذى قام
به الشيخ ضاهر الذى كان معه حزب كبير فى فلسطين ، فأرسل على بك
قوات الى سوريا ، وأرغمت قواته بعد أن تحالفت مع قوات الشيخ ضاهر
باشوات الاولية المجاورة على الفرار . ولكن سرعان ما انت نصائح اسماعيل
بك واغراءات الباب العالي الى تمزيق حزب على بك فانشق عليه معوقه
محمد بك (ابو الذهب) الذى كان قائدا لجيشه فى سوريا ، واستدار الى

القاهرة ، وبعد أن نفاه سيده لبعض الوقت ، أمكن له (لمحمد بك) أن يكون لنفسه حزباً قويا ، عندئذ ترك الصعيد ليستقر بالعاصمة ، وانسحب على بك الى حليفه الشيخ ضاهر ، والتمس النجدة من روسيا ، لكنه فقد قوته قبل أن تنتهي المفاوضات ، فقد أسرع بالعودة الى مصر بعد أن خذلته وأسلته الخيانات المحيطة به ، وجرح في إحدى المعارك التي خاضها في الصالحية ضد عبيده القدامى ، ثم مات بالقاهرة متأثرا بجروحه .

بدأ محمد بك أكثر خضوعا لأوامر الباب العالي ، فحصل الضرائب ، وبعد أن حصل على لقب باشا زحف على سوريا ضد ذلك العربي ، الشيخ ضاهر العمر ، وأمكنه الاستيلاء على يافا ، ثم قاد جيوشه الظافرة الى عكا ، لكنه مات ميتة شبيهة فجائية من اثر أصابته بمرض معد ، وخلفه في السلطان اثنان من مماليكه هما ابراهيم ومراد ، فقلدا سلوك على بك (تجاه تركيا) ، واستثير ضدهما بفعل الاغواء اسماعيل — وهو الذي سبق له أن خان على بك — فكون عصبة قوية كانت كافية لارغام غريميه على ترك العاصمة . وبعد أن لجأ الى الصعيد ، توصلا الى عقد صلح مع الكثيرين من بكوات الحزب المنتصر ، ولم يتوانيا بعد ذلك في تجريد اسماعيل من السلطة ، وعندئذ ارتكبا من المظالم المتضاعفة ما جعلهما أكثر بغضا من ذي قبل ، وتلبسا بكافة الوسائل الممكنة من الرضوخ لسلطة السلطان . عندئذ كلف حسن ، قطبان باشا ، من قبل بلاط السلطان بمعاينة المتردين ، فوصل الى القاهرة مع قوات قليلة العدد ، وأتمى ابراهيم ومراد ، وأرسل الى القسطنطينية جزءا من الاسلاب التي حصل عليها اما من اتباع الاميرين الفارين واما من الإبتزازات التي ارتكبتها ، وحين استدعته الحرب التي نشبت من جديد مع روسيا ، أنهى حملته بأن وهب البكويين جزءا كبيرا من الصعيد ، أما حكومة القاهرة فقد تركها في يد اسماعيل بك ، لكن الاخير مات بالطاعون في عام ١٧٩١ ، حيث حصد الوباء في ربيع هذا العام ثلث سكان القاهرة ، وقضى بتأثير هذا المرض نفسه على نصف الممالك المرتبطتين باسماعيل ، وفقدت المدينة أكثر من ستين ألفا من أبنائها في الفترة الواقعة ما بين السادس والتاسع من أبريل من نفس العام .

وهكذا استعاد ابراهيم ومراد من جديد سلطتهما بالعاصمة ، على الرغم مما كانت تفرق بينهما من حزازات قديمة ، فقد ربط بينهما الاحساس بمصلحتهما المشتركة ، وانغمسا بعد ذلك في أعمال عنف جهوح ، مزدريين

أوامر السلطان ،مارضين ضرائب جديدة عن غير روية أو بصيرة ، وبدون مبالاة بأثر ذلك على التجارة والزراعة والصناعة ، منتزعين الحبوب اللازمة لاتوات الفلاحين الذين هلك منهم عدد كبير بدون ان يتلقوا عوناً من احد .

لم يكن التجار الأجانب مطلقاً يمتأى عن هذه المظالم ، وتمرضى الفرنسيون بصفة خاصة لمظالم ومخارم ظلت طويلاً بلا عقاب ، وبدا ان البكوات قد ظنوا ان الحالة السياسية التى كانت تمر بها فرنسا عندئذ هى مبرر لهذه الاهانات ، كما كانوا - فيما يبدو - على ثقة بأن حكومتها الجديدة لن تكون فى وضع يسمح لها بأن تحصل على اية ترصية عن هذه الاهانات، وفى واقع الامر ، فان الوفود التى أرسلت فى هذا الصدد الى بلاط القسطنطينية كانت عديمة الجدوى ، فهذه القوة (تركيا) لم تبذل أى جهد لعقاب طغاة مصر او لقمع سلوكهم العنيف المعادى لحلفائها ، وتجددت الاهانات والابتزازات مما جلب الخراب لبيوتنا التجارية .

لم يكن من المستطاع مطلقاً ان ندع هؤلاء ، بدون ان نسلم للامة المنافسة لنا (انجلترا) مميزات كانت لها فى معاهدات بالغة القدم ، وبدون ان نقدم مثالا على ضعف (من جانبنا) قد يفقد قاتلاً بالنسبة لكل المؤسسات الفرنسية . لقد كان الامر اذن يقتضى منا اما ان نرضى عن طيب خاطر ان نستبعد من تجارة الشرق ، ونستسمح فى المظالم التى تلحق بنا ، واما ان نجد امننا فى ممارسة قوتنا الذاتية .

كانت هذه هى الظروف التى دعت الفرنسيين الى المجيء الى مصر ، وهكذا أصبحت هذه البلاد مسرحاً لواحدة من اهم الاحداث الكبرى فى التاريخ الحديث . وتضاف الى الدوافع التى انتهينا من ذكرها ، تلك المزايا التى يعد بتحقيقها قيام مؤسسة ثابتة لنا فى المشرق ، مع الامل فى توافق يتم مع الباب العالى ما ان نبصره بمصالحه الحقيقية ، مع تقديم كل الضمانات التى يمكن له ان يطلبها .

وفى الواقع ، فقد كان يمكن لاسهام فنون اوربا ، بالاضافة الى قيام حكومة منظمة فى مصر ان يغير على وجه السرعة من الاوضاع هناك . كان يمكن للزراعة اذا ما رعتها ادارة مستنيرة ان تحرز هناك ، فى وقت قصير ، تفزات هائلة ، فمن المعروف ان خصوبة ارض مصر ، تتجدد من تلقاء ذاتها بفعل الفيضانات السنوية ، فى حين تشتمل اعمال الزراعة

بصفة أساسية على نوبات الري ، لكن توزيع المياه اليوم غير منتظم وغير تام ، فقد شقت الترع التى تجلب هذه المياه دون تبصر أو حذر ، وهكذا تصل المياه فى مناطق بعينها بوفرة تزيد عن الحاجة فى الوقت الذى تظل فيه مناطق أخرى تتعرض لجفاف طويل ، وفى مناطق ثالثة يؤدى حفر روافد انشئت عن غير ترو الى اضعاف مقاومة مياه النيل عن مصابه ضد مياه البحر ، ويكون من اثر ذلك ان تتحول فجأة الى مساحات رملية لا نفع فيها اراضى ثمينة كانت توفر حتى ذلك الوقت افضل الحاصلات ، ولا يتم رفع مياه الري هناك الا بواسطة بعض المكينات الخشنة ، واثار هذه بالغ الضلالة بالغ التواضع ، وعن طريق تعرض الحيوان او بالاحرى الانسان ذاته لصعوبات ومتاعب متزايدة . وحيث ان المقاطعات المختلفة ، وسط ظروف الاضطرابات السياسية ، لم تكن تخضع لادارة موحدة ، فقد كان يحدث فى معظم الاحيان ان يتصرف القوم فى المياه بدون روية ، وهكذا كانت تحول مجارى المياه ، وتجفف الترع وتفتح الجسور بدون سند من اى حق ، وهكذا ايضا لم يستطع القوم ان يفيدوا مما حبتهم به الطبيعة ، واستخدموا كل حقههم ليستحوز عليها كل منهم لصالحه ، بالتبادل ، كان يمكن تحاشي هذه الفوضى عن طريق توزيع للمياه اكثر انتظاما ، وهو الامر الذى كان سيزيد فى وقت معا مساحة الارض القابلة للزراعة ، وكذا خصوبتها . وقد يكون من اليسير ان نروى الاماكن الأكثر ارتفاعا بوضع نظام افضل لعمل الحيوان ، بل ربما بدون اللجوء لعملها على الاطلاق ، وذلك اما بان نرشد (الترع والقنوات) من المياه العالية واما باللجوء الى القوى الميكانيكية التى تنتج عن الرياح او عن مجرى النهر ذاته .

وبخلاف القمح والارز ، ومختلف نباتات المحاصيل والفواكه من كل نوع ، والتى تنتجها مصر بوفرة ، فمن الممكن الحصول على فوائد اكبر من ذلك بكثير عن طريق زراعة قصب السكر والكتان والنيلة ، كما يمكن لهذه البلاد ان تمد اوروبا بالنظرون الذى يتكون من تلقاء نفسه فوق سطح ارضها ، وكذلك بأجمل مواد الصباغة والعطارة والعطور بمبالغ ضخمة ، وبالبين والعطور القادمة من الجزيرة العربية ، وبالتبر (تراب الذهب) والعاج وكل المواد التجارية الاخرى الواردة من افريقيا . اما النباتات الوطنية ، بمعنى الكلمة فهى قليلة العدد ، وان كانت هذه الارض الخصيبة والتى تتدرج حرارتها اللطيفة بشكل متدرج بدءا من البحر حتى حدود النوبة يمكن ان

تدخل في عداد البساتين الفسيحة القادرة على أن تستوعب وأن تحفظ
أثمن منتجات الصالح .

تلك هي المزايا الطبيعية التي لمصر والتي لم يكن من المستطاع اغفلها
ولو بفعل سطوة طويلة لإدارة بالغة السوء ، فلا يزال الناس هناك
يستمتعون حتى اليوم بثروات الزراعة والصناعة والتجارة ، كما أن القاهرة ،
من جوانب كثيرة ، تعد مدينة ثرية ، ويبلغ عدد سكانها أكثر من ٢٥٠ ألف
نسمة ، كما تحتفظ بعلاقات متزايدة مع الجزيرة العربية وكل وسط أفريقيا ،
وكذلك مع تركيا وفارس والهند وأهم بلدان أوروبا . لقد حولت الاكتشافات
البرتغالية طريق التجارة عن الاسكندرية ، ومع ذلك فقد ظلت الاتصالات
مع الهند مستمرة إما عن طريق البحار الشرقية وإما عن طريق البر ، وهكذا
احتفظت مصر بكل عناصر عظمتها القديمة ، كما ظلت هذه بنورا تعد بلزدهار
جديد ، سوف ينمو بشكل سريع لو أن قد خصبتها عبقرية أوروبا وحسن
إدارة حكومة عاقلة وقادرة .

أما عن خواص الطقس ، فقد لا يكون بالإمكان أن نعرف بها إلا عن
طريق عرض مفصل لا يتفق مطلقا مع طبيعة هذه المقدمة ، لكننا نكتفي هنا
بالقول بأن ملائمة هذه البلاد (للصحة) لا يمكن أن توضع موضع ارتياب ،
ويتطابق مع هذه النتيجة كل تاريخ مصر ، وكذا التجربة الحاسمة للجيش
الفرنسي (هناك) ، كما تتفق مع الوضع الراهن لتعداد السكان . حيث
يعيش نحو مليونين وثلاثمائة ألف شخص ، ممتشرين على مساحة ١٨٠٠
فمربع مربع .

وكان من بين أعظم المنجزات التي يمكن لاحتلال مصر أن يحققها هو
ما يتمثل في ربط الخليج العربي (البحر الأحمر) بالبحر الأبيض المتوسط
عن طريق قناة ملاحية ، وهو مشروع نال شهرة واسعة منذ زمن طويل ،
وكان يمكن له اليوم أن يتحقق باقتدار . وفي الواقع ، مهما يكن المستوى
التبادل لمنسوب البحرين ، ومهما تكن النتائج التي تم التوصل إليها من
طريق ما سبق القيام به من أعمال تتصل بنفس هذا المشروع ، فلعل من
الميسور على المهندسين الأوروبيين أن يقيموا مثل هذا الاتصال وإن يختلفوا
عليه ، ويمكن القول بأن هذا الاتصال سوف يقرب الأطر الشرقية بتلك
التي تقع على ضفاف البحر المتوسط ، وبدون أن نغفل كلية من طرق التجارة

الحالية ، فان هذا الاتصال سوف يؤثر على علاقات اوربا بالهند والجزيرة العربية وافريقيا ، ويمكن لنا ان نقارن هذه النتائج (المتوقعة) بتلك التغييرات التى تمت ، فى اتجاه مضاد ، بعد الحملات البحرية للبرتغاليين .

ومن جهة اخرى ، فان لمصر ، التى تتجمع فيها كما لو كان من تلقاء نفسها ثروات الزراعة وثروات التجارة ، مزايا اخرى لا يمكن ان تتوفر مطلقا فى اية مستعمرة اخرى بعيدة ، اذ لا يفصلها عن فرنسا سوى بحر قليل الاتساع ، تبدو الملاحة فيه كما لو كانت حركا لهذه القوة ولحلفائها الطبيعيين ، كما ان مصر تدخل ضمن نطاق نظام للدفاع المشترك عن الجزر المجاورة لاطاليا ولتلك التى تقع بالبحر الادرياتيكي والارخبيل ، بالاضافة الى انها لا تتعرض مطلقا لغزو غير متوقع ، ولا يمكن ان تهاجمها الا قوات هائلة بحيث انه لو امكن لتلك القوة الاوربية (فرنسا) التى احتلت مصر منذ وقت طويل ، ان تظل على علاقة حميمة بالباب العالى ، وأن تحصن هذه المنشأة (المستعمرة) لكان بمقدورها الاحتفاظ بها . وبلاضافة الى كل هذا ، فان هذه البلاد توفر للفرنسيين ميزة بالغة الاهمية هى حصولهم على موقع متوسط ، فحين يجد الفرنسيون انفسهم على ابواب آسيا فسيغدو بإمكانهم من هناك ان يهددوا على الدوام ثروات وممتلكات أمة معادية (انجلترا) ، وأن ينقلوا القلائل ، بل والحروب ، الى نفس مصادر ثرائها .

وسوف تحقق العلاقات التى سرعان ما ستنشأ بين مصر (كمستعمرة فرنسية) وبين المؤسسات القائمة فى الجزيرة العربية وفارس والهندستان وافريقيا مزيدا من المبادلات التجارية مما يعود باكبر الفوائد على فرنسا والشعوب التى تمارس الملاحة فى البحر المتوسط ، وبذلك نستطيع ان نحترف تلك المهنة الرابحة التى يدين لها البنادقة بثرواتهم والتى منحتم لوقت طويل قوات بحرية تفوق القوى البحرية لمعظم دول الجنوب ، فى حين توقف كل ذلك على الفور حين تغيرت مقادير مصر .

وفى الواقع فقد كانت تجارة الهند مع الدول الاخرى تتم مبادلة بالمعادن النفيسة ، وهذه صلات مستمرة منذ وقت لا تميعه الذاكرة ، ولقد كان على كل الدول الثرية ان تدفع هذه الضريبة عندما كانت تدفع ثمنا لمنتجات الشرق كمية هائلة من الذهب ، وبخاصة الفضة ، التى كانت تنعكس هناك دون سبيل لاستعادتها . ومع ذلك فقد استطاع البنادقة — فيما يبدو — ان يقيموا مع

هذه البلدان علاقات من طبيعة مختلفة ، وكانت مصر ، وقد أصبحت بالنسبة لهم المستودع الرئيسى لثروات العالم اجمع ، تحصل ، بالاضافة الى الاخشاب والمعادن النافعة ، على اشياء من منتجات مصانع هذه البلاد نفسها ، وكان البنائقة يستجلبون منها السلع الثمينة التى تنتجها الهند والجزيرة العربية وسوريا وفارس ، ثم يوزعونها على كل انحاء اوريا .

وهكذا لم تعد مصر مفيدة بما تملكه فقط ، بل هى نافعة بما يتقصها كذلك . ومن المؤكد ان بوسعنا ان نصنع فى هذه المستعمرة الامتشة النفيسة ، والاجواخ الناعمة والخمور بالاضافة الى منتجات صناعية متنوعة ، وقد ننقل اليها الحديد والرصاص ، وعلى وجه الخصوص الخشب الخاص بانشاء المساكن وبناء السفن . ونستطيع بشكل جزئى عن طريق هذه المبادلات ان نحصل على اثنى سلع الهند ، ونزود بها ، كذلك ، عن طريق اتصالات مباشرة ، وبخلاف الموانى التى ستفتح او ستنشأ على شواطئ البحر الاحمر ، فقد نرى قيام منشآت اخرى فى مختلف مناطق هذا الطريق التجارى المؤدى للهند ، تجعل الملاحة اكثر يسرا واكثر امانا ، حيث تتبادل هذه المنشآت الدعم فيما بينها .

ولسوف نستطيع كذلك (لو تحقق كل ذلك) ان نسو الى اعتبارات اكثر عمومية وشمولا ، وان نحس النفوذ الذى قد تمارسه مستعمرة فرنسية لها مثل هذا الموقع المناسب على ظروف واحوال البلدان المجاورة ، وستكون الجزيرة العربية وسوريا من اوائل البلدان التى ستفيد من المزايا التى ستحقق من وراء ذلك ، فسوف تتمتع التجارة هناك ومنذ البداية بأمن ظل مجهولا حتى هذه اللحظة ، وسوف تعرف الزراعة والصناعة ازدهارا جديدا ، وقد نستطيع عقد تحالفات مفيدة ودائمة مع فارس وممالك آسيا الاخرى ، وسوف نتوغل من كل جانب الى داخل قارة افريقيا الواسعة ، وسوف نكتشف الانهار التى تجرى داخلها وكذا الجبال ومناجم الحديد والذهب التى تحتويهما بوفرة ، وفى النهاية فسوف يكون بمقدورنا ان نأمل فى ان حكومة مصر ستعمل جاهدة على ان يسود الامن والنظام على سواحل افريقيا الشمالية ، وذلك بجعلها السكان هناك يخضعون لادارة اكثر انسانية واكثر حكمة ، عندئذ سوف يكون البحر المتوسط ، للابد ، وقد اصبح بحيرا فرنسية ، فى حى من غارات القراصنة .

من كل ذلك نرى كيف يختلف انشاء هذه المستعمرة الجديدة على طرف بحر ضيق ومجاور ، وفى واحدة من أجمل بقاع العالم ، عن هذه المغامرات البعيدة التى تسعى لخلق منشآت باهظة التكاليف ، معرضة لكل الاحتمالات والشكوك التى تجلبها الحرب ، والتى لا يمكن الاحتفاظ بها حتى فى وقت السلم دون أن نضاعف من ضحايا المناخ غير الصحى (هناك) ، ولن نكون بحاجة على الاطلاق أن ننقل الى هناك (الى مصر اذا أصبحت مستعمرة فرنسية) مزارعين أجانب باعتبارهم عبيدا ، بل اننا ، بعيدا عن ممارسة أى عنف ضد الاهالى هناك ، قد نعيد كل ما سلبته اياهم حكومات رعناء ومستبدة .

وعلى هذا فقد كان المشروع الذى نعرض له الآن يستحق فى واقع الامر التأمل من جانب رجل دولة ، فليس فى هذا المشروع الا ما هو نافع ومجيد ، كما أنه مناسب لحلفائنا ، ويضمن للشعوب المجاورة مقادير افضل ، وسيوحد بين الفوائد السياسية التى ستتحقق لوطنا والمصالح الحقيقية للامم الاخرى ، وهو أمر لا يقدر بثمن .

لكن الأحوال فى أوروبا لم تسمح لمصر مطلقا بأن تحصل على العطايا التى قدمت اليها ، ومع ذلك فإن ذكرى الحملة الفرنسية لن تمضى مطلقا دون أن تؤتى ثمارها ، ولسوف تعرف حكومة القسطنطينية كل المزايا التى كان بمقدورها أن تحصل عليها لو أنها اعطت لهذا الاقليم ادارة افضل ، كما ستبني بكل سهولة أية مرام أو نوايا كانت ترمى اليها تلك القوى الأوروبية التى سمعت لاعادة تثبيت سلطة الممالك ، فلا يمكن أن تكون هناك وسيلة أكثر ضمانا لحرمان مصر من الميزات الخاصة بها الا باعادتها الى طغاتها الأولى ، أولئك الذين يتساوى عداؤهم للصالح العام بعداوتهم للسلطة الشرعية ، وأخيرا فإن البلاط العثماني سوف يفترف نصائح مفيدة من السفر الذى ننشره اليوم ، وسيكون بمقدوره أن يلجأ الى فنون الغرب ، وأن يستخلص من هذه الموسوعة نفسها القدر الأكبر من النتائج التى تؤكد له ما قدمته جيوشنا من اسهامات ، وأن يضع موضع التطبيق تلك النوايا الطيبة التى كانت فرنسا قد كونتها .

واذا سمعنا الآن الى تمييز الوسائل التى يمكنها أكثر من غيرها أن تسهم فى نجاح هذه الاهداف ، فلسوف ندرك كم كان مهما أن نمهد السبيل

لتنقيح العلوم والفنون ، اذلا يمكن فى واقع الامر ان تكون هناك ظروف اخرى أكثر الحاحا من تلك لتطبيق العلوم والفنون ، كان من الضروري أن نثرى الزراعة وأن نتوسع فيها وأن يدرس مجرى النهر وأن تخضع الزراعة لخطه شاملة ، وأن نعمل على اتصال البحرين وأن نؤمن الملاحة فى الخليج العربى، وأن تنشأ المرسانات البحرية والموانئ . . كان ينبغى أن نرقب طقسا يكاد يكون مجهولا (بالنسبة لنا فى اوربا) وأن نمتد بأبحاثنا فى مجال التاريخ الطبيعى والجغرافيا لتشمل البلدان المجاورة وأن ندير التجارة، ونطوّر المنسوجات والصباغة وطرق استغلال النطرون وتصنيع السكر وملح النوشادر والنيلة ، وباختصار أن نخلق صناعة جديدة وأن نضع فى خدمتها كل اكتشافات اوربا .

وهكذا فقد اثارت الفكرة التى تبيناها بأن نصحب من جديد الى وادى النيل العلوم التى نفيت بعيدا عنه لوقت طويل ، عرفا علما وعالميا ، كانت هذه الفكرة تستوحى الامجاد القديمة لطيبة ومقبس واستقرار آلهات الفن والعلم والادب الاغريقية فى عاصمة خلفاء الاسكندر ، كما عرفت بشكل افضل فائدة ومدى نطاق المشروع الذى كنا على وشك تحقيقه . وبعبدا عن أن نتقبل فى العلوم تمييزا لا يتفق مطلقا مع تسامى الغايات فإن أولئك الذين يستمينون بها للاسهام فى انتصاراتهم لن ينظروا اليها (العلوم) الا باعتبارها تنتمى جميعا الى نفس العائلة . لقد اراد القائد أن نستزرع فى وقت واحد كل فروع الآداب والفلسفة ولجأ الى العلوم الرياضية التى تشكل مبادئ دقيقة فى كل المجالات بالغة الاهمية ، كما لجأ الى العلوم الفيزيائية التى تهدف الى دراسة ووصف الطبيعة ، كما التجأ الى الفنون ذات الفوائد المباشرة والمحسوسة ، وكذلك الى تلك التى لا تقل عن ذلك قيمة والتى تساهم فى تالى الحكومات وتمدنا بأئبل مباحج الأرواح والعقول ، وكان يمكن لمصر فى وقت قصير بفضل هذه الادارة الحكيمة ، لا أن تصبح مستعمرة فرنسية فقط ، بل بشكل ما اقليما فرنسيا وأن تقدم لسكاتها الجدد صورة من وطنهم هم .

لقد كانت تلك هى الاعتبارات التى أوجت بمشروع اقامة هيئة علمية فى عاصمة البلاد التى ذهبت جيوشنا لاخضاعها . ولقد انتهينا للتو من تفكر مختلف عصور تاريخ مصر بالاضافة الى الوقائع التى سبقت الحملة الفرنسية كما استعرضنا المرامى والاهداف التى تمهدنا بمقتضاها هذه الحملة وادراكها،

ويلزمى الآن أن أقدم الى القارئ الظروف الاساسية لهذا الحدث الكبير .

كان الفرنسيون الذين وجب عليهم ان يسهموا فى هذه الحملة قد حشدوا فى نقاط مختلفة على سواحل البحر المتوسط ، لكنهم كانوا يجهلون الهدف الذى سيقادون من أجل تحقيقه ، وأبدوا فى هذا الخصوص تخمينات باللغة التعارض . لكن التوقد العسكرى وحمية الشباب ، بالإضافة الى عدم اليقين ، كانت تجعل القلوب تخفق بشدة ، وان كان ظهور فاتح ايطاليا قد أوحى بثقة تامة وعامة ، كان اسمه وحده كفيلا بأن يثبت الأمانى كأنها بالفعل قد تحققت .

وبعد أن خرج الأسطول الفرنسى من خليج طولون ، وانضم الى الفرق التى تشكلت فى موانئ ايطاليا ، توقف نور رؤيته لمالطة التى كانت حكومتها قد أعلنت نفسها منذ وقت طويل فى حالة عداء معنا ، لكن هذه الجزيرة التى هوجمت بشدة لم تبد الا مقاومة ضئيلة لا طائل من ورائها ، وسرعان ما اذعننت وأقيمت بها حامية فرنسية . وكانت ثمانية ايام بالكاد قد انقضت منذ ظهرت سفننا أمام مالطة ، ثم تقدم هذا الأسطول الضخم سريعا نحو مصر . وحين وصلنا الى ساحل الاسكندرية ، كان البحر يضطرب بقوة وعنف مما جعل دخولنا امرا عسيرا وخطرا ، ومع ذلك فقد كان ادنى تأخير يمكن أن يصبح كارثة مميته ، وسرعان ما تم الانزال ، وزحفت فرقة من القوات الفرنسية على الاسكندرية قبل انتهاء الليل ، وكان القائد العام نفسه على رأس الصفوف ، وأبدى السكان مقاومة حامية وعنيدة ، ولم نستطع عندئذ اقناعهم بأن هذه الحرب موجهة فقط ضد المماليك وليس ضد رعايا السلطان المخلصين ، لكن اية عقبة لم تكن لتوقف حمية قواتنا ، فاخترق جنودنا المدينة واستولوا عليها ، وعندئذ مارس المنتصر سلطة وصاية ، وقدم الى الاهالى السلام والأمن ، واستقبل بترحاب رسل القبائل البدوية ، او الـ Scénites الذين يسكنون الصحراوات المجاورة .

وفى هذه الاثناء كان هناك أسطول معاد يعبر مختلف مناطق البحر المتوسط ، وظهر أمام ميناء طولون بعد أن كنا قد غادرناها ثم ظهر فى مالطة بعد رحيلنا وبعد ذلك ظهر فى الاسكندرية قبل مجيئنا ، ثم ابتعد ليمسح الخليج فى نفس الوقت الذى كان الجيش الفرنسى فيه يفتقر الصحراء متقدما نحو العاصمة .

لقد جذبت الأحداث العسكرية التي أصبحت هذه البلاد عندهم مسرحاً لها ، انتباه العالم أجمع ، فقد انتشر خبرها على الفور في الشرق وأفريقيا ، وتملكت كل النفوس في أوروبا حالة من الترقب ، وأخذ الناس يرقبسون الام تتول هذه المفامرة . ولقد اثارته امارات الشجاعة والصبر المضاعفة والتي ميزت هذه الحملات ، وكذا المخاطر التي كان الجيش الفرنسي يتعرض لها بدون انقطاع ، والمتاعب التي لا سبيل الى شرحها والتي ظل يواجهها ، وكفاءة القواد وتضحياتهم — اثار كل ذلك في فرنسا اعجاباً وعرفاناً عامين ، ولم يكن هناك شخص واحد لم تهزه جده وحادثة الظروف الغريبة للغاية على اجوائنا او هذا الاسهام غير المعتاد من جانب أحداث الحرب الباهرة في الاكتشافات الحاذقة ، وبصفة خاصة هذه الأوضاع العسكرية والمدنية والسياسية الكثيرة التي فرضت على القائد العام مهمة ان يغزو وان يحكم في نفس الوقت .

لا تسمح لنا طبيعة هذه المقدمة الا بالاشارة الى تسلسل هذه الأحداث، ومن شأن التاريخ وحده ان يتصدى لها ، وهذه معروضة بكل مخار واعتزاز في مراسلات وروايات حملتي مصر وسوريا ، وكان واضح هذه الدراسات المتألق ، وهو الذي كان أميناً بصفة مباشرة على أفكار ومراسي القائد العام ، يعود كل التحركات ويحدث كل العقبات ، ويسهم بفخار وعظمة في كل النجاحات ، وهكذا اكتسبت صروح الشرف الفرنسي ، التي تولى بنفسه نقلها الى الاجيال المقبلة ، مزيداً من الصدق والأصالة ومزيداً من التألق في وقت واحد .

وما ان تم اخضاع الاسكندرية حتى توغل جيشنا في اعماق مصر ، واصبحت رشيد في حوزتنا ، واخذت سفننا المسلحة تصعد النهر ، ويقدم تاريخ هذه الحملة سلسلة متوالية من التقدم السريع والمعارك والنجاحات ، ولم يستطع ان يبطيء من الاندفاع الجسور لقواتنا لا لهيب الصحراء ولا النقص التام للمياه وللمؤن في منطقة قاحلة ومجهولة بالنسبة لنا ، لقد تشتت العربان ، وخسر المماليك معركتين نظاميتين ، واحتل مكان الثقة العمياء التي كانت لديهم كل من الفرع والياس . فتركوا القاهرة ، وهكذا كانت عشرة ايام كافية كي تحسم قدر مصر ، أما مراد وابراهيم فقد انفصل كل منهما من الآخر ، كانوا قد فقدوا سلطتهما لكن عداءهما لنا قد استمر ، ولأولها ، وهو أكثر ميلاً للقتال من زميله ، بالصعيد ، أما الثاني فقد اندفع

في مجالة نحو محاروات سوريا ، وكان آخر عمل من أعمال القوة قام به هو انتهابه لاحدى القواصل ، وجد الفرنسيون في اثره ، وامكن للقائد العام نفسه ، مع بعض رجال من طلائع جيشه ، أن يلحق بممالك هذا البك الهارب ، مهاجمهم وشتت شملهم وارغمهم على الإسراع بالتمهقر بعيدا من حدود غزة ، عندئذ علمنا أن اسطولنا الذى كانت الأوامر قد صدرت اليه اما بدخول ميناء الاسكندرية او الانسحاب الى مضيق كورفو ، وان كان قد نفذ الأوامر على نحو مخالف للغاية ، قد هوجم للتو ، وتحطم بشكل شبيه في خليج أبى قير . واوحت هذه الانتكاسة غير المتوقعة ، والتي لم تزل من عزيمة وشجاعة الفرنسيين ، اوحت لهم بعزم أكثر ثباتا وبإصرار شبيه اجسامى .

وفي الوقت الذى كان الفاتح فيه مشغولا بأمر اصلاح الحكومة المدنية بالقاهرة ، تفجرت روح العصيان في هذه المدينة ، فتلح عدد كبير من الناس ، ولقى كثير من الفرنسيين الذين هاجتهم الاحداث وهم في داخل بيوتهم او في الميادين العامة ، حتفهم برصاص المتمردين ، لكن قوة السلاح اعادت استقرار النظام ، ولقى بعض الزعماء عقابا قاسيا ، وتم العفو عن الألوف الجاثية . كانت مصرحتى ذلك الوقت لم تعرف حقيقة سادتها الجدد. ثم احصت في هذه المناسبة بفتوق قوتهم ، كما أدركت الدرس الذى لا بد لها أن تستخلصه من تسامحهم ورافتهم ، وهكذا اخلت هذه الاضطرابات الدامية مكانها لأمن دائم .

غدت قواتنا تحتل الساحل الشمالى ، وكل الاقاليم الداخلية ، وقد أمكن لفن ولصناعة حائقين أن يخلقا ، ربما بشكل مباغت ، اعمالا ومنتجات خاصة بالدفاع المسكرى عن البلاد . كانت هذه الانشاءات التى تتناسب مع نوع الحرب التى تدر علينا أن نخوضها تهدف الى التصدى للمشاريح الأولى للمعدو ، والى توفير كافة المؤن والمواد التموينية التى تتطلبها تحركات الجيش .

بدأت مصر ، في النهاية ، وبعد أن تخلصت من طفاتها ، تتمتع بنعمة القوانين ، ومارست هذه القوانين هناك تحت رعاية الجيوش الفرنسية سطوة لم تكن لها في العادة ، ودعى القادة الوطنيون لتولى الوظائف المدنية ، وعانت العلوم — بعد نفي طال امده — لتزور مسقط رأسها واخذت أهبتها

لتطوير وتجميل وطنها الأم ، وتوسعت الجغرافيا بأبحاثها لتشمل الموانئ والبحيرات والسواحل ، وحددت بدقة مواقع كل الأماكن الهامة ، وأقامت مقاييسها على أساس الملاحظات الفلكية ، ودرست الفيزياء خواص الطقس، ومجرى النهر . ونظام الري ، وطبيعة التربة ، والحيوانات والمعادن والنباتات . أما الفنون الجميلة فقد عثرت على نماذجها القديمة ، وقامت لنقل الى أوربا - بأمانة - هذه الآثار الخالدة لعبقريّة مصر . كان ثمة قائد لامع يخلع على كل هذه الأمور بريق مجده الشخصي ، وكان يشجع بحضوره كل الاكتشافات ، بل كان بالأحرى يحض عليها ، واستوعبت عقليته الواسعة ، في وقت معا ، وبسهولة لا تكاد تصدق ، مشاكل الحرب والسياسة وشئون القوانين والعلوم .

ولقد شرعنا تحت رعايته في اجراء الأبحاث التي ننشر اليوم نتائجها ، وقد عاون في هذه الأبحاث جميعا القادة والمهندسون والضباط الفرنسيون ، لقد تمت في بعض الأحيان تحت إشرافهم ، وكان الكثيرون منهم يخصصون لصالح تقدم العلوم كل وقت الفراغ الذي أمكن أن تتركه لهم العمليات العسكرية . ولقد نشرت بالفعل دراسات باللغة الأهميّة عن الجغرافيا الطبيعية للدلتا وعن الوضع السياسي لمختلف طبقات السكان ، وكذلك عن مجرى النيل وطبيعة التربة ، ووصف العصور القديمة ، ولقد أفدنا من كل التسهيلات التي أمكنها أن تعرض لنا كي نجتاز ونلاحظ البلاد التي احتلتها جيوشنا ، ولم تكن أية عملية استطلاع عسكرية لتتم الا ويسارع عضو أو عدة أعضاء من الشعب العلمية المختلفة في الانضمام إليها بغية القيام ببعض كشوف مفيدة ، وكان العربان الهلوعون يفرون من كل مكان تاركين المسرح الذي اعتاد على ما يلحقونه به من دمار ، وكانوا بذلك يخلون المكان لذلك الجراة التي تستصحب على الهزيمة لواحد من المع قادة جيش الشرق ، قدر له أن يسهم بنفخار ومجد في الانتصارات التي تمت في سوريا وأبى قبر (الجنرال مينو) ، والذي جعلت يده المراعية ، والحاضرة على الدوام ، الجزء الغربي من مصر ، يحظى بأمان لم يكن معتادا عليه . . كذلك أصبحت عمليات التفتيش على السواحل أو الصحراوات المجاورة ، وكذا الحملات التي تمضي الى أماكن بعيدة ، وعمليات الزحف التي تقوم بها سرايانا ، والمفاوضات أو حتى المعارك التي تخوضها مع هذه القبائل الهائمة ، أو الأعمال الإدارية . . أصبح ذلك كله مناسبة . بل وأحيانا غاية ، للقيام ببحث جديد .

كما قد أحضرنا معنا من أوروبا كل الأدوات اللازمة للطباعة ، وجمعت هذه في القاهرة في مبنى كبير كانت تسهر على إدارته حماسة نشطة متفورة ، وكان هذا الفن ، الذي كاد أن يكون مجهولا كلية من جانب الشرقيين ، يثير اهتمام كل المصريين ، وقد ساعد على مضاعفة عمليات الاتصال ، سواء فيما بين الفرنسيين أنفسهم ، أو بيننا وبين السكان ، كما سهل في نفس الوقت من نجاح الحملة وتقديم العلوم .

ولقد وضعت الأنظمة البالغة الدقة في كل أجزاء الحكومة الداخلية ، وهكذا لم يقتصر الأمر على أن السكان لم يتعرضوا قط لعمليات الاهانة والاذلال التي تميز النجاحات العسكرية في الشرق عادة ، بل لقد احترمت تقاليدهم الدينية والمدنية . وعوتبت اتفه اهانة أو سباب (وجه اليهم من جانب جنودنا) بقسوة مدوية ، وحل نظام معتدل للضرائب ، وزعها بعدالة بين طوائف السكان ، محل الابتزازات والمظالم التي كانت تقمع من جانب سادتهم القدامى . أما الدين والشريعة فكانا موضع تبحر وتقدير من جانب الفساح ، وحظيت هيئاتها بفضائله ، وتحقق لهم ما يريدون من قبل أن ينصحوا عنه ، أما حق الملكية ، الذي كان يخرق أو ينكر على الدوام . فلم يمسسه سوء ، وسادت العدالة واستتب النظام في المدينة فأمنت المعاملات التجارية ، وفتحت الحكومة كل مصادر الازدهار الزراعى ، ونمت بالعناية الواجبة صيانة الترع التي تنقل مياه النهر والجسور التي توقف مجراها ، وافتتحت خطوط اتصال جديدة ، وعهد بإدارة هذه المشروعات الكبرى ، والتي سددت تكاليفها بكل نزاهة ، الى اثنين من خيرة كفاءتنا ، ونشرت الأسلحة الفرنسية الرادعة فقط لأعداء مصر ، الرعب والفزع بين عصابات لصوص الصحراوات ، وعقدت العدالة مع القوة حلفا دائما .

لقد كان كل واحد من التغيرات السابقة التي مرت بها هذه البلاد مؤشرا لقيام نظام جديد من القهر ، ولم يكن الناس ، وهم الذين قد اعتادوا الا يروا في سلطة الحاكم الا حقه المطلق في السلب والايذاء ، يستطيعون أن يتقبلوا أو يعقلوا أن النصر يمكن أن تعقبه سعادة عامة ، وأن تكون له اغراض بمثل هذا النبل ، وفتحت القلوب في النهاية للمعرفة ، وظهرت مشاعر جديدة لم يوح بها من قبل أى حاكم من حكامهم ، ربطتهم بالحكومة الجديدة ، والى الآن ، لا يزال لاسم فرنسا سطوته في هذه البلاد ، ولن يكون في وسع أية أحداث أن تمحوه .

كان القائد العام يرنو ببصره منذ وقت طويل الى ربط البحرين ، فنتجه الى السويس على طرف الخليج العربى ، واكتشف مع توجهه نحو الشمال ، ولفت نظر مراقبيه الى آثار ترعة قديمة تغذيها الملوك القدماء بهدف ربط النيل بالبحر الأحمر ، وتتبع آثارها لوقت طويل ، وبعد ذلك بأيام قليلة ، تعرف ، وكان قد اقترب من الاراضى التى تروىها مياه النيل ، على الطرف الآخر لهذه التربة ، الى الشرق من بوباسطة القديمة (١) ، فامر على الفور بتخاذ كافة الاجراءات الضرورية لتنفيذ المشروع الضخم الذى كان ينعم فيه النظر. وعهد بالمهمة الى رجال ، كان يقدر جدارتهم العليسا وحماستهم ، ربطوا معارفهم النظرية بكل معطيات التجربة وخبراتها .

كان لنفس هذه الرحلة كذلك ، على الرغم من قصر مدتها ، غرض آخر ، فقد أمر القائد العام بالتحرف بدقة على ميناء الخليج وسواحلها وظروف الملاحة فيه . لقد كان يتدبر أمور الدفاع عن السويس ، وعمل الرسوم المتزايدة التى كانت مفروضة على التجارة ، وبذلك جعل تجارة المصادر أكثر سهولة وأوفر أمنا ، كما انشأ علاقات ود ومصلحة مع مريان القبائل المجاورة .

ولم يتوان الجزء الإدارى من مصر مطلقا فى أن يتحرر من ربقة الممالك، كان مراد قد التجأ الى هناك ، وتحالف مع نفس الممالك الذين سبق له أن طردهم بانتقامه والذين يوحد بينهم الآن وبينه خطر مشترك يهدد أقدارهم جميعا ، واستدعى مراد لنجدته من الشاطئ المقابل للبحر الأحمر بميلق من أبناء مكة وينبع ، وكانت فكرى سلطته لا تزال تخضع له أبناء الريف وسكان الصحراوات المجاورة ، جمع مراد كل هؤلاء ، وجهز الامدادات ، وجبى من كل مكان ضرائب حرب ، ومع ذلك ، فسواء كان هو الذى بدأ هجومه أو كان الفرنسيون هم الذين بادؤوه ، فقد هزم وشرع فى الفرار ، محتفظا على الدوام بجزء من قواته ، وحيث لا توجد بالصحراوات الوعرة طرق مجهولة بالنسبة له ، فسرعان ما ظهر من جديد ، على رأس قوات جديدة ، ولقد تغلب الضباط القادة الذين أوكلت اليهم أمور هذه الهزيمة الصعبة (أى هزيمة مراد) على كل العقبات التى كانت تواجههم بكفاءة غير متخلدة ، واستمروا

على نحو ما نفس وسائل عدوهم وعاداته في مواجهة شئون المعيشة ،
وسرعان ما تفوقوا على هذا العدو بسبب من جسارتهم وهمتهم ، بل وكذلك
بفضل معرفتهم بطبوغرافية مسرح القتال . وأخيرا اتمى المسالك من
الصعيد ، ودفع البعض منهم ثلاث مرات متواليات الى ما وراء شلال أسوان ،
وانسحب بعض آخر منهم الى الواحات التى تفصلها فراغات شاسعة
وتحاطة عن وادى النيل ، أما العربان فقد تحطوا او تشقتوا ، ومسحت
العدالة والسباحة قلق الشعب وذعره ، واثمت فعل النصر .

أما الجنرال الذى عهد اليه منذ البداية بمهمة احتلال الصعيد(*) ،
وان يدمر هناك سلطة المالك ، فقد خفف من ويلات الحرب بامارات
متضاعفة من الحكمة وسمو الروح ، كان يعيش من أجل آمال الوطن وشرفه ،
وسرعان ما وجب عليه أن يهرع الى سهول ايطاليا ، وأن يسهم بكفاءاته
وشجاعته ، بل وبالتضحية بحياته نفسها ، فى حدث خالد ، كان له بالغ الأثر
على الموقف فى أوربا ، وحين انتهى بمظمة ومجد ، فوق ساحة المعركة ،
سجله المضى ، فقد وجد فى انتصار جيوشنا المكافأة على جهوده العظيمة ،
واختلطت باتنين أنفاسه الأخيرة صيحات النصر ، وكان قد بث فى جيش
الشرق ، وفى قلوب سكان مصر شمورا عاما بالتعلق والاعجاب به ، ولم تكن
ذكراه اقل من حياته تبجيلا بفعل من مشاعر الحزن المؤثرة من جانب أولئك
الذين كان قد حكمهم (فى مصر) او بفعل الآلام الجليلة التى سرت بين
الفرنسيين .

هذه هى وقائع الحملة التى فتحت لنا محراب مصر ، وفى خلالها اكتشفنا
هناك ذلك المعبد الرائع فى تشتريس القديمة ، كما اكتشفنا آثار طيبة الجديرة
حقا بأشعار هوميروس ، بالاضافة الى بيوت الفراعنة ، الملكية بمعنى
الكلمة ، ولقد توغلنا الى ما وراء الفاتنين ، وفى هذه الجزيرة المقدسة ، التى
تبدو فى حد ذاتها وكأنها مبنى قائم بذاته ، صرح شيدده المصريون على شرف
آلهة الفنون الجميلة . ولقد أخذ الجنود الفرنسيون الذين استدعاهم الحرب
الى سلك النيل اعجابا بهذا العمل الرائع ، وتوقفوا كما لو كانت قد
شهدتهم الدهشة والاحترام ، وكان شاهدا على هذه الاحداث التى لن يلقى

بها تاريخ الفنون الجميلة مطلقا الى زوايا النسيان ، رجل ذواق لا يمكن ان يقدرها الا واحد من نوعه ، وستظل أعماله التي قدمت لأوروبا لأول مرة فكرة تامة وصحيحة عن آثار مصر تلفت في كل العصور انتباهها قويا ، اذ ان لها جمالا الذي لا يشع الا منها ، كما انها تتجاوز بكثير ما يمكن للمرء ان ينتظره من جهد ومقدرة رجل بمفرده (❖) .

ولقد أحرز تطبيق النظريات الميكانيكية والكيميائية في القاهرة تقدما كبيرا ، وكنا قد جمعنا داخل نفس سور المبنى الكبير الذي خصص للعلوم كل العناصر والادوات التي يمكنها ان تساعد في تطور الصناعة ، وكان يدير هذه المنشأة رئيس يدعو للاحترام ، ففقه العلوم والوطن منذ عدة مسنوات ، والذي جمع الى حماسه المنزهة من كل هدى كفاءة حافظة معطاء كانت تفتح له آفاقا لم تكن مرئية ، وكان بالفعل قد أثرى فرنسا بالكثير من الاختراعات ، وسرعان ما منح مصر بعضا من فنون أوروبا باللغة الاهمية ، فانشئت ملاكينات هيدروليكية ، وصنع الصلب والاسلحة والاجواخ والادوات الرياضية والبصرية ، وقد قامت هذه المصانع الكبيرة خلال فترة الحملة بتهيئة الوف الاثياء التي كان من شأنها ان تسهم في نجاح الحرب وفي مباحج السلام ، ولم يتوان اهل البلاد مطلقا عن الافادة من المزايا التي حققتها هذه المنشآت فبدأوا يلتفتون الى مصانهم ويطورون الوسائل التي كانوا معتادين على استخدامها ، كانوا يتاملون باهتمام شديد منتجات المصانع الفرنسية ثم يدابون على تقليدها ، واعتارافا منهم بصنوف التفوق المختلفة التي وجدوها في الغازي فقد خضعوا بمزيد من الثقة لسلطة الحكومة الجديدة الراعية ، وكان صنع البارود من عمل شعبة خاصة ، وحقق الشخص الذي عهد اليه بادارتها ، بتقديمه خدمات بالغة الخطر - كل الامل التي ادركها بمعرفته وكل خبرته الطويلة ، كان مجيع القاهرة يدير الابحث وكان الاثسفاص المكونون له يضمون نصب اعينهم على الدوام مصالح الجيش والحرص على تقدم العلوم والفنون ، وكان يشجعهم في عملهم صداقة يقظة ومعونة حقة من ضابط يتحلى بآبل واعظم الصفات ، كانت تنتظره في ملايين سوريا مينة

مجيدة أثارت الأشجان والاسى(*) . كان نموذجاً يكاد يستعصى على التقليد في النزاهة والمثابرة والفضيلة ، كان كأنها ولد من أجل كل الفضائل والمواطف الكريمة ، وكان ينسى دون تصنع الآلهة الخاصة ليشر بقوة بالأمم الآخرين ، ولم يبد أحد على الإطلاق مثلما أبداه هو من نوايا طيبة من أجل مساعدة الوطن وتقدم العقل والفنون ، وقد أسهم في كل الأبحاث العلمية التي شرعنا فيها في ذلك الوقت ، وقد شاء وهاء التاريخ أن ترتبط ذكراه بالاكتشافات التي كانت ثمرة لهذه الأبحاث .

ومن بين الأمور الجديرة بأن تلفت انتباه أوربا — العلم بأننا شيكنا من أن نحدد بدقة المواقع الجغرافية ، ولقد أعطينا لهذا الإنجاز الكبير كل عناية مثابرة ، كما لجأنا لكل الوسائل والطرق التي تضمن دقته ، كما تأسس ذلك في جزء منه على ملاحظات ملكية تحدد موضع المدن والأماكن باللغة الأهمية ، ولقد شرعنا في هذه الأعمال ، التي ندين بها لمواهب متهرة بذلت أقصى ما في طاقتها من حساسة مرجوة وسط تعقعة الحرب وفي داخل أقاليم متباعدة لم نخضع لنا الا منذ عهد جد قريب ، وكان خضوعها علاوة على ذلك غير مؤكد ، وكما نضطر في مرات كثيرة أن نستبدل الأسلحة بالأدوات الحسابية ، وعلى نحو ما ، أن نصارع وأن نخضع الأرض التي جئنا لقياسها .

كانت مصر قد تخلصت من السلطة التي كانت تقهرها ، وكنا قد انتمصنا من الإهانات التي وجهت إلى الأمة الفرنسية ، وكان لنا أن نأمل أن هذه الأحداث لن تشمل مطلقاً الحرب بيننا وبين الإمبراطورية العثمانية ، وفي الواقع ، فلقد كانت هذه الولاية الجبيلة منذ وقت طويل فريسة سائفة لبعض مبيد (ممالك) ينشدون الاستقلال ، وكانوا يزدرون ، عن طريق أهانات مستمرة ، صاحب الجلالة السلطان ، بالإضافة إلى ازدرائهم لجلال الشريعة والدين ، وكان الباشا ، المفترض أنه مطاع من جانبهم — أسيراً لهم ، وشاهداً لا حول له على مظالمهم التي كانت تمر دوماً دون عقاب ، وأصبحت السلطة التي لا ينون يتنازحون عليها هي المكافأة التقليدية للجريمة والكران ، وحين يتوصل واحد منهم ، أما بفعل السم وأما عن طريق الحديد والنار ، إلى تدمير كل أصحاب الفضل عليه وكل منافسيه ، فلن يكون هذا النجاح

سوى اشارة على عصيان موجه ضد الباب العالى . كان اكثر هؤلاء خضوعا
ينازع فى استبداد الضريبة الضئيلة التى قررها الباب (على مصر) .
اما الآخرون فيرفضون سدادها بشكل صريح ، ولقد ارهقوا بابتزازاتهم ،
التجارة الداخلية وتجارة اوربا والجزيرة العربية وافريقيا ، كما ارهقوا
الزراعة وكل الحرف النافعة ، كما كانوا يمارسون على الشعب سلطة منفرة
جامحة .

وقد يكون من الأوفق أن نقول أن الأسلحة الفرنسية قد خلصت مصر ،
لأنها قد هزمتها ، ولسوف تمضى هذه الأرض البائسة ، والتي ظلت حتى
ذلك الوقت خصيبة دون جدوى ، نحو حالة من الازدهار السريع ، كما أن
مال هذا التطور الذى لا يمكن أن تفزع منه سوى قوة أوربية واحدة (*)
لم يكن ليتعارض مطلقا مع مصالح الامبراطورية العثمانية ، بل كان يمكن
لهذه ، على العكس من ذلك ، أن تزيد من عوائدها وأن تدعم سلطتها فى
اقلية هامين (من اقليةها) وكان المنتظر من بلاط القسطنطينية أن يفضل
أقدم حليفاته على رعايا له لكنهم عصاة متمردون ، لم يكن سيفقد مصر
وسوريا ، بل كان سيسترجعها على نحو ما كان ينبغى على هذا البلاط أن
يرى فى قيام مؤسسة (مستعمرة) تحت رعاية وحماية جيش قوى ، تعاونه
كل فنون أوربا ، أمرا يعد كلا الدولتين بمزايا واسعة ، وبوسعه أن يدم
سطوة الاسم العثمانى فى آسيا وافريقيا ، لكن هذه الاعتبارات لم تكن محل
تقدير على الإطلاق ، كان ضباط الامبراطورية ، القلادرون على ادراك
واستبصار هذه الدوافع معزولين أو منفيين ، ولقد أكد الانتصار البحرى
الذى أحرز فى أبى قير ، لدى هذه الحكومة ، الرأى الذى كان لا يزال غير
مؤكد ، فاذعن لنصائح أعداء فرنسا الذين أوحوا اليها بمحاذيرهم الخاصة ،
وسرعان ما انسأقت الى حربى الى تحالف مضادين لنا .

كان قائد الحملة الفرنسية قد بذل أكبر الجهود ليقنلدى هذه الطبيعة ،
كان يدير أسلحته فقط ضد أعداء السلطان ، وعمل على توكيد الاحترام لاسم
السلطان باعتباره الحاكم الشرعى (لمصر) ، كما راعى بكل عناية العادات
والتقاليد الدينية والسياسية ، كان جيشه يسلك فى مصر بمآثره جيشا

معاوننا للباب ، ولم يسبق لهذه الولاية أن كانت محكومة بشكل افضل ، ولا تتمتع بممارسة عباداتها على نحو ايسر ، ولم تكن من قبل مطلقا قد خضعت لحكام اكثر استعدادا للاعتراف بسلطة القسطنطينية ، لكنه بثاقب بصره كان يصارع وحده ضد كل العقبات ، ولم تساعده السلطات في فرنسا نفسها الا بشروع في التفاوض متاخر وغير كاف ، وحدث في هذه الظروف ان الامر سرعان ما يحتم عليه ان يدافع عن مصر ضد قوات هائلة ، لذا فقد قرع زمره على مشروع يتميز بجرأة غير عادية ، هو ان يتولى الهجوم المتوقع بان ينقل الحرب الى قلب سوريا نفسها .

كانت هذه البلاد تخضع في جزء منها لسيطرة رجل كانت تساوانه وغدره وخياناته قد جعلت اسمه شهيرا في كل الشرق ، لقد كان احمد الجزار لوقت طويل عبدا في القاهرة ، حيث عوقب كثيرا من جراء سرقاته المنزلية ، بل لقد كان يتميز بين الممالك انفسهم بمخاتلة وشراسة غير عاديتين ، وكان قد خان على التوالي كلا من على بك والدروز والعرب وبلاد القسطنطينية ، كان عندئذ حاكم صيدا ، وكان يقيم في عكا وهي بتوليمائيس القديمة Ptolémaïs . بدا الجزار في الظاهر معتنقا قضية بكوات مصر ، وتقدم مخفيا في الحقيقة طموحات اكبر ، ليتود الحملة التي كانت تدبر ضد الجيش الفرنسي ، وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الاستعدادات تهز كل آسيا الصغرى وسوريا ، عمل هذا الباشا منذ البداية على ان تحتل طلائع قواته مناطق الحدود ، لم يكن ليتخيل مطلقا ان عليه ان يخوض هو نفسه حربا دفاعية ، وكان كل شيء ينبىء بان مصر توشك ان تتعرض لهجوم عن طريق البحر ، في الوقت الذي تصبح فيه عمليات الانزال ممكنة ، وكانت الخطة تقتضى في نفس الوقت بتسيير القوات التي تجمعت في سوريا ، وتلك التي يمكن ان يكون البكوات قد احتفظوا بها في الصعيد ، وحين تبين للقائد العام ، وهو الذي سبق له ان اخترق مشروعات الحلفاء ، انه ينبغي ان تمضي عدة اشهر قبل ان يكون باستطاعة أعدائه القيام باى انزال للجنود ، قرر ان يحمل على وجه السرعة ، مع اثني عشر الفا من الرجال على سوريا وان يشتت القوات التي تجمعت هناك ، ثم يعود على الفور ليواجه الحملة التي كانت تتهدد السواحل . مثل هذا المشروع لم يكن ليتحقق الا على يد جيش مقدم ، متمرس على كل الفضائل العسكرية ، وفي الواقع فان التاريخ المفصل لهذه الحملة يستطيع ان يقدم الكثير من الملائح التي لم يسبق لاحد ان سمع بمثلا

من الشرف والقيم الفرنسية . كان علينا أن نتوغل تحت سماء ملتجة الى ما وراء صحراء شاسعة ومجهولة ، وأن نفزو بغتة بلدا اجنبيا نفوذ منه قوات متفوقة . كان ثمة اسطول انجليزى فى البحر ، وكان سكان المدن وكذا العربان الجوابون مسلحين ضفنا ، لم يكن بهذه الأرض المعادية الا كل ما يناصرنا المضاء ، ولم يكن جنودنا بقلدرين على أن يخطوا نبيها خطوة واحدة دون أن يلتقوا مصاعب جديدة ، لكن ثقة لا تحول كلفت تسوء بهم فوق كل المخاطر ، فآخذوا يتقدمون بسرعة فى الصحراء الشاسعة التى تفصلهم عن سوريا ، واستسلم حصن العريش ، ثم استسلمت غزة ، واستولينا بالقوة العنيفة على يافا أو Joppé القديمة ، واستقرنا فى ميناء حيفا ، وعثرنا فى هذه المناطق ، وفى مناطق أخرى متفرقة ، على نخب ، ومعدات قتال ، ومخازن هائلة ، ومؤنا من كل نوع .

كانت أول فرقة من الجيش المعادى ، يتلوها المالك ، قد تسلمت بالفعل الى هذا الجزء من سوريا ، وأخذت هذه القوات فى معسكراتها على غزة ، وظلت تتراجع مندفعة على الدوام تاركة فى ميلادين القتال كل ما لديها من مدافع وكل معدات القتال التى كانت تتطلبها حملة مدبرة ضد مصر . وفى النهاية شرع قادة الفرق التركية الذين لديهم الكثير من الفرسان فى تجميع قواتهم الى قوات حلفائهم وفى أن يحملوا على الفرنسيين وهم يحاصرون مدينة عسكا التى كان قد انسحب اليها ولاذ بها أحمد الجزار ، لكن القائد المعلم توقعهم كذلك ، ورأى أن من الضرورى أن يلتقى معهم فى معركة حاسمة لكى يدفع بهم نحو دمشق ، وحين هوجم هؤلاء فى نفس الوقت فى مناطق بالغة البعد ، لم يستطيعوا مقاومة هذه التحركات الجسورة بل المتهورة وغير المتوقعة ، ووجدوا أنفسهم ، قد انفصلوا عن معسكراتهم ، محرومين من كل مؤونتهم وشبه محاصرين من كل جانب ، وسقط الكثيرون منهم اعياء فى ازديلون أو فى المعارك السابقة ، أما الآخرون فقد لانوا بالفرار ملتجئين الأمان عن طريق تقهقر متسرع ذى جلبه ، كان الفرنسيون قد استولوا منذ البداية على كل الأماكن التى قد يلوذ بها العدو ، كما استعاضوا عن قلة عددهم بخفتهم فى التحرك وسرعتهم فى الزحف ، بحيث كان يبدو أن ليس ثمة نقطة فى الميدان الا وهم يتجمعون فيها ، وكانت النهاية الظاهرة (ا) لهذه المعارك قد حطمت آخر آمال العثمانيين وملأت بالرعب قلوب الأتوام الذين تحالفوا معهم فمادت تلتهم الأردن بقلها هذه الفرق العسكرية (المعادية) ،

بشكل بالغ الاضطراب ، حاملة معها الفزع الى داخل مناطق شديدة البعد .

وفي الوقت الذى كان فيه جزء من قواتنا يقاتل على ارض فلسطين بشكل مجيد ، كانت قواتنا التى بقيت بمصر تكمل احتلال بقية البلاد ابتداء من أسوان حتى البحر (المتوسط) ، وقام الانجليز بمحاولة لا طائل من ورائها ضد السويس ، ومع ذلك فقد تم صد عرب مكة وتم الاستيلاء على كل الصعيد ، وقامت حركات العصيان التى اندلعت فى الاتليم الشمالية . وكان يسهر على الدفاع عن الاسكندرية والسواحل فطنة حاذقة ، وبعد نظر فو همة ،

وفي نفس الوقت فان باشا عكا قد تخندق فى ملاذه الأخير ، وجاءه العون من البحر ضد الفرنسيين الذين كانت تنقصهم المون والمدفعية اللازمة للحصار ، وامكن لهذا الباشا ان يحصن دفاعاته بحيث تستطيع ان تصمد لوقت أبعد من الوقت الذى يمكن لجيشنا ان يبقى فيه فى سوريا . كان الغرض الحقيقى من وراء هذه الحرب قد تحقق ، فلقد احدثنا الارتباك فى مشروعات العدو ، واستولينا على مخازنه ومعداته الحربية ودمرنا حصونه وافنينا جيوشا كبيرا كان يستعد لغزو مصر ، وكانت قوات الانزال الخصمة للهجوم على الاسكندرية قد حولت عن غرضها واستخدمت فى دعم حصار قائل ، كان استيلائنا على عكا يضمن لنا عقاب أحد المايك السفاهين الذى كان يستحق الاعدام بسبب ما اقترنه طيلة حياته والذى لا يمكن لاي ارتباط به ان يوحى الا بالفزع ، لكن هذا الحصار — فى نفس الوقت — كان يقضى منا مزيدا من الوقت ، ولم يكن من شأن النصر ان يقدم لنا الا مزايا هزيلة لا يمكن لها مطلقا ان تكون عوضا عن اخطار البقاء هناك مدة اطول من ذلك ، وفى ذلك الوقت كانت الامراض المعدية تنتشر رعبا عاما ، وكانت تنتشر فى كل انحاء سوريا بسرعة هائلة ، وتزداد بشاعقتها أكثر فأكثر ، واخيرا فلقد اقترب ذلك الوقت الذى يمكن ان تهاجم فيه مصر نفسها من البحر . وفى الحقيقة فان هذه الحملة لم يعد بمقدورها ان تحصل على دعم من الجيش العثماني فى سوريا ، الذى شتتاه للتو ، وان كانت قد بقيت للمعسو مع ذلك قوات هائلة .

لقد جعلت هذه الظروف من عودتنا امرا لا مناص منه ، وانقر اللغز العلم قواته بان الدفاع عن سواحل مصر سيجرض عليها جهودا جديدة .

ومبرت هذه القوات للمرة الثانية تلك الصحراء التي تفصل مصر عن سوريا ، وقبل ابتعادنا من القطر الأخير علقنا بقسوة تلك القبائل التي نكست من وعودها وخانت موافيقها مع الفرنسيين ، ثم دمرنا المؤن الحربية وكل المصادر التي يمكنها أن تسهل تجهيز حملة معادية بعد ذلك .

وسرعان ما استقبلت عاصمة مصر هذا الجيش الذي واجه الكثير من المخاطر وضرب الأمثلة على كل الفضائل ، وتوجه وجهاء المدينة لاستقباله ، وتبعهم حشود هائلة كانت تحيي قواتنا بالهتافات والتهليل والاعطاب ، وفي النهاية ، ذاق الفرنسيون بهجة الالتقاء برفقاء السلاح ، أما الاستقبال المؤثر الذي قدمته هذه الحشود . فلن ينمحي أبدا من الذاكرة ، انن فقد بدأ الرفاق يتحادثون معا عن المخاطر التي عليهم أن يواجهوها بعزائهم وآمالهم ، وبدأ أن مصر قد أصبحت بالنسبة لهم وطننا جديدا ، وأنهم لم يعودوا يشكلون إلا أسرة واحدة .

بعد وقت قصير تعرف القائد العام على حركت متفرقة كفتت قد تمت بالداخل . وكان مشروع الغزو المرتقب يوشك أن يفجرها . وفي الواقع فلن المالك قد هبطوا الى ضفتي النهر ، وتجمع عربان الغرب ليلحقوا بمراد بالقرب من وادي بحيرات النطرون في نفس الوقت الذي ظهر فيه اسطول ابي قير ، كنا قد ارتقبنا هذه الظروف ، وهوجم العدو في وقت واحد في كل مكان ظهر فيه ، وتحرك طابور شقت العربان ، أما المالك من حزب ابراهيم ، الذين فوجئوا داخل معسكرهم فقد ولوا الانبار على الفور نحو الصحراء تاركين أمتعتهم ، أما مراد ، وهو أكثر غطنة وأكثر حذرا ، فقد أسرع يلتمس مصر العليا ، وكان القائد العام نفسه يجد في اثره ، حين بلغه ظهور الاسطول المعادي ، فاتجه على الفور نحو الاسكندرية ، وفي أثناء هذه المسيرة أرسل أوامر بالغة السرعة الى مختلف فرق الجيش التي شرعت كلها في التحرك في وقت واحد ، وعمل على مراقبة واحتواء المالك والعربان ، واتخذ وضعا يمكنه من تقديم العون الى زشيد أو الى الاسكندرية (اذا هوجمت أي منهما) .

كانت قوات عثمانية قد نزلت فوق شبه جزيرة ابي قير واستقرت هناك بعد أن انتزعت الحصن بعد اسنلامه ، وقر رأى القائد العام على أن يهاجم هذه القوات على الفور وهي وراء حصونها ، وكللت كل الهجمات

التي تمت على كل المواقع بنجاح سريع ، ولم تستطع خطوط العدو أن تصمد أمام الهجمات الجسورة والمتهورة من جانب الفرنسيين ، أما العثمانيون فقد دفعهم اليأس الى استخدام السلاح الأبيض ورفضوا رفضا شديدا اجماعى ان يقيموا في الاسر ، وعندما احيط بهم من كل جانب سقطوا صرعى او هرعوا الى البحر محاولين — دون جدوى — الوصول الى السفن التي جاءت بهم ، وهلك منهم عدد كبير في ميدان المعركة ، ومات معظمهم بين الامواج بفعل نيران مدفعيتنا ، واستولينا على بنادق وخيام وذخائر حربية . اما الباشا الذي كان يتوعد الحملة فقد وقع هو نفسه في قبضتنا وتحصن ابن هذا الجنرال سييء الحظ داخل الحصن مع من تبقى من قواته ، وشرع يخوض دفاعا يبالغ العناد . وفي النهاية ، وحين رأى آخر من تبقى من جنود هذا الجيش أسطولهم يدمر بفعل المدافع الفرنسية ، وعندما راوا انفسهم ينفقون من الجوع او العطش او الارهاق ، القوا بأسلحتهم واستسلموا المنتصر ، وكان الحصن قد أصبح كومة من الاتقاض تغطيها اجساد القتلى والجرحى واجساد اولئك الذين نفقوا اثناء الحصار .

في الوقت الذي كانت تدور فيه هذه الاحداث في سوريا ومصر ، وفي حين كان جيش الشرق يدافع بثبات واصرار عن الأرض الشهيرة التي فتحها ، كانت فرنسا قد انغمست في انشغالات وخلانات مدنية ، وكانت جبهاتنا (في اوريا) مهددة . لقد أصبحت هذه الأوقات العصيبة جد بعيدة عنا ، وبحول شعور الألفة السائد اليوم دون أن ننقب فيها ، لقد أبلغ القائد العام بحقيقة الأوضاع في اوريا وبالكوارث التي تحيق بفرنسا ، وأوحى له معرفته بهذه الاحداث بالرغبة في معاودة الظهور بين جيوشنا ، فقرر بعد ذلك النجاح الذي احرزه في أبى تير بأن ينفذ هذا المشروع الذى كانت عواقبه وخيمة على اعدائنا . وكانت مصر قد ألزمت الهدوء ولم يكن بالإمكان ، لوقت طويل ، أن تكون عرضة لهجمات جديدة ، وكان المماليك قد فروا اما الى داخل فلسطين او الى حدود النوبة ، وكان العربان يجدون سعيا في الحصول على تحالف معنا ، وبطل المصدر الأعظم جهودا لا جدوى منها كي يجمع قواته فيها وراء دمشق ، فقد كانت الحملة الفرنسية على الشام قد دمرت كل المصادر التي يحتاجها أى تجهيز لمسيرة جيش ، وكانت الشواطىء (المصرية) ابتداء من الاسكندرية حتى دمياط قد وضعت في حالة دفاع ، وكانت الحصون مزودة بالموث و ذخائر الحرب ، وكانت مدينة القاهرة منذ وقت طويل تجنى ثمار

وجود ادارة راعية فظهرت بظهور العارف بالجميل ، وخصم القائد العام كل اللحظات التى سبقت رحيله فى تحسين وتطوير المنشآت العسكرية والادارات المدنية ، جاهدا فى ان يجعل وجوده بشخصه اقل ضرورة بقدر الامكان ، وفى نفس الوقت كان يعلم ان المراكب المعالية قد اضطرت للفضلي عن القيام بعمليات المراتبة البحرية ، عندئذ رحل الى الاسكندرية ، ويمد ذلك بقليل غادر شواطئ مصر ، لقد دعاه الواجب وامن فرنستا ، لقد ابتعد وكشف عن مكون سره لذلك الرجل الذى عمل فى خدمة مشروعاته الاولى ، وأخفاء الحظ عن اساطيل الاعداء ، وردة البحر ، الذى كان مخلصا للمرة الثانية ، الى ارض الوطن ذلك الرجل القادر على التصدى لاعدائه الخطرين .

ولم يكن القائد العام طيلة مدة حرب مصر وسوريا ليكف مطلقا عن رعاية مصالح العلوم ، فقد كان هذا المشروع الكبير حاضرا على الدوام فى ذهنه سواء قبل انتصاره او بعده ، وسواء كان يقود العمليات العسكرية او كان يفكر فى اوضاع ادارية او اجتماعية جديدة ، فكان يمدد ، وهو بين المعسكرات الى عبقرية الفنون الجميلة ان تخلد ذكرى المعارك التى اضاءت سماءات فلسطين والفيوم والصعيد . وفى الايام الاخيرة التى سبقت رحيله كان لا يزال مشغولا بالحذب على الابحاث الطبية وذلك بان قدم للاكاديمية التى كان قد كونها الوسائل اللازمة لاجتياز وعبور المناطق المدارية من مصر ولملاحظة اعاجيبها بأمان ، واصبحت هذه الرحلة التى ستزود الفنون والاداب بالكثير من النتائج موضوعا مباشرا لعنايته وتقديره ، فقد وضع بنفسه خط سيرها ، وهيا لها كل الظروف المواتية مع حيلة وبقطة بالفتن .

كنا فى ذلك الفصل من العام ، الذى تسهل فيه رياحه القوية الملاحه فى النيل ، عندئذ كان ميسورا علينا ان نصعد فى وقت قصير الى جزيرة الغاتنين ، وفى نفس الوقت ، عزمنا على ان نبلغ كل الاماكن التى تقع بها الانار بغية التعرف اولا على الاشياء التى ينبغى لنا ان نصفها ، وان نضع ، عن طريق هذا الحصر الاولى ، نظما اكثر دقة فى ابحاثنا . وحين وصلنا الى الحدود التى تفصل مصر عن النوبة ، الى الجنوب من الشلال الاول ، هبطنا مجرى النيل ابتداء من اسوان حتى القاهرة ، ووضعنا كل اثر مرة اخرى تحت فحص بالغ الدقة ، فما ان كانت السفن تلمس الشاطئ ، حتى كنا نهرع لنجتاز من كل جانب تلك الاسوار او الامنية التى يمكن ان نجد بها بعض بقايا

لنشآت قديمة . واتقنا خرائط طبوغرافية ، ورسنا مناظر طبيعية مع كثير من مشاهد تصويرية لكل مبنى ، كما قسنا الأبعاد المعمارية بالإضافة الى التفاصيل التى لا جد لها للزينات ، وقلدنا بأمانة اللوحات المرسومة او المحفورة مع كل الحروف الهيروغليفية التى تغطيها ، وفى الوقت نفسه كنا نلاحظ الحالة الراهنة للاطلال ، وأساليب البناء ، وطبيعة المواد التى بنيت بها المنشآت ، ودونا الكتابات العادية او التاريخية او تلك التى تختص بالنذور والتلسبات الدينية الأخرى ، والتى تذكر بكثير من الاسماء اللامعة . وقام آخرون منا بقياس سرعة المياه وكمية ترسيب التربة وارتفاعات الأرض، وحدد فريق ثالث المواقع الجغرافية عن طريق ملاحظات فلكية . لقد اكبنا على فحص طبيعى للمنطقة ، كما جمعنا مجموعات ثينة من الحيوانات والمعادن والنباتات وكل العناصر التى من شأن دراستنا لها ان تطلعنا على الثروات الزراعية وكذلك بالتجارة والعادات والتقاليد والوضع الاجتماعى للسكان .

وكان من الضرورى ان نلحق بدراسة الخواص الفيزيائية للطقس ، دراسة عن الأثر الذى تحدثه هذه الخواص على حياة وصحة الانسان ، واننا لندين بهذه الأبحاث لاثناس وهبوا انفسهم بحكم مهنتهم لمختلف فروع من العلاج (الطب) ، وقد رسم خطة هذه الأبحاث كبير اطباء جيش الشرق(*) ، وقام بتجميعها ونشرها ، كما اننا مدينون لكبير جراحي هذا الجيش(**) بعمل من نفس النوع يضم عددا كبيرا من الملاحظات ولقد حصلنا ، بخلاف المزايا الادبية التى يضيفها عليهما نشر هذه الأبحاث ، كما حصل زملاؤهما على مزايا أخرى كموع من العرفان العام ، وسوف يظل يذكر تاريخ هذه الحملة لكل هؤلاء كل الخدمات التى أدوها ، وينابيع الحق والجسارة التى تملحها عليهم كماعتهم سواء عندما كانوا يحملون المواساة والامل الى ميادين المعارك بين أشد أهوال الحروب وأكثرها اشارة للفرع ، أو عندما كانوا يواجهون بروح هادئة الدمار المروع الذى كانت تحدثه الأوبئة والفرع القاتل الذى كانت تسببه هذه الأمراض فيعصف بنفوس الآلاف .

(*) ديجينيت Desginttes

(**) البارون لارى Larry

وقبل أن نشرع في الرحلة التي اثمرت من قبل اليها ، كان عديد من الأشخاص المتحمسين لتقدم العلوم قد توجهوا بالنمل الى الصعيد أو الى الفيوم ، وفي خلال الإقامة الطويلة التي كتبت لهم هناك ، كانوا قد عكثوا على وصف دقيق للآثار وعلى أبحاث هامة حول مجرى النيل ، والطبيعة الفيزيائية للأرض ، وزراعة وتجارة وجغرافية البلاد القديسة ، وأسرعوا يضمنون الى المؤلف العام كل النتائج التي سبق أن حصلوا عليها .

وقد أتجزت مختلف أجزاء هذا العمل الضخم في نفس الوقت ، كان كل منا قد انغمس بشكل خاص بموضوع دراساته المعتاد ، وكان ينقل الى الآخرين أفكاره ووجهات نظره ، ولقد سهل هذا التعاون المثمر ، وهو الذي لا يوجد مثيل له على الإطلاق في تاريخ الرحلات العلمية ، التقييم بكل الاكتشافات ، وجعل منها اكتشافات أصيلة وصالحة ان صح التعبير ، لقد كان الصالح العلم للفنون والعلوم والآداب يؤلف بسهولة ما بين العقول مبقيا في الوقت ذاته على تنوع الآراء واختلافها ، وسيظل التقدير المتبادل هو أكثر البراهين وثوقا على تألف وتكامل وجهات النظر ، وكانت تربط بين هؤلاء فضلا عن ذلك — صداقة قديمة ، الأمر الذي جعل المصاعب أكثر يسرا كما جعل المسرات أكثر بهجة ، كما كان يعطى جرعات متجددة من القوة عند مواجهة المخاطر المشتركة ، ومن الصلابة كلما اشتدت مشقات البعد عن الوطن

لم يسبق لأى بلد آخر أن خضع لأبحاث بمثل هذا الشمول وهذا التنوع ، وفضلا عن ذلك فليست هناك بلاد أخرى جديرة بأن تكون موضوعا لأبحاث كهذه ، فمعرفة مصر أمر يهم في الحقيقة كل الأمم المتحضرة ، سواء لأن هذه البلاد هي مهد الفنون والنظم الدينية أو لأن بإمكانها حتى اليوم ، أن تصبح مركزا للعلاقات الدولية ولتجارة الإمبراطوريات ، ولقد ترك الشعب الذي كان يسكنها آثارا تدعو للتعجب بعظمتها وقوتها ونفوذها ، كما أن الفنون لم تبذل على الإطلاق في مكان آخر . مثل هذا الجهد كى تسمو الى هذا الطابع الذي لا يحول والذي يماثل في ذلك أعمال الطبيعة ذاتها .

وفي هذه الأثناء كان الحلفاء قد حللوا دون جدوى ان يستولوا على ميناء القصير ، وبعد ذلك بوقت قصير استعاضت حامية دمياط الضعيفة عن عددها الضئيل بالجرأة والجسارة وسرعة الحركة ، تدمرت فرقة قوامها

اربعة آلاف من جنود الانتكشارية انزلوا من طريق البحر وبدأوا يتخذون مواقعهم على الساحل . ومع ذلك فان الفرنسيين الموكلين بالدفاع عن مصر كانوا يجهلون الاحداث السياسية التي اعادت الأمن الى وطنهم وحطمت للأبد الآمال الطموح للقوى المعادية ، كانوا لا يعرفون بعد الا ان وطنهم يعيش في الآلام والشقاء ، لذلك فقد كان الوطن موضوع قلقهم وأسفهم ، وتجددت(*) تلك المفاوضات التي كانت تهدف الى التوافق مع الباب العالي ، وعلى حين غرة ، اتخذت هذه المفاوضات وجهة مختلفة وغير متوقعة ، ولهذا اعد وأبرم على وجه السرعة اتفاق العريش العسكري تم الاقرار فيه على ان تعود الفرق العسكرية الى موانئها (فرنسا) ، بعد أن توافق على تسليم مصر الى سلطة الباب العثماني ، على مراكب مملوكة للقوى المتحالفة .

وعلى الفور بدأت تتم الالتزامات المتبادلة ، ودخلت الى مصر ، بحرية تامة ، قواتكبيرة ، نظامية وغير نظامية للوزير (الصدر الأعظم) والبكوات وتقدمت حتى بلغت أبواب القاهرة ، وبدأ كل شيء ينذر بأن هذه البلاد الجميلة ستعود من جديد لتقع في براثن ساداتها القدامى ، لكن سببين مختلفين أسهما في تغير مباغت لما تهيأت له النفوس ، كان أولهما هو الاعلان عن ثورة حدثت في الحكومة المدنية لفرنسا .

استسلم الجيش للمشاعر الجديدة التي أوجت بها اليه هذه الاحداث حين رفض الطرف الآخر تنفيذ الشروط التي كان قد قبلها ، ويعود السبب في ذلك الى القوى المتحالفة التي ساهمت بأكبر نصيب في ابرام هذا الاتفاق الذي اقترح ووفق عليه باسمها ، فلقد وضع عند التنفيذ عقبة غير متوقعة حين وجه الى القوات الفرنسية اشتراطا مهينا بأن تبقى أسيرة في مصر ، كان الطرف الثاني ، بهذا الاشتراط ، يجد في هذا التنكر لوعوده ، للحصول على امتياز لم يكن ليتوقع الوصول اليه بقوة السلاح . وفي هذا الوقت كانت القوات العثمانية قد استحوذت على الصعيد ، وعلى كل المناطق ابتداء من موانئ البحر الأحمر حتى دمياط ، وكنا قد سحبنا مدفعيتنا من قلعة القاهرة ،

(*) يستخدم المؤلف الضمير on وهو ضمير نكرة لا يحدد بدقة شخص الفاعل وبذلك يروغ هنا وفي كل السياق لهذه الدراسة من تحديد مسئولية الأطراف المختلفة .

وكان من المفترض أن نسلم العاصمة نفسها بعد ذلك بيومين ، كما كانت المؤن والذخائر بالفعل قد نقلت الى الاسكندرية ، واصبح الجيش الذى كانت فى حوزته قبل ذلك بيومين اقاليم عديدة ثرية وخصيبة ، محروما من وسائل مواصلة الحرب ولم يعد يتملك من ارض مصر الا تلك التى يصطف عليها ، ومع ذلك فان ظروفنا غير عادية كذلك ، كانت قد رفعت من معنوياته ، لم تكن لجيشنا الا غاية واحدة او هدف واحد ، وكان الشخص الذى يقوده قد بث فى كل القلوب سخطا كان يثيره هو ، وتعرف اوربا سلسلة المارك الخالدة التى تلت هذه القطيعة ، ثم جاء النصر ، وهو اكثر وفاء من كل المعاهدات ، ليمسح حمايته على اولئك الذين لم يترك لهم مكان يلونون به سوى الصحراء ، وشتت وافنى الجيش العثماني الذى هاجمه الفرنسيون بالقرب من خرائب هليوبوليس ، واجتاز الصدر الاعظم ، شبه وحيد خلال هروبه المتعجل ، نفس البلاد التى سبق له أن توغل فيها ومعه قوات هائلة ، وفقد ثلاثة معسكرات بالاضافة الى مدفعيته ومؤنه العسكرية ، كما استعنا الحصون التى كانت قد سلمت اليه ، وقمعت حركات التمرد التى كان قد اشعلها فى كل المدن فى وقت واحد ، وطردت قواته من الصعيد ومن دمياط .

اما العاصمة نفسها فقد فاجأها المالك والانتكشاريون ، وتحولت على الفور الى ميدان قتال فسيح ، تنهشها احوال الحرب والتمرد ، وبعد أن شاهدت المدينة جزءا من مباتيها تضطرم فيها النيران وتتحول الى انقاض ، فى الوقت الذى تطيع فيه قادة منقسمين تفرق بينهم مصالحهم الخاصة ، وحين افزعها ما حدث لمدينة مجاورة ، نالت من قبل عقابا صارما وقاسيا ، استسلمت مستعطفة الغازى ، اما الفرق التى سبق أن تجمعت فيها والتى كانت قبل ذلك بوقت تصير تتقدم ضدنا حين كان البحر موحشا املنا ، خارقة بذلك اكثر المعاهدات توثيقا ، فقد التمس جنودها التسليم والاذعان وعندما تم لها ذلك عبرت معسكراتنا فى امان ، وتفوق الفرنسيون الثمار الاولى للنصر ، وتشبثوا بالبندود والقرارات الثابتة التى تملئها عليهم المصالح الحقيقية لوطنهم ، وفجأة وقع حادث مؤسف أغرق الفرنسيين فى الرعب والوجوم ، لقد تأمر اغوات الانتكشارية الذين لجأوا الى سوريا ضد حياة القائد الفرنسى ، وأغروا واحدا من أبناء حلب تلى عليه دبلته كل حركته ، أن يضحي بحياته فى مقابل هذه الجريمة الكبرى ، ووصل هذا السلب المخبول ، الذى كان من السهل غوايقه بفعل سنه ، بطريقة سرية الى

القاهرة ، وبعد ان قضى ثلاثين يوما فى الصلاة بالمساجد ، ارتكب جريمته البشعة . كان كبير أعزل من السلاح ، بعيدا عن حراسه ، وطعن مرات عديدة بالخنجر ولفظ أنفاسه بعد ذلك بلحظات ، وبمجرد ان انتشر خبر هذا الاغتيال الجديد فى كل اقاليم مصر عبر جيش الشرق عن مشاعر حزن تام وجماعى ، وروى بالدموع مقبرة قائد لامع ، مسح لتسود بالنصر مهانات المفاوضات ثم سقط صريعا وسط مغنم انتصاراته ، فى حين كان الوطن يعمده واحدا من أكثر من دافعوا عنه فداء وتضحية ، وتجمع القادة العسكريون منذ اللحظات الأولى التى أعقبت وفاته ، وعلى الفور وجه الشخص الذى كانت ترشحه القوانين العسكرية لقيادة الجيش من الأوامر ما تحتمه خطورة الظروف ، وأخذت الثوات العسكرية تظهر على التوالي امام الناس ، وأطلقت المدافع ، ووضعت الاعلام الفرنسية على مآذن المساجد . كانت هذه الاحتياطات ضرورية للغاية ، اذ كان من المعتاد ، فى بلاد الشرق هذه ، خلال الثورات وحركات التمرد التى تهزها وتشيع فيها التلق ، ان يتلو الميتة العنيفة لزعيم ما دمار حزبه وتشتت جنوده ، كان قد التى القبض على القاتل سليمان ، ولم يشارك فى جريمته أى واحد من المصريين ، واكتشف ثلاثة متواطئين كان قد اتهمهم على سره ، وكانوا مثله من أصل سوري ، وحكم عليهم جميعا بالعقوبات التى ينبغى ان يحكم عليهم بها تبعا للشريعة الاسلامية ، وفى خلال المدة الطويلة التى استغرقتها اعدام سليمان كان يقرأ بعض آيات من القرآن ، كما كان ينمى على المسلمين انهم لم يقدموا له العون .

واسهم سكان العاصمة فى أضفاء طابع المهابة على جنازة قائد الجيش الفرنسى ، وسرعان ما راوا خليفته يمشى قدما فى تنفيذ المشروعات النافعة التى كانت قد أقرت عقب الفتح ، والتزم القائد العام (الجديد) ، مستفيدا من المزايا التى حققتها نجاحاتنا الأخيرة ، بدعم سطوة القوانين ، وبتحسين ادارة الضرائب ، وتيسير السبل امام تقدم وتطور الزراعة والصناعة والتجارة ، واكب فى الوقت نفسه على تصريف شئون جيشه الذى وجد فيه (أى فى تائده) مثالا للتضحية والمثابرة ، وتمتع الزراع الذين انحدر بهم الشح الأرض لسادتهم القدامى الى حالة من التدنى والمهانة، تمتعوا وبحرية كاملة بثمار أعمالهم ، وعقدت تحالفات جديدة مع العريان ووهبت بعض القبائل أراضى غير أهلة ، كانت الشقاقات المدنية قد حرمتها من

الزراعة ، واتيم على أسس محددة نظم مليم للرعى ، وبذلت كلمة الجهود لتولى كل المساوىء المرتبطة بوضع المياه المضطرب أو بإساءة استخدامها ، وتقررت مكافآت عامة لسكان الريف الذين يقاضون من عدد الأشجار النافعة ، وتجمعت داخل منشأة واسعة تلك النباتات والشجيرات الأجنبية التى رؤى من المناسب نشر زراعتها : كانت فنون أوربا قد بدأت فى صنع التقسم على أرض مصر ، وانتعشت الصناعة فى كل مكان .

ومع انشاء نظام جديد للمالية ، عهدت بإدارتها العامة الى ادارى حكيم ونزيه ، كان قد حاز منذ وقت طويل تقدير الجيش ومحبة الاهالى ، وكان قد فحس بعناية كبيرة المصادر المتنوعة للدخول العامة ، وكان يدرك كل المزايا التى ينبغى أن تتوقع الحصول عليها أبة حكومة عاقلة مستنيرة من امتلاكها لمصر ، وقد قام بتكوين جداول لىستخدمها مدخلا لحساب الميزانية العامة ، هى التى قدمها عن ادارته للمالية طوال مدة الحملة (١٩١٠) . ولقد استخلصنا نحن من هذا المؤلف ، الذى أرجىء نشره ، الدراسة التى ضمنت هذه الموسوعة ، وهى تحتوى على عدد كبير من النتائج التى ما كان لىسهل الحصول عليها دون ظروف موافية لهذا الحد ، وينبغى أن ننظر إليها باعتبارها عناصر ثمينة فى تاريخ مصر الحديث .

ومن جهة أخرى فقد وضعت لوائح نزيهة وعادلة أتت الى تنشيط التجارة الخارجية التى أوشكت حكومة الممالك أن تقضى عليها . الى هذا الحد بلغ تأثير الاجراءات التى اتخذناها ، والتى أمكنها ، على الرغم من المعوقات الكثيرة التى نجمت عن حالة الحرب ، أن تقيم من جديد علاقة نافعة مع الأرخيل وسواحل الجزيرة العربية وبلاد اواسط افريقيا ، كما ساهمت اعمال جديدة عامة فى تجميل العاصمة والاسكندرية وتحسين الحالة الصحية بهما ، وشبنا فشبنا كف المواطنين عن أن يظنوا انفسهم غرباء عن الأمة الفرنسية : كما كانت الثقة المتبادلة تحرز كل يوم تقدما ملموسا ، ولقد أدرك هذا الارتياح من جانب كل النفوس كافة الذين تمهدوا العلاقات

(*) يشير المؤلف الى دراسة الكونت استيف Estève عن مالية

مصر ، وهى الدراسة التى تكوين مع غيرها المجلد الخلفى من الترجمة العربية الكاملة لوصف مصر . (المترجم) .

الودية مع شعب مصر ، وقد أدرك هذا بصفة خاصة مؤلف هذه الدراسة ، وهو الذى كان يسهم فى الحكومة المدنية بتولية ادارة العدل . وهكذا كان الزمن وحده كفيلا بأن يؤكد ويدعم هذه الانظمة الجديدة وان يجعل الفاس يشعرون بها (ويجدواها) لكن الحرب قلبتها بفترة ، ولم تبقى على اى اثر منها . وقد نشر نجاح الحملة الفرنسية ، الذى كان يعد كل الامم الاوربية بخطوط اتصالات هامة ، القلق والفرح فى انجلترا ، وعزمت هذه القوة على القيام بجهود غير اعتيادية ، وشارك البلاط العثمانى ، حين انساق وراء اعتبارات روحانية ، فى وجهات نظر وآراء حلفائه الجدد ، ففكرت مهاجمة سواحل البحر الابيض على يد جيش انجليزى ، كما تقرر ان تدعم هذه الحملة بفرقة من الانكشارية والالبان اوكلت قيادتها الى تبطان باشا ، وتلقت هذه القوات الاوامر بأن تتوغل فى الخليج العربى وان تنزل الى مصر عن طريق مينائى السويس والقصر ، وفى النهاية اقتضى الامر ان يتقدم الوزير (الصدر الاعظم) الى العاصمة على رأس جيش عثماني قادم من سوريا . كانت كل عناصر خطة الغزو قد اعدت ووزعت بعناية ، ووضعت كلها موضع التنفيذ فى وقت واحد ، ولقد تجلى فى حركة القوات قدر من الوثوق والاصرار على النحو الذى تسمح به المسافة النائية للاماكن وعناد المسلمين الذى لا سبيل الى تهره ، كان ابراهيم ومماليكه يزحفون مع الوزير . اما القبائل العربية التى اثارته نصائح وتحريضات النبى الجديد مولاى محمد (!) فلم تكن تنتظر سوى الاشارة كى تتجمع ، واخيرا فقد كان حزب مراد ، حاكم الصعيد ، قد ارتبط سرا بالانجليز .

كانت المعارك السابقة قد اضعفت الجيش الفرنسى الذى لم يعد ثلثه قادرا على ان يستخدم فى حرب الاقاليم ، كانت الجروح الخطيرة والكثيرة تغطى اجسام هؤلاء الجنود الاسخياء (الفدائيين) الذين كانت تحتمل على البذل قيمة اكثر منهم اصرارا واندفاعا نحو الاخطار الجسام ، وكانت هذه الجروح تجعلهم عاجزين عن اية مشاركة ايجابية فى الوقت الذى كانت قواتنا فيه تحتل بلدانا شاسعة تبدو كل بقعة فيها وكأنها تحتم وجودها ، فكانت تحرس حدود مصر مع سوريا والتى يتهددها الصدر الاعظم . كما كانت تحرس القاهرة والجيزة وبولاق والسويس وجزءا من مصر العليا ، كما كانت تستخدم فى الاقاليم كى تحمى جباله الضرائب ، ولكى تؤمن الملاحة فى النهر ، ولكى تصد المماليك وتحتوى القبائل العربية . اما الاتفاق الذى اذنت

لوائح عديدة الى ابراهيم مع مراد فلم يكن ليوحى بآية ثقة . لقد ضاعف تحالفه مع الفرنسيين من نفوذه ومصادر قوته ، لكنه ما كان ليفيصد من كل هذه المزايا الا لى يعلن وقوفه ضدهم ، وكان علينا ان نخشاه خلتنا والا نأمل الا فى عون جد ضئيل من جانبه لو أنه قد كان مخلصا . وهكذا كان موقف الفرنسيين عندما ظهرت السفن المعادية امام الاسكندرية .

تمكن الجيش الانجليزى من القيام بعملیات انزال على سواحل ابى قير ، ثم تقدم بعد ذلك داخل شبه الجزيرة ليتخذ موقعا مواتيا للضاية يقع بين البحر وبين بحيرة المعية . وحين هاجمته بعض القوات الفرنسية دافع عن نفسه بنجاح فوق أرض ضيقة يدعمها خط من الحصون وتحميها زوارق المدفعية من جانبي البحر والبحيرة . وقد جرح فى هذه العملية قائد الحملة الانجليزية ومات بعد ذلك بليام قليلة متأثرا بجروحه تاركا فكري مشرفة بحق . وبعد ان تلقى الحلفاء دعما هائلا قرروا احتلال رشيد ثم بدأوا التقدم صوب شاطئ النيل فى نفس الوقت الذى كان اسطولهم فيه يصعد النهر ، واستسلم حصن الرحمانية وامتلك العثمانيون دمياط ، ولم تلبث العاصمة ان حوصرت .

كان المصدر الاعظم قد ضم جيشه الى الجيش الانجليزى وجيش قبطان باشا ، وكان يحصل كل يوم على قوات دعم جديدة من داخل مصر وسوريا ، وكانت صلاته مع العربان والمماليك والقوات العسكرية القديمة وسكان الريف تتدعم فى كل مكان حيث كان يسهل من ذلك تلك النجاحات الاولى التى احرزها جيش الحملة ، وكانت قوات الهند قد وصلت ، اما القاهرة والاسكندرية فكانتا فريستين لوباء بشع وقاتل ، وفى نفس الوقت انضم الى العثمانيين ممالك ابراهيم وممالك مراد بالاضافة الى فرسان كثيرين من المريان . هكذا كان وضع القوات المتحالفة حين تقدمت ، لى يتم لها استرداد القاهرة والاسكندرية ، بينود امتيازات لا تختلف كثيرا عما جاء بمساعدة الميريش ، لم يكن ثمة عملية عسكرية واحدة لم تكن قواطنا فيها ادنى عددا بكثير ، فعدم تأكدنا من معرفة نوايا العدو كان قد أرغم القائد العام ان يوزع على جبهات عديدة القوات التى يمكنها ان تتصدى للعدو ، وينبغى ان نضيف بأنهم — اى العدو — لم يكتوا طيلة هذه الحروب عن ان يعرضوا على الفرنسيين العودة الى وطنهم بنفس الشروط التى سبق لهم ان قبلوها قبل ذلك بوقت طويل والتى سبق للحلفاء كذلك الالتزام بها .

وعندما بلغ الجنرال مينو بأن باب المفاوضات قد فتح في أوربا : وبالمحاولات المتكررة التي يقوم بها أسطولنا كي يجلب اليه المساعدات . اشتد عزمه على أن يستمر في الدفاع عن الاسكندرية لأطول وقت ممكن . وظل متشبثا في موقعه لآخر الشوط ، وعند نهاية الحصار كان نفس الفرنسيين مرضى بالمستشفيات ، أما أولئك الذين لم تكن قد مستهم شرور الأوبئة بعد فكانت قد أضنتهم الأعمال التي لا تنتهي واستخدام المياه المالحة وتناول الأطعمة الفاسدة لفترة طويلة بل وكذلك نقص الأطعمة . كانت الأمثلة التي قدمها قادتهم تقوى من عزائهم ، وفي النهاية لم يبق لديهم الا شجاعتهم ، وكان المرء يراهم مهذمين منهكين لا يقدررون الا بالكاد ان يتحملوا ثقل سلاحهم ، وكانوا لا يستميدون قواهم الا حينما كان الواجب يدعوهم الى المعركة . هكذا انبط بهم ان يضموا بجهودهم الأخيرة نهاية مشرفة لهذه الحملة الخالدة .

وفي الوقت الذي كان جيشنا يستعد فيه لمغادرة موانئ مصر ، وكان الناس فيه في أوربا يجهلون العمليات الأخيرة للطفاء ، وقعت في باريس ولندن تلك المعاهدة التي تعيد هذه البلاد الى الباب العثماني ، هكذا قدر عليها ان تعود من جديد لهجبة السلاح التي كانت جيوش فرنسا قد خلصتها منها ، وهذه هي اليوم فريسة لابتزازات نواب الملك ولصوصية العربان والفرق العسكرية غير النظامية ، او لعنف بعض البكوات الذين ظلوا على قيد الحياة . لقد استعاد هؤلاء الأعراب ، على الرغم من تقلصهم الى عدد ضئيل ، وطننا الى حوزتهم ، وخلف عبيد مراد وابراهيم سيديهم ، لقد اقصيت هذه الحكومة العجيبة على الأتل لمدة ثلاث سنوات بسبب وجود الفرنسيين ، فلقد هزم الفرنسيون المالكين ونفوسهم كما تمصوا العربان وأبادوا ثلاثة جيوش عثمانية في فلسطين وأبى تير وعلى أبواب العاصمة ، وليس أقل جدارة بالذكر من ذلك انهم لم يمارسوا الا سلطة حماية في البلاد التي خضعت لهم ، وبدأ كل واحد من هؤلاء الفرنسيين مرتفعا لمستوى أكبر الأهداف التي جعلتنا نشرع في هذا الغزو ، ولقد واجه الفرنسيون طيلة سنوات ثلاث مخاطر لا تنقطع ، كانوا كانت تتوالد من جديد ، وقاسوا بمعزبة ثابتة ، وتحت سماء ملتبهة وغريبة عليهم متاعب يصعب التعبير عنها ، ولقد تكاتفوا في هذه المهمة الشاقة رغبة منهم في ان يهبوا أنفسهم لجد ومصلحة وطنهم . وانه لشعور نبيل ونافع يسمو بالإنسان ليتفوق على

نفسه ، يوحى بكل التضحيات ويظل فى نفس الوقت هو الدافع وهو
الجزاء ، ولقد جاءت عودتهم فى أفضل الظروف ملائمة ، فكانت أوروبا هادئة
وكانت فرنسا بعد أن ثارت لنفسها وانتصرت تركز للراحة فى ظل قوانين
أشد لطفا من الهزات التى سببتها الحروب الخارجية .

ومن جانب آخر ، كانت الهيئة العلمية التى تشكلت فى عاصمة مصر ،
تحت حماية الأسلحة الفرنسية ، قد اتخذت لنفسها نفس اللوائح التى تنظم
أعمال أكاديميات أوروبا ، كانت مهمتها أن تزيد وأن تحسن كل المعارف
النظرية ، وأن تضاعف من تطبيقاتها . كانت أسهامات العلوم والفنون
قادرة على أن تدعم وأن تجعل منشآت الفرنسيين فى الوقت الذى يؤثر فيه
فى الأحوال المدنية للاهالى ، لكنها لم تكن لتبلغ هذا الهدف المرجو للفائدة
دون أن نكون قد اكتسبنا معرفة عميقة بمصر . ولم يكن الوصف التاريخى
والفيزيقي لهذه البلاد فى الحقيقة الا جزءا من خطة عامة كما قد وضعناها
لدراسة العلوم ولتهيئة تقدمها ، لكن الوصف مع ذلك كان عنصرا ضروريا ،
وكان واحدا من تلك الموضوعات التى يمهنا أن ننقلها الى أوروبا ،
وكان هذا هو الغرض من هذه الموسوعة التى ننشرها اليوم ، والتى تشتمل
على نتائج الأبحاث الرئيسية التى قمنا بها خلال مدة بقاء الحملة الفرنسية
والتي تستطيع أن تقدم معرفة متكاملة بمصر . أما هذا المؤلف الضخم فيتكون
من النص ومن مجموعات اللوحات ، ويتكون النص من الدراسات والأوصاف،
أما الاطالس فتحتوى على ١ - رسوم عن مصر القديمة . ٢ - رسوم
تتعلق بمصر الحديثة . ٣ - لوحات الحيوان والنبات والمعادن . ٤ - الخريطة
الجغرافية . أفن مجموعة هذه اللوحات تمثل الأشياء الموجودة والتى يمكن
ملاحظتها ووصفها بدقة ، والتى لا بد أن نعتبرها ، لهذا السبب ، عنصر
موضوعية لدراسة مصر . وكما كذلك نهدف فى الدراسات والأوصاف الى
عرض هذه الأمور على نحو أكمل وأكثر تمايا ، وأن نبين بدقة ما قد لا يستطيع
من الرسم أن يعرف به ، وأن نقارن الوقائع ونقارب ما بين النتائج وأن
نتفحص ما يمكن لنا أن نستخلصه من ذلك كله .

تتكون الخريطة الجغرافية من خمسين لوحة خاصة ، تقدم كل التفاصيل
التي يمكن لنا أن نرغب فيها . وليست هناك منطقة فى أوروبا يمكن لها أن تكون
قد وصفت على هذه الدرجة من الكمال ، ويشمل هذا العمل الكبير ، الذى
يقوم فى جزء منه على ملاحظات فلكية كل البلاد الواقعة ما بين شمال
أسوان والبحر ، وأبتداء من آخر مبنى يقع الى الغرب من الاسكندرية حتى

خرائب مور القديمة Tyr ، واضفنا الى ذلك خرائط خاصة بالمدن وبالموانئ ، وخرائط ومذكرات عن الجغرافيا القديمة ، وحصر بالاسماء العربية لكل المناطق الاهلة ، مع ملاحظات عن السكان والزراعة وامتداد الاراضي الخصبة ، والملاحة والصناعة والمنشآت العامة وبقايا المدن القديمة .

وقد لاحظنا بكثير من العناية الحالة الجغرافية لوادي النيل ، والصخور التي تقوم بمثابة حدود له ، وامتدت الأبحاث التعدينية الى مناطق صحراوية وجبلية بعيدة عن النهر ، كما اشتملت هذه البحوث كذلك على فحص المحاجر التي استغلها المصريون القدماء ، وعلى تصنيف دقيق للمواد التي استخدمت في بناء الآثار ، وتمنا برحلات كثيرة كي نجتمع من الصحراوات المجاورة لمصر ، وفي الصعيد والدلتا ، وعلى ضفاف النيل والترع ، النباتات الخاصة بمصر ، وتلك التي امكن للعلم ان يؤقلمها هناك ، كذلك كان هذا العمل يهدف الى الاكثار من الثروات الزراعية للبلاد وان نزود التجارة والصناعة بعناصر جديدة . وقد اعطينا لدراسة الحيوان عناية مثابة فأكبيننا على تمحيص النتائج التي سبقت معرفتها وعلى اتمام الاوصاف الناقصة والاستعاضة عن الملاحظات التي لم يكن الطبيعويون قد قاموا بها من قبل مطلقا اثناء رحلاتهم السابقة ، وقد أسفر فحص المواد الطبيعية بمصر عن اهمية بالغة خاصة وقد سبق لها ان شغلت من قبل ، ولوقت طويل المشرعين الاول في هذه البلاد ، وفي بعض الاحيان كانت معرفتنا بهذه المواد تلقى ضوءا كاشفا ، وغير متوقع على نقاط غامضة في عقائد المصريين (القدماء) ، كما تتميز اللوحات التي تمثل هذه الاشياء بأمانة بالغة في النقل والتقليد ، فلها طابع الحقيقة ولمع الدقة اللذين يشهدان في الوقت نفسه بعناية الفنان واهتمامه ، وبخطى التقدم التي احرزها هذا الفرع من فن الرسم ، وحتى الآن ، لم يسبق ان تمت جهود اكثر نجاحا وتوفيقا من ذلك كي تنوب عن حضور الطبيعة ذاتها (اي كي ينوب الرسم عن الأصل نفسه) .

اما بخصوص المرواح التي خلدت مصر وحالت دون فنائها ، فلم تكن لدينا عنها الا معرفة شائبة قبل الحملة الفرنسية . بل لقد كانت هذه الآثار مجهولة لنا بشكل تام ، وسوف يقدم هذا المؤلف وصفا دقيقا لها ، ولقد تعرفنا على الموقع الجغرافي لكل مبنى وبيناه على الخريطة ، ثم اقمنا بعد ذلك الخرائط الطبوغرافية التي تعرفنا بالواقع الخاصة بمنشآت نفس المدينة او بموقعها بالنسبة للنيل او للجبال المجاورة ، وقد ضاعفنا من المناظر

المرسومة لهذه الخرائب الجليلة : أما الفنانون الذين ندين لهم بهذه الرسوم فقد أخذتهم روعة الموضوعات وما يشع منها من جلال هو جدير بها حتى أنهم لم يستبعدوا أى تكوين ولو كان اعتباطيا أو تصفيا ، أنهم إذن لم يلتزموا إلا بحقيقة النقل والتقليد بغية أن ينقلوا باخلاص وأمانة نفس الأثر الذى أحدثته فيهم رؤية مصر ، وليس هناك بين كل منجزات البشر على الإطلاق ما قدم لعبقرية الرسم موضوعا أكثر سموا ورفعة .

وقد قام هؤلاء عدة مرات ، وبالعناية البالغة الدقيقة ، بقياس أطوال المباني وأطوال الأجزاء الرئيسية أو الإضافية التى يتكون منها ، وقد رسمت لكل هذه المباني تصميمات وواجهات وقطوعات أخفت من جوانب عدة ومن منظورات خاصة ، ولقد حققت الرسوم والدراسات التى تضم نتائج عمليات القياس هذه كل ما نطمح اليه لدراسة العمارة المصرية ، ونستطيع نحن أن نستخدمها لإنشاء مبان تشبه تمام التشبه تلك التى وصفناها ، ولا بد لنا أن نلاحظ أن هذا العمل (من جانبنا) لم يكن تاصرا قط على بعض الاطلال المنعزلة التى أفلتت من فعل الزمن ، وإنما اشتمل على المباني الرئيسية لامة مقنونة تدبى لها اأغلبية الأمم الأخرى بنظمها ومؤسستها . وفى واقع الأمر فأننا لم نلاحظ فى مصر المدارية وجود هذه الأسباب المتضاعفة ، التى ترمى ، على الدوام ، فى الأجواء الأخرى الى تدمير المنشآت ، وإلى مجدها ، فى بعض الأحيان حتى آخر أثر لها ، ومع فلك فإن هذه الأعمال تتأود عن نفسها بنفسها بكتلتها الخاصة كذلك ضد جهود البشر ، وهكذا أمكننا اليوم أن نقدم لوحة لعمارة المصريين واثنتين بأننا قد ضمناها أجمل منشآتهم .

ومن الواضح أن هذه منشآتهم التى لا تزال باقية فى طيبة وأبوللينيوبوليس وفى أبيدوس ولاتوبوليس(*) هى نفس القصور التى سكنتها الملوك (القدماء) أو هى أكثر معابد (المصريين القدماء) أهمية ، أنها كذلك هى نفس المباني التى وصفها كل من هيكاتيه Hecaté وديودور Diodor وسترابون Strabon ، ولا يمكننا أن نجد ما هو أكثر أهمية بالنسبة لتاريخ الفنون إلا معرفة هذه النماذج العظيمة التى أثارت إعجاب الإغريق وطورت عبقريتهم .

(*) وهذه المدن الأربع هى الآن على التوالي : الكرنك ، وادفسو ، ومنطقة خرائب بالقرب من العرابة المدفونة والخربة ، واسنا . (المترجم)

وبالإضافة الى ذلك فقد اكبنا على نقل وتقليد دقيقتين لأعمال النحت والحفر التى تزدان بها هذه الصروح ، أما الرسوم البارزة فتتمثل اشياء بالغة التنوع ، كما انها تلقى أضواء جديدة على علوم العصور القديمة ، وهى نتصل بتقاليد الحرب ، والحفلات الدينية ، والظواهر الفلكية ، ونظام الحكم ، والتقاليد العامة ، والعادات الأسرية ، وبالزراعة والملاحة وكافة الصناعات المدنية ، وقد حرصنا عند رسم عدد كبير من هذه المباني على أن ننقل بدقة كافة الرسوم والحروف الهيروغليفية ، ولم نحفظ لها بأشكالها المفردة فحسب ، بل بالنظام والوضع الخاص بإشاراتها كذلك ، وقد جمعنا الكتابات والنقوش القديمة التى تهتم العلوم والتاريخ . وقلدنا بعناية الألوان التى لا تزال تحلى العديد من المباني والتى تبدو وكأنها لم تفقد شيئا من بريقها الأول .

وبعد ذلك الحقنا بالخرائط الطبوغرافية ، وبالأشكال المرسومة ، وباللوحات المعمارية والرسوم البارزة وصفا موسعا ، جمعنا فيه كل الملاحظات التى لا يستطيع الرسم أن ينقلها ، وتشتمل هذه الأوصاف على نتائج فحص مستفيض ، أصيل وموثق ، عاون فيه على الدوام كثير من الشهود ، وكانت هذه الأوصاف تهدف الى أن نعرفنا بشكل كاف على الحالة الراهنة للمباني وعلى التدهور الذى حدث فيها بفعل الزمن ، وكذلك على نوع المواد التى استخدمت وعلى أمور كثيرة أثارت اهتمامنا ، ونجد فى هذه الأوصاف ملاحظات متنوعة عن العمارة وحول أساليب البناء ، والألوان ، واستخدامات الأشياء المرسومة ، كما نجد ملاحظات حول طبيعة الأرض ، والتغيرات التى تحدثها الفيضانات الموسمية ، وحول موضوعات أخرى لم تكن واسعة بالقدر الذى يكفى لكى تعالج فى دراسات منفصلة .

وينفس هذه العناية ، قمنا بوصف المقابر الرائعة التى للوك طيبة القدماء ، والكهوف الجنائزية التى يجاهد عن طريقها الورع المعهود لأن يخلد ذكرى وأجساد الأجداد ، كما وصفنا المدافن التحتية الأخرى التى كانت مخصصة فيها يبدو للحفلات أو لممارسات غامضة .

وتقدم أهرام ممفيس الشهيرة ذائعة الصيت ، القليل من الأهمية فيما يتصل بالفنون الجميلة ، وإن كان ثمة دوافع أخرى ينبغي أن نخضع لأبحاث بالغة الأهمية هذه المباني الضخام التى كانت موضوعا للملاحظات

تنقصها الدقة ، وقد حددنا نحن من جانبنا موقعها الجغرافى واتجاهات جوانبها بالنسبة لخط الزوال ، وكذا الأبعاد الخارجية ، وإبعاد كل الغرف التى أمكن لنا أن نتوغل إليها ، وأخيرا فقد وصفنا كافة المباني الجانبية .

وقد أفردنا أشكالا خاصة ، رسمت فيها كل من المسلات وتمائيل أبى الهول والتمائيل الضخام والتوابيت ومسلات مختلفة أخرى ، ولم يكن من المستطاع نقل هذه الزينلت الثمينة للصروح والأماكن المقدسة الى أوربا دون بذل جهود هائلة لم تسمح الظروف مطلقا ببذلها على الإطلاق ، وان كانت توجد منها الوف أقل حجما جميعها بعض الأشخاص واحتفظوا بها أو أودعت اليوم فى المتاحف العامة . وقد جلبنا معنا من مصر أحجارا منقوشة وتمائيل بأكملها أو مجسودة وقطعا من البرنز وشظايا من الخزف أو البورسلين ، وأحجارا مقطوعة ومشذبة تحمل نقوشا ورسوما فنية أخرى تتصل بالديانة القديمة ويعطون وبعادات أهل البلاد ، كما تفحصنا باهتمام عددا هائلا من موميئات البشر ومن موميئات الحيوان من نوات الأربع وكذا الزواحف والطيور واحتفظنا بالكثير منها ، وقد عثرنا فى الصناديق والآنية الفخارية التى تضم هذه الأجساد الجافة على أمثلة من نسيج ثمين . وعلى مذهبات وعقود وتمائم وحلقات ، وعلى أعداد هائلة من الشظايا ، كما استخرجنا من هذه الصناديق مجلدات عديدة من البرديات مغطاة بنقوش هيروغليفيه أو بحروف هجائية ، وقد اكتشفنا هذه الأشياء وسط خرائب المدن القديمة ودخل الحفريات الكثيرة التى اقتضى القيام بها الفحص الذى أجريناه للمباني ، وكذلك فى داخل المقابر العامة أو الملكية ، وفى بعض الأحيان أيضا فى داخل البيوت الحالية ، وقد جمعت كل هذه خلال أحداث الحملة الفرنسية ، وتبيننا أن من الضرورى أن نضمن رسوماتها المجلد العام .

أما اللوحات الخاصة بمصر الحديثة فتمثل : ١ - المساجد ، والتصوير ، وبوابات الدن ، والميادين ، والمحاكم ، ومجارى الميئون ، والمقابر ، والأحواش ، والوكالات المخصصة للتجارة ، والنقوش ، والميدانيات وقطع النقود . ٢ - الحدائق ، والحمامات ، والمدارس ، وأدوات الحرف ، والأسلحة ، ومقابر العائلات ، وبيوت الخاصة ، ومنشآت المصانع ، والملكيئات ، والورش ، وأدوات المهن المختلفة . ٣ - الاحتفالات السنوية ، المواكب ، الاجتماعات العامة ، التجمعات والأعياد المدنية ، التدريبات العسكرية ، العادات الخاصة بالجنازات وبالأزواج وبشراء العبيد وعقودهم

وبالميلاد ٤ - وأخيرا الشخصيات الهامة من مختلف طبقات السكان
أو من الاجناس الأجنبية والملابس والاسلحة التى تميزهم .

وقد سمينا ، فى الدراسات التى تشكل جزءا من هذه الموسوعة ،
الى أن نستكمل وصف مصر وتعميق دراستنا لها عن طريق مقارنة الظواهر
ومناقشتها . ولم نكن نهذف مطلقا ، من هذا المنظور الثاى ، لأن نشرع فى
بحث يقتصر على حدود محددة ، فالمرء لا يستطيع فى واقع الأمر أن يقصر
أبحاثه حول مصر مطلقا (عند حد محدد) ، فليس ثمة موضوع فى الدراسات
الانسانية أكثر من ذلك خصوبة أو أكبر اتساعا ، فإذا ما قلننا أننا قد
استوفينا مجالا ما فى هذه الدراسات فإننا نكون فى واقع الأمر قد استخفنا
به ، ولكننا اقتصرنا على وضع نظام يكفل لنا أن نعالج كافة المسائل الرئيسية،
ولهذا السبب فإن مؤلفى الدراسات قد ركزوا بحوثهم على ما يأتى :

١ - المؤسسات والنظم ، العادات والتقاليد ، الآداب والعلوم
والفنون ، نظم المتابيس والصناعة عند قدماء المصريين .

٢ - الجغرافيا القديمة والحديثة ، تاريخ مصر ، الحكومة الحالية
لهذه البلاد ، الدين ، التقاليد ، العادات العامة والأسرية ، حالة الفنون
والآداب والعلوم ، الزراعة والصناعة والموارد العامة ، الملاحة والتجارة .

٣ - طبيعة وخواص التربة والهواء والمياه من الناحية الفيزيائية ،
الحيوان والنبات والمعادن ، جيولوجية مصر .

ويشكل كل واحد من هذه الموضوعات دراسة مستقلة ، فمقد راعينا فى
هذا الجزء من الموسوعة الذى يشتمل على الدراسات ، نفس القواعد التى
تراعى فى الموسوعات الأكاديمية . وعندما قام كاتب شهير بحق بنشر نتائج
رحلاته الى مصر وإلى سوريا فإنه قد أثرى بالفعل الأدب الفرنسى بوصف
دقيق وبلغ لعادات وحكومات هذه البلدان . وقد لمسنا كيف تتطابق ملاحظاته
مع الأبحاث التى قمنا بها خلال الحملة .

وتتنمى الأبحاث التى دارت حول المباني الفلكية التى اكتشفت فى
الصعيد الى الجزء الأول من هذا المؤلف ، وإن كان نشره هو الذى تأخر .

وفى معظم الأحيان نسبت فى المقالات العديدة والمبتسرة التى أوجدها هذا الموضوع الشهير بالفعل الى كاتب هذه الدراسة آراء تخطف عن تلك التى انتوى أن يؤسسها . ان النتائج التى تستخلص من الدراسة المتأنية للنظم لن تسمح مطلقا بفهم تاريخ مصر داخل اطار تأريخ ضيق لم تستمر متابعته مطلقا فى القرون الأولى للمسيحية ، كما ان هذه النتائج ليست اقل تعارضا مما يستخلصه أولئك الذين يؤسسون على افتراضات (احوال) العصور القديمة العلوية من شأن الأمة المصرية ، ثم لا يميزون مطلقا الفترات التاريخية ، والتى تستحق بالفعل مثل هذا الوصف ، من تلك الحسابات والأرقام التى تستخدم فى عمليات التقويم .

ويوضح لنا السرد السابق ، تلك الخطة التى اتبعناها فى وصف مصر . لقد التزم المؤلفون بملاحظة أعمال الطبيعة وأعمال الإنسان التى يمكن أن يفيد فحصها فى دراسة هذه البلاد ، وقد مثلت هذه الأشياء بالرسوم أو المناظر المرسومة أو بالخرائط أو التصميمات كلما كان الأمر ممكنا لذلك ، لكن هناك عددا كبيرا من الظواهر لا يستطيع أن يقتضى اثرها سوى الحديث (أى البحث) فخصناها فى الدراسات والأوصاف التى تشكل النص ، ولم نهمل شيئا وجدناه لازما كي يكون الجانب الوصفى من هذه الموسوعة كاملا ، ولقد سهل وجود الأسلحة الفرنسية بالإضافة الى ترحيب الجنرالات وأسهم العديد من المراقبين والشهود ودقة الأدوات فى القيام بهذه الأبحاث ومع ذلك كثيرا ما قطعت هذه الأبحاث بفعل أحداث وظروف مشؤمة ، وعديد من بين هؤلاء الذين قادم الى مصر تفوتهم للفنون الجميلة ، والذين جلبت لهم أعمالهم السابقة اقبالا شديدا قد سقطوا صرعى بسبب اضطرابات كانت تتجدد دون انقطاع أو فى مخاطر شبه مؤكدة دفعتهم اليها حماسة ملتزمة ، وهلك آخرون دفعهم الى هناك شغلهم فى خدمة العلوم وألمهم فى تشريف عائلاتهم ، واختصوا وطنهم بثمار دراساتهم ، هلك هؤلاء فى شباب غض فوق هذه الأرض الغريبة عليهم ضحايا للثرد والعميان والوبئة المهلكة .

ووسط هذا الخضم من أحداث الحرب ، توقفت الأبحاث العلمية فى بعض الأحيان بسبب عراقيل لا يمكن السيطرة عليها فى حقيقة الأمر ، هكذا يمكننا أن نؤكد أن ثمة بعض أمور قد أغفلناها ، لكن هذه الأمور ليست بالهامية على الإطلاق ، ولذلك فإن المؤلف الذى نشرنا الجزء الأول منه سيقدم معرفة

مركزة وبقية عن الحالة الفيزيقية لمصر . وعن الصناعات الحالية للسكان . وعن المنشآت التي اقامها اجدادهم . وربما لم يكن هناك ، بامتداد كل الدول المتحضرة ، اى بلد آخر قد خضع لفحص أكثر تفصيلا او أكثر دقة .

وبخلاف هذا الوصف الطبيعي والتاريخي لمصر ، فقد كان بمقدور اقامة الفرنسيين في هذه البلاد ان يقدم المزيد من الفوائد والمزايا المرغوبة ، بل لقد كان بمقدور الفنون ان تكون ، في الوقت الحاضر نفسه ، قد طورت وجعلت ضللك النيل ، كما كان بمقدور الناس هناك ، بعد ان تخلصوا من ادارة عبثة وغير انسانية ، ان يتمكنوا بآمان على زراعة ارضهم وان يفيدوا من ثمار حرفتهم ، وكان يمكن للمخترعات الميكانيكية ان تحل محل قوة الانسان وتجعل اعماله اكثر يسرا وافر انتاجا ، وكان بالإمكان ان تتوطن بعض القبائل العربية في ارض أصبحت خصيبة وان يدفع الآخرون الى اعماق الصحراوات ، وان تثرى هذه الأرض الخصيبة بالنباتات والمحاصيل الاجنبية التي يمكن ان تجلب اليها او تزداد كمية ما يزرع منها ، بل لقد كان بوسع الفرنسيين ان يقيموا هناك الكثير من المصانع الثمينة ، كما كان من المستطاع اقامة علاقات طيبة مع فارس والهند والجزيرة العربية ، وعبور ووصف هذه المناطق ، بل كان سيصبح في مقدور رحالة كثيرين ان يرافقوا (وان يدرسوا) الجري الأعلى للنيل وان يتفحصوا المنشآت القديمة القائمة جنوب أسوان وفي اثيوبيا ، وأن يتوغل آخرون مع القوافل الى الواحات والى بلدان افريقيا الداخلية ، وأن نحصل على معلومات أكثر دقة حول الأنهار والجبال ومناجم الحديد والذهب وكل المنتجات الطبيعية ، والمدن ، وخاصة عناصر تجارة هذه القارة الشاسعة ، وكان من الممكن كذلك ان يتم مشروع القناة التي من شأنها ان تربط بين البحرين وبذلك يبدأ جزء من تجارة الشرق يتبع طريقا بلغ اليسر طالما رغب العالم في وجوده . . . كان يمكن ان يكون ذلك هو حل مصر اليوم لو ان قدرا مأكسا لم يحد بها الى طغاتها القدامى ، ونستطيع هنا ان نوكد ان ليس ثمة اية مبالغة في هذه اللوحة التي رسمناها للتو ، فلقد كانت السنوات الثماني التي انقضت (منذ خروجنا من مصر) كافية لكي تزود هذه البلاد (لو اننا مكثنا فيها) بالكثير من الاكتشافات والمؤسسات النافعة ، فإى شيء هذا الذي لا نستطيع ان نتوقعه من نفوذ طويل يمكن له ان ينتج عن الارتباط بفرنسا وعن التقدم المستمر لاضواء المعارف والفنون !

وعلى الرغم من أن العلوم قد شاهدت — ربما — بدء ازدهار جزء من الأمل الذي كانت في ذلك الوقت حبلى به ، إلا أنها قد خسرت المزايا الهائلة التي كانت توفرها لها الحملة الفرنسية . وتقدم لنا الموسوعة التي بدأنا اليوم نشرها ميدانا رحبا للأبحاث الأدبية والعلمية وسوف توفر أضواء جديدة عن أصل كل الفنون ، وليس لدى أولئك الذين أسهموا في وضعها ما يضيفونه إلى عظمة موضوعها .

كان عملهم يستلزم منهم فحصا مثابرا ، كما أن الحقوق التي يمكن أن تترتب لهذا العمل على الرأي العام تنتج من طبيعة موضوعه ذاتها أو من الظروف التي صاحبت تكوين عناصره ، فإذا ما نظرنا إليه من وجهة النظر هذه ، فإن هذه الموسوعة سوف تشكل مرحا هائلا للتاريخ والفنون ، كما أن هذا العمل العظيم يسهم في مجد وطننا ، ونحن مدنيون به لجهود مقاتلينا ، كما أنه يستمد أصالته من توجد العلم بالسلاح فهو شهادة وثيرة لتحالفهما ، أنه تذكار عظيم لوجود الفرنسيين في واحد من أشهر بلدان العالم ، ولكل ما فعلوه هناك من تكريم للنصر باتخاذ طريق العدل والتسامح ، مقلصين حقوق المنتصر إلى مجرد ممارسة لسلطة وصاية ، ويمكن لهذه الموسوعة أن توحى لبلاط القسطنطينية بمشروعات تدعم عودة سلطتها إلى مصر وتقيم فيها حكومة أكثر اتباعا لقواعد الحكم والإدارة ، وستظل تنقل إلى هذه البلاد أفكار وأمثاني أصدقاء الفنون الجميلة وكل الذين يتطلعون بأخلامهم وتجرد إلى تقدم المعارف النافعة

ولسوف يجد الناس في هذا المؤلف الأساسي ، مع أهميات الكتب التي رفعت اسم اليونان وإيطاليا ، لوحة أمينة للأثر المصرية ، وسيجد الناس في تناول أيديهم أعظم ما أنتجته عبقرية الفنون وأكثرها تملها ، وحين يقارن الناس هذه النماذج غلابد أن يتذكروا أنها هي كل ثمن النصر ، هكذا تقيم فرنسا أنصبتها الفكرية من أسس منجزات العصور القديمة رابطة على هذا النحو فكري انتصاراتها بكل عصور المجد التي عرفتها الفنون الجميلة .

إن مصر التي كانت تطمح لأن تجعل من مؤسساتها ومنشآتها أشياء تقاوم الفناء ، والتي تركت بها كل الفنون بصمات لا سبيل لحوها ، ستظل لوقت طويل تدفع بتلك المهابة الصارمة بل التي تتزايد روعتها ، والتي تشع من أقدم نماذج (الفن التي عرفها البشر) خفة وطيش العقل البشري وعدم

استقراره . لقد شيدت هذه الصروح من قبل أن تنشأ مدن الإغريق بقرون عديدة ، ولقد رأت هذه الآثار نشأة وازدهار صور Tyr وقرطاجة وأثينا ، وكانت تحمل بالفعل اسم « المصور المصرية القديمة » في زمن أفلاطون ، وسيظل يعجب بها أحفادنا في وقت لن يبقى فيه في أى مكان آخر على ظهر الكرة الأرضية أثر واحد لمنشآت شامخة اليوم .

وبالإضافة الى ذلك فإن البقاء الطويل لهذه الصروح لا يرجع فقط الى خواص الطقس . بل هو ناتج بشكل خاص عن جهود هؤلاء الذين شيدوها ، ذلك اننا نكاد لا نستطيع أن نعتز ، على ضفاف النيل ، على اثر لمنشآت رومانية ، ان المصريين الأوائل لم يكونوا يعتبرون جيلا وجديرا بالاعجاب بهذا المعنى ، الا ما هو قابل للبقاء وينهض على فكرة المنفعة العامة ، كان الفهم المبذون من وراء أعظم منجزاتهم هو جعل الأرض أكثر ملاءمة لصحة الانسان ، وأكثر خصوبة وأعظم اتساعا ، فتوصلوا الى تخفيف المستنقعات والبحيرات والى انتزاع اقاليم بأكملها من الصحراوات الليبية (وحولوها الى ارض زراعية) ، كما تفادوا أخطار عدم ثبات منسوب الفيضانات باحتياطات نشطة تتسم ببعد النظر وتستفهم كل اعاجيب الفنون ، فأسسوا مدنهم فوق ارضة شاسعة ، محولين مجرى النهر حسبما يترأى لهم او مقسمينه الى روافد وقنوات كثيرة ، وراوا الأرض نفسها تطل من قلب المياه (*) ، فخلتوا — بمعنى كلمة الخلق — بأنفسهم سهول الدلتا الجميلة التى سرعان ما أصبحت بالغة الثراء ، ولقد ساهم ثبات الطقس وانتظام الظواهر الطبيعية في طبع هؤلاء القوم بهذا الطابع العميق من الوتار والمثابرة والاصرار وهى الملامح التى تميز انظمتهم ، ولم يكتف هؤلاء القوم بأن يزينوا شواطئ النيل بالكثير من الصروح الخالدة بل شرعوا في اقامة أعمال بانخة في قلب الصخور التى تتاخم أراضيهم ، وهذه « المصر التحتية او الدفينة » تعادل في عظمتها عظمة أولئك الذين كانوا يتطنونها ، وهى تلك العظيمة التى اثرتها كل الفنون .

وكان المصريون يعتبرون على نحو ما خلدا كل ما كانت له صلة بديانتهم وحكومتهم ، فكانوا يتمهدون على الدوام هذه الفكرة بانشأتهم

(*) يشير هنا الى طمس النيل .

المصروح الكبرى والتي تظل على الدوام هي هي ، والتي تبدو وكأنها لا تخضع مطلقاً لفعل الزمن ، ولقد أدرك مشرعوهم أن هذا التأثير الروحي قد يسهم في دعم نظمهم ، وفي نفس هذا الاتجاه ، نقش هذا الشعب فوق قصوره ، ومعابده ومقابره ، صور آلهته وملوكه ، وملاحظاته للنجوم ، ومبائنه وحكمه المقدسة ، ومشاهد من عباداته وأعياده المدنية ، وهذه هي أقدم اثر يمكن أن يكون الإنسان قد تركه على ظهر الأرض ، وهي تنتهي الى حضارة آسيا الصارية القدم والتي سبقت كل المصور التاريخية لليونان ، وقد أوقفنا هذه الآثار على ما كانت عليه في ذلك الوقت عقول الأمم وتقليدها .

ولن يكون بمقدورنا مطلقاً أن نعجب بأثار مصر ومنجزاتها ، ولا أن نتفكر ما كانت مصر عليه في عصور مجدها ، دون أن نولى اعتباراً للآلام ونوبات الشقاء التي سببها فقدتها لاستقلالها ولقوانينها ولحارمها . وسنظل نقدر على نحو أفضل أنظمتها ، وسنظل ننظر اليها باعتبارها منبعا روحيا للإزدهار لم يكن أقل ضرورة ، في هذه البلاد ، من النهر الذي يرويهها ، وسنظل على الدوام ، وعلى وجه الخصوص ، ندرك هذه الحالة المحزنة التي تردت اليها ، على الرغم من الثراء الذي يمكن أن تجلبه اليها ، في سنوات قليلة ، ادارة أكثر حكمة .

وهكذا فإن دراسة مصر ، الخصيصة لهذا الحد بالفكرات العظيمة ، تظل تنذرنا بأن تطور العقل وتطور الصناعة انما يرتبطان باستتباب النظم ، كما تظل توضح لنا ، وعلى نحو أفضل ، ما تساويه القوانين ، وما تساويه حكومة مستقرة مستفيرة ، وستظل توحى لنا بدوافع جديدة كى نحب ذلك . ومثل هذه الدراسة لا يمكنها الا ان توحى بأفكار عادلة ومتسامية ، والا ان تغض الطرف عن البحث في البهرج التافه ، والا ان تقودنا نحو وحدة وبساطة الآراء ووجهات النظر ، ولسوف تجعلنا هذه الدراسة ندرك على نحو أفضل أن الأشياء الراسخة والقابلة للبقاء هي ذات عظمة لا تشع من سواها ، وأنه ، اذا كانت الأناقة الحاذقة للأشكال والمنجزات تسهم في التطور ، فإن فكرة الجمال الحق تحوى بالضرورة فكرتى الرسوخ والعظمة ، وستظل توضح لنا هذا المبدأ بكل جلالته ، ولابد أن تكون لهذه الفكرة سطوتها الخلاقة لى فوق وانجازات العصر .

إيضاحات

جميعنا في هذه الإيضاحات كل الملاحظات المختلفة التي تتصل بخطة هذا المؤلف أو التي يمكن لها أن ترشد القارئ عند استخدامه للأطالس ، وقد سبقت ذلك نبذة تاريخية تناولت الإجراءات التي اتخذت عند تجميع محتويات هذا المؤلف وكذلك عند نشرها

بعد عودة جيش الشرق مباشرة ، أمرت الحكومة بأن تجمع كل الدراسات والخرائط والرسوم وكافة الملاحظات التي تتصل بالعلوم والفنون والتي جيمت أثناء الحملة في مؤلف عام ينشر على نفقة الخزينة العامة ، ودعى الأشخاص الذين سبق لهم أن ساهموا في هذه الأبحاث كي يقترحوا الكتابات أو الرسوم التي ينبغي لهذا المؤلف أن يتكون منها ، وفي نفس الوقت عهد بإدارة هذا العمل إلى لجنة مكونة من ثمانية أشخاص حددهم وزير الداخلية باعتبارهم ممثلين لكل جماعة المؤلفين ، واختارت هذه الجماعة بنفسها بعد ذلك وعن طريق الاقتراع ذلك الشخص من بين أعضائها الذي يناط به كتابة المقدمة التمهيدية ، وقد عين السادة برتوليه ، كونتيه ، كوستاز ، ديجينييت ، غورييه ، جيرار ، لانكريه ، مونج أعضاء في اللجنة التي تمارس الإشراف العام على مختلف أقسام هذا المؤلف بالإضافة إلى تنظيم نفقاته واقتراحها بموافقة الوزير ، وقد حل محل السيدين كونتيه ولانكريه على التوالي السيدان جومار وجولوا(*) ، أما السيدان ديليل وديفيليه فقد ضما إلى هذه اللجنة في بداية عام ١٨١٠ .

وكان من الضروري أن يعين توميسير . سى يتولى تنظيم ومباشرة تفاصيل التنفيذ ومراعاة المصاريف ، والتنسيق بين كل أجزاء العمل ، بالإضافة إلى ترتيب المادة وفقا للنظام الذي اتفق عليه ، وعليه أن يختار الحفارين وأن يستلم منجزاتهم وأن يضمها تحت فحص اللجنة وأن يقدم

(*) اكتفيت بإيراد الأسماء هنا بالحروف العربية حيث سبق ورود كل أسماء علماء الحملة بالحروف اللاتينية في مذكرة المسيو بانكوك . (المترجم) .

كشفا بالمصاريف وبيانا بالتقدم المضطرب في العمل ، وفي النهاية لن يدير مختلف نواحي العمل في حفر وطباعة اللوحات ، وقد عين الوزير ، ليشتغل هذا العمل ، المسيو كونتيه ، الذي احدث وفاته اسفا بالغا ، فهو الرجل الذي قدم لوطنه وللعلوم خدمات لا تنسى وهو الامر الذي وجدنا ان الواجب يقتضى منا ان نذكره في مقدمتنا التاريخية . وقد خلفه المسيو ميشيلانج لانكريه ، مهندس الطرق والكبارى ، في نهاية عام ١٨٠٥ ، وكان قد لفت اليه الانتظار منذ وقت طويل بمعارنه النافذة للضلية في مجال الهندسة وفي كل غروع الفلسفة الطبيعية ، لكنه سقط صريع مرض مزمن ومؤلم عند نحو نهلية عام ١٨٠٧ بعد ان قدم امارات لا حصر لها على حياصة قل ان نجد لها نظيرا ، وحل محله المسيو جومار مهندس المساحة السابق والمشرف على المخازن العسكرية والذي خصص لهذا العمل منذ وفاة المسيو كونتيه عنايته المثيرة . وقد اختارت اللجنة المكلفة بادارة النشر ، من بين اعضائها ، وبموافقة وزير الداخلية سكرتيرا موكلا بالمراسلات العامة ، يقوم بتتوين المداولات ، وبالمراتبة المباشرة في طبع الدراسات ، وبالمساهمة مع القوميسير الخاص في جمع وتصويب اللوحات ، وعهد بهذه المهمة على التوالى الى السيدين لانكريه وجومار ، ويشغلها اليوم المسيو جولوا مهندس الطرق والكبارى ، ويشرف المؤلفون المقيمون ببباريس على حفر رسومهم بالتنسيق مع قوميسير الوزير .

كان الهدف الذى توخيناه عند وضع هذه الموسوعة ان نقدم بانتظام النتائج التى تتصل بعصور مصر القديمة ، وبالحالة الراهنة والتاريخ الطبيعى ، وجغرافية مصر ، اى بتجميع العناصر الرئيسية لدراسة هذه البلاد . وقد وزع هذا العمل الكبير بين عدد كبير من الذين اسهموا فيه ، وقد كونا عن طريق تجميع اعمالهم ، الوصف الكليل الذى كنا قد توخيناه ، وقد وجدنا من الضرورى ان يتم فحص هذا الجزء من هذه الموسوعة عن طريق المؤلفين مجتمعين ، وليست هناك دراسة واحدة لم تعرض بشكل منفصل امام الجمعية العامة حيث خضعت هناك لمداولات متتالية . وكان الغرض من هذه المناقشات العلمية ضمان دقة الوقائع ، واستبعاد او تصويب الاعمال المحرفة او غير الدقيقة : واعطت هذه المناقشات لاولئك الذين قبلت اعمالهم نوعا من الاصاله او التوثيق فلك انه لم يسمح بالنشر لاي من هؤلاء الا بعد ان نالوا الموافقة في اقتراح ، وبغالبية الاصوات . لكن هذا الفحص

لم يكن ليبتد مطلقا كى يتناول الافكار التى تبناها مؤلفو الدراسات أو الى النتائج التى استخلصوها من أبحاثهم ، ومع ذلك فلا ينبغي ان نرتب على ذلك ان جماعة المشاركين كانت تشاطر على الدوام هذه الآراء ، أو حتى كانت تشاطر هذه الآراء تلك اللجنة التى كانت تتولى نشر الاعمال .

ولسوف نضمن الجزء الأخير من وصف مصر قائمة بأسماء كل الذين سيسهمون فى هذه الموسوعة ، وعندئذ فقط يمكن لنا القول بأننا قدمنا قائمة عامة ودقيقة ، وستحل هذه القائمة الشاملة محل تلك القوائم الجزئية التى ستلحق بكل جزء ، وسوف نضيف كذلك أسماء المشاركين الذين أوقف الموت أعمالهم اما بعد رجوع جيش الشرق واما خلال الحملة .

ولقد سهل من انجاز هذه المهمة الكبيرة تلك الرعاية المستمرة من جانب الحكومة ، ولقد قدمت هذه الرعاية الكثير من التشجيع الى الحفارين الفرنسيين حين سمعت الى اسهام منتظم ومواظب لعدد كبير من الفنانين ، كما أدت هذه الرعاية فى النهاية الى اشواط جديدة فى تقدم هذا النوع من فن الرسم ، وقد اكتسب حفر الخرائط الطبوغرافية ولوحات التاريخ الطبيعى ، وبشكل خاص لوحات العمارة ، درجة من الانتان لافتة للنظر ، وسيجد الناس فى هذا الانجاز نماذج كثيرة من العمل بالغة النقاء وبالغة التمام ، وعند التدريب على كيفية التعبير عن الطابع العظيم الذى للمباني المصرية ، تكون فنانون شبان ، تميزوا بالفعل بمواهب نادرة .

وقد استخدمنا كذلك اساليب جديدة عند طباعة اللوحات، وقد طورنا من صناعة الورق القضييم ، واقتضى الامر ان ننشئ مكابس ذات ضخامة لم تكن مستخدمة من قبل ، وفى الواقع فان حجم الآثار المصرية التى التزمنا بنقلها جميعا بنفس النسبة (نسبة حجم الرسم الى الأصل) كان يتطلب من الورق المخصص لطبع اللوحات أحجاما غير عادية . وقد قمنا بجهود ناجحة لتطوير هذا الفرع من غروع الصناعة الفرنسية ، وتضارعت المنتجات التى حصلنا عليها منتجات المصانع الأجنبية بل تتفوق عليها . ومن بين كل النتائج الجديدة التى أنجزها هذا العمل ، والتى لم تكن الفنون فى فرنسا قد عرفت تطبيقا لها ، فأتينا ندین بأكثر هذه المنجزات نفعا لكفاءة المسيو كونتيه الخلاقة وموهبة الاختراع لديه ، ولم يكن من المستطاع التعبير عن صفو سماء مصر الا بواسطة ألوان بالغة الانبساط تخضع لدرجة من النصول أو التدرج

مستوية ، كما كان يلزم لرسم المساحات المساء والفسحة التي تستخدم أرضية للرسوم البارزة المصرية أن نستخدم صبغات متساوية يمكن لها أن تنتج عند النظر اليها من مسافة قريبة نفس التأثير الذي للتصوير المثلثي ، وقد توصلنا الى حفر السلوات والأرضيات بمعونة ماكينة استعضنا بها من عمل طويل وباهظ التكاليف . وقد تفوق جمال الانجاز على كل ما كنا لنتنظره من فنان متمرس ، وهكذا زدنا استخدام هذه الاداة ، التي كانت كذلك عوناً كبيراً لنا على انجاز لوحات العمارة ، بنتائج بالغة التمام ، كما أدت الى توفير هائل في نفقات الحفر وفي الوقت كذلك .

وبالإضافة الى الخرائط الجغرافية التي انجزناها الآن كلها وان كان نشرها قد تأخر فإن اطللس وصف مصر يحتوى على أكثر من ثمانمائة لوحة ، لم تمثل فيها على الاطلاق ، وبشكل مستقل ، أمور ضئيلة الاهمية ، بل على العكس من ذلك فقد جمعنا على نفس الورقة أكبر عدد ممكن من الرسوم وزعت عليها بانتظام وسيتمرية ، وقد نجحنا في ان نعطي شكلاً موحداً ومتناسقاً الى كل يتألف من الوف الأجزاء ، كما أسهم فيه عدد كبير من الأشخاص .

ولهذا فإن هذه الموسوعة ينبغي ان تعد عملاً مخصصاً للدراسة وليست عملاً من أعمال الترف ، كما ان نمط الجمال الذي كان يناسبها كان يمكن في التنفيذ الدقيق والصحيح ، وفي الواقع فإن هذا هو الطابع الخاص الذي توخينا ان نعطي له ، بالإضافة الى أننا لم نستبعد شيئاً يمكن له ان يسهم في دقته ، ثم ان حرصنا على ان نجعل دون اضطراب كل الأشياء التي من نفس النوع قد تطل بدرجة هائلة من النفقات ومن عدد اللوحات ، كما سمح لنا بأن نضمن هذا الاطللس أكثر من ثلاثة آلاف رسم خالص .

كنا نحفر مائة لوحة على مدار العام ، وقد تطلبت غالبية الأعمال من نفس النوع والتي نشرت حتى اليوم فترة أطول من الزمن ، على الرغم من أننا لا نستطيع ان نضعها موضع المقارنة مع عملنا الحالي سواء من حيث حجم أو عدد الموضوعات التي تكون اللوحات ، وانما لندين بشكل أساسي بهذه النتائج العظيمة ، والتي ما كنا بتقديرين على الوصول اليها دون دعم ظروف غير اعتيادية الى السلطة الحالية التي ترمي اليوم وتساعد على تقدم الفنون الجميلة والتي تبعث الهمة والنشاط في كل ادارات الحكومة الفرنسية.

اتقسام المؤلف

يفكون وصف مصر من ثلاثة أقسام اشترنا اليها بالاسماء الآتية :

- ١ - المصنور القديمة .
- ٢ - الحالة الحديثة (أو الدولة الحديثة) .
- ٣ - التاريخ الطبيعى .

واتبعنا فى التقسيم الأولين نفس ترتيب الأماكن ذاهبين من الجنوب الى الشمال بدءا من جزيرة فيلة حتى البحر المتوسط ، ومن الشرق الى الغرب بدءا من بيلوز (بالوطة) حتى الاسكندرية ، كذلك فى التاريخ الطبيعى ، فاننا بالمثل قد رتبنا المعادن من الجنوب الى الشمال ، أما بقية الأقسام فقد وضعت فى شكل عائلات . وتشتمل المصنور القديمة على كل الآثار المسابقة على دخول العرب الى مصر . أما ما هو لاحق بذلك فيشكل الدولة الحديثة أو الحالة الحديثة (لمصر) .

ولكل واحد من هذه التقسيمات الثلاثة عدة مجلدات للوحات ، وعدة مجلدات كذلك للنصوص التى تقابلها .

من اللوحات مكونات المجموعات

يشتمل المجلد الأول من اللوحات بخلاف جزيرة فيلة كل البلدان الواقعة فيما بين الشلال الأخير ومدينة طيبة . فيضم أسوان والشلالات ، الفاتنين ، كوم أمبو والسلسلة ، ادفو ، الكلب (وهى *Elethya* القديمة) ، اسنا ، أرمنت ، ويتكون المجلدان الثانى والثالث من المصنور القديمة لطيبة وحدها ، ويشتملان على البرديات والرسوم والأشياء الأخرى التى وجدت فى المقابر . أما الرابع والخامس فيشتملان على المباني الأثرية الواقعة الى الشمال من طيبة ، شاملة : دندرة ، إبيدوس ، أنتيوبوليس ، هرموبوليس ، ماجنا ، أنتينوى ، الفيوم ، الأهرام ، ممفيس ، الكهوف ، آثار هبتا نوميدي ، مصر السفلى ، هليوبوليس ، كاتوب ، الاسكندرية ، تابوزيريس (*) .

(*) وهذه المدن والأماكن هى حاليا : دندرة ، العراية المدفونة ، قلو الكبير (مركز طهطها) ، والأشمونين (مركز ملوى) ، خرائب بالقرب من نزلة الشيخ عبادة ، الفيوم ، الأهرام ، ميت رهينة ، الكهوف ، بنى حسن ، الوجه البحرى ، عين شمس ، أبو قير ، الاسكندرية ، لكن تابوزيريس اندثرت وكانت تقع الى الغرب من الاسكندرية . (المترجم) .

وضمننا اليها المجموعات الميروغليفية والنقوش والنقود والفخاريات والتماثيل والعمادات الأخرى .

ويشتمل المجلد الأول من الحالة الحديثة على مصر العليا ومصر الوسطى والقاهرة ومصر السفلى وأخيرا برزخ السويس وضواحيه . ويشتمل المجلد الثانى على الاسكندرية ، ومجموعات الحرف والفنون ، ومجموعات الملابس والوجوه (الشخصيات) ، ومجموعة الفخاريات والأثاث والأدوات ، وأخيرا مجموعة النقوش والنقود والميداليات .

وتتكون مجلدات التاريخ الطبيعى من الثدييات والطيور والزواحف والأسماك النيلية ، وأسماك البحر الأحمر ، وأسماك البحر الأبيض ، والحشرات فى كل من مصر وسوريا ، والرخويات والديدان ، والمرجانيات والنباتات ، وأخيرا صخور وحفريات مصر وشبه جزيرة سيناء .

أما عن الأطلس الجغرافى لمصر ولسوريا فانه يشكل فى هذا المؤلف قسما خاصا . وقد توزعت اللوحات بالنسبة للأمكنة ، تبعا للترتيب التالى الذى راعيناه بشكل أساسى بخصوص العصور القديمة :

- ١ — خرائط عامة وطبوغرافية .
- ٢ — مشاهد الجبال فى حالتها الراهنة .
- ٣ — خرائط خاصة بالمباني ، تطلعات طولية وعرضية .
- ٤ — تفصيل معمارية .
- ٥ — نقوش بارزة ، رسوم ، تماثيل ، زينات ، الخ .

وقد رأينا فى بعض الأحيان ان من الضرورى ان نصيف منظورات مرممة .

وبخلاف أعمال الحفر التى تمت، فقد وضعنا فى اللوحات تفاصيل مخفورة فى شكل خطوط ، أما لأنها تكنى فى بعض الحالات ، وأما لكى نحتفظ لها بأكبر قدر من الدقة الممكنة ، وهو أمر كان بالغ الأهمية بالنسبة للنقوش الميروغليفية ، وقد نشرنا أيضا ، فى شكل خطوط ، لوحات المباني الفلكية ، منفصلة عن أعمال الحفر التى تمت .

عن العنواين وعن البيئات

التي توجد فوق اللوحات

تحمل كل لوحة في الزاوية العليا الى اليسار واحدة من ثلاث علامات :
A ، E.M ، H.N (*) ، يليها رقم المجلد مكتوبا بالأرقام
الرومانية .

وفي الزاوية العليا الى اليمين نجد رقم اللوحة مكتوبا بالأرقام العربية .
وفي الجزئين الأولين من المؤلف ، اللذين تقسما تبعا للأماكن ، يوجد
في الرأس ، وعند منتصف اللوحة اسم المكان . وهذا الاسم مزدوج فيما
يختص بالمصور القديمة ، الاسم الأول هو الاسم الحالي للبلد والثاني هو
اسمه اللاتيني ، أما اذا كان البلد يحمل اسما استمدته من لغتنا فكنا نكتفي
بهذا الاسم وحده ، وقد أخذنا الأسماء اللاتينية عن كتاب مصر القديمة
AE gyptus Antiqua من تأليف دانفيل d'Anville

أما في ذلك الجزء من هذين القسمين من المؤلف والذي لم يرتب وفقا
لترتيب الأماكن وإنما تبعا للمجموعات ، فقد وضعنا في موضع اسم المكان
عنوانا يدل على نوع هذه المجموعة ، وقد جمعت اللوحات التي تنتمي الى
هذه المجموعات نفسها في شكل سلسلات متتابعة ، وقد توضح الترتيب
بالأرقام الرومانية او بحروف .

أما العنوان المكتوب في أسفل كل لوحة فيدل بشكل مختصر على الآثار
أو الأشياء المرسومة ، ولكي نتعرف بالتفصيل على موضوع ومختلف أجزاء
الحفر ، فلا بد أن نلجأ الى شرح اللوحات .

وعندما تتكون لوحة ما من عدة اشكال ، فإن كل شكل يحمل رقما يحيل
الى شرح اللوحات .

وقد بينا في المشاهد المرسومة او المنظورات كل واحدة من النقاط الهامة
بواسطة نفس الرقم المثبت على الجانبين المتجاورين من اللوحة عند الطرفين
الأعلى والرأس ، اللذين يبران بهذه النقطة .

(*) أى على التوالي : العصور القديمة Antiquités ، الدولة
الحديثة Etat Moderne ، التاريخ الطبيعي Histoire Naturelle

عن مقاييس الرسم المستخدمة في اللوحات

نجد على معظم اللوحات مقاييس للرسم : أحدهما على اليمين مقسما حسب نظامنا المترى ، والآخر على اليسار حملا للمقاييس الفرنسية القديمة .

واستخدمنا في رسوم المباني الأثرية مقاييس رسم مشتركة حتى تمكن المقارنة بسهولة بين كل الأحجام ، وقد اخترنا بالنسبة للجزيئين الأولين من المؤلف المقاييس الآتية وهى التى اتبعناها بالنسبة لكل المباني .

كان المقياس المستخدم فى التصميمات هو . $\frac{1}{2}$ م لكل متر أى ١ : ٤٠٠ ، أما مقياس القطوع الطولية أو العرضية فهو ١ سم لكل متر (أى ١ : ١٠٠) ، أما بخصوص تفاصيل العمارة والنحت فقد تبيننا مقاييس أكبر تتناسب مع نوع ومساحة الأشياء المرسومة .

وكان من الضروري فى الخرائط العامة أو الطبوغرافية أن نستخدم مقاييس رسم مختلفة تتفق كلها مع النظام المترى الفرنسى .

وبخصوص أعمال الحفر التى تناولت البرديات وقطع النقود فقد احتفظنا لها بنفس أحجامها الأصلية ، ونفس الأمر بصفة عامة بالنسبة لموضوعات التاريخ الطبيعى .

وعندما يوضع مقياس الرسم فى أسفل اللوحة ، وفى هذه اللوحة نفسها فقط دون أن يحمل تحديدا لى شكل فإن هذا المقياس يختص باللوحة كلها ، أما حين يوضع مقياس الرسم أسفل شكل ما ، فإنه لا يختص إلا بهذا الشكل ، وعندما نجد بعض اختلاف بين جدول المقاييس وبين المقاييس التى أخذت عن الرسم فلا بد لنا أن نعتد على الأولى ، فمن المعلوم أن انكماش الورقة عند الطبع يقلل المقاييس بنسبة ١ : ١٠٠ .

عن القطع (*) أو عن المقاييس

عبرنا عن المقاييس التى حفرت على اللوحات بالمتر وبأجزاء من المتر ، وتدل الفصلة أو النقطة على عشرينات المتر .

ولكى نحدد طرفى المسافة التى قيست ، عملنا خطوط اتصال بالغة

(*) القطع Cote هو رقم يوضع على رسم ما ليدل على مساحة أو على فارق الارتفاع بين نقطتين .

الدقة كتبنا نمينا بينها القطع (الرقم الدال على المساحة او فارق الارتفاع) ،
وحين يكون الفراغ واسما بعض الشيء ، كنا ننقط جزءا من الخط المرسوم
ويوضع القطع بين المسافة التى يمر هذا القطع عن أطوالها .

أما فى القطوع الطولية والعرضية ، فقد وضعنا انقطع الأنتى فى بعض
الاحيان بجانب الفراغات التى يدل على قياسها ، ولكى نبين قطر احد الأعمدة
كنا نكتب diam ولكى نبين المحيط كنا نكتب Circ .

ولتحديد اتجاهات الخرائط الطبوغرافية او تصميمات المباني ،
نستخدمنا خط الزوال المغناطيسى ، وتنتمى الدرجات الموضحة الى التقسيم
السنينى .

أما مجسلات الموانى وجداول المسح (او التفدين) فقد عبرنا عنها
أما بالأقدام واما بالامتر تبعا لنوع المقاييس المستخدمة عند القيام بهذه
العملية او تلك .

بيانات أخرى

فى الكلمات المكتوبة على الخرائط العامة استخدمنا الحروف الكبيرة
Capitales لتعيين أسماء المدن والضواحي والمباني الأثرية والأشياء
القيمة ، واستخدمنا الحروف الرومانية (الصغيرة) للقرى والخرائب والمباني
المتنوعة ومخلفات العصور القديمة ، والحروف المائلة Italiques
والعادية السريعة Cursives لبيان اختلافات الارتفاعات كالجبال
والطرق والرمال والانتقاض الخ .

وفى هذه الخرائط العامة نفسها ، وفى اللوحات الخاصة بالمعمارة ،
تدل الحروف الكبيرة المتباعدة على المباني الأثرية الرئيسية عادة وعلى النقاط
التي أخذت منها المشاهد المرسومة والمنظورات ، واستخدمت هذه الحروف
كذلك فى لوحات المعمارة عند تحديد خطوط القطع ، وتبين الحروف الرومانية
والمائلة مكان تيجان او قمم الأعمدة والنقوش البارزة ومختلف التفاصيل
المعمارية . ونجد دلالات هذه الحروف والأرقام المتباعدة فى شرح اللوحات
Explication des Planches

ولم نستخدم فى خريطة الآثار المصرية الا قطعا واحدا ذا لون بالغ الخفة
لكى نبين الأجزاء المنخفضة مثل الجدران التى بين الأعمدة ، واستخدمنا
تطين بلون شاحب للإشارة الى الأجزاء التى رسمت بأكملها ، ويبين تطين

أكثر قنامة تلك الأجزاء التي تهدمت والتي لا زلنا نرى أسسها ، وأخيرا فإن اللون الأسود المتلوى يشير إلى الأجزاء التي لا تزال قائمة . وقد رسمت المنشآت والمباني الجرانيتية في الخرائط بواسطة قطوع متلوىة بالقطر .

وقد صنعت أوراق لوحات هذا المؤلف بثلاثة أشكال (موزعات) خاصة ذات أطوال مختلفة وإن كانت ذات عرض متساو ، بحيث تتفق هذه الأشكال المختلفة على اختلاف أطوالها في عرض يبلغ ٢٦ بوصة أو ٧٠.٤ متر .

أما الشكل الأول وهو أكثرها شيوعا ويتفق مع نفس أطوال الأطلس الكبير ، فتبلغ أطواله ٢٠ على ٢٦ بوصة أو ٥٤١ متر من المتر على ٧٠.٤ منه . أما الثاني فتبلغ أطواله ٤٠ بوصة على ٢٦ أو ١٠٨٣ متر على ٧٠.٤ من المتر . وتبلغ أطوال الثالث ٥٠ بوصة على ٢٦ أو ١٣٥٤ متر على ٧٠.٤ من المتر . وزيادة على ذلك يوجد حجم غير عادى تبلغ أطواله ٤٢ بوصة على ٢٠ بوصة أى ١٠٣٧ متر على ٨١٢ من المتر .

وفي أسفل كل لوحة ، أو كل شكل ، إلى اليسار ، حفر اسم المؤلف الذي قام بالرسم ، أما اسم الحفر فيوجد دائما على اليمين أو في الوسط .

من النص

يشتمل النص على دراسات وأوصاف وكذلك على شروح منفصلة للوحات وللأطلس . والغرض من شرح اللوحات هو تسهيل استخدام الأطلس ودراسة ما رسم فيه ، وتحتوى هذه الشروح على تفاصيل لم يستطع الحفر أن يعبر عنها ، وقد ميزنا فيها أجزاء الزينة التي رسمت في رسوم الصلابة ، كما بينا دواع هذا الترميم ، وينبغى اللجوء إلى اللوحات التفصيلية لدراسة النقوش الهيروغليفية التي جمعناها من أماكنها ، وقد ضمناها وطبعناها بحروف صغيرة ملاحظت تصوب أخطاء الحفر أو ما استبعد هذا الحفر . وفي بعض الأحيان أخطأنا في شروح اللوحات ملاحظت لم يتيسر أن نجد لها مكانا في الأوصاف .

ويحمل القسم الأول من النص عنوان « أوصاف » Descriptions

وهو يتبع ترتيب الأمكن على نفس طريقة مجلدات اللوحات ، أما القسم الثاني فيحمل اسم دراسات (أو مذكرات) Mémoires ، ويشكل مجلدات منفصلة .

وتشكل أوصاف المدن ومباني الآثار عددا من الفصول تماثل عدد الأماكن الموصوفة والرسومة ، والفرض من هذه الأوصاف هو التعريف بالحالتين القديمة والراهنة للأماكن ، وقد صحت هذا الوصف ملاحظات تاريخية وجغرافية .

أما الدراسات أو المذكرات فهي عبارة عن البحوث والمقالات التي كتبت عن موضوعات علمية أو خاصة ، مثل : الحالة الفيزيائية لمصر ، تاريخ وجغرافية البلاد ، الفريضة والتقاليد ، الديانة واللغة والفلك ، الفنون أي الحرف والزراعة ... الخ . عند المصريين القدماء والمحدثين ، وقد ضمت هذه الدراسات الى بعضها البعض دون أن تتبع في ذلك ترتيبا محددا كما يحدث في الموسوعات الأكاديمية ، فقد فضلنا الفائدة التي تعود علينا من اعداد جدول للمواد بشكل أسهل عن تلك التي تعود علينا من جراء التقسيم المنهجي لهذه المواد .

وقد قسمت الدراسات والأوصاف ، مثلها مثل اللوحات الى ثلاثة أقسام ، تتفق مع نفس تقسيم اللوحات ، وميزت بالحروف A (للمصور القديمة) ، و E.M (للحالة الحديثة لمصر) و H.N (للتاريخ الطبيعي) . وقد وضعت هذه الحروف أسفل الصفحات على يسار الوجه الأول لكل ورقة ، و أضفنا الى ذلك الحرف D للدلالة على الأوصاف ، أمثلا A.D تعنى « المصور القديمة — أوصاف » .

عن النسق الإملائي المتبع بالنسبة للكلمات العربية(*)

خضعت عملية نقل الكلمات العربية الى كتابتها بحروف فرنسية لصعوبات لم نستطع التغلب عليها بشكل نهائى ، لأنها ناتجة عن اختلافات أساسية في النغمات الخاصة بكلا اللغتين ، ومع ذلك فقد أمكننا أن نعبر

(*) على الرغم من أنه قد لا يكون في ترجمة ذلك ما يفيد القارئ العربى الا أننا نقدمه هنا التزاما منا بالنص الأسمى الكامل من جهة ، وللوقوف على بعض المشاكل التي واجهت علماء الحماة وكيف حاولوا التغلب عليها من جهة أخرى (المترجم) .

بفئة كانية بعض الشيء عن النطق الصحيح للكلمات العربية ، مع اننا لم نستخدم الا وسائل بسيطة للغاية ، ودون ان نلجأ الى استخدام علامات لم تكن تستخدم من قبل ، وقد اتبعنا نظاما موحدا للاملاء ، القصد الرئيسي منه ان نزود الرحالة بوسيلة مؤكدة تجعلهم يتعرفون على الكلمات عند سماعها تلفظ في البلاد .

وقد قررنا فيما بيننا الا نستخدم سوى حروف هجائنا ، واحتفظنا في كل كلمة بالحروف الساكنة الاصلية ، وتنادينا استخدامها لا جدوى منه للحروف المضعفة (بشدة فوق العين) وهذه تغير على نحو طفيف من النطق ، ولم نستخدم الا حرفا واحدا لكل الانواع المختلفة من حروف :

d, h, s, r, t, z

وهي اصناف من الحروف لا تختلف في مصر الا بضخامة او رقة نطقها (اى ان حرف d يمكن ان ينطق دالا او ضادا ، و h يمكن ان يلفظ هاء او حاء وهكذا) ، وقد استخدمنا فقط تكوينين (اى حرفين من اللغة الفرنسية مقابل حرف واحد من العربية) هما gh مقابل الـ r اللانثثة (اى الفين) والـ kh التى تشبه نفمها ch فى الالمانية او ll . فى الاسبانية (وهى الخاء العربية) كما استخدمنا علامة الحرف (r) apostrophe موضوعة على يمين حرف متحرك للتعبير عن الفمسة الحلقية للحرف q مكتوبا وحده للإشارة على الـ k المضعفة (القاف العربية) والتى اعتاد المصريون ان يلفظوها على شكل فجوة لفظية بين حرفين متحركين (اى يلفظونها كالهزة) ، ولم نتمكن من الاستغناء عن اللجوء الى علامات متفق عليها للتعبير عن هذه الحروف الاربعة الساكنة والتى هى غريبة تماما على لغتنا ، وقد تبيننا هذه العلامات لانها جاءتنا منذ زمن بعيد عن طريق اناس متخصصين فى اللغات الشرقية ، اما الحروف الاخرى ، سواء كانت ساكنة او متحركة او مضعفة او مشككة فينبغى ان تلفظ كما فى حروف هجائنا ، وعلى سبيل المثال لن ey وهى تماثل تماما حرف الالف (المكسورة) بالعربية او تماثل الهزة متبوعة بالياء (اى) تاخذ عندنا نفس نفمة ه كما فى التركيبات bey, dey ، وفى اسماء اعلام اخرى معروفة فى فرنسا ، وتلفظ كلمة السويس كما لو كانت Souès نكتبها نحن Soueyس واحيانا Suez حسب الاستخدام الشائع .

ويجب أن نلاحظ أن كل الحروف سواء كانت هي الحروف الأولى أو الوسطى أو الأخيرة تلفظ بطريقة ثابتة فحرف الشين Ch يلفظ على الدوام شينا كما في كلمة branche ، وتلفظ السين دائما سينا كما في كلمة sage وتلفظ الهاء h بنفس الطريقة في بداية الكلمة أو وسطها ، لكنها لا تكاد تلفظ مطلقا إذا كانت في نهايتها ، وينبغي أن نلاحظ كذلك أن حرف الجيم يلفظ (غير معطش) في مصر كما تلفظنا نحن في كلمة gain . وإن كان العربان يلفظونها معطشة كما نلفظ نحن في لفتنا dj وعلى سبيل المثال فإن كلمة جدة تلفظ في مصر كما نقول نحن gueddah وتلفظ في الجزيرة العربية كما نقول نحن djaddah .

وعندما تكون أداة التعريف الـ متبوعة باسم أو بموصوف يبدأ بأحد الحروف التي يطلق عليها شمسية وهي : ش ، د ، ن ، ر ، س ، ت ، ز ، فلا بد عند النطق أن تلفظ هذا الحرف الساكن (مشددا) عوضا عن اللام الموجودة في أداة التعريف مثال ذلك : الـ سمك ، الـ شيخ الخ فتلفظان اسمك (مع شدة على السين) وأشيخ (مع شدة على الشين) .

أما بخصوص الأسماء التي كان استعمالها قد شاع من قبل في فرنسا فقد وجدنا أن من الأفضل بالنسبة لنا أن نحفظ لها بشكلها المألوف لنا عن أن نكتبها بالشكل التي تكتب به في العربية : وهكذا لم نكتب مطلقا في اللوحات (أو حتى في النص) أسماء مثل الطينة ، اسكندرية ، ميت رهينة ، جزيرة أسوان ، رشيد .. الخ ولكننا كتبنا :

Peluse, Alexandrie, Memphis, Elephantine Rosette etc

أما في كلمات ملوك Memloulk ، شيخ Cheykh ، وزير Viatr سلطان Sultan ، وكلمات أخرى مشابهة فقد حرصنا على وضع الـ S المائلة في نهايتها تعبيرا عن الجمع ، أما بخصوص الأسماء الوصفية الأخرى مثل فلاح fellah وملتزم moultzim الخ فقد كتبناها في الجمع بدون أن نضع هذه الـ S المائلة .

الحروف الفرنسية مقابلة بالحروف العربية

d	ط	a é i	(١) ا
r	ر	b	ب
x	خ	t	ت
s .	س	t	ث
S , ç	ص	t	ظ
ch	ش	g	ج
i	ع	h	ح
gh	غ	h	هـ
f	ف	kh	كـ
q	قـ	d	دـ
k	كـ	d , z	ذـ
l	لـ	d	ضـ
m	مـ	o	(٢) و
n	نـ	y	(٣) يـ

وعلى العموم فقد عبرنا عن الفتحة بالحرف • (كذا) والكسرة بالحرف • أو ا تبعا للنطق الشائع ، وعندما تتبعه الياء • ٧٦ فأتنا لم نعبر عن ذلك ، كذلك ، فأتنا لم نلق بالالف للشدّة أى العلامة الدالة على تضاعف الحرف بالنسبة لحروف الشين ch والفخين gh والفاء kh والواو ou والياء ٧ كما أتنا لم نعبر عن التفسيرات الأخرى الخاصة بالحروف الهجائية العربية إلا اذا كانت محسوسة من الآن في النطق الشائع أو العامى .

(أنتهى بحون الله)

- (١) عندما تكون الألف في البداية فأتنا نعبر عنه بنفس هذه الحروف بحون وضع العلامات • هـ .
- (٢) يتحول هذا الحرف نفسه عندما تلحق به ألف الى oo كما في كلمة ادفو (كذا) Edfo
- (٣) يعبر عن الياء الغنائية بوضع نقطتين فوق حرف • (الألف المتصورة) كما في كلمات مثل كبرى واحدى .

الفهرس

الكتاب الأول : دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر	
الحدثين تأليف شابرول	٥
مقدمة	٧
الفصل الأول : لمحة عامة عن الطقس وعن السكان وعن	
عادات وتقاليد المصريين :	١٣ — ٥٠
عن الطقس ١٥ ، عن السكان وطبقاتهم المختلفة ١٨ ،	
عن الأديان المختلفة ٢٢ ، عن الأقباط بشكل خاص	
٢٤ ، عن العربان على وجه الخصوص ٣١ ، عن	
الممالك وعن الأجانب الذين استوطنوا مصر ٣٥ ،	
عن العادات والتقاليد بشكل عام ٣٧ ، عن الأمراض	
الرئيسية ٤٧ .	
الفصل الثاني : عن الإنسان المصرى في سنوات عمره	
الأولى ، الطفولة والتربية ، الفنون والعلوم	
والآداب :	٥١ — ٧٦
عن خصوبة المرأة ونظام الرضاعة ٥١ ، الختان ٦٢ ،	
التعليم الأولى ٦٣ ، العلوم والفنون ٦٧ ، الأدب	
والشعر ٧٠ .	
الفصل الثالث : عن الإنسان المصرى في طور الرجولة ،	
العادات الخفية والأسرية :	٧٧ — ١٤٨
عن الزواج ٧٩ ، الانفصال والطلاق ٨٥ ، الطلعم	
٩٢ ، الملابس ٩٧ ، التقاليد والعادات العامة ١٠٥ ،	
الطباع ١١٥ ، عن الماشية والخيول وكافة دواب	
الحمل ١١٨ ، تقاليد عربان البحيرة ١٢٢ ، الحملات	
العامة ١٣٤ ، المقاهى ١٣٨ ، الرياضة والألعاب	
١٤١ ، الأعياد الدينية ، المبادئ الرئيسية للعبادة	
الإسلامية ١٤٥ .	
الفصل الرابع : الإنسان المصرى في طور الشيخوخة ،	
الموت والجنائزات	١٤٩ — ١٦٨
عن احترام الشيخوخة ١٥١ ، الجنائزات ١٥٥ ،	
المقابر ١٦٠ ، الحداد والندابات ١٦٥ .	

الفصل الخامس : الفلم والمؤسسات ١٦٩ — ٢٢٨
 رجال الشريعة والقضاء ١٧١ ، الأعياد الدينية ،
 المبادئ الرئيسية للعتيدة الاسلامية ١٧٦ ،
 الحكومة ١٨٦ ، القضاء ١٩٣ ، عن الحقوق المدنية
 الملكية ٢٠٢ ، عن الرق وعن العتق ٢٠٨ ، الوصاية
 النركة — الشهود ٢١٢ ، عن الدين وعن الاقتراض
 بالريا ٢١٦ ، عن الزنا وعن الاغتصاب ٢١٩ ، عن
 السرقة والقتل وعن القصاص ٢٢١ .

الفصل السادس : عن التجارة والصناعة والزراعة . ٢٢٩ — ٢٦٦
 تجارة مصر منذ المصور القديمة وحتى اليوم ٢٣١ ،
 عن حالة الصناعة ٢٥١ ، عن الزراعة وعن
 الفلاحين ٢٥٦ ، عن الحرف ٢٦١ .

الملحق : نبذة عن الحفل الذى يقام عند مولد الاطفال
 ٢٦٩ هـ جهل المصريين والنوبيين بخصوص رسم
 الصور الانسانية ٢٧٠ هـ عن الاماى او سحره
 الثعابين ٢٧١ .

الكتاب الثانى : دراسات تكميلية ٢٨٥
 مذكرة السيونتوكوك بخصوص اعادة طبع وصف
 مصر ونص الرسوم الملكى الصادر من لويس ١٨
 بهذا الخصوص ٢٧٧ — ٢٨٢

**الدراسة الاولى : دراسة موجزة حول البنية الجسدية
 للمصريين تكليف البارون لارى ٢٨٥ — ٢٩٤**

**الدراسة الثانية : مصر .. والحلة الفرنسية ، مقبحة
 تاريخية بقلم السيوفورييه ٢٩٥ — ٢٧٢**

كتب أخرى للمترجم

أولاً : فى مجال الأدب :

- ١ - المطاردون (مجموعة قصص قصيرة).
- ٢ - حكايات من عالم الحيوان.
- ٣ - المصيدة (مجموعة قصص قصيرة).
- ٤ - موتى بلا قبور (مسرحية تأليف جان بول سارتر).
- ٥ - السماء تمطر ماءً جافاً.
- (رواية تسجيلية تتناول وقائع الوحدة المصرية السورية وانفصالها).

ثانياً : فى مجال التاريخ :

- ١ - تطور مصر من ١٩٤٢ إلى ١٩٥٠، تأليف مارسيل كولمب.
- ٢ - فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية. تأليف أندريه ريمون.

ثالثاً : الترجمة العربية الكاملة لموسوعة وصف مصر :

- تأليف علماء الحملة الفرنسية .
- ١ - المصريون المحدثون.
 - ٢ - العرب فى ريف مصر وصحراواتها.
 - ٣ - دراسات عن المدن والأقاليم المصرية.
 - ٤ - الزراعة، الصناعات والحرف، التجارة.
 - ٥ - النظام المالى والإدارى فى مصر العثمانية.
 - ٦ - الموازين والنقود.
 - ٧ - الموسيقى والغناء عند قدماء المصريين.
 - ٨ - الموسيقى والغناء عند المصريين المحدثين.
 - ٩ - الآلات الموسيقية المستخدمة عند المصريين المحدثين.
 - ١٠ - مدينة القاهرة - الخطوط العربية على عمائر القاهرة.

رابعاً : لوحات موسوعة وصف مصر :

١ - المجلد الأول والثاني للوحات الدولة الحديثة.

٢ - المجلد الأول من لوحات الدولة القديمة.

خامساً : من موسوعة وصف مصر :

(دراسات مختارة من الموسوعة فى كتيبات)

١ - كيف خرج اليهود من مصر القديمة.

٢ - مدينة الإسكندرية.

٣ - مدينة رشيد.

رقم الإيداع / ١٤٩٠١ / ٢٠٠٢

لترقيم الدولي / I.S.B.N.977-01-8072-2



تمت الطباعة بالتعاون مع
شركة نهضة مصر للطباعة والنشر